مِنْ توجيهاتِ

الإسلام

الطبـعـة السـابعـة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
الطبـعـة الثـامنـة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

الإمام الأكبر

محمود شلتوت

مِن توجيهات



دار
الشروق



مقدمة المؤلف

باسم الله نستعيذ ، وباسم الله نبدأ

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» طردًا للشيطان .

« بسم الله الرحمن الرحيم» اعتصامًا بالرحمن .

فطر الإنسان ، منذ خلق وكوّن ومنح العقل والإدراك ، على أن لهذا الكون ـ الذي يقلب بصره في ظاهره ، وفكره في باطنه ، ثم يرتد إليه بصره وهو حسير ، وينكمش عقله وهو كليل ـ ربًا ، خلقه ونظمه ، وشد بعضه ببعض ، حتى أفرغ عليه وحدة متماسكة ، تنطق بوحدة الخالق المدبر وبهيمنته عليه ، عن طريق العلم الذي لا يعزب عنه شيء ، والحكمة التي لا تضل في شيء ، والقدرة التي لا تعجز عن شيء ، سبحانه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير .

وتتجلى هذه الفطرة من الإنسان السادر في غلوائه ، والسايح في أهوائه وشهواته في حالتين : حالة يفاجأ فيها بالسؤال عن مصدر هذا الكون ، وهوفى غفلة من تقاليده الموروثة ، ومن سلطان الوهم والخيال ، فلا يجد بدًا وهو في حالته تلك من تلبية نداء الفطرة والاعتراف بالحق .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(الآية٦١ من سورة العنكبوت)

والحالة الثانية حالة الشدة التي تنزل به ، وتملك عليه سمعه وبصره وحيلته ، فلا يجد طريقًا للخلاص منها سوى الإصاخة لصوت الضمير الذي يدفعه نحو اللجوء إلى الله ، والتماس الخلاص منه بقوته ورحمته .

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الآية ٢٢ من سورة يونس).

ومن قديم أدرك الإنسان أيضًا ـ بفطرته التي سلمت من دنس البيئات المنحرفة، ومن ضغط الهوى والخيال ـ أنه في هذه الحياة عرضة لخير ينبعث إليه من مصدر له سلطانه القوى في تدبير الخير وإسدائه، وعرضة لشر تلفح وجهه ناره، ويسقط في أتونها، فاعتصم باللجوء إلى منبع الخير يستمطره خيره، ويتحصن به من منافذ الشر، ويستعينه في دفع مايشق عليه دفعه، وبهذا سلست لهذا الصنف من الناس قيادة الحق، وكان عند الله موضع اصطفاء واختيار، يبعث منه في كل جيل من يوجه الناس إلى الإيمان به والاعتماد عليه.

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الآية ١٢٤ من سورة الأنعام).

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (الآية ٨٨ من سورة الأنعام).

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الآية ١٢٢ من سورة الأنعام).

وقد كان من أثر ذلك النور الذي جعله الله لمن زكى نفسه وطهرها، ذلكم (الشعار) الذي أثر عن الأنبياء والمؤمنين، والذي يعبرون به عن امتلاء قلوبهم بمبدأ اللجوء إلى الله، والتحصن به في دفع ما يلحقهم من عواصف البلايا والشرور، والوساوس والشكوك، ويعبرون به عن مضاء العزيمة، وقوة الإرادة في مكافحة ما يعترضهم من عوائق الخير والصلاح، التي يزينها لهم أو يضعها أمامهم كل عات متمرد على الخير وأهله، ويسجلون به على أنفسهم أن أعمالهم في هذه الحياة إنما هي بأقدار الله وتمكينه، وأنهم إنما يعملون باسمه وعنوانه، وأنهم في الوصول إلى الغايات التي ترضيه ليسوا إلا تحت رحمته.

ذلكم الشعار هو (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم) وبه يعملون على إرادته فيما كلفوه من عمارة الكون وإظهار أسراره فيه باللجوءالذى تعبر عنه الاستعاذة، وبالتجرد من الحول الذي تعبر عنه التسمية يكون الإنسان دائمًا من الله في حصن، ومن شرور النفس والشيطان في مأمن، ويكون عاملاً في الحياة باسم الخلافة في الأرض التي ربطت به منذ القدم.

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (الآية ٣٠ من سورة البقرة) .

وليس من ريب في أن من يمتلئ قلبه بالاعتماد على الله واللجوء إليه، والاستعانة به والعمل باسمه يكون دائمًا في تـذكر ويقظة وتنبه، فيهتدي إلى منافذ الشر، ويعمل جهـده ـ كما أمره الله ـ في اتقائها والبعد عنها، معتمدا على لطف الله ورحمته، فتزول من طريقه العقبات، ويصل إلى أسمى الغايات في حضانة من مولاه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

(الآية ٢٠١ من سورة الأعراف)

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (الآية الأخيرة من سورة النحل) .

وقد حكى الله في كتابه هذا الشعار عن جملة من المثل المختارة من بني الإنسان، حكاه عن أول رسول أرسله وهو نوح ـ عليه السلام ـ حينما عاتبه في شأن ولده فالتجأ نوح إليه

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الآية ٤٧ من سورة هود) .

وعندئذ ناداه ربه نداءالتكريم، ومنحه منحتين عظيمتين :

﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(الآية ٤٨من سورة هود)

وحكاه عن نبيه يوسف حينما راودته التي هو في بيتها عن نفسه

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الآية ٢٣ من سورة يوسف)

وعندئذ صرف عنه السوء والفحشاء .

وحكاه عن موسى حينما خُوِّفَ بالقتل

﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾

(الآية ٢٧من سورة غافر)

وعندئذ وقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

هذه بعض مثل النجدة وتفريج الكروب عن المؤمنين الصادقين بالاستعاذة الصادقة، وقد أمر الله بها في غير موضع: أمر بها عند قراءة القرآن، طردًا للصوارف عن تدبره، وللشبهات التي مرنت الشياطين على إثارتها في نفوس القارئين أو السامعين.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (الآية ٩٨ من سورة النحل).

وأمر بها كلما توجس الإنسان خيفة من شر أو أحس من نفسه بدوافع السوء

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف)

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾

(الآيتان ٩٧، ٩٨ من سورة المؤمنون)

وأنزل الله في كتابه سورتين قصيرتين ختم بهما في الترتيب المصحفي، أمر في أولاهما وهي ﴿ سورة الفلق ﴾ بالاستعاذة من شرور الخلق الظاهرة التي تحدث في ليل أو نهار:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾.

وأمر في الأخرى، وهي سورة الناس بالاستعاذة من الشر الخفي التي توحيه إلى النفس شياطين الإنس والجن.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾.

وكذلك كانت «التسمية» من قديم الرسالات، شعار الإيمان وقوة العزيمة في الإقدام، فهذا نبي الله سليمان يكتب إلى ملكة سبأ يدعوها إلى عبادة الله وحده وترك الطغيان على الحق.

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

(الآيتان ٣٠، ٣١ من سورة النمل)

وهذا نبي الله نوح ومعه قومه يأمرهم بركوب السفينة، معتمدين على حول الله وقوته.

(الآية ٤١ من سورة هود)

ويفتتح الله بها وحيه في مرحلته الأخيرة

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ (أول سورة العلق).

ثم توضع رمزا واضحًا بين سور القرآن لترتبط بمعناها قلوب المؤمنين كلما قرءوا، وكلما عزموا على أمر ذي بال.

أيها المسلم:

جدير بك، وقد أجمعت أمرك على مطاردة الشياطين وتطهير أرضك وأرض إخوانك منهم، أن تنشط بصدق وإخلاص في التعبئة الناجحة المثمرة في روحك ومادتك، وأن تتنبه إلى شعار العاملين المؤمنين، فتسعد كما سعدوا وتعز كما عزوا. هذا الشعار الذي نبدأ به هذه الأحاديث إليك من توجيهات الإسلام: ﴿ **أعوذ بالله من الشيطان الرجيم * بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾.

النـاس والديـن



حاجة الإنسان إلى الدين

يقف الإنسان في هذه الحياة بمقتضى الخلق والتكوين ـ لحكمة سامية، دبرها الخالق المكون على حسب ما يعلم من طبائع خلقه وعباده، وما وضع في الكون من سنن ـ بين قوتين، تدفعه إحداهما إلى الشر بما ركب فيه من شهوة وغضب، وقد يشتط في سبيل ذلك حتى يستبيح انتهاك الأعراض، وسفك الدماء، وسلب الحقوق. وتدفعه الأخرى ـ بما ركب فيه من عقل يعرف به الهدى من الضلال، والرشد من الغي ـ إلى الخير، فتدعوه إلى العدل والمساواة، والعطف والرحمة، والأخذ بيد الضعيف وإغاثة الملهوف، وتوجيه المجتمع بقدر ما تستطيع إلى وسائل الخير والفلاح.

الإنسان بين قوتين مختلفتين:

يقف الإنسان بين هاتين القوتين، ولكنه ببريق الدنيا وزخرفها، وشهواتها ومغرياتها، يلي أو يميل إلى جانب الشر

﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ (الآية ٥٣ من سورة يوسف).

﴿ **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾

(أوائل سورة العصر)

﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴾ (الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة المعارج).

وعلى هذا لو ترك الإنسان ونفسه، تتجاذبه القوتان، لما استطاع أن يحقق التوازن بينهما، ولغلب شره خيره، وفساده صلاحه، وتنعكس عندئذ حكمة خلقه وجعله خليفة في الأرض، وبذلك تصدق فيه نبوءة الملأ الأعلى حينما قال الله لهم:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (الآية ٣٠ من سورة البقرة).

مدد الخير في الإنسان:

وإذن لكي تتحقق الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشاداً للملأ الأعلى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾. لابد لقوة الخير في الإنسان من مدد يعينها ويقويها على سد منافذ الشر والطغيان، وعلى استخدام قوتي الشهوة والغضب فيما يحفظ له نوعه وكيانه. ولكن ما الذي يمكن أن يفترض مدداً لقوة الخير حتى يسلم من قوة الشر؟

نفترض الفكرة العقلية التي يضع الإنسان مقاييسها، ويحدد بها موازين الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، ويتخذ منها دستور الحياة، يسير على مقتضاه، أو يحمله مجتمعه على الخضوع له، والاستظلال بظله، وهو الفرض الذي تسير عليه اليوم أمم الحضارة، ويتحكم به الفلاسفة والمفكرون وأرباب القوة والمال في تنظيم الحياة وفى رقاب العالم.

الفكرة العقلية لا تحقق الحكمة في خلق الإنسان:

وفى الواقع أن هذا الفرض لا يعنى من الحق شيئًا، ولا يستطيع أصحابه أن يصلوابه إلى الحكمة المقصودة من خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض يعمرها وينميها، وينشر فيها روح الأمن والطمأنينة والاستقرار. وقد جربته الإنسانية حينًا من الدهر، ولا تزال تتقلب في جمره بين حرب حامية تأكل الأخضر واليابس، وتدمر الجهود التي تبذل في بناء الحضارات وإقامة المنشآت، وبين حرب باردة تملأالقلوب خوفًا وهلعًا، وهي في الحربين لا تعرف إنصاف مظلوم من ظالم، ولا تترفع عن استعباد الضعفاء، وسلب الحقوق والحريات، وهي في الحربين لا تتنسم روحًامن نسمات الروحية الفاضلة التي تعصم الإنسان من التبذل في نفسه، وتقيه الارتكاس في حمأة الإباحية الضالة، والمادية المظلمة.

جهات النقص في الفكرة العقلية:

هذا ما نلمسه من نتيجة السير على مقتضى الفكرة العقلية، وهي لا يمكن أن يكون لها من النتائج سوى ذلك :

١ - لأن العقول ـ مصدر هذه الفكرة ـ متفاوتة في إدراكها وفي حكمها على الأشياء، وفي مقاييس الخير والشر، فيستحسن بعضها ما لا يستحسنه الآخر، ويستقبح بعضها ما لا يستقبحه الآخر، وقد رأينا في عصرنا الحاضر ألوانا للفكرة العقلية، أوقعت الشعوب في الحيرة والاضطراب، رأينا شيوعية ورأسمالية، وديمقراطية وديكتاتورية . . . إلى غير ذلك من أنواع البرق ذي الألوان الخاطفة، وكلها يلبس الحق بالباطل ويحاول أن يغتصب ما استطاع أن يغتصب .

٢ - ولأن العقول عرضة لأن تطغى عليها في تفكيرها وتقديرها الشهوات والأهواء، والتأثر بالشخصيات والعنصريات والإقليميات، وسائر الأغراض الكامنة في النفس التي لا يستطيع أن ينتزعها ويطهر النفس منها، علم ولا فلسفة .

وكم رأينا من قوانين وضعت على أساس الفكرة العقلية، وقيل إنها وضعت لحفظ السلام، ولصيانة حقوق الإنسان، ولكنها لم تلبث أن تبين أن باعثها في الواقع لم يكن سوى تحقيق رغبة شخصية، أو نزعة عنصرية، أو أهداف عصبية، غير أنها ألبست ـ تغريراً بالناس وخداعًا لهم ـ ثوب المصلحة العامة .

٣ - ولأن العقول محدودة الإدراك، ليس في استطاعتها أن تكتنه كل مقتضيات الغد وحوادث المستقبل، على حسب ما دبر العليم الخبير في خلقه .

وكم رأينا من قوانين تسن وتقام لسنها الحفلات ثم لا تلبث أن يظهر ضعفها ويتجلى قصورها، فيسن غيرها، ثم لا تلبث هذه أيضًا حتى تصاب بما أصيبت به سابقتها وهكذا دواليك .

وبذلك تظل الأمة حائرة بين تقنين وتقنين، وتبديل وتبديل، وتلك درجات تعوق ـ دون شك ـ عن السير في طريق التقدم والكمال .

٤ - ولأن العقول إن اتفقت على ما وضعت وآمنت به حقًا، وكان بمحض إرادة الخير للإنسانية، غير متأثرة بنوازع خاصة، فإنه لا يمس إلا قلوب أصحابها التي نبغ منها . أما الأمة التي تقاد إليه، وتحمل عليه، فإنه لا ينبع من قلبها احترامه

ولاتخشاه إلا حينما تخشى الوقوع تحت طائلته. أما حينما يأنسون من أن عين القانون لا تراهم، وأن يد القائم عليه لا تمتد إليهم، فإنهم لا يجدون في قلوبهم من الاحترام والتقديس ما يمنعهم من المخالفة.

وبذلك كانت القوانين الصادرة عن الفكرة الإنسانية في نظر الناس ليست إلا مانعة من الظهور بالمخالفة، وليست مانعة من المخالفة ذاتها، ولا من التفكير فيهاوالتصميم عليها والتدبير لها.

وكم رأينا من مخالفات ترتكب وتقوض بها الفضيلة، وتزهق بها الأرواح، وتستلب الأموال في ظلال تحين الفرص لغفلة القانون.

الاعتماد على الفكرة العقلية يرمى بالعالم إلى الخراب والدمار:

ومن ذلك كله يتضح أن الاعتماد في تنظيم العالم، والسير بالحياة على الفكرة الإنسانية اعتماد على شفا جرف هار، اعتماد يؤدى بالعالم إلى الخراب والدمار، وإذن. فلابد من تلمس مدد آخر يملك على الإنسان بمصدره باطنه وظاهره وخلوته قبل جلوته.

الضمير الدينى:

وليس من ذلك سوى الضمير الدينى الذي يربط الإنسان بالرقيب الذي لا ينام وبالعالم الذي لا يجهل، وبالقوى الذي تؤمن الفطر بقوته، والذى يتلقى الإنسان به نظم حياته عن ذلك الرقيب العالم، القوى القاهر، فتأخذ من نفسه ما يأخذ منها مصدرها، ويمنحها نفس الاحترام الذي يمنحه لمصدرها، ويتوخى في جميع أفعاله ما يرضى ذلك المصدر القوى القاهر فيكون خيرا كله، فلا يمارى، ولا يخادع، ولا يغش، ولا يخون، ولا يقصر في حق، ولا يتقاعس عن واجب، فيسلم في الحياة وتسلم له الحياة.

الضمير الدينى أساس الخير والصلاح:

هذا هو المدد الذي علم الله سبحانه أن عباده لا ينتفعون بمدد سواه، وهو المدد الذي طواه في قوله للملأ الأعلى منذ التدبير في خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾. قد وضعه الله أساسًا لحياة الإنسان منذ خلقه وعلق به عمارة هذه الدنيا:

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ من رَّبِّه كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(الآيتان٣٧، ٣٨ من سورة البقرة)

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (الآيتان١٢٣، ١٢٤ من سورة طه).

هذا المدد هو الهداية السماوية التي تعهد الله بها عباده، وآمنت به الأرواح الصافية المؤمنة بمهمة الإنسان في هذه الحياة.

الفكرة الإنسانية في نظر إبراهيم وولده إسماعيل:

آمن به جد العروبة الأعلى، إبراهيم وولده إسماعيل، فكان مما طلبا من ربهما في إسعاد ذريتهما:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ (الآية ١٢٩ من سورة البقرة).

طلبا منه ذلك، وهما يعلمان أن ذريتهما لا تخلو عن تفكير عقلي يستطيعون أن يتخذوا منه قانون حياتهم، وتنظيم شئونهم، لعلمهما أن الفكرة الإنسانية مهما سمت، ومهما تجرد أصحابها عن الأغراض والشهوات، فهى بمكان من الضعف والهزال لا تستطيع معه أن تنهض بالعالم دون أن تتصل في تنظيمها بعالم السر والنجوى. وعلى هذا الأساس تعهدت العناية الإلهية الإنسان في جميع أطواره ترشده إلى وسائل الإصلاح التي يحتملها استعداده، فأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وسارت على هذا السبيل حتى وصل الإنسان إلى درجة من الاستعداد لرسالة عامة خالدة تضمنت بنصوصها وإشاراتها وعللها جميع ما يحتاج إليه الإنسان فيما يتقلب فيه ويجد في الحياة. وبهذه الرسالة بعث الله محمداً ﷺ، وأنزل القرآن، وبه أكمل هدايته، وأتم على عباده نعمته، وكان محمد خاتم الأنبياء والرسل، وكان القرآن آخر الصحف والكتب، وفيما بين دفتى المصحف، وفى بيان خاتم الرسل، يجد الناس - إن أخلصوا لأنفسهم وعرفوا قيمة حياتهم - سبل السعادة الحقة واضحة جلية.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء).

الدين بين الحقيقة والخيال:

من هذا يتبين أن الدين للإنسان من الشئون الضرورية التي لا حياة له إلا بها. ولكن ماهو الدين الذي له هذا الأثر في حياة الإنسان؟ إن الدين يتردد عند الناس وفي أذهانهم بين الحقيقة الماثلة في الرسالات الإلهية، وبين الخيال الذي ينسج به الإنسان حقيقة رداء الدين الذي تدعو فطرته إليه. فقد علم من تاريخ البشرية أن الإنسان يتأثر في كثير من الفترات بموجات من الأعاصير الفكرية تزجيها ثم تسددها نحوه بيئة أو شهوة أو عصبية، فينحرف بها عن إدراك الحقائق على وجهها الصحيح، وبذلك تحدث هوة بين الحقيقة في واقعها وبين ما تصورت به في الأذهان، وبقدر هذه الهوة يبعد الإنسان عن معرفة الحقيقة وعن الإيمان بها، ويحال بينه وبين الانتفاع بثمراتها الطيبة. وفي ظل هذا الانحراف تظل الحقيقة مظلومة بسوء تصور الإنسان لها وهجره إياها وإعراضه عنها، ويظل بالتالي واضعها مظلومًا متهمًا بإرادة القهر والإعنات لمن وضع لهم تلك الحقيقة وطلب منهم أن يعتنقوها ويسوسوا بها أنفسهم ومجتمعاتهم. وليس لكل ذلك من أثر سوى حرمان الناس من هداية تلك الحقيقة، وإحاطة الظلمات المتلاحقة بهم، لا يهتدون منها إلى الخير سبيلا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

الدين في تصوره المنحرف:

وإن أبرز ما أصيب بهذه الظاهرة - ظاهرة الانحراف في التصور - كلمة «الدين» فقد اقترنت في عهود طغت فيها الشهوات والأهواء، وجمدت فيها العقول عند كثير من الناس - اقترنت بصورة جافة رهيبة لا تسمح لا تسمح بعلم ولا تفكير، ولا تسمح بلين ولارحمة، ولا تسمح بتمتع ولا تبسط. اقترنت بصورة كونها مزيجًا من القسوة والشدة، والانطواء على النفس، والاستسلام لطوارئ الطبيعة والجمود على المألوف والحرمان من لذائذ الحياة ومتعها، والانقطاع عن الدنيا، وقهر النفس على ما تكره ويشق. وكان ذلك التصور لمعنى الدين سبيلاً إلى أن زعم بعض الناس أن الدين بلوازمه هذه، وتعاليمه تلك، لا يصلح للدنيا، ولا يسير إلى جانبها، بل لا يصح أن يقترب منها، أو يتحكم فيها أو

يتخذ أساسًا لها، وأنه لذلك يجب تنحيته وعزله عن محيط الجماعة الإنسانية، وأن تخلص الجماعة في دنياها بحرياتها: عرى كما تريد، خلاعة كما تريد، افتيات على الحقوق والواجبات كما تريد، تقرر لنفسها ما شاءت، وتشرع لنفسها ما أرادت، غير مقيدة بدين، ولا مكترثة بوحي. وأن الدين والوحي عندها للسماء، وأن القوة والشهوة للأرض، وما كان للسماء لا يصلح للأرض. وبهذا التصور الفاسد والحكم المجحف صار أساس الحكم عند الناس مجرد التقدير الإنساني، ونزعة الهوى والشهوة وعن هذا الطريق تعرض العالم للاضطراب والفوضى، وتردى في هاوية من الشر وسوء الأخلاق والانحلال، فغشيته ظلمات، وعبثت به مظالم في كل أرجائه ونواحيه، فاضطرب حبل الحياة بالناس، وصاروا على شفا جرف هار أو على شفا حفرة من النار، ومصداق ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾

(الآيات ١٢٤ ـ ١٢٧)

حقيقة الدين جلية واضحة:

وكان جديرًا بهؤلاء الذين انحرفت بهم السبل، فتصوروا الدين هذا التصور الفاسد، وبشعوه عند الناس، أن يكبحوا جماح شهوتهم، وأن يفكروا بطبيعتهم البريئة في أمرين، هما من الجلاء والوضوح بمكان، والنظر فيهما سفير صادق في التعبير الحق عن الدين وحقيقته، تلك الحقيقة التي تدفع الإنسان إلى الكمال والتقدم دفعًا، لا تعرف في ذلك عنتًا ولا مشقة، ولا جمودًا ولا بطئًا.

كان جديرًا بهم أن ينظروا أولاً إلى أن الذي خلق هذا الكون ـ وسخر للإنسان كل ما فيه من جماد ونبات وحيوان وأسرار ظاهرة وباطنة، فيه يفكر ويعمل، وبه ينفع وينتفع، وله ينظم ويعمر ـ هو نفسه الذي وضع الدين وارتضاه للإنسان وحثه في كتابه على النظر والتفكير فيه، والعمل على إدراك ما يستطيع أن يدركه من أسراره، فيكمل به نفسه ومجتمعه، وأنه محال أن يخلق الكون على هذا النحو الذي يغري بنفسه إلى التفكير فيه ثم يمنع الإنسان «بالدين» أن يعلم ويعمل، ويدبر وينتفع. محال أن يتناقض الحكيم مع نفسه،

محال أن يخلق الكون ويخلق الإنسان، ويمنحه العقل، ويجعله سيداً لما خلق، ثم يمنعه من لذة أن يعلم، ولذة أن يتحرك، ولذة أن ينظم، ولذة أن يكمل أو يكتمل. ومن هنا لم يكن بد «للدين» وهو هداية الله لعباده من أن يواجههم إلى النظر في هذا الكون.

وفعلا قد حث القرآن الكريم - وهو آخر صورة أكملها الله «للدين الإلهي» - على التفكير واستعمال العقل، والرفق بالنفس والناس، والجد في العمل، واستفادة العلم، وما إلى ذلك مما تقتضيه طبيعة الإنسان، وطبيعة الكون الذي سخر للإنسان.

يسر الدين وسماحته:

وكان جديراً بهم أن ينظروا ثانياً في تعاليم الدين من مصادره الحقة ليروا: أفيه حقيقةُ ما يكبل الإنسان ويرهقه ويحرمه التمتع الإنساني الشريف؟ أم أن كل تعاليمه تلبية لطبيعة الإنسان على وجه معتدل، لا إفراط فيه ولا تفريط؟

﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ (الآية ٣٢ من سورة الأعراف)

كان جديراً بهم أن يعرفوا الأساس العام الذي بنيت عليه التشريعات الدينية، وأن يقرءوا قول الله تعالى:

﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ (الآية ٢٨٦ من سورة البقرة).

وقوله: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ (الآية ١٨٥ من سورة البقرة)

وقوله: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ (الآية ٧٨ من سورة الحج)

وأن يسمعوا قول النبي الكريم: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه؛ فسددوا وقاربوا وقوله: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا».

كان جديراً بهم أن ينظروا إلى تشريعاته الجزئية، فيعرفوا كيف يسرها على الناس حتى في العقيدة فاكتفى بما يدل على اعتقاد الوحدانية ولو بإشارة السبابة إلى السماء، ولم يكلفهم فيها إلا بما تشهد به فطرتهم دون تعقيد أو التواء. وفي العبادة اكتفى منهم في طهارة الصلاة بالتيمم إذا خافوا استعمال الماء. وفي الصلاة التقى منهم بالإيماء إذا شق عليهم القيام والقعود. وأباح لهم في الصوم أن يفطروا إذا كانوا مرضى أو على سفر، أو

كان الصوم يوقعهم في مشقة لا يحتملونها، بل أباح لهم المحظورات عند الضرورات. وبذلك لا نجد ناحية من التشريعات الجزئية إلا دخلها اليسر، ولا معاملة إلا أمر فيها باليسر، مع الاحتفاظ بوسائل العزة والكرامة والتقدم، من القوة والعلم والمال.

هدف الدين:

ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح في الأرض على أساس قوي متين من ربط الإنسان بخالقه الذي يعلم سره ونجواه.

نرى كل ذلك في تشريعات الدين، ونرى بعد ذلك أنه أطلق للعقل حريته، فلم يلزم الناس بتشريعاته الجزئية في كل شيء، بل ترك لهم كثيراً من الشئون، يشرعون فيها بما يرونه محققًا للمصلحة تبعًا لما يجود به الزمن، ولم يكلفهم فيها سوى الشورى وتبادل الرأي، ليقع التشريع في دائرة العدل والرحمة، والإحسان والمساواة. وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها، أي لاتنتظروا حكمها من الله، فقد فوض الحكم فيها إليكم تبعًا لما ترونه من الخير والمصلحة:

﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الآية ٢٢٠ من سورة البقرة).

مطالب الإيمان:

والمؤمنون - بحكم دينهم - مطالبون في كل وقت ومكان بحفظ عقائدهم من الشكوك والشبه، وتزكية نفوسهم من الشهوات والأهواء، ومطالبون ببذل الجهود الصادقة في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومطالبون بالمحافظة على حدود الله فيما بينهم، وبالعمل على خير الأمة وإسعادها، وأخيراً مطالبون ببذل الأموال، والجود بالنفس في سبيل أمن الجماعة واستقرارها، وفي سبيل رفع المظالم والقضاء على الفتن، وفي سبيل إعلاء كلمة الله وحرية الناس في الدين والوطن.

﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** ﴾ (الآية ١٩٣ من سورة البقرة).

محن الحياة وشدائدها :

والمؤمنون مع هذا ـ كسائر الناس ـ عرضة بمقتضى سنة الله في خلقه لكثير من المحن الكونية من موت بعد الحياة، ومرض بعد الصحة، وفقر بعد الغنى، وذلة بعد العزة لأنفسهم وعشيرتهم ومواطنيهم.

والإنسان ـ أمام هذه التكاليف وتلك المحن ـ إذا ترك وما طبع عليه من تنازع الرغبات في نفسه، وما أودع فيها من إيثار الراحة واللذة العاجلة، ولم يشد أزره بإرشاد إلهي يؤمن به، ويثق بعدله، ويطمئن إليه، ناء كاهله بعبء الحياة، وخارت قوته وذاب احتماله، وفقد استعداده، ولايكون بعد ذلك هو الإنسان الذي اختير للخلافة في الأرض، وحمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها.

لهذا كله شد الله أزر عباده المؤمنين، وقوى فيهم روح العمل، وأرشدهم أن يستعينوا على تكاليفهم الدينية وواجباتهم الاجتماعية ومحنهم الكونية بأمرين لهما خطرهما في قوتهم واحتمالهم، بهما يستعذبون مشاق التكاليف في سبيل اللذة التي لا يشوبها كدر، والسعادة التي لا يعقبها شقاء، وبهما تهون لديهم مصائب الدنيا، وتذل أمامهم الصعاب، ولا تقف بهم دون خير أو فضيلة، فوجه الخطاب إليهم في ذلك الإرشاد بنداء التكريم، وبالوصف المحبوب عند الله الذي يرفعهم عمن سواهم ويبعث في نفوسهم دوافع الامتثال والمسارعة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (الآيات ١٥٣ ـ ١٥٧ من سورة البقرة).

الصبر :

والصبر هو الثبات في القيام بالواجب، وبذل المجهود في مقاومة الصعاب دون يأس أو هلع، ولس الصبر مجرد الاستلام والخنوع أمام الحوادث وترقب ما يسوقه القدر المجهول، فإن ذلك عجز وصغار لا يرضى الله بها لعباده المؤمنين، وقد حذر الله المؤمنين من اليأس وأرشدهم إلى أنه من خلال الكافرين.

﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (الآية ٩٦ من سورة النحل).

وقرن الصبر بالعمل في مواضع كثيرة.

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (الآية ٨٧ من سورة يوسف).

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الآيتان ٥٨، ٥٩ من سورة العنكبوت).

ولقد أمر الله نبيه أن يبشرَ الصابرين على احتمال هذه المكاره والاطمئنان إلى قضاء الله فيها هكذا ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ دون أن يذكر نوع المبشر به، إعلانًا بعظمة البشرى وعمومها لكل ما يسعد الإنسان في دنياه وأخراه، وقبل أن يرسم لهم خطوط هذه البشرى الإلهية العظيمة ويبين منابعها الكلية يمهد لها ببيان السر في استحقاق الصابرين لهذه البشرى، وهو في الوقت نفسه يكون علامة يعرف بها الصدق في الصبر، ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ عظمت أو صغرت حتى الشوكة يشاكونها، أو السراج يطفأ عليهم، لم يفكروا في المصيبة وآثارها فيهم، وإنما يعبرون بلسان صادق عما تكنه قلوبهم من قوة العقيدة في الله ويقولون: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ هو خالقنا ومالكنا، ويربد فينا أمره كما يشاء ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ينتصف لنا بما يشاء، ويمنحنا ما يشاء، ويختبرنا بما يشاء؛ فنحن منه وإليه وفي يديه.. ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾.

الصلاة:

أما الصلاة التي أمر الله بالاستعانة بها مع الصبر، فهي التي قال الله فيها:

﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (الآية ٤٥ من سورة العنكبوت).

صلاة الخشوع والتذكر والمراقبة، وهي في حقيقتها رحلات إلهية أوجب الله منها على عباده خمس رحلات في اليوم والليلة، وجعلها فيما وراء ذلك خيرًا موضوعًا يقوم به العبد كلما أراد، يخلص فيها من دنياه، ويفرغ فيها لربه بالتكبير والمناجاة وطلب المعونة

والهداية، ويلقي فيها بنفسه في كفالة الربوبية الرحيمة، يتمثل بها عظمة يصغر أمامها كل عظيم في هذه الحياة، وقد كان من سنة النبي ﷺ الفزع إلى الصلاة كلما حزبه أمر، وكان يقول: «جعلت قرة عيني في الصلاة».

ومن هنا كانت الصلاة أحد أركان الإسلام الخمسة، وكانت أقدم عبادة عرفت مع الإيمان.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (الآية ٨٣ من سورة البقرة).

فالصلاة ـ وهي شأن يبعث على مراقبة الله، واستحضار عظمته ـ مما يجعل الإنسان في حذر دائم من مخالفته في أحكامه أو التقصير في حدوده وشرعه، وبذلك يكمل للروح تهذيبها، وللنفس صلاحها، وللعقل إدراكه، وللمجتمع ارتقاؤه.

وعلى هذه السنة جاء الأمر بالمحافظة على الصلوات، وبالقيام فيها لله مع القنوت والخشوع وكمال التوجه إليه والتفرغ له:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (الآية ٢٣٨ من سورة البقرة).

أثر الصبر والصلاة في تهذيب النفوس:

وقد صرح القرآن الكريم بما للصبر والصلاة من أثر كبير في تهذيب النفوس وتطهيرها من خلق اليأس والهلع عند المصيبة، ومن خلق الطغيان والبطر عند النعمة، فهو يقول في الصبر:

﴿لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الآيات ٩ ـ ١١ من سورة هود).

ويقول في الصلاة:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (الآيات من ١٩ـ٢٣ من سورة المعارج).

فالصبر والصلاة من أقوى عدد المؤمن في هذه الحياة، بهما تحقق الرغائب، وتدفع النوائب، وبهما يكون المؤمن محلوظًا من الله بعين الرعاية والتوفيق، ويكون منه سبحانه في معية النصرة والمعونة والحفظ : «إن الله مع الصابرين» وحسب المؤمن في سعادته أن الله معه.

أما بعد،

فهذا هو الدين في حقيقته النقية المصفاة، وهذا هو أثره المبارك في تهذيب النفس وإسعاد الإنسان، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير.

إنه ضرورة من ضرورات الإنسانية الراشدة، لا تغني عنه فكرة عقلية، ولا تنظيم وضعي.

والإنسان في عصرنا هذا أشد ما يكون حاجة إلى الدين؛ فإن التقدم العلمي المادي الذي غزا الفضاء لم يستطع أن يحقق للناس السعادة والطمأنينة التي ينشدون، بل زادهم كلبًا على المادة، وتنافسًا جشعًا جر إلى حروب كونية مدمرة، وينذر بأخرى لايعلم نتيجتها إلا الله.

لا خلاص للإنسانية إلا بالرجوع إلى الدين الحق، ولنتجد هذا الدين ـ كما أنزله الله ـ واضحًا ميسرًا، خاليًا من الغموض والتعقيد، سليمًا من التحريف والتبديل، إلا في الإسلام، خاتمة الرسالات الإلهية، فهو دين الروح والمادة، والقلب والعقل، والفرد والجماعة، والدنيا والآخرة.

فإلى هذا الإسلام في عقيدته وشريعته، في عباداته ومعاملاته، في نظمه وأخلاقه، ندعو البشرية كلها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

(الآيتان ١٧٤، ١٧٥ من سورة النساء).

الناس أمام الحق فريقان

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (الآية ١٠٨ من سورة يونس) .

إن الإسلام ـ وهو دين الله العام الذي بعث به كل رسله وأنزل لبيانه كل كتبه ـ تدور شرائعه وأحكامه مهما تعددت وتنوعت ، حول كلمة واحدة هي (الحق) .

والحق هو ما تشهد به الفطر التي لم تفسد ، وتطمئن إليه النفوس التي لم تدنس ، وتطيب به الحياة التي لم ينحرف أهلها عن الصراط المستقيم .

والحق يتنوع إلى : حق في العقيدة :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

وحق في العبادة :

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

(الآية ١٠٢ من سورة الأنعام)

وحق في المعاملة :

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ (الآية ١٣٥ من سورة النساء) .

وحق في السلوك :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (الآية ١٥٩ من سورة آل عمران) .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (الآية ٣٤ من سورة فصلت) .

وللحق في الأنفس والآفاق والمجتمعات شواهد وآثار، تميزه وتجليه وتهدي إليه، وليس كل الناس سواء في نقاء الفطرة، وصفاء النفس، وسلامة التصور فيعرفونه من دلائله وآثاره، ويؤمنون به، وينزلون على حكمه، في العقيدة والعبادة، والمعاملة والسلوك.

ومن هنا كانوا أمام الحق فريقين، فريق تسلم فيه قوة الخير، فيعرف الحق ويعمل به في خاصة نفسه، فيكمل بالعلم والعمل، ثم يندفع بحكم الرحم الإنساني وابتغاء مرضاة الله، ومحبة الخير لعباده، إلى تكميل الناس بما كمل به نفسه، فيدعوهم إلى الحق، ويعمل جهده في إنقاذهم من الباطل الذي تحجب عنهم غشاوته نور الحق، وتقطع دونهم مدده.

وفريق آخر تنمو في نفسه قوة الشر بتأثير بيئة فاسدة، أو وراثة ضالة أو شهوة طائشة، وبذلك يتخيل أن إيمانه بما قر في الضمير الإنساني أنه حق يزلزل مكانته في قومه، أو يقطعه عن سلفه، أو يسد عليه منافذ شهوته، فينفر منه ويعرض عنه، ويقع عنده موقع السخط والإنكار، وينطلق في الحياة كالوحش في الفلاة يفترس من الأحياء ما أمكنه أن يفترس، وينتهك من الأعراض ما أمكنه أن ينتهك، ويستلب من الأموال ما أمكنه أن يستلب. وليس لديه من الموازين ما يتحاكم إليه في معرفة ما ينبغي أن يفعل فيفعله، وما لا ينبغي أن يفعل فلا يفعله، ولا يقف في ذلك عند نفسه، بل يشتط ويعمل جاهداً في صرف الناس عن الحق وتأليبهم عليه، يلبسه بالباطل ويلقي عليه الشبه والشكوك ليطمس معالمه، ويطفئ نوره إن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فريقان: فريق يهتدي ويهدي:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الآية ١٨١ من سورة الأعراف).

وفريق يضل ويضل.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الآيتان ٨، ٩ من سورة الحج).

وقد كان رسل الله وأتباعهم من بعدهم يمثلون في العصور المختلفة الفريق الأول، يعرفون الحق، ويشرق عليهم نوره، فيؤمنون به، ويخلصون في الدعوة إليه.

وكان غيرهم من رءوس الكفر والنفاق، ودعاة الإباجية - أرباب الجاه الزائف أو السلطان الغاشم أو التصور الفاسد، الذين ابتلى الله بهم عباده المخلصين في كل عصر وفى كل مكان - يمثلون الفريق الثانى، يكفرون بالحق ويصدون عن سبيله، ويفتنون الناس فيه.

وقد صور الله إعراضهم عن الحق ودعوته بما حكى عنهم في أنفسهم

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾

(الآية ٥ من سورة فصلت)

وكذلك صور طريقتهم في محاولة صرف الناس عن الحق بما حكى عنهم أيضًا بالنسبة إلى الدعوة

﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (الآية ٢٦ من سورة فصلت).

وبالنسبة إلى الداعى:

﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ (الآية ٧ من سورة المنافقون).

وهذان طريقان يسلكهما أهل الضلال في كل عصر لمحاربة الحق ودعوته ينكرونه ويظهرون التبرم به، ويحذرون الإنصات إليه، ويضربون الحصار على أهله.

وبذلك وقع الصراع في حياة الناس، وفيما يرى من مظاهرها بين «الحق والباطل».

والله هو الحق، والحق دعوته، والشيطان هو الباطل، والباطل دعوته، وقد ضرب الله المثل للحق والباطل.

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (الآية ١٧ من سورة الرعد).

وقد رسم لعباده المخلصين ما يقيهم ويقى دعوتهم شر التأثر بأراجيف المبطلين وكيدهم، فكفل لهم بوعده الحق النصر والتأييد ما استقاموا على طريقته وتمسكوا بحقه، وجاهدوا في سبيله

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (الآية ٦٩ من سورة العنكبوت).

وأكد لهم أن كل ما يبذله المعارضون أعداء الحق في مكافحته وإضعاف سلطانه والتضييق على أهله سينقلب عليهم شره، وسترتد أسلحتهم إلى نحورهم حادة قتالة:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ (الآية ٣٦ من سورة الأنفال).

وكذلك يؤكد لهم أنهم بإيمانهم وإخلاصهم في الدعوة إلى الحق، وصبرهم على مشاقها في حضانته ومعيته «إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» معية حفظ ورعاية، ونصر وتأييد، يربط بها على قلوبهم فلا يصل إليها شيء من بواعث الخوف والحزن.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ (الآية ٣٠ من سورة فصلت).

ثم يرشدهم إلى سمو مكانتهم عنده، وأنهم بالدعوة إلى الحق أو التضحية في سبيله بمنزلة لا يوجد في حكمه وقضائه أحسن منها ولا أسمى.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الآية ٣٣ من سورة فصلت).

هذا. ولدعوة الحق صور وجوانب، فالدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده في العبادة والاستعانة دعوة إلى الحق.

والدعوة إلى مكافحة الظلم والطغيان، وإقرار العدل بين الناس دعوة إلى الحق.

والدعوة إلى تطهير النفوس والمجتمعات من الأخلاق الفاسدة والتقاليد الضارة، دعوة إلى الحق.

والدعوة إلى تحرير البلاد وتخليصها من مخالب المستعمرين لتكون خالصة لأهلها، ينظمون بأحكام الله شئونها، ويستثمرون بما رسم خيرها، دعوة إلى الحق.

والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتحذير من موالاة الأعداء، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، دعوة إلى الحق.

والدعوة إلى نبذ الأمور الشخصية، والتحلل من المعانى الذاتية في سبيل الصالح العام والتضامن العام، دعوة إلى الحق.

والدعوة إلى نشر دين الله، وبث تعاليمه خالصة نقية من عمل الدساسين وبدع الضالين، الذين يكتبون بأيديهم ويقولون هذا من عند الله، دعوة إلى الحق.

والدعوة إلى الحق في جميع صورها، دعوة إلى الله.

والداعون إلى الله أينما كانوا محفوظون ـ كما وعد الله ـ برعايته وعنايته، فليعتصموا بحبله، وليثقوا بنصره «والله غالب على أمره».

بهذا مضت سنة الله في الأولين، وهي سنة محكمة، باقية إلى يوم الدين

﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ (الآيات ١٧١ - ١٧٣ من سورة الصافات).

التدين عند الناس

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(الآية ١٣ من سورة الأحقاف)

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(الآية ٣٣ من سورة فصلت)

إن الإيمان بالواحد الأحد - الفرد الصمد، العليم الحكيم، القوى القاهر، المنعم المتفضل، الذي يستند إليه العالم في خلقه وتكوينه، ودقة صنعه وتنظيمه والهيمنة عليه، وهداية الناس فيه إلى استعمال مواهبهم فيما يسعدهم، ويجعل الكون مظهراً لرحمته بهم - شأن فطرى تنزع إليه النفوس متى سلمت من آفات الحق، ومثيرات الهوى والتعصب.

وقد صرح القرآن الكريم بذلك في كثير من آياته، حتى بالنسبة إلى المشركين الذين تقربوا إلى الله بعبادة الأحجار، وعبادة الشمس والقمر

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (الآية ٦١ من سورة العنكبوت).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(الآية ٦٣ من سورة العنكبوت)

الإيمان بهداية السماء:

ومن مقتضيات الإيمان به سبحانه على هذا النحو الإيمان بأن له هداية يبعث بها من يصطفى من عباده، يبلغها إياهم، ويدعوهم إليها، يرسم بها وسائل رضاه التي تكفل لهم الخير والسعادة، ويحذرهم وسائل غضبه، التي توقعهم في الشر والشقاء.

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(الآية ٣٨ من سورة البقرة)

وليس من المعقول أن ينفك الإيمان بهداية السماء عن الإيمان به سبحانه، ليس من المعقول أن يخلق العالم بهذا الإبداع، ويخلق فيه الإنسان مزودًا بقوى التفكير والعمل والكفاح، ثم يتركه يهيم في أودية الضلال كالوحش في الفلاة، يقتنص بشهوته ما شاء، ويعبث بما يشاء

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾

(الآية ٣٠ من سورة البقرة)

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ (الآية ١١٥ من سورة المؤمنون).

التدين عند الله:

وإذن، فالإيمان بشرع الله وهدايته لازم عقلي للإيمان بالله، وكما خلق الله الكون ودبره وهيمن عليه بما يمسكه ويحفظه من التدهور والانقلاب، خلق الإنسان وهيمن عليه بشرعه وهداه.

﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (الآية ٥٠ من سورة طه).

وقيام الإنسان بما يرسمه شرع الله وهدايته هو التدين عند الله، وأساسه إفراده سبحانه بالعبادة والاستعانة

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

وامتثال أوامره في النفس وفى الخلق.

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾

(الآية ٣ من سورة الأعراف)

ومراقبته في السر والعلن مع استحضار عظمته، وتمثلها في كل شيء، وبذلك يكون وازع الإنسان نابعًا من ضميره وإيمانه، يخشاه في سره قبل أن يخشى الناس في علانيته، ولا يكون من هؤلاء الذين يقول الله فيهم:

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (الآية ١٠٨ من سورة النساء).

هذا هو جماع الأمر في التدين عند الله، ونحن إذا أخذنا التدين الذي بينه الله في كتبه وعلى ألسنة رسله، ثم وازنا به صور التدين التي نرى في الناس ألوانها وجدنا منها صوراً تخف في كفة الميزان، حتى لا تكون شيئًا يذكربجانب ما في الكفة الأخرى من التدين عند الله، ووجدنا صوراً أخرى تثقل بها الكفة شيئًا فشيئًا حتى نرى صورة تنزل بكفتها إلى مستوى الكفة الأخرى أو إلى ما يقرب من مستواها.

ومن هنا يتضح التدين الكاذب الذي لا أثر له في الميزان، والتدين الصادق الذي يحدث ثقلاً في الميزان

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (الآيات ٦- ١١ من سورة القارعة).

التدين الرمزي:

وفى ضوء هذا الميزان العادى نرى طائفة من الناس اقتنعت في تدينها بمجرد الانتساب إلى الدين وأداء رمزه الأول، وهو النطق بالشهادتين، ونراهم بعد هذا بعيدين عن المعانى الفاضلة، والأعمال الصالحة، والقضايا العلمية الصادقة التي أخبر بها أمناء الله على وحيه، وكان الإيمان بها عنصراً من عناصر التدين عند الله: نراهم يطلقون لأنفسهم وجوارحهم وعقولهم العنان في كل شيء، الحق عندهم ما يرونه حقًا، والفضيلة ما يرونها فضيلة، وليس لهم في ذلك مرشد سوى الهوى والشهوة، بهما يفكرون، وعلى حكمهما ينزلون.

وهذا تدين خير منه إعلان الكفر والإلحاد، حتى لا يغتر به ضعاف العقول فينسجوا على منواله ويضربوا على وتره.

وقد انتشر هذا اللون من التدين بين بيئات تزعم لنفسها نوعًا خاصًا من الثقافة، يسمو بهم عن الواجبات الدينية وعن قوانين الجماعة التي أرشد الله إلى اتخاذها أساسًا في التدين، وفى تكوين الأسر وصيانة المجتمع

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الآيتان ٨ - ٩ من سورة الحج).

وفى سيما هؤلاء التي بها يعرفون يقول سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الآية ٥ من سورة «المنافقون»).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (الآية ٢٠٦ من سورة البقرة).

التدين الصورى:

هذا لون من التدين وتلك طائفته، وثمة لون آخر نراه في طائفة أخرى تزعم أن التدين هو حركات الصلاة، وتماوت الصيام، وهمهمة التسبيح، وخفوت الصوت، وانحناء الرقبة، وإعلان التحسر والتباكى على الدين والأخلاق، وكثرة التردد على بيت الله الحرام، ولو أريق في سبيله ماء الوجوه على أعتاب الذين يقومون بنفقات الذهاب والإياب!

بمثل هذه الصور، التي لا تغنى من الحق شيئًا، يحددون تدينهم العملى.

وأما تدينهم العلمى فيحددونه بما يقرءون من آراء الآباء والأجداد.

فالعقيدة عندهم هي ما قرره الأشعرى، لا الماتريدى ولا المعتزلى، ولا ما يدل عليه صحيح النظر.

والحكم عندهم هو ما قرره أبو حنيفة ونقله عنه أتباعه، لا الشافعى ولا المالكى، ولا ماتشهد له النصوص، أو يقتضى به القواعد العامة لشرع الله ودينه.

ومعنى الآية عندهم هو ما دون في تفسير الطبرى أو القرطبى وروى عن كعب الأحبار ووهب بن منبه.

وليس لأحد عندهم بعد هؤلاء وأمثالهم أن يقتحم حمى العمليات فيقول هذا حلال وذاك حرام، ولو قام عنده على صحة ما يرى دليل ودليل!! ولا أن يقتحم حمى العلميات فيقول هذا عقيدة وذاك ليس بعقيدة ولو قدم بيده صحيفة العقيدة على عهد رسول الله وأصحابه!! ولا أن يقتحم حمى التفسير فيقول معنى الآية كذا وليس كذا، وإن بين روح التشريع وشواهد اللغة ودلالة العقل.

النتائج السيئة:

وقد فتح الأولون بتدينهم الرمزى باب التحلل من القرآن في هدايته وأحكامه، وأخذت موجة الإنكار لعقائد الدين وشرحه كثيراً من شباب الأمة، وراحوا يؤثرون شرائع الغرب وآراءه ومعتقداته على شرائع الله وعقائده.

ويقولون هذه هي القوانين التي تساير الزمن وتلائم الحضارة، وتغذى العواطف الإنسانية الرقيقة!!

وأحدث الآخرون بتدينهم الصورى في العمليات والعلميات، تنوعًا في التدين، به صار الناس يرون لكل إقليم من الأقاليم الإسلامية لونًا خاصًا في التدين، وبه وقع الانقسام في صفوفنا والتقاطع فيما بيننا ونحن ـ على ما نزعم ـ أتباع دين واحد، وكتاب واحد، ورسول واحد، وتبع ذلك التفرق في شئون الحياة، وتعلق كل إقليم من أقاليمنا بمن يهضموننا جميعًا، ويعملون على خفض رايتنا جميعًا، وتسخيرنا لصالحهم جميعًا

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** ﴾ (الآية ١٥٩ من سورة الأنعام).

﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (الآية ١٠٥ من سورة آل عمران).

إن التدين الحق أساسه عند الله شيء واحد وهو الاعتصام بحبله المتين، وحبله المتين هو كتابه الذي يربط القلوب بعقيدة واحدة، ويسلك بها سبيلاً واحدة نحو غاية واحدة، هي سعادة الدنيا والآخرة.

وعلى قادة المسلمين وعلمائهم، إذا أرادوا الحياة الطيبة، والعزة الخالدة التي وعد الله بها المؤمنين، أن يطهروا صفوف المسلمين من ألوان التدين الكاذب، وأن يرجعوا إلى كتاب الله، فيتعرفوا منه عناصر التدين الصادق ويبنوا على أساس منه حياة الأفراد والجماعات.

وبذلك تظهر بين الأمم شخصيتهم المؤمنة القوية الرهيبة التي تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقيم القسط بين الناس.

آية التدين الصادق

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الآية ١٧٧ من سورة البقرة).

تتشابه النزعات الفكرية للإنسان في حديثه وقديمه، ولا نكاد نجد له في الحديث نزعة أو انحرافًا إلا وفى قديمه ما يشبهه أو يعد من نوعه، فموقفه من الحق والنافع في حديثه كموقفه منهما في قديمه، وانحرافه عن دعوة الخير والتلهى عنه بما فيه شر أو بما لا خير فيه هو هو في الحالين، وحاجته إلى إصلاحه وتقويمه في حديثه هي حاجته إلى إصلاحه وتقويمه في قديمه.

إرجاف لا خير فيه:

يوجه الله المسلمين في صلاتهم إلى بيت المقدس، ثم يردهم إلى البيت الحرام، فيرجف الناس في هذا الشأن ويكثر حديث فيه، ويشغلون به أنفسهم، ويأخذ كل فريق يفضل قبلته التي هو عليها، ويزعم أن التوجه إليها دون سواها هو التدين الصادق الذي لا يقرب إلى الله سواه.

يشغلون أنفسهم بهذا الجدل، وينصرفون به عن البر الحق الذي رسمه الله في كتبه وبعث به رسله، فيرشد الله نبيه محمداً ﷺ إلى أن موقف هؤلاء المرجفين بالنسبة للقبلة ليس إلا موقف عناد ومكابرة، ليس موقف من يريد الحق ويلتمسه، ويؤمن به ويعمل عليه، فلا تعن بشأنهم، ولا تكترث بقولهم، واتبع ما يوحى إليك من ربك:

﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (الآية ١٤٧ من سورة البقرة).

ثم يتجه إلى القوم وينكر عليهم أن يشغلوا أنفسهم، ويشغلوا الناس معهم بالخوض في شأن استأثر الله به، يختار فيه ما يشاء على حسب علمه وحكمته

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (الآية ١١٥ من سورة البقرة).

فهو يوجه عباده إلى المشرق إن شاء، وإلى المغرب إن شاء، والخير فيه اتباع ما أمر. وليس بصخرة بيت المقدس ما تفضل به في مادتها وجوهرها سائر الصخور، وليس لها من المنافع والخواص الذاتية ما لا يوجد في غيرها.

وكذلك ليس في جوهر الكعبة ما تمتاز به عن سائر الأبنية، وما هذه أو تلك إلا جهة يعينها الله لعباده ويكلفهم أن يجتمعوا على التوجه إليها، لا لشيء أن يحققوا باجتماعهم عليها وحدة اتجاههم الحسى، كما يحققون باجتماعهم على توحيده وامتثال شرعه وحدة اتجاههم القلبى والروحى. وإذن فأمر القبلة ليس مقصودًا لذاته، حتى يتعصبوا له هذا التعصب الذي لا خير فيه، إنما المقصود الذي يجب أن يحرصوا عليه هو ما يتصل بالحقائق النافعة، واللب الخالص: عقيدة صحيحة، وخلق فاضل، وعمل صالح مثمر مفيد. وهذه الثلاثة هي جماع الخير، وأصول البر والتقوى، وآية الصدق في التدين عند الله.

البر في العقيدة:

والبر في العقيدة هو الإيمان بالله، حتى لا يخضع الإنسان لأحد سواه، ولا يقدس أمرًا لغيره فيه عصيانه ومخالفته.

والإيمان باليوم الآخر الذي يتجلى فيه للمحسن إحسانه ويثاب عليه، وللمسيء إساءته ويؤاخذ بها.

والإيمان بالحق الذي ارتضاه الله لعباده، وكلفهم أن ينظموا به شئونهم، ويسوسوا على هداه أمرهم، والإيمان بطريق ذلك الحق إليهم، وهو (الملائكة) الذين يتلقون عنه سبحانه الشرائع والأحكام، و(الأنبياء) الذين يتلقون عن الملائكة رسالات الله ليبلغوها الناس

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾

وهذا هو العنصر الأول لا يصلح عمل ولا يستقيم خلق ولا يصدق تدين إلا إذا كان مرتكزًا عليه، مستمدًا منه. ثم هو لا يكون إيمانًا حقًا يستتبع عند الله درجات المؤمنين إلا

إذا انفعلت به النفس، وتأثر به الوجدان، ودفع بصاحبه إلى عمل الخير، وإلى التحلي بمكارم الأخلاق.

البر في العمل:

وللخير عنصران: عنصر يربط الإنسان بربه، يقف فيه بين يديه، ويفرغ له فيناجيه ويدعوه، ويستحضر عظمته، ويخشع له فيطمئن قلبه، وتقر عينه، وتنزل عليه السكينة، ويخف عن كاهله عبء الحياة، فيباشر فيها عمله بقوة وعزم وإيمان وصدق، لا يعرفه هلع ولا جزع، ولا يفكر في منكر ولا فحشاء، وتهون لديه المحن، فتطيب حياته، وينعم باله وتعظم سعادته.

أما العنصر الثاني فهو عنصر يربط الإنسان في إحساسه بإحساس أخيه، يجمع بينهما في السراء والضراء، وبه يتبادلان التراحم والتعاطف، ويتقارضان المعونة والمواساة، وفي هذين العنصرين يقول الله تعالى:

﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ (الآية ١٧٧ من سورة البقرة).

البر في الخلق:

أما البر في الخلق، وهو ثمرة البر في العقيدة، وأساس البر في العمل، فقد ذكرته الآية الكريمة بأمرين، تشير بهما إلى مبدأين أخلاقيين لهما خطرهما في الحياة، هما جماع الفضائل، ومجمع لأشعة الخير كله، هما مبدأ القيام بالواجب، ومبدأ الثبات في مقاومة الصعاب، والتغلب على العقبات، وفي كبح جماح النفس عن الهوى والشهوة، وفي حبسها على الله بالتزام دينه، والعمل على نشره، والجهاد في سبيله، والدفاع عن حوزته ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾.

وللعهد مكانة كبرى في الإسلام حث على الوفاء به، وشبه ناقضه بالمرأة الخرقاء، التي كلما أحكمت غزلا عادت بطيشها وسفهها فنقضته، وهكذا فلا يتم لها غزل، ولا تحصل على نسج، تظل طول حياتها عارية مرذولة ممقوتة:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ (الآية ٩٢ من سورة النحل).

والعهد يشمل مابين العبد وربه من عقود التكاليف والشرائع، ومابين الإنسان والإنسان من عقود والتزامات خاصة أو عامة.

أما الصبر فهو عدة الكفاح القوية التي تتحطم على صخرتها كل قوى البغي، وليس الصبر - كما يراه العجزة الذين لا يؤمنون بشرع الله، ولا سننه في الحياة - صفة سلبية، تتحقق بالاستكانة والاستسلام، وإلقاء المحن على كاهل الغيب المجهول، مع ترقب زوالها دون عمل أو جهاد، إنما الصبر صفة إيجابية، أساسها الثبات في مقاومة الصعاب مع رباطة الجأش، واتخاذ الوسائل الملائمة للكفاح.

وقد خصت الآية بالذكر ثلاث حالات، هن أبرز وأقوى ما يحتاج فيه الإنسان إلى الصبر: البأساء: وهي شدة الفقر، والضراء: وهي ما يؤذى من مرض أو فقد ولد، والبأس: وهو شدة الحرب.

وإذا وطن الإنسان نفسه على الصبر في هذه المواطن الثلاثة فإنه يكون في غيرها أشد صبرًا، وأقوى احتمالاً وعملاً.

مشابهة وتحذير:

هذه هي عناصر التدين عند الله، وهي آية الصدق في الإيمان والتقوى

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

بينها الله للقوم حينما تلهوا عنها بالجدل الباطل، وبالخوض فيما شره أكثر من خيره، وإنما كانت - كما قلنا - نزعات الإنسان الفكرية تتشابه في قديمه وحديثه، فنحن في عصرنا الحاضر، وبعد أربعة عشرة قرنًا من نزول الهدى والنور، لا نبعد كثيرًا عن وضع هؤلاء الذين نزلت هذه الآية إصلاحًا لنفوسهم وعلاجًا لوضعهم.

فمنا من خدعته الآراء والمذاهب البشرية وفتن بها، وأخذ يدعو الناس إليها ويحببهم فيها ويصرفهم بها عن دين الله وشرعه.

وإن أشد ما أخشاه أن يتم لهم ما يريدون فيشيع التحلل من العقائد، والتنكر للأخلاق، وتنسخ من القوانين البقية الضئيلة المتعلقة بالأسرة كما نسخت أخواتها (المدنيات والجنائيات) من قبل، وأصبحت مصادر التشريع فيهما صفحات تاريخية يتحدث الناس عنهما كما يتحدثون عن قيام الدول وسقوطها.

ومنا من شغل نفسه وجماعاته بخاصة شأنه، وبألوان من صور التدين الكاذب، وأساليب الزلفى الفاسدة الممقوتة على مرأى ومسمع من الناس جميعًا، وتلهى بكل ذلك عما يوجبه عليه وضعه في خدمة الدين وبيانه للناس ودعوتهم إليه، وليس من ريب في أن الفريقين إذا تركا وشأنهما سيلتقيان حتمًا عند غاية واحدة هي الغاية التي يعمل أعداء الدين من عهد بعيد على سوق المسلمين إليها، وهي التحلل من دينهم وكتابهم، والنزوع حتى «إلى غير دين»!

وجدير بمصر ـ وقد هيئ لها طريق (الشخصية السياسية) وصارت قبلة الأمم الإسلامية ـ أن تنظر إلى هذا الجانب الذي ليس له من عاقبة سوى أن ينزل بكل ما تبنى من صروح العزة والمجد، وسوى أن يفصم ما بين المسلمين من روابط قلبية مقدسة، هي أساس هيبتهم في النفوس.

جدير بمصر أن تأخذ للأمر عدته قبل أن يستفحل الخطب كما استفحل في أمة شرقية من قبل، فانسلخت من آيات الله وكانت من الغاوين.

جدير بها أن تقيم (الشخصية الإسلامية) على كل قواعدها حتى لا يعبث باسمها العابثون، فتطمس على الرمزيين المخدوعين سبيلهم، وتكشف للصوريين المزيفين سوء وضعهم، وبذلك تحظى بوعد الله الحق.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (الآية ٥٥ من سورة النور).

المسلمون

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (الآية ١٠٢ من سورة آل عمران).

لعُرْف الناس وسلوكهم في الحياة تأثير واضح في تكييف الأشياء وتلوينها، وكثيراً ما استحسن به شيء واستقبح به حسن، وكثيراً ما احتقر به عظيم واحترم به خامل، وكثيراً ما سلب الأشياء روحها ومعناها، واكتفى منها بالصورة والمظهر.

ولعل ذلك يرجع إلى أن كثيرًا من الأعراف ينبت في بيئة معينة بحكم شهوة جامحة، أو تصور فاسد، أو هدف سيئ أو تحلل من واقع صحيح، مثمر مفيد. ثم يسرى إلى ما وراء هذه البيئة ويحتل فيها وفى غيرها مكانًا رحبًا، ويجد من الناس إقبالاً، فيمتد ويعم وينتشر، ويصبح بحكم امتداده وشيوعه هو المعروف الذي لا ينكر، وبه تتوارى الحقيقة النافعة خلف الحجب المتكاثفة التي ينسجها ذلك العرف، وتصير هي المخبوء الذي لايعرف.

أثر العرف في الكلمات:

وليس سلطان العرف - الذي يسلب الأشياء روحها وخصائصها ويغير من مكانتها وآثارها - خاصًا بالأخلاق الشخصية، أو الشئون الاجتماعية، أو مناهج الحياة العامة، وإنما هو سلطان له عمومه ونفوذه حتى في مدلول الكلمات ومعانيها التي سويت عليها، ووضعت لها، وأريدت منها، واتخذت بها مكانتها في الواقع وعند الله.

وقد قرر الإمام الغزالى أن جملة من الكلمات قد سلبها العرف معانيها السامية التي وردت بها الكتب المقدسة، وجعل لها معانى أخرى، تبعد قليلاً أو كثيراً عن معانيها الأصلية الكريمة، ذات الأهداف السامية والغايات النبيلة، وبالتالي نزلت بمكانة أصحابها ومن تطلق عليهم من مكانة هؤلاء الذين كانوا يتقلبون في أضواء المعانى الأولى لتلك الكلمات.

وذكر الغزالي من تلك الكلمات كلمات: الفقه، العلم، التوحيد، الحكمة.

فالفقه كان عنوانًا على معرفة دقائق آفات النفس ومفسدات الأعمال، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة مع امتلاء القلب بخوف الله ورجائه.

وبهذا المعنى جاءت الكلمة في القرآن، وفى كلام الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وفي لسان الأولين من الأصحاب، ثم صارت إلى تفريعات الطلاق، وصور اليمين، والعتق، ووجوه السلم، وغير ذلك مما لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل ربما كان التجرد له، والاستكثار منه، وحفظ المقالات المتعلقة به، يقسي القلب وينزع الخشية منه».

والعلم كان عنوانًا على إدراك جلال الله وجماله، عن طريق تفهم أسراره في خلقه، واستشعار عظمته، ثم صار إلى الاشتغال بمناظرة الخصوم في المسائل الفقهية والكلامية، حتى قيل لمن يتقن هذا النوع من المناظرة: «هو الحبر الفهامة» «والفحل في العلم».

أما الذي لا يعرف هذا النوع فإنه لا يعد في زمرة أهل العلم، وإن أدرك حقائق الكون.

والتوحيد كان عنوانًا على امتلاء القلب برد الأمور كلها إلى الله، وبأنه الصمد الذي لايعبد سواه، والمشرع الذي لا يمتثل لغيره أمر مع أمره، ثم صار اسمًا لصناعة الكلام ومعرفة طرق الجدل، والقدرة على إثارة الشبهات والتشكيكات.

وكلمة «الحكمة» كانت عنوانًا على سداد الرأي وإصابة كبد الحقيقة، فصارت اسمًا للطب والشعر والتنجيم.

كلمة «مسلمون»:

وإذا كان الغزالي تحدث عن هذه الكلمات من جهة أن عرف الناس نقلها إلى غير معانيها الأصلية، فإني أرى أن كلمة «مسلمون» من الكلمات التي عدا عليها العرف الناشىء من بعد الناس أو تجردهم من حقيقة معناها الذي أراده الله منها، وعرفها به المسلمون الأولون، عدا عليها فوقف بها عند معنى آخر ليس له في نفوس الناس، ولا في حياتهم العامة أو الخاصة شيء من آثار معناها الأول، وبهذا التطور الذي أصاب كلمة «مسلمون» يصح لي أن أضعها مع كلمات الغزالي في إطار واحد.

كانت الكلمة في طورها الأول، طورها المقدس، تعبيراً صادقًا عن علاقة الإنسان بربه من جهة الإيمان به، واستحضار عظمته، ورؤيته في كل شيء، ومن جهة الانقياد لأوامره، والخوف من الانحراف عنها، ومن جهة التضحية في سبيله للحق وفي الحق.

كانت تعبيراً صادقًا عن علاقة الإنسان بنفسه في وقايتها من موارد التهلكة، والوقوف بها عندما رسم الله، وتحرى الرشد في سلوكه وحياته.

كانت تعبيراً صادقًا عن علاقته بأخيه المسلم في معونته والأخذ بيده والتعاون معه والإخلاص له في السراء والضراء.

كانت تعبيراً صادقًا عن علاقته بأخيه الإنسان، يدعو إلى الخير، ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ويخرجه من الظلمات إلى النور.

كانت تعبيراً صادقًا عن الإخلاص لله في العقيدة والعمل، وبمقتضى الإخلاص في العقيدة لا يتجه الإنسان بقلبه إلا إليه سبحانه، ولا يستعين فيما وراء الأسباب الظاهرة إلا به، ولا يبذل من نفسه ذل العبودية والخضوع لأحد سواه.

وبمقتضى الإخلاص في العمل لا يقصد الإنسان بعمله إلا ابتغاء مرضاة الله، وتنفيذ مشيئته التشريعية في خلقه، والقيام بشئون الخلافة الأرضية التي كلفه الله إياها، وطلب إليه أن يبذل جهده في تنظيمها والانتفاع بأسرارها، حتى تكون مظهر الرحمة بعباده.

والإخلاص في العقيدة والعمل على هذا النحو يقضي بترقية العقول ورفع مستواها باعتقاد الحق، ويقضي بتزكية النفوس بالأخلاق الفاضلة ونبل الغايات، وبهذه العناصر يكون الإنسان في نفسه وجماعته محل عناية الله ومستودع سره، وموضع كرامته، يمنحه ما شاء من عزة، ويمكنه ما يريد من سلطان.

تجلى هذا المعنى لكلمة «مسلمون» في دعوة أبي العرب وولده إسماعيل حينما قالا:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (الآية ١٢٨ من سورة البقرة).

وفي قول الله:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ (الآية ١٢٥ من سورة النساء).

وفي قوله:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الآية ١١٢ من سورة البقرة).

وتجلت آثار هذا المعنى لكلمة «مسلمون» بالنسبة للرعيل الأول في انتصاراتهم المتواصلة التي استخلفوا بها في الأرض، وكانوا القادة، وكانوا الموجهين، وكانوا المهيمنين بالقسط والميزان.

الطور الثاني لكلمة «مسلمون»:

ثم خلف من بعدهم خلف، واندس فيما بينهم دخلاء لم يفقهوا معنى «الكلمة»، أو فقهوه ولكن ثقل عليهم فلم تنفعل نفوسهم بشيء منه ووقفوا بها عند لونها العام وحروفها المنطوقة.

وقفوا بها عند صورة قوامُهَا كلمات تجري على اللسان باسم التوحيد والإيمان، وحركات تصدر عن الجوارحَ باسم العبادة والضراعة، وقفوا بها عند تلك الصورة فتفرقت كلمتهم بالأهواء، وتفككت عرى وحدتهم بالشهوات، وصاروا لبنات مبعثرة في أنحاء هذه الفكرة:

يتخطفها الأقوياء من كل جانب ولا قوة تمنعهم، ولا عزة تحميهم، وليس لهم من رابطة تجمعهم سوى اشتراكهم في النطق بكلمة «التوحيد»، وفي مجرد الانتساب إلى كتاب الإسلام، ورسول الإسلام، عن طريق التسلل من أصلاب المسلمين الأولين.

وبذلك صارت الكلمة إلى طورها الحاضر، طور الحاضر، طور اللقبية لطائفة معينة من الناس تميزها عن غيرها في العد والإحصاء، وبذلك استحل دم الكلمة، وفارقتها روحها، ودب الضعف والوهن إلى أهلها، واطمأنوا إلى الوقوع في قبضة الأعداء، بل سارعوا فيهم، ورموا بأنفسهم في أحضانهم وحالفوهم واندمجوا فيهم، وعاونوهم في السلطان على بلادهم، والله يقول:

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ (الآيتان ٥١، ٥٢ من سورة المائدة).

الإسلام إيمان وعمل:

وقديمًا تفاخر أرباب الأديان، وأخذوا يتفاضلون بالانتساب إلى الرسل والكتب فقال فريق: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم. وقال فريق آخر: بل نحن أولى منكم، نبينا خاتم الأنبياء، وهو الشفيع العام يوم الحشر والتناد، وكتابنا يقضي على الكتب قبله!! وأمام هذا التنافس، فيما لا فضل به عند الله، رد الله عليهم جميعًا وأرشدهم إلى أن الفضل والكرامة لا يرتبطان عنده بمجرد الانتساب إلى كتاب أو رسول، أو بتقدمهما أو بتأخرهما.

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (الآيات ١٢٣ - ١٢٥ من سورة النساء).

أيها المسلمون:

عودوا إلى كلمة «مسلمون» وردوها في نفوسكم إلى طورها الأول، حققوا معناها في قلوبكم وفي مجتمعكم ، حققوا معناها كما أراده الله، يرجع إليكم مجدها، وتنهض بكم عزتها، وتكونوا من الله في كنف ومن عزته في حصن.

عودوا الى شخصيتكم

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الآيتان ١٦، ١٧ من سورة الحديد).

شخصية الشيء ما يحقق وجوده ويميزه عن غيره، ويعرف به في ذاته وآثاره. ولو أتيح لنا أن نتصور شيئًا ما دون أن تكون له شخصية لما أمكن الحكم عليه بالوجود، ولظل في الأذهان مجردًا أو صورة ليس لها واقع تتعلق به الأنظار، أو تتجه إليه الآمال، أو تصدر عليه الأحكام، أو يدخل به في حساب الأحياء.

والوجود منه حسي لابد له من شخصية حسية، ومنه معنوي لابد له من شخصية معنوية، والشيء لا يحظى بالوجود الكامل، ولا يستحق عنوان الوجود، إلا إذا نال نصيبه من الشخصيتين: الحسية والمعنوية، وعندئذ يتحقق له الوجودان: الحسي والمعنوي، ويكمل في صورته ومعناه.

وإذا كان للأفراد كما نرى شخصية حسية، تحقق لها وجودها الحسي، فلها أيضًا شخصية معنوية تحقق لها وجودها المعنوي.

وشخصية الأفراد الحسية ترجع إلى ما لها من صورة وشكل، وحركة وسكون، ومأكل ومشرب، واستقرار وارتحال.

وشخصيتها المعنوية ترجع إلى مقدار ما لها من تماسك وتخلخل، وقوة وضعف، وعقل وخرق، وثبات وتردد، ونفع وضر، وإذا ما خلت الأفراد عن الروح الذي يحقق لها مركزًا في الوجود، وتفيض عنه آثارها التي هيئت لها، ووقفت في وجودها عند شخصيتها الحسية، كانت فاقدة للوجود المعنوي، وكانت بفقدها إياه ظلاً لغيرها، تتحرك

بحركته إذا تحرك، وتسكن بسكونه إذا سكن، وتفكر بعقله إذا فكر، وهكذالا ينسب إليها شيء من آثار الإنسانية التي يتبوأ الإنسان مركزها في الحياة.

شخصية الأمة:

وإذا كان للفرد شخصية حسية، وأخرى معنوية، وبتحققهما يتحقق وجوده في ذاته وفي آثاره، وبفقدهما يفقد وجوده الحسي فلا تتحقق ذاته ويفقد وجوده المعنوي فلا يكون له آثار، فإن الأمة كالفرد في ذلك كله، لها شخصية حسية تحفظ عليها وجودها الحسي، وأخرى معنوية تحفظ عليها وجودها المعنوي، وترجع شخصيتها الحسية إلى إقامتها في إقليمها الذي نشأت فيه ونسب إليها، أونسبت إليه، وافترشت أرضه والتحفت سماءه، وضربت في أرجائه، وتغذت بثماره وارتوت بمائه.

وترجع شخصيتها المعنوية إلى وزن شعورها بقيمتها في الحياة العامة، وإلى ما تفترضه لنفسها من نصيب في أعباء تلك الحياة، وإعداد مسالك الخير أو الشر فيها، وإلى مقدار ما تنفع به أو تضر نفسها أو غيرها من سلوكها، ومن صلتها باتجاهات الخير أو منازع الشر.

وإذا ما انعدمت هذه الشخصية المعنوية أو ضعفت، ووقفت الأمة بنفسها على حدود شخصيتها الحسية، انعدم وجودها المعنوي أو ضعف، وصارت أمة ذليلة وإن كانت مقيمة في بيتها، فقيرة، وإن كان ينزل عليها المن والسلوى، وتنبع لها قناطير الذهب والفضة، قليلة، وإن ضاقت أوديتها بأفرادها، فهي كما قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام: «غثاءٌ كغثاء السيل» تتهافت عليها الأمم ذات الشخصيات الكادحة، كما تتهافت الأكلة إلى قصعتِهَا: تملَّكها الوهن وملأها الجبن، وعزبت عنها عناصر العمل.

الشخصية البشرية:

والشخصية المعنوية للأمم، منها شخصية تستمد خططها من العقل البشري، يضعها الإنسان بوحيه الخاص، وشعوره الخاص، ويعمل جهده في تمسك الناس بها ونزولهم عليها، وهي لذلك تتعدد وتتباين تبعًا لتعدد مصدرها وتباين التقدير البشري في أساسها وغايتها، وهي في جميع ألوانها وأهدافها تدور حول اعتبارات مادية لا تتصل بالروح، ولا بالفكرة السامية التي تتخذ الوحدة الإنسانية أساس شخصيتها المعنوية، وميدان عملها في الحياة.

ومن هنا، تختلف بالأمم السبل، وتنزع كل أمة إلى البناء على أساسها الخاص، وتنشأ عن ذلك المنافسات وتنبت العداوات، وتوجد الأحقاد والأطماع، ويكون الاستغلال، وتكون الفتن المفرقة، والحروب الطاحنة، والتفنن في وسائل التخريب والتدمير.

وبذلك يصير العالم - كما نراه اليوم - وقد بعدت عنه عناصر الخير، وتخلت عنه أرواح الأمن والسلم، على فوهة من الجحيم، ينتظر من آن إلى آخر الوقت الذي يسقط فيه إلى الهاوية.

وما حديث الذرة وأخواتها، وما التحكم في الشعوب الضعيفة وشد الخناق عليها، ومحاولة سلب حقوقها، إلا تعبيراً صادقًا عن الحلقة الأخيرة من هذه الحلقات المحزنة المخربة، التي جرت وتجر الويلات على العالم بسبب تحكم هذه الشخصيات التي افتجرها الإنسان سيراً مع شهواته، ثم أفرغ وسعه في إخضاع الناس لها وتسخيرهم بها.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ (الآية ٢١٠ من سورة البقرة).

وسيظل العالم يبعد عنه الخير ويقترب منه الشر ما دامت أممه تتردد بين أمة فقدت شخصيتها المعنوية وسكنت إلى الذلة والضعف والفاقة، وأمة نسجت لنفسها تبعًا لهواها شخصية تجوس بها خلال غيرها من الأمم ذات الوهن، وتسلبها عزها وإرادتها.

الشخصية السماوية:

ولا سلامة للعالم من طغيان القوة والجبروت، ولا من ذلة الضعف والهون، إلا إذا خلعت الأمم ذات الشخصيات البشرية الطاغية نفسها من إطار تلك الشخصيات ورمت بها إلى قاع المحيطات، ورجعت إلى هذه الشخصية المعنوية التي رسمها العليم الخبير بطبائع البشر، طريقًا لسعادته، ونزل بها الروح الأمين على رسل الله. ثم أخذت على عاتقها غرس تلك الشخصية في الأمم الأخرى التي حصرت وجودها في دائرة شخصيتها الحسية، ذات المأكل والمشرب، ذات اللهو واللعب والحرمان من معنى الحياة الحقة التي خلق لها الكون وجعل الإنسان خليفتها يقودها وينظمها.

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (الآيات ١٢٣ - ١٢٧ من سورة طه).

هذه هي الشخصية السماوية، نزل بها القرآن، وبين معالمها، وأوضح عناصرها وهدى الناس إليها.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الآية ١٥٣ من سورة الأنعام).

آمن بها فريق من الناس حينًا من الدهر، وبنوا حياتهم على أساس منها، فوجهوا أنفسهم ووجهوا العالم إلى كثير من آفاق الخير، ثم خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب، يأخذون عرض هذا الأدنى وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه حتى ران زخرف الحياة على قلوبهم، وشغلوا بشهواتهم وغرتهم الحياة الدنيا

﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (الآية ١٩ من سورة الحشر).

وأسلموا أنفسهم لأرباب الشخصيات الأخرى، وتعلقوا بأذيالهم في كل شيء: في علمهم إذا طلبوا العلم، وفي قوتهم إذا طلبوا القوة، وفي اقتصادهم إذا طلبوا الاقتصاد، وفي نظامهم إذا طلبوا النظام، وفي قانونهم إذا طلبوا القانون، وفي حضارتهم إذا طلبوا الحضارة، وهكذا نزعوا شخصيتهم، وتفرقت بهم السبل، وانحاز كل طائفة منهم إلى أهل شخصية خاصة، يستظلون بظلهم، ويطلبون منهم العون والنصرة، وبذلك ذابوا في غيرهم، وفقدوا وجودهم كأمة في الحياة وجود خاص، ومنهج خاص.

تفرقوا عن رباطهم المقدس الذي يربط قلوبهم بالعزة، وفقدوا جميع الوسائل التي تدفعهم إلى الالتفاف حول ذلك الرباط، والاعتصام بحبله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أيها المسلمون:

عودوا إلى شخصيتكم، عودوا إلى شخصيتكم السماوية التي أكملها الله لكم، وربط بها خيركم وفلاحكم.

عودوا إليها وأقيموها فيما بينكم من جميع جوانبها، تأتلف قلوبكم، ويقوى سلطانكم، وتنفذ كلمتكم، وتصان عزتكم.

عودوا إلى شخصيتكم وأنقذوا بها أنفسكم من هول ما يحيطكم ويتربص بكم، وأنقذوا بها العالم من الجمر الذي يتقلب فيه، كما أنقذه بها من قبل أسلافكم.

إن الشخصية هي الشخصية، لا تزال بينة واضحة في كتابها، والعالم هو العالم، لايزال ينقاد بطبعه إلى الخير متى وجد إليه سبيلاً، ولكن كونوا أنتم كما كان آباؤكم، واعلموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

هذا هو الإســلام

العالم يكابد المتاعب:

يقاسي العالم اليوم ألوانًا من الشرور والمفاسد، ويكابد أصنافًا من الآلام والمتاعب، تقض عليه مضاجع الأمن والاستقرار، وتزلزل كيان الطمأنينة والسعادة في الأفراد والجماعة، وما مثل الناس في الزمان إلا كمثل قوم في سفينة أخذتها الأعاصير من كل جانب، واضطربت بهم في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، يكاد اليم يبتلعها بمن فيها.

أو كمثل قوم حوصروا بالنار ذات الوقود في بيت مغلق النوافذ وقد تقطعت بهم الأسباب، فجمدوا في أماكنهم شاخصة أبصارهم، يشهدون التهام النار لمتاعهم ونفائسهم، وأموالهم وأبنائهم وأنفسهم، ثم لا يستطيعون أن يحركوا ساكنًا، ولا أن يلتمسوا طريقًا للخلاص سوى العويل والصياح والاستغاثة من الخطر الذي داهمهم وحل بدارهم.

سبب النكبة:

وليس لهذه النكبة - فيما نرى ويرى عقلاء العالم - من سر سوى انسياق الناس في حياتهم مع نظم وضعها الإنسان وأملتها عليه الشهوات والنزعات، لم يقدر فيها مصالح البشر، ولم يلاحظ مقتضى الطبيعة الإنسانية، فجاءت مختلفة باختلاف بواعثها، مضطربة باضطراب ألوانها وغاياتها، متنازعة بالعصبية لها والتناحر عليها، كل أمة تعمل جاهدة على أن يسود نظامها، وتعلو كلمتها، ويستقر في العالم سلطانها، وتصبح ذات السيادة المطلقة والكلمة النافذة، فمن شيوعية، إلى رأسمالية، إلى ديمقراطية، إلى غير ذلك من ألوان عبروا عنها بكلمات مخترعة خطفوا بها أبصار الناس، وزلزلوا ضمائرهم عن الإيمان الحق.

شر متفاقم:

فمن الطبيعي - وهذا شأنها وشأن واضعيها والمتعصبين لها - أن تفضي بالعالم إلى هذا الشر المتفاقم - وأن توقد نيران الحروب في جميع أرجائه، ما بين حرب تصلي الشعوب نيرانها وتدمر البلاد والديار أسلحتها، وحرب باردة تأتي على الهدوء والسكينة فتزلزل الأمن والاستقرار من القلوب، وتثير الخوف والفزع من النفوس، وتهيج في المجتمع ألوان النفاق والأخلاق الفاسدة، وتحل عرى الجماعة، فيصبح الأخ عدواً لأخيه، وتصبح الأمة شيعًا وأحزابًا، يتربص كل بالآخرين دوائر السوء.

ويعتقد كل منهم أن خيره كله في نجاته هو وشر الآخرين، وأنه ليس عليه لوطنه ولا لمواطنيه وبني جنسه شيء من الحقوق ينبعث بها الشعور من قلبه، ويتحقق بها معنى التعاطف والتراحم.

ولعمري إن العالم سيظل في هذه الحيرة وهذا الاضطراب، بل في هذا البحر اللجي من الشرور والمفاسد، لا يجد راحة مادية، ولا يحس راحة روحية، ولا يتنسم شيئًا من النسيم الذي يبشر بالخلاص والنجاة. سيظل كذلك ما دام متمسكًا بأهداب هذه النظم التي افتجرها أساسًا لحياته فما ذاق منها إلا الخوف والجوع، والظلم والطغيان.

طريق الخلاص:

وقد أقلقت هذه الحالة كثيراً من مفكري الأمم في الشرق والغرب، ولم يبق أحد له فكر سليم، وقلب رحيم، إلا أشفق على الإنسانية من عواقب ما تتخبط فيه من ظلمات، وأخذوا ينظرون في طريق الخلاص من ذلك، والأخذ بيد الإنسانية إلى شاطئ الأمن والسلام.

وكان ممن فكر في هذا الشأن جماعة من خيار أهل الوطن العربي المحبوب، الذين امتلأت قلوبهم حبًا للخير والصلاح، وإيمانًا بواجبهم نحو أمتهم، بل نحو بني جنسهم في الإنسانية عامة.

وكان مما رأوا أن رغبوا إليَّ في أن أجمل المبادئ التي قام عليها التشريع الإسلامي تنظيمًا للحياة، وتلبية لمقتضى الطبيعة حتى يعملوا على نشرها وإذاعتها بكافة الوسائل وجميع

اللغات الحية، بيانًا للناس، وعرضًا لطريق الخلاص، وتبلغيًا لكلمة الله، فلعل قلوبًا حية تتفتح لهذا النداء، وتستمع إلى دعوة الحق فتصيخ لها، وتستجيب لمقتضاها فيتقلص الشر، وتخمد النيران وتهدأ الأعاصير.

وإني لأتقدم إلى هؤلاء المواطنين الصالحين بالشكر، وأحيي فيهم هذه الروح الطيبة، وألبي رغبتهم فأدفع إليهم بهذه الكلمة الموجزة، راجيا أن يتحقق بها أملهم الجميل، وأن يجدوا فيها ما يبتغون من بيان وإرشاد لأرباب القلوب الحية، والنفوس الطيبة الخيرة، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الإسلام:

ليس من شك في أن العالم ليس له ما يخلصه من تلك النكبة الكبرى، وهذا الشر الذي يطوقه، إلا أن يرمي عن نفسه تلك المبادئ التي افتعلها الإنسان، وأراد أن يتحكم بها فيه، تلبية لشهواته وأهوائه، وأن يلتحف بالمبادئ الإلهية التي بينها الله في كتابه، وختم بها رسالاته السماوية، وأجملها بقوله عن القرآن:

﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء).

الإسلام نظام يكفل سعادة الفرد والجماعة:

شرع الله الإسلام وجعل منه نظامًا يكفل سعادة الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة، لم يترك عنصراً من عناصر الخير والصلاح، عناصر الحياة الطيبة والسعادة الخالدة، إلا أمر به ودعا إليه وحث عليه، ولم يترك عنصراً من عناصر الشر والفساد، عناصر الحياة الذليلة والشقاء المقيم، إلا نهى عنه وحذر ونفر منه، ذلك أن الإسلام بنى تنظيمه للعالم على الواقع: وهو أن الإنسان جسم وروح، وأن للجسم حظًا ومتعة، وأن للروح حظًا ومتعة، وأن للإنسان شخصية مستقلة عن بني جنسه، وشخصية بها يكون لبنة في المجتمع الوطني والإنساني، وأن له بكل من هاتين الشخصيتين حقوقًا وعليه واجبات.

ولا تتحقق سعادة الإنسان إلا باستكماله حَظَّيِ الجسم والروح، وتنظيم حقوقه وواجباته في نفسه وفي مجتمعه دون إفراط ولا تفريط.

وكل ما جاء به الإسلام، من عقائد وعبادات وآداب وتشريعات، لا يخرج عن هذه الدائرة، دائرة رعاية حظ الجسم، وحظ الروح للإنسان في شخصه وفي مجتمعه.

وفي ظل هذا المبدأ العام الواقعي، وفي سبيل الوصول إلى الغاية السامية، وضع الإسلام المبادئ الآتية:

الشخصية المستقلة:

أولاً - العقيدة:

طلب الإسلام الإيمان بمصدر الوجود والخير، والرجوع إليه في كل شيء، وإفراده بالعبادة والتقديس والدعاء والاستغاثة، حتى لا يذل مخلوق لمخلوق، وحتى يشعر الإنسان بعزة نفسه، ولا يضل باتخاذ الوسطاء والشفعاء من دون الله.

وطلب الإيمان بيوم الحساب والجزاء، والإيمان بمعرفة طريق الحق الذي ارتضاه الحق لعباده، وربط به سعادتهم في الدنيا والآخرة، وذلك الطريق هو: ملائكة الله الذين يتلقون عنه الشرائع والأحكام، وأنبياؤه الذين يتلقون عن الملائكة ويبلغون الناس ما أمروا بتبليغه، والكتب السماوية التي هي رسالة الله لعباده، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (الآية ١٧٧ من سورة البقرة).

ثانيًا: العبادة:

رسم الإسلام طريق العبادة، وفرض منها جملة أنواع، ما بين بدنية ومالية، جعلها مددًا للإيمان، وسبيلاً لمراقبة الله، واعترافًا بالشكر على نعمه.

١ - الصلاة: فرض خمس صلوات في اليوم والليلة، يقف فيها الإنسان بين يدي خالقه ومولاه، يناجيه ويستشعر عظمته، ويريح نفسه في فترات متكررة من سلطان الحياة المادية المظلمة.

٢- الصوم: وفرض صوم شهر في السنة ـ وهو شهر رمضان ـ شكرًا على نعمة نزول القرآن، وتدريبًا على خلق الصبر الذي لابد منه في احتمال الحياة.

٣- الزكاة: وفرض الزكاة ـ وهي إخراج جزء معين من المال في سبيل الله والمصالح العامة، شكرًا على نعمة المال، وقيامًا بحق الجماعة.

٤- الحج: وفرض الحج إعلانًا لشعار الإيمان العام، وهو الالتجاء إلى الله مع جماعة المؤمنين، متجردين عن المال والأهل والولد والمساكن الطيبة، ابتغاء مرضاة الله، وتذكرا ليوم الميعاد، وجمعًا لكلمة الموحدين، وإحياء لذكرى المصلحين الأولين الذين اصطفاهم الله لإنقاذ عباده من هوة الضلال والمآثم.

فرض هذه العبادات، وبين على لسان رسوله كيفياتها ومقاديرها وأوقاتها، ووحد بين الناس في كل ذلك حتى لا تتشعب أهواؤهم ولا تختلف أنظارهم، وحتى يكون ذلك سبيلاً لجمع القلوب وائتلاف الأرواح، والشعور بوحدة الغاية والمقصد.

ثالثا- العلم:

حث الإسلام على العلم والمعرفة، وفك عن العقل البشري أغلال التقليد والجمود، ودفع به إلى معرفة أسرار الله في خلقه: أرضه وسمائه، مائه وهوائه، ذلك ليقوى الإيمان بالله، وليسعد الناس باستخدام ما يدركون من أسرار هذا الكون الذي أخضعه الله للإنسان وسخره له في حياته.

ومن هنا، أعلى شأن العلماء الذين خاضوا غمار هذا الكون، وانتفع الناس بما أدركوا:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الآية ٩ من سورة الزمر).

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (الآية ١١ من سورة المجادلة).

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (الآية ٢٨ من سورة فاطر).

وفي سبيل الحث على العلم حارب الأمية وأوصى بتعلم الكتابة.

رابعًا - المال:

الأمر بتحصيل الأموال:

أمر الإسلام بتحصيل الأموال، وقرر أنها قوام للناس، وعصب لحياتهم، وجعل السعي في تحصيلها من الطرق المشروعة - وهي: الزراعة والتجارة والصناعة - عديلاً لعبادة الله

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الآية ١٠ من سورة الجمعة).

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الآية ١٥ من سورة الملك).

الأمر بالمحافظة على الأموال:

وأمر الإسلام بحفظها، ونهى عن تبذيرها واغتيالها، واستغلال حاجة المعدم إليها، وجعل فيها حقًا للفقير الذي لا يستطيع العمل، وللمصالح العامة.

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ (الآيات ٢٦- ٢٩ من سورة الإسراء).

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الآية ١٩٥ من سورة البقرة).

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الآية ١٨٨ من سورة البقرة).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ (الآيات ٢٧٨- ٢٨٠ من سورة البقرة).

النهي عن الترف والتبذير:

ويجانب هذا قرر الإسلام أن الترف منبع شر، يقضي على أخضر العالم ويابسه

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (الآيتان ٣٤، ٣٥ من سورة سبأ).

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ (الآيات ١١ - ١٥ من سورة الأنبياء).

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ (الآيات ٦٤ - ٦٦ من سورة «المؤمنون»).

وبذلك حارب في القائمين على الأموال الذين لهم فيها حق التصرف - مالكين أو مشرفين - حارب فيهم الترف والبذخ والتبذير فيما لا يعود بخير على الأمة، وجعل للحاكمين الحق في أن يقفوا للمسرفين المبذرين بالمرصاد، حتى يحتفظوا بأموال الله التي استخلفهم فيها، والتي هي قوام الحياة للفرد والجماعة، وحتى تسلم صدور المقلين من الحقد الذي تولده وتنميه مظاهر الترف والإسراف، التي تحيط بهم وتقع عليها أبصارهم، وهم محرومون من حاجتهم الضرورية والمعيشة المطمئنة المريحة.

خامساً - العرض:

أمر الإسلام بحفظ العرض احتفاظًا بعنوان الشرف والكرامة، واقتلاعًا لبذور الفوضى الجنسية التي تقضي على نظام الأسرة والأنساب، وتجعل الأفراد لبنات مبعثرة لا يجمعها رباط، ولا يظللها قبيل. وقرر أن الاختصاص في الحياة الجنسية كالاختصاص في الملكية الشخصية، كلاهما عنصر من عناصر الحياة الآمنة الشريفة، وبفقدهما أو فقد أحدهما تنفصم العرى وتنقطع الروابط، ويصير الإنسان إلى إباحية مطلقة، أو قسوة ووحشية.

سادساً - الصحة:

أمر الإسلام بحفظ الصحة، وحارب المرض، فأمر بالوقاية وحذر من العدوى وحث على التداوي، وأباح للمريض أو الخائف من المرض إذا توضأ أن يتيمم، واكتفى به طهارة له، وأباح الفطر في المرض والسفر، والحيض والنفاس، والحمل والإرضاع والشيخوخة.

كل ذلك عناية بالصحة ووقاية من الأمراض، والإسلام يبني أمره كما قلنا على الواقع، والواقع أنه لا علم إلا بالصحة، ولا جهاد إلا بالصحة، ولا عمل إلا بالصحة.

سابعًا - العقل:

أمر الإسلام بحفظ العقل الذي هو ميزان الخير والشر في هذه الحياة، فحرم كل ما يفسده أو يضعفه.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (الآية ٩٠ من سورة المائدة).

وجاء على لسان الرسول ﷺ «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام».

ثامنًا - حفظ الجسم والروح:

مكن الإسلام من حفظ الجسم، وأباح له التمتع بالطيبات في مأكله ومشربه، وفي ملبسه ومسكنه بحسب وسعه وقدرته دون إسراف أو تبذير، وأباح التمتع بحاجة نفسه من الزوجة والمال والولد، ومكنه من متعة الروح بالعلم من طريق التصفية والرياضة، وعن طريق الفكر والتدبر في جلال الله وجماله، وما خلق الله من آيات وعجائب.

﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾

﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ (الآيتان ٣٢، ٣٣ من سورة الأعراف).

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ**

الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (الآيتان ٨٧ ، ٨٨ من سورة المائدة).

الشخصية المجتمعة:

تاسعًا - القوة:

أمر الإسلام، حفظًا لكيان الدولة، ورد غائلة المعتدين، بتحصيل القوة واتخاذ العدة التي بها يكافح الأعداء

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ (الآية ٦٠ من سورة الأنفال).

وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن القوة ليست في نظر الإسلام إلا طريقًا من طرق الإصلاح، وسبيلاً من سبل السلم بإرهاب المفسدين ورد المغيرين، وتقوية جانب الخير بشد أزر المصلحين، وأنه لا يقرها طريقًا للإذلال والتخريب، وإخراج الناس من ديارهم وسلب أموالهم والتضييق عليهم في الحياة، ولا يريدها إكراهًا للناس على اعتناق الدين

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الآية ٢٥٦ من سورة البقرة).

عاشرًا - المساواة:

قرر الإسلام المساواة بين الناس، وقضى في الحقوق والواجبات على الفوارق بين بني الإنسان، وأعلنهم في صراحة لا تعرف المواربة أنهم جميعًا من نفس واحدة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

(أول سورة النساء)

وأنهم ما جعلوا شعوبًا وقبائل للتفاضل أو للتناحر والتقاتل، ولكن للتعارف والتعاون ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الآية ١٣ من سورة الحجرات).

حادي عشر ـ التشريع:

وضع الإسلام الأحكام، وأصول التشريعات المنظمة لحياة الإنسان، وكان سبيله في ذلك أنه لم يترك الناس يشرعون لأنفسهم في كل شيء، ولم يقيدهم بتشريع معين في كل شيء، وإنما نص وفوض، نص على أحكام ما لا تستقل العقول بإدراك الخير فيه، وما لايختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، وفوض فيما وراء ذلك ـ معرفة ما تقضي به المصلحة ـ لأرباب النظر والاجتهاد في حدود أصوله العامة، وبذلك حفظ الإسلام للعقل الإنساني كرامته، وصانه في الوقت نفسه من الاضطراب والفوضى.

ثاني عشر ـ تكوين المجتمع:

منح الإسلام الإنسان باعتباره فردًا شخصية مستقلة، وجعله في الوقت نفسه لبنة في بناء المجتمع. وبالاعتبار الأول أثبت له حق الملكية لماله ودمه، وحق الهيمنة على نفسه وولده، ومنحه في هذه الدائرة حق التصرف بما يكون مصلحة له، وسبيلاً مقومًا لحياته دون مساس بحق الغير.

وبالاعتبار الثاني أوجب عليه للمجتمع حقًا في نفسه، يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويخرج للغزو والجهاد في سبيل رد العدوان، ويساهم في كل ما يستطيع في مرافق الحياة ووسائل رفاهيتها، وأوجب عليه حقًا في ماله بالبذل والإنفاق في سبيل الله والمنافع العامة بما يفضل عن حاجته وحاجات من يمونهم، ويلي عليهم ولاية خاصة، كما حثه على أن يعمل ـ إن كان قادراً ـ على إيجاد النسل القوي الصالح الذي يرفع بقوته وصلاحيته صرح المجتمع على كاهله.

ومقابل هذه الواجبات، التي فرضها الإسلام على الفرد للمجتمع، أثبت له أيضًا حقوقًا أخرى على المجتمع، فكلف المجتمع الممثل في الحاكم وأولي الأمر بحفظ دمه وماله

وعرضه، وشرع لحماية ذلك العقوبة من قصاص وحد وتعزيز، وبذلك تبادل الفرد مع المجتمع ـ في الوضع الإسلامي ـ الحقوق والواجبات.

ثالث عشر ـ الأخلاق:

شد الإسلام أزر هذه المبادئ ـ التي لابد منها في أصل الحياة وحفظها ـ بجملة من الآداب الفردية والاجتماعية، تخلع على الإنسان في شخصه ومجتمعه حلة البهاء الإنساني والجمال النفسي، وتقيه شر التدهور والانحلال:

أ- ففي أدب التواضع والمشي والنداء، واشتغال الإنسان بما لا يعنيه وجريه وراء الظنون الفاسدة والخواطر السيئة:

﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور (١٨) واقصد في مشيك واغضض من صوتك ﴾ (الآيتان ١٨، ١٩ من سورة لقمان).

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا (٣٦) ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا (٣٧) كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ (الآيتان ٣٦، ٣٧ من سورة الإسراء).

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ﴾ (الآية ١٢ من سورة الحجرات).

ب ـ وفي أدب الزيارة للبيوت:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون (٢٧) فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ﴾ (الآيتان ٢٧، ٢٨ من سورة النور).

جـ ـ وفي سد أبواب الفتنة الجنسية:

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما

يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة النور) .

د ـ وفي أدب المجالس :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ (الآية ١١ من سورة المجادلة) .

هـ ـ وفي أدب تلقي الأخبار وإذاعتها :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الآية ٦ من سورة الحجرات) .

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الآية ٦٠ من سورة الأحزاب) .

و ـ وفي أدب اجتماعي خطير :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الآية ١١ من سورة الحجرات) .

ز ـ وفي معاملة المسالمين المخالفين في الدين :

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الآية ٨ من سورة الممتحنة) .

رابع عشر ـ أساس الحكم ومصادر التشريع :

هذه جملة المبادئ الأصلية التي وضعها الإسلام سبيلاً للحياة الطيبة ، وقد صانها الإسلام فوضع العدل والشورى أساسين للحكم فيها ، وبين مصادر التشريع التي يتجه إليها المشرعون فيما يحتاجون من أحكام : ففي العدل

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (الآية ٥٨ من سورة النساء).

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (الآية ١٥٢ من سورة الأنعام).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (الآية ٨ من سورة المائدة).

وفي مبدأ الشورى

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ (الآية ١٥٩ من سورة آل عمران).

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الآية ٣٨ من سورة الشورى).

وفي بيان مصادر التشريع

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الآية ٥٩ من سورة النساء).

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (الآية ٤٩ من سورة المائدة).

ثم لم يقف في صيانة هذه المبادئ عند جانب الحكم، بل اتجه إلى الناس جميعًا وأمرهم بتقوى الله فيها والتزام حدوده منها، وحذرهم مخالفتها والسكوت على مخالفتها، ودعاهم إلى الاعتصام بحبلها والتضامن فيها والتواصي بها حاكمين ومحكومين، رعاة ورعايا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ (الآيتان ١٠٢، ١٠٣ من سورة آل عمران).

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الآيتان ١٠٤، ١٠٥ من سورة آل عمران).

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الآية ٤٦ من سورة الأنفال).

أما بعد:

فهذا هو الإسلام، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، ينظمون به حياتهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، بعث بأصوله الرسل وبيَّنه في الكتب، ثم أكمله بما يناسب رقي الإنسان في آخر كتبه المنزلة وهو القرآن الكريم، وعلى لسان خاتم الأنبياء والمرسلين، محمدﷺ، أجملناه في هذه الكلمات ليكون منارًا يسترشد به المسترشدون في هذه الظلمة الحالكة. ظلمة الإلحاد والشيوعية التي تحاول أن تطوق العالم بنكبتها، ولا يدري الإنسان ماذا يكون خاتمة أمره فيها. وليكون تبصرة وذكرى لأولي الألباب، وليكون حدًا فاصلاً بين الحقيقة التي أنزلها الله، وبين الانحراف الذي وقع فيه العالم، وتفكك به المسلمون.

ونريد أن نقرر هنا أن من آمن بهذه الأسس، واحترم وقدس هذه المبادئ كان مسلمًا حقًا، تجري عليه أحكام الإسلام، وأن من أخل باعتقاد شيء منها أو خرج على احترامها، خرج عن دائرة الإسلام، وكان من الملحدين في آيات الله، الكافرين بشرائعه وكتبه، لاتجري عليه أحكام الإسلام، فلا يحقن له دم، وتبين منه زوجته، ولا يستحق ميراثًا من أقاربه، ولا يصلى عليه إذا مات، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

هذه هي دعوتنا اليوم نرجو أن تتفتح لها القلوب وينفذ نورها إلى البصائر.

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (الآية ١٠٤ من سورة الأنعام).

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الآيتان ١٦، ١٧ من سورة الحديد).

عنصر الخلود في الإسـلام

شخصية الأمة:

لابد للأمة في وجودها من شخصية معنوية تحفظ عليها وجودها المعنوي، كما أن لها شخصية حسية تحفظ عليها وجودها الحسي . . . وإذا كانت شخصيتها الحسية ترجع إلى إقامتها في إقليمها الذي نشأت فيه، وافترشت أرضه والتحفت سماءه، وحملت اسمه، فإن شخصيتها المعنوية التي تحفظ عليها وجودها المعنوي، ترجع إلى شعورها بمركزها في الحياة، وفي نصيبها من الحياة، وفي وحدة تفكيرها على هذا النصيب من الحياة.

وليس من شك في أن الشخصية المعنوية إذا انعدمت أو ضعفت انعدم وجودها المعنوي أو ضعف. وبذلك تصير الأمة إلى الذل وإن كانت في إقليمها، وإلى فقر وإن كان ينزل عليها المن والسلوى، وفي قلة وإن ضاقت أوديتها بأبنائها، هي غثاء كغثاء السيل، تتهافت عليها الأمم ذوات الشخصيات المعنوية، كما تتهافت الأكلة على قَصعتها وصدق رسول الله.

سبيل الاحتفاظ بشخصية الأمة:

خطر ينزل بالأمم فيباين بين عقليات أبنائها ويفرق بين قلوبها، ويفقدها شخصيتها، ويؤدي بها إلى الفناء وإن كانت تغدو وتروح، وتتحرك وتسكن، ولا وقاية للأمة من هذا الخطر إلا بمسارعة العقلاء وأرباب الرأى فيها، وقادة العلم والتثقيف إلى العمل على توحيد العقلية، أو تلقيح العقليات المختلفة بما يقرب بعضها من بعض ويجعلها ذات رحم واحدة، تتفق جميعها على تلك الرحم والقيام بواجبها، فيتحد الشعور، وترتبط القلوب، وتجتمع الكلمة، ويبرز الهدف الذي يعمل له الجميع واضحًا جليًا أمام الجميع وهو: عزة الأمة والاحتفاظ بشخصيتها في هذا الوجود.

وإذا كان اختلاف العقليات في عصرنا الحاضر، وفيما يجب أن تفهم به الحياة وتسير عليه، أدى ويؤدي إلى فقد شخصية الأمة وذهاب ريحها، فإن اختلاف عقليات الناس

جميعًا في الدين، وتعرف حقيقته وهدفه ومصدره، أدى إلى هذه الفرقة، بل إلى تنابذ وشقاق، وحرب وخصام بين أفراد الناس جميعًا، فتقطَّع ما بينهم من الرحم الإنساني العام، وجعلوا هداية الله لخلقه مشارب مختلفة، وأديانًا متعددة، وحكموا في سبيل التفريق لهداية الله الواحد تقاليد افتجروها، أو جنسية نزعوا إليها، أو سياسة جروا عليها، وكان من ذلك أن وجدت في أذهان الناس «يهودية» ذات تعاليم خاصة، أنزلها الله على (موسى) ولها أتباع تمسكوا بها، وحاربوا عليها، وخاصموا فيها، و«نصرانية» ذات تعاليم خاصة أنزلها الله على (عيسى)، ولها أتباع تمسكوا بها، وحاربوا عليها، وخاصموا فيها، و«إسلامية» ذات تعاليم خاصة، أنزلها الله على (محمد) ولها أتباع تمسكوا بها، وحاربوا عليها، وخاصموا فيها.

وبذلك تعددت الأديان في الأرض، وتنافرت هداية الله للخلق، والدين واحد في السماء، لا يهودية فيه ولا نصرانية. وإنما هو دين واحد، وهداية واحدة، تحمل نظامًا واحدًا، من مصدر واحد، هورب السموات والأرض، وهو إله الناس أجمعين.

الإسلام هو الدين عند الله:

ليس الإسلام كما يفهم كثير من الناس دينًا جديدًا، وإنما هو ـ كما نص القرآن الكريم ـ دين الله، أوحاه إلى جميع رسله، أرسل به أول رسول إلى خلقه، ثم أرسل به رسله تترى لإنهاض الناس على اختلاف عقلياتهم، وتنظيمهم حسب اجتماعاتهم، حتى كملت الإنسانية وبلغت رشدها في العقل والتفكير، فأرسل محمدًا يجدد ويصدق دعوة إخوانه الأولين، ويكمل بما يقتضيه النضج الإنساني والرشد البشري. وبذلك كان رسل الله كما صورهم رسول الله محمد بُنَاةَ بيت واحد وسعادة واحدة، ودعوة واحدة «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة؟! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

وشواهد تلك الوحدة كثيرة في القرآن الكريم، أخذ الله العهد والميثاق على كل نبي يرسله أن يصدق من يأتي بعده، ويؤيد من جاء قبله، حتى يتحقق من الجميع القيام بنصيبه في المهمة الواحدة:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(الآيات ٨١ ـ ٨٥ من سورة آل عمران)

وظهرت وحدة دين الله في هذه الآية، كما ظهر أن دين الله هو الإسلام:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾(الآية ١٩ من سورة آل عمران).

وفي قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(الآيات ١٣٠ ـ ١٣٢ من سورة البقرة)

ويجدر بنا أن نضع بإزاء هذه الآية قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (الآية ١٠٢ من سورة آل عمران).

لنعلم أن كلمة الأولين من رسل الله هي كلمة الآخرين منهم، وأن الطريق هو الطريق، وأن الدين هو الإسلام:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(الآية ٦٤ من سورة آل عمران)

وبإزاء هذه الآية نضع قوله تعالى في اختراع اليهودية والنصرانية، وحل عرى الوحدة الدينية بهما :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الآية ٦٧ من سورة آل عمران).

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (الآيات ١٣٥ ـ ١٣٨ من سورة البقرة).

هذه الآيات وأمثالها وهي كثيرة في القرآن الكريم تبرز لنا في وضوح وجلاء وحدة الدين عند الله، كما تبرز لنا أن الدين عند الله هو الإسلام، دعا إليه أول رسول، كما دعا إليه آخر رسول، ظهر على لسان أولهم، وكمل على لسان آخرهم :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾(الآية ٣ من سورة المائدة).

ليس من المعقول أن تصدر من الحكيم العليم ـ الخبير بطيات النفوس ودخائلها، المهيمن عليها، المقدر لخيرها وسعادتها ـ أديان متناقضة متعاكسة، لا يمكن لعقل أن يوفق بينها، لا في حقيقتها، ولا في مسلك الناس في ظلها وقد أنبأ الله في أول الخلق والتكوين أن الذي يصدر منه لعباده هو هدى ورحمة للناس أجمعين، ولا رحمة من المتناقضات والمتنافرات، وإنما الرحمة في تصوير الحق والدعوة إليه. والحق لا يعارض الحق ولا يناقضه، وإنما يعارضه الباطل ويعاكسه. وفي ذلك يقول بعد قصة آدم وتوبته من وسوسة الشيطان وطاعته :

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤ من سورة طه).

خلود الإسلام بخلود مصدره:

وإذا كان الإسلام هو دين الله، وهو هدايته لخلقه، رسمه من مبدأ الخليقة، وبعث به رسله إليهم، يدعونهم إليه، ويحذرونهم مخالفته والانحراف عنه، والله هو الحي القيوم الذي له الأزلية والأبدية، والذي له الرحمة الذاتية. فالإسلام باعتبار مصدره ومنظمه، وباعث الرسل به بدءاً وتكميلا، له من الخلود ما لرحمة الله بعباده من الخلود، وإذا كانت رحمة الله بعباده دائمة لاتنقطع، فالإسلام وهو مظهر تلك الرحمة لا يمكن إلا أن يكون دائمًا في الحياة لا ينقطع، وهذا هو أول ما ندركه في معرفة عنصر الخلود في الإسلام.

الإسلام يضمن السعادة للجميع:

وإذا آمنا بهذا الجانب واقتنعنا به كعنصر خلود في الإسلام بالنظر إلى مصدره، وهو الله الرحيم، الدائم، الخالد، فإنه يجدر بنا أن ننظر فيما وضعه الإسلام من تعاليم، ونعرف مدى تكفلها بسعادة الإنسان. ونحن إذا نظرنا هذه النظرة، وقبلنا تعاليمه جملة وتفصيلاً، لوجدنا أمثل نظام يضمن سعادة الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة، لم يترك عنصراً من عناصر الخير والفلاح، عناصر الحياة الطيبة والسعادة الخالدة إلا أمر به، ودعا إليه، وحث عليه. ولم يترك عنصراً من عناصر الشر والفساد، عناصر الحياة الذليلة والشقاء المقيم إلا نهى عنه، ونفر منه.

وإلى هذا المبدأ يشير قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

(الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الإسراء)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

(الآية ٢٢ من سورة الأنفال)

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾(الآية ٦٦ من سورة المائدة).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الآية ٩٧ من سورة النحل).

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾

(الآية ٢٥ من سورة الحديد)

أسس الإسلام في صلاحية البشرية:

وذلك أن الإسلام بنى تنظيمه للعالم على الواقع، وهو أن الإنسان جسم وروح، وأن للجسم حظًا ومتعة، وأن للروح حظا ومتعة، وأن للإنسان شخصية مستقلة عن بني جنسه، وشخصية يكون بها لبنة في المجتمع الوطني والإنساني، وأن له بكل من هاتين الشخصيتين حقوقًا وعليه واجبات، ولا تتحقق سعادة الإنسان إلا باستكماله حظي الجسم والروح على وجه من الاعتدال الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، وإلا بتنظيم حقوقه وواجباته في علاقته بربه، وعلاقته بمواطنيه وبني جنسه، على وجه من الاعتدال الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

ونحن إذا عرضنا ماجاء به الإسلام من عقائد وعبادات وآداب وتشريعات لوجدناه واقعًا في هذه الدائرة، دائرة رعاية حظ الجسم وحظ الروح للإنسان في شخصه وفي مجتمعه.

الإسـلام يدعو إلى السـلام

يقاسي العالم ألوانًا من الشرور، ويكابد أصنافًا من الآلام، تقض عليه مضاجع الأمن والاستقرار، وتزلزل كيان طمأنينته وسعادته، وتملأ القلوب رعبًا من هول المفاجآت التي تحمل بين طياتها عوامل التخريب والتدمير، وتقذف بالناس إلى مهاوي التهلكة والدمار.

وبإزاء هذه الحالة يتحدث العقلاء كثيرًا عن قضية السلام العالمي، ويبذلون جهودهم المضنية في سبيل الحصول على حل لها يطمئن العالم على حياته، ويوجهه إلى مناحي الخير والسعادة.

ولو أن أرباب القوة الغاشمة فكروا قليلاً في مصير العالم بموافقتهم الطغيانية، وثابوا بذلك إلى رشدهم، ورجعوا إلى تعاليم السماء وهداية الله التي يزعمون أنهم بها مؤمنون، لو أنهم فكروا كذلك، وعرفوا أن ما سيفاجئون به العالم سيحيق بهم وبأسرهم وبأممهم قبل أن يحيق بغيرهم، لكان لهم من هذا وذاك ما يردهم إلى صوابهم، ويفتح لهم أبواب العمل على أمن البشرية وطمأنينتها، وعلى أن تحل السكينة والأمن من قلوب الناس محل الفزع والاضطراب، ولكانوا بذلك قد مشوا في جو الحكمة الإلهية في خلق هذا العالم، وتسخير موارده وأسراره للإنسان، ينتفع بها في الترفيه عن نفسه وعن سائر البشرية، ولكانوا جديرين عندئذ بمكانة الخلافة التي ربطها الله بالإنسان حينما قدر خلقه وتكوينه، ولكانوا بخطتهم هذه قوى تعمير وبناء يفوتون بها على الملأ الأعلى حكمة جهله بحكمة. الله تعالى في جعل النوع الإنساني خليفة في الأرض:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (الآية ٣٠ من سورة البقرة).

مبادئ السلام في هداية الله:

لو أنهم فعلوا ذلك، وفكروا قليلاً، واتجهوا إلى هداية الله بقلوب مخلصة وضمائر نقية، لعرفوا أن أول ما أسست عليه هذه الهداية ـ فيما تختص بعلاقة الناس بعضهم مع

بعض - أنهم جميعًا أبناء رجل واحد وعباد رب واحد، وأن مقتضى اتحاد الأصول، وتوحد المعبود، تآلف الفروع وأخوة العابدين وتعاونهم جميعًا على القيام بواجب الرحم، وبحق المعبود الذي يغضبه أن تتفرق السبل بعباده، وأن يبغي بعضهم على بعض.

نداءات إلهية تجمع ولا تفرق:

ففي هداية الله لعباده نداؤهم جميعًا بوصف النبوة لآدم:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ (الآية ٢٦ من سورة الأعراف).

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ (الآية ٢٧ من سورة الأعراف).

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الآية ٣١ من سورة الأعراف).

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الآيتان ٣٥، ٣٦ من سورة الأعراف).

وفي هداية الله لعباده نداؤهم جميعًا بوصف الإنسانية، موضع التكريم الإلهي:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ (أول سورة النساء).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الآية ١٣ من سورة الحجرات).

وفي ظل هذا الأساس العام جاءت هداية الله بالحث على مكارم الأخلاق واتخاذها أساسًا للمعاملة:

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (الآية ٣٤ من سورة فصلت).

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ (الآية ١٩٩، ٢٠٠ من سورة الأعراف).

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾

(الآية ٦٣ من سورة الفرقان)

مكانة السلام في الإسلام:

ومن هنا جعل السلام تحية عباده الصالحين:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾

(الآيتان ٩، ١٠ من سورة يونس)

وجعله تحية المؤمنين لنبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

(الآية ٥٦ من سورة الأحزاب)

وجعله تحية المؤمنين بعضهم لبعض:

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾

(الآية ٦١ من سورة النور)

وجعله مفتاحًا لدخول البيوت:

﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾

(الآية ٢٧ من سورة النور).

وأخيرًا جعله تحية لجميع رسله:

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾

﴿ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ (آيات السلام على المرسلين في سورة الصافات).

وهكذا أشاع السلام في هدايته، وجعله تحيته لأصفياء خلقه، وشعارًا لعباده المعترفين بفضله المؤمنين بحكمته، وقد رفع السلام فجعله اسمًا لدار كرامته ونعيمه، ثم رفعه وجعله اسمًا لذاته العلية:

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ﴾ (الآية ٢٣ من سورة الحشر).

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الآية ١٢٧ من سورة الأنعام).

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الآية ٢٥ من سورة يونس).

وما كان ليشيع السلام في هدايته لعباده على هذا النحو، إلا ليغرس في قلوبهم حب السلام، والعمل على السلام.

وإذا كان الله يحب من عباده أن يكونوا على صفته ـ وكان إعلانه أسماءه وصفاته توجيهًا لهم نحو ما في هذه الأسماء والصفات من كمال تنزل الإنسانية عن مكانتها عنده، إذا انحرفوا عن التحلي بما توحي به ـ كان من مقتضى الإنسانية المكرمة أن تعمل جهدها في التحلي بالسلام، والدعوة إلى السلام، وإفشائه بين العباد.

الخروج عن مبدأ السلام:

على هذا الأساس قامت هداية الله، وكان الخارجون على مبدأ السلام خارجين على هداية الله، وكانت دعوى الإيمان منهم بالله وبهدايته دعوى يعوزها البرهان، بل كانت دعوة تغرير وخداع، وكذب وبهتان.

دعت هداية الله إلى السلام، وجاء فيها:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ

شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(الآية ٦٤ من سورة آل عمران)

وجاء فيها النعي الشديد على أتباع الرسل في منابذهم، ووجهت إليهم جميعًا دعوة السلم العام:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الآية ١١٣ من سورة البقرة).

السلام والمخالفة في الدين:

دعت هداية الله إلى السلام، إلى حد أنها لم تجعل المخالفة في الدين الحق سببًا من أسباب العدوان والبغي، ونرى ذلك جليًا في قوله تعالى:

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الآية ٨ من سورة الممتحنة).

ونراه في المبدأ العام الذي جعلته أساسًا لمعاملة أهل الكتاب الذين لا يؤمنون برسالة محمد، ذلكم المبدأ المعروف وهو تركهم وما يدينون، والتحذير من التعرض لهم في شعائرهم وأموالهم، والتسوية بينهم وبين المسلمين في الحقوق والواجبات العامة، وسمت في كل ذلك حتى أوجبت على المسلمين إعانة المتكوبين منهم، وأباحت الاختلاط بهم، والتعاون معهم ومصاهرتهم، وما أباحت القتال إلا عند العدوان واستلاب الحقوق، وهنا فقط أباحت القتال ردًا للبغي، وهو في الحقيقة تقرير للسلام وإقامة للموازين العادلة

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾(الآية ٧ من سورة التوبة).

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (*) (الآية ٦٥ من سورة الأنفال)

(*) (راجع في هذا الموضوع كتابنا «القرآن والقتال).

اتخاذ العدة وسيلة السلام:

وما كان الأمر باتخاذ العدة في الإسلام

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الآية ٦٤ من سورة الأنفال).

إلا نوعا من الوسائل التي ترد بغي الباغين، وتحقق السلم والاطمئنان . .

وكما اتخذت هداية السماء الأمر بالعدة وسيلة من وسائل السلام اتخذت مبدأ العمل على فض المشاكل الإنسانية، التي ينشأ عنها العدوان بحسب الطبائع البشرية، وأوحت بذلك في قوله تعالى:

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الآية ٩ من سورة الحجرات).

وهذا هو الشأن الإلهي في القضاء على ما قد يكون بين الأفراد والأمم من منازعات، تؤدي بروح السلام فيما بينهم إذا لم يتدارك الأمر، ويقضي بالعدل في أسباب تلك المنازعات، وقد اتخذها الإسلام دينًا يحكم فيه الضمير والإيمان، ولم يجعله مظهرًا يبرر به العدوان، وتتحكم فيه الشهوات بالنقض فيما لا تحب والإبرام فيما يحب.

وبعد:

فهل لأبناء آدم وعباد الله أن يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى هداية ربهم، ويتداركوا الأمر قبل وقوع الكارثة، ويعملوا على إحلال الأمن والسلام محل الخوف والاضطراب، والتفاهم والتعاون، محل التخاصم والتعادي؟ اللهم ندعوك باسم السلام وأنت السلام، أن تحول قلوب عبادك إلى السلام.

في الحقـل الاجتماعي

الرسالة المحمديَّة وإصلاح المجتمع

مسلكان: المادية البحت، والروحية البحت:

للناس في هذه الحياة مسلكان: مسلك المادية البحت، الذي يعني فقط بشئون الحياة الظاهرة من مال وسلطان، وجاه ونفوذ، غير مكترث بوسائل هذه الأهداف، ولا بمواضع إنفاقها والانتفاع بها.

ومسلك الروحية البحت، الذي يعنى فقط بالروح، وبشئون الروح: اعتكاف وتبتل، وصوم ورياضة ينقطع بها الناس عن الحياة المادية كلها.

مسلكان. وفي كل منهما وقوف بالإنسانية دون الغاية التي هيئت لها بمقتضى الخلق، والتكوين، وبمقتضى ما سخر لها من عناصر الكون المادية، وبمقتضى ما اختيرت له من أن تكون مظهراً لجلال الله وجماله. فليس في المادية البحت - كما رأينا ونرى في العالم - سوى الطغيان والظلم، والاستعباد والذل، والتحكم الغاشم بالأرواح والأموال والأعراض.

وليس في الروحية البحت - كما سمعنا - سوى الخراب والدمار، وتعطل ما كرمت به الإنسانية من قوى التفكير والإرادة والعمل، هذا التعطل الذي به يفقد الإنسان خصائصه ومزاياه، وبه تظل أسرار الكون ومنافعه كامنة في أطباق الأرض وأجواء السماء، وبه تضيع حكمة الخالق في هذا العالم، وفي خلق الإنسان على النحو الذى خلق ودبر، وللغاية التي لأجلها خلق ودبر.

ومن هنا، لم يكن بد في نظر الحكمة الإلهية أن تمد الإنسان بإصلاح عام شامل، يحفظ عليه مكانته، ويحقق الغاية التي لأجلها خلق، وينعم في ظله بالإرادة والحرية والتفكير، وثمرة الجهود والعمل، في حصن من الإيمان والعدل، والأمن والاستقرار.

الرسالة المحمدية:

بهذا الإصلاح الذي استشرفته الإنسانية، وأعدت له وتطلعت إليه، وجاءت الرسالة المحمدية.

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة) .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء) .

وتحقيقًا للسعادة المقدرة للإنسان بنت الرسالة المحمدية إصلاحها البشري على الواقع الذي خلق عليه الإنسان ، وهو أنه جسم له حظ ومتعة ، وروح لها حظ ومتعة ، وأن له شخصية مستقلة ، يسأل بها عن نفسه ، وشخصية يكون بها لبنة في بناء المجتمع «وطنيًا خاصًا ، وإنسانيًا عامًا» وأن له بكل من هاتين الشخصيتين حقوقًا وعليه واجبات .

وليس من ريب في أن سعادة الإنسان ، وقد خلق هكذا ، لا تتحقق إلا باستكمال حظه الجسمي والروحي معًا ، واستكمال حظه الاستقلالي و الاجتماعي معًا ، وقد جاء الاسلام بما يحقق له تلك السعادة من جميع هذه النواحي ، وكان كل ما جاء به ـ من عقائد وعبادات وآداب وتشريعات ـ عنصرًا من عناصر هذا المزيج الإصلاحي العظيم ، الذي قضى به على المادية البحت وقال :

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ (الآية ٢٠٠ من سورة البقرة) .

وقضى به على الروحية البحت وقال :

﴿ لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (الآية ٨٧ من سورة المائدة) .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (الآية ٣٢ من سورة الأعراف) .

جانب الروح:

ففي جانب الروح طلب الإيمان بمصدر الوجود والخير ، وإفراده بالعبادة والتقديس ، والدعاء والاستعانة ، وبذلك يشعر الإنسان بعزة نفسه ، ويأبى العبودية لغير الله ، وطلب

الإيمان بيوم الحساب والجزاء، وطلب الإيمان بطريق الحق الذي ارتضاه الله نظامًا لعباده، وربط به سعادتهم في الدنيا والآخرة، وبذلك فك عن العقل البشري الأغلال التي قيده بها الحكام والطغاة ورؤساء الأديان، وجعل له من حرية التفكير والإرادة ما يفهم به قيمة نفسه في هذه الحياة، وما يجب عليه فيها، وفتح له كتاب الكون لينظر فيه ويملأ قلبه بأسراره، فينفع وينتفع بما أدرك وعرف، ثم غذى هذا الإيمان بعبادات من شأنها أن تديم على الإنسان مراقبة الله في سره ونجواه، في قوله وفعله، وتخلق في قلبه عاطفة الرحمة والنجدة لإخوانه الضعفاء والفقراء «والرحمة حبل متين يربط القلوب ويزاوج بين النفوس ويوحد الشعور» وتغرس في نفسه خلق الصبر في مكافحة المكاره والشدائد «والصبر قوة تذوب الشدائد على صخرتها». وتبعث فيه بعد هذا كله رغبة التعرف بإخوانه دعاة الخير والفضيلة مجتمعًا بهم في إقليم واحد، له منذ القدم تاريخ خاص، وشأن خاص في تبليغ هداية الله للخلق، على أيدى الأخيار الذين اصطفاهم لتبليغ هدايته

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (الآية ٣٧ من سورة إبراهيم).

تلك العبادات هي الصلوات الخمس في اليوم والليلة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

جاء الإسلام بالإيمان والعبادة هكذا طريقًا للإصلاح الروحي، والإصلاح الروحي إصلاح باطني، يملك على الإنسان قلبه وشعوره، ويوجه جوارحه وأعماله نحو الوجهة التي تتجه لها الروح ويتعلق بها القلب، وبذلك يكون الإنسان بظاهره وباطنه، وأقواله وأفعاله وتدبيره لله، يراقبه سبحانه ويهدف إلى مرضاته دون أن يميل أو ينحرف:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الآيتان ١٦٢، ١٦٣ من سورة الأنعام).

جانب المادة:

أما في الجانب المادي فقد جاء الإسلام مطالبًا بحفظ الصحة، فأمر بالعلاج والوقاية، وقد بلغ في هذا الشأن أن جعل للوقاية من الأمراض تأثيرًا على ما فرض من عبادات،

فأباح الفطر في رمضان، وعدم استعمال الماء في الطهارة إذا خاف الإنسان المرض أو ازدياده، كما تجاوز بمثل تلك الحالة عن القيام والقعود في الصلاة واكتفى بحركة الرأس أو العين أو القلب في أدائها، رمزًا للعبادة والتقديس.

وقد حفظ الإسلام البشرية من الطغيان والفوضى، بأن وضع نظامًا للأموال من شأنه - إذا اتبع وحوفظ عليه - أن يكون الناس في وقاية من شر الطغيان المالي، ومن شر الترف والتبذير. ومن شأنه في الوقت نفسه أن يبيح للناس التمتع بطيبات ما اكتسبوا في المأكل والمشرب، والملبس والمسكن، دون إفراط أو تفريط، والتحكم في الجهود وثمرات العمل. ولم ينس الإسلام في هذا الشأن أن يلفت أنظار الناس إلى أنهم مستخلفون في الأموال وأنها كلها لله، يضعها حيث شاء، ويأمر فيها بما يشاء، ومن هنا قرر الإسلام في الأموال حق الفقير، وحق العاجز عن الكسب، وحق المصالح العامة:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (الآيتان ٢٤، ٢٥ من سورة المعارج).

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الآية ١٩٥ من سورة البقرة).

جانب الشخصية الاجتماعية:

وإذا كان هذا مزيجًا من الإصلاح الروحي والمادي للإنسان، وفيه كثير من وجوه الإصلاح لشخصيته المستقلة، فقد اتخذ الإسلام بجانب هذا من جهة شخصيته الاجتماعية أن يتبادل الفرد والجماعة الحقوق والواجبات، خاصة كانت تلك الجماعة كالأسرة وبيئة العمل، أم عامة كالمجتمع الوطني والإنساني، وفي سبيل هذا قرر الإسلام العدل والمساواة، والتعاون والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. وقرر في ذلك كله مسئولية الجماعة عن الفرد، ومسئولية الفرد عن الجماعة، وقد كان له في ذلك الجانب كثير من العناية والاهتمام:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ (الآية ٩٠ من سورة النحل).

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الآية ١٣ من سورة الحجرات).

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ (الآية ٢ من سورة المائدة).

وفي المسئولية العامة:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الآية ١٠٤ من سورة آل عمران).

ويقول صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» ويصورها مرة فيقول: «المؤمن للمؤمن، كاليدين، تغسل إحداهما الأخرى».

أما بعد:

فقد رأينا الدمار والوبال الذي صار إليه العالم أثرًا للتخلي عن هذا الإصلاح الإلهي الكريم، وبه صار العالم بين حرب دامية، تبتلع الأخضر واليابس، وتقضي على مجهود الإنسان في حضاراته ومنشآته، وبين حرب باردة تملأ القلوب خوفًا وفزعًا، واضطرابًا وهلعًا.

وإني باسم الإيمان، وباسم الرأفة بالإنسانية الفاضلة أضع مبادئ هذه الرسالة الإسلامية بين أيدي أرباب القلوب الحية من رؤساء الأديان وزعماء الأمم وقادة الشعوب، راجيًا منهم - خدمة للإنسانية، وإنقاذًا لها من هول ما هي فيه - أن يستقبلوا الأمر من جديد، وأن يلبوا دعوة الله، فيمدوا إليها أيديهم، ويتناولوها بأفكارهم، ويعملوا على تنظيم البشرية بها، حتى تتنسم روح الهدوء والاستقرار، والأمن والاطمئنان، وتعرف معنى الحياة الشريفة التي تتمتع في ظلها بما منحها الله، من حرية الفكر والإرادة والعمل:

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (الآية ٢٦ من سورة المطففين).

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (الآية ٨٨ من سورة هود).

مكانة الزكاة في المجتمع

سنن الله في المجتمعات:

إن للمجتمعات شئونًا، بصلاحها تصلح المجتمعات، وبفسادها تفسد المجتمعات، ولا نعلم أمة عنيت بشئونها الاجتماعية فأصلحتها وركزتها على نظم قوية مثمرة، إلا تماسكت حياتها واطردت عزتها. وكذلك لا نعلم أمة أهملت تنظيم شئونها الاجتماعية إلا تمكنت منها روح الفوضى، وتأخرت في مضمار التسابق الاجتماعي، ثم عاجلها الله بالفناء أو الذل والاستعباد «فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

وهذا مبدأ شهد به التاريخ وأرشدت إليه المثلات، ولفت إليه القرآن ونوه به في غير آية.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الآية ١٣٧ من سورة آل عمران).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الآية ٥٣ من سورة الأنفال).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (الآية ٥٥ من سورة النور).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الآية ٧١ من سورة التوبة).

لكل أمة طابعها:

ويسرني أن يعرف الناس هذا المبدأ، مبدأ: أن لكل أمة وجماعة طابعًا خاصًا، به يصلح

شأنها، ترسمه لها قوميتها الخاصة، التي يكونها دينها ولغتها وتقاليدها، فتقدر أن إصلاح الشئون الاجتماعية لكل مجتمع لابد أن يكون بإيحاء القومية الخاصة لذلك المجتمع، وأن إيحاء القوميات المختلفة بطرق الإصلاح الاجتماعي لا يمكن أن يكون واحداً في جميع المجتمعات، فإصلاح مجتمع غربي لا يكون طريقه طريقًا لإصلاح مجتمع شرقي، وإصلاح مجتمع غير متدين لا يكون طريقه طريقًا لإصلاح مجتمع متدين.

الإيحاءات القومية للمسلمين:

على هذا الأساس يجب أن تستقبل الشعوب الإسلامية عملها في الحياة، فتتجه إلى الإيحاء القومي فيما يختص بالدين إلى أهل الدين، وفيما يختص بالأخلاق والتقاليد إلى أهل الأخلاق والتقاليد، وفيما يختص بالصحة والنشاط البدني إلى أهل الصحة والنشاط البدني، وفيما يختص بالاقتصاد والتدبير إلى أهل الاقتصاد والتدبير، وبهذا تتنوع منابع التوجيه وقوى الإنتاج والعمل.

هذا. ويجب أن تعمل جهدها مخلصة في تحري إيحاء القومية الخاصة بها، وأن يجعل الجميع هدفهم قوله تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (الآية ٢ من سورة المائدة).

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (سورة العصر).

اجتماعية الإسلام:

وعلى هذا الأساس أتحدث عن مكانة الزكاة الإسلامية من الشئون الاجتماعية، وبعبارة أخرى، عن الصلة التي وضعها الإسلام لتنظيم العلاقة بين الأغنياء والفقراء والمصالح العامة، التي تتوقف عليها نهضة الأمة وتقدمها. ويجب أن نعلن هنا - كما أعلنا غير مرة - أن الإسلام ليس دينًا روحيًا فرديًا تنحصر مهمته في صرف إنسان عن دنياه إلى أخراه، وإنما هو دين اجتماعي قبل كل شيء، دين له في كل شأن من شئون الاجتماع تنظيم تقصر دونه عقلاء الحكماء والفلاسفة، دين مهمته أن يأخذ بالإنسان إلى السعادة في الحياتين، وأن يوجهه إلى العمل للدنيا كأنه يعيش أبداً، وإلى العمل للأخرى كأنه يموت غداً.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ (الآية ١٣٤ من سورة النساء).

دين يرى أن سعادة الآخرة من سعادة الدنيا، وأن سعادة الآخرة تتطلب قوة في الحق، ونهضة في العمل الصالح، ورغبة في عمل الخير، وإن من كان في هذه الدنيا أعمى عما تتطلبه الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

طريق الخلاص:

وسيظل المسلمون في جميع بقاع الأرض حيارى مضطربين إلى أن يفهموا علاقة دينهم بالحياة الاجتماعية، ويستقبلوا تعاليمه ويتخذوها عدة في حياتهم وطريقًا لسعادتهم.

وهذه الزكاة التي جعلها الإسلام عبادة من العبادات، وركنًا من أركان الدين سنرى فيها أن الإسلام حتى في عباداته لم يكن إلا تهذيبًا للفطرة الإنسانية، وتنظيمًا لشئون الجماعة.

عمد الإسلام الخمس:

بني الإسلام في العقيدة والعبادة على أركان خمسة: شهادة التوحيد والرسالة، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج.. ويطول بنا القول إذا بينا علاقة كل هذه الأركان بالشئون الاجتماعية. ونجتزئ الآن بأن شهادة التوحيد هي الركن القلبي الذي يشاد عليه صرح الخير كله، وأن شهادة الرسالة طريق مأمون لمعرفة وسائل الخير. والصلاة والصوم ركنان بدنيان قصد بهما إعداد النفوس لعمل الخير والدعوة إليه. والزكاة ركن مالي قصد به تنظيم شأن اجتماعي عظيم له خطره في حياة الأمم، وأخلاق الأفراد، وهو علاقة الأغنياء بالفقراء وبمصالح المجتمع. والحج سبيل الرابطة الإسلامية العامة في ظل من رعاية الله وأماكنه المقدسة.

تفاوت الناس:

قضت المحكمة الإلهية أن يكون الناس مختلفين في الدرجات، متفاوتين في الغنى والفقر، وقضت بأن يعيش بعضهم تحت ظل البعض، يعمل له ويستمد رزقه من رزقه.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الآية ٣٢ من سورة الزخرف).

وعلى هذا النظام الاجتماعي قامت الأعمال، ودارت الحركات، واشتدت المنافسات حول الحصول على العيش والارتقاء. ولكن الشح الذي طبع عليه الناس جعل من اختلافهم في المواهب والاستعداد، وتفاوتهم بالغنى والفقر، سببًا في مرض اجتماعي عظيم ذلك أنه شغل الأغنياء بأموالهم حتى ألهاهم عن حق الفقير والمسكين، والعامل والضعيف.

﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾ (سورة التكاثر).

ونمت فيهم فكرة الأثرة والاستغلال، وأحس الفقير بضيق في صدره، أخذ يتلمس له طريقًا للخروج، فلم يجد سبيلاً، فتولد عنده حقد على الغني لم يلبث أن انفجرت به صدور الفقراء نارًا حامية يصطليها أرباب الأموال، وقاموا ينادون في بعض الأمم المتحضرة بإلغاء نظام الملكية الفردية، فاضطرب حبل الجماعة، واختل توازنها، وانتهى الأمر بهم إلى إنكار الأديان والقوانين، وأريقت في ذلك دماء الملايين من النفوس البشرية، وما كان ذلك إلا نتيجة إهمال الغني لحق الفقير، واستغلاله لمنفعته الشخصية.

الطغيان والفوضى:

أما الإسلام فقد قدر - وهو في أول مرحلة من مراحل الدعوة، قبل تهيئة النفوس للنظم والقوانين - خطر إهمال حق الفقير، كما قدر فوضى النظام وفساد الاجتماع إذا هو ألغى الملكية الفردية، فأقر الملكية الفردية، وأجرى سنة الكون في مجراها الطبيعي، ثم وضع طرق الوقاية من شر الطغيان المالي القاضي بتحكم أرباب الأموال واستغلال الفقراء. وبهذا احتفظ بسنة القوانين، وأصول الجماعات، والحقوق الفردية. وأمن في الوقت نفسه فتنة الفوضى الشيوعية، فوقف وسطًا بين الإفراط والتفريط، شأنه في كل تشريع

﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ (الآية ١٤٣ من سورة البقرة).

وإني أحدثكم عن مجمل المبادئ التي اتخذها القرآن في العهدين: عهد الدعوة بمكة، وعهد التقنين بالمدينة، اتخذها علاجًا لتلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة.

١- أعلن القرآن أن المال في يد الأغنياء ليس إلا وديعة الله، استخلفهم في حفظه وإدارته وتوزيعه بما رسم لهم من طرق صالحة مفيدة

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الآية ٧ من سورة الحديد).

﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (الآية ٣٣ من سورة النور).

٢- أشعرهم بالوحدة القومية الموجبة للتكافل والتعاون والإيثار، وأن المال المملوك للبعض قوام المجتمع كله

﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (الآية ٥ من سورة النساء).

عاقبة الشح:

٣- حارب فيهم خلق الشح الذي يمنع من التراحم والبذل ومساعدة الضعيف

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الآية ٩ من سورة الحشر).

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الآية ١٨٠ من سورة آل عمران).

«إياكم والشح فإنما هلك به من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماء ويستحلوا محارمهم».

ولعلك لا تجد أصرح ولا أقوى من هذا التعبير في تصوير الخطر الاجتماعي الذي ينبعث من الشح بحق الفقير والمصالح، والشح بلا ريب من أكبر الآفات التي تضر بالمجتمع

الإنساني، وتقضي على حياة الأمم وصلاح العمران، فهو يمنع التعاون والتراحم، ويغرس الحقد، ويولد ثورة النفوس، ويرمي بالمجتمعات في الهوات السحيقة .

٤ ـ هدد الأغنياء إذا هم قصروا في حق الفقير واستغلوا حاجته لمنفعتهم الشخصية .

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ (الآية ٢٧٦ من سورة البقرة)

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (الآيتان ٢٧٨ ، ٢٧٩ من سورة البقرة)

« ويل للأغنياء من الفقراء» : «إن الصدقة تدفع البلاء» . «صنائع المعروف تقي مصارع السوء» .

وإنا لندع تفسير هذه الحرب التي آذن الله بها المستغلين، وتفسير ذلك الويل الذي يصيب الأغنياء من الفقراء، وتفسير ذلك البلاء الذي تدفعه الصدقة، وتفسير مصارع السوء التي تقي الإنسان منها صنائع المعروف . . ندع تفسير كل ذلك إلى ما هو الواقع الآن في أمم الحضارة من حرب الطبقات، وإلى ما تنطق به الحوادث والوقائع ، فإنه أعظم منبر يتلاشى أمام روعته البيانية كل مقال وبيان .

عناية القرآن بالفقير والمسكين :

إن القرآن حرك العواطف ، ونبه الوجدان إلى العطف الإنساني ، والعدة عليه بالثواب والحياة الطيبة : وحسبك في عناية القرآن الكريم بالفقير والمسكين ، والحث على إطعامهما والقيام بكفايتهما، إنك لاتكاد تجد سورة من سور القرآن إلا وفيها ذكر للفقير والمسكين، أو ذكر لأحدهما .

جعل لهما حقًا في الصدقات المفروضة، جعل لهما حقًا في الغنيمة. جعل لهما حقًا في المال إذا اقتسمه أربابه بمحضر منهما. جعل لهما كفارة اليمين. وجعل لهما كفارة اعتداء المحرم على الصيد. جعل لهما كفارة الظهار. جعل لهما فدية الإفطار في نهار رمضان.

وقد بين الحكمة الاجتماعية السامية في إعطائهم هذا العطاء وهي الخوف من أن يستأثر بالأموال طائفة خاصة يتداولونها في أيديهم، فيشن عليهم الفقراء حربًا طاحنة، وذلك قوله تعالى في آية الفيء :

﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (الآية ٧ من سورة الحشر).

موارد دائمة للفقراء:

ثم يجعل العطف عليهما بعد ذلك والقيام بحقهما من خصال البر الدالة على صدق الإيمان والتقوى:

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (الآية ١٧٧ من سورة البقرة).

ثم يمتدح الصدقات بوجه عام، ويبين أنها خير للجماعة غير محدود، أعلنت أم أخفيت:

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (الآية ٢٧١ من سورة البقرة).

ثم يبالغ في الوصية باليتامى والمساكين فيقرنها بتوحيد الله والإحسان إلى الوالدين في غير آية:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ (الآية ٣٦ من سورة النساء).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الآية ٢٣ من سورة الإسراء).

ثم يقول: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ (الآية ٢٦ من سورة الإسراء).

ثم ينبه الناس على ما يصرفهم عن مراعاة حق الفقير والمسكين، فيذكر البخلاء والآمرين بالبخل، ويذكر العذاب المهين الذي أعد للكافرين الذين خلت قلوبهم من الرحمة:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (الآيتان ٣٦، ٣٧ من سورة النساء).

ولما كان التبذير من أسباب فقدان المال وحرمان الفقير شدد النكير على المبذرين، وبين سوء عاقبتهم فقال:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الآية ٢٧ من سورة الإسراء).

ومخافة أن يحمل ذلك البيان على التقتير فيمنع حق الفقير، أرشد الله سبحانه إلى الطريق المعتدل فقال:

﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

(الآية ٢ من سورة الإسراء)

اقتحام العقبة:

ثم تعالوا واستمعوا بعد ذلك إلى القرآن وهو يعتبر أن إطعام الفقير والمسكين هو العقبة الوحيدة التي إذا اقتحمها الإنسان وصل إلى السعادة الحقة، التي لا يشوبها تنغيص ولا ألم:

﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (الآيات ١١ - ١٨ من سورة البلد).

وحسب الفقير أن الله لم يذكر في كتابه شأنًا من الشئون باسم العقبة إلا في هذا الموضع، موضع تنظيم علاقته بالغني، فاقرءوا القرآن وتتبعوه لتعلموا مقدار حدبه على الفقير والمحتاج والضعيف.

اسمعوا قول الله تعالى فيمن لا يحض على طعام المسكين، وكيف اعتبرهم من المكذبين بالدين الذين لا تنفعهم صلاة ولا خشوع

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (سورة الماعون).

وعيد يوقظ قلوب الغافلين:

اسمعوا قول الله تعالى فيمن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

واسمعوا قوله في أرباب الأموال الذين لا يقومون بحق الفقير والمسكين:

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾

(الآيات ١٧ - ٢٦ من سورة الفجر)

ثم تعالوا واسمعوا جواب المجرمين حين يسألون يوم القيامة: «ما سلككم في سقر، قالوا: لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين».

وأخيرًا تعالوا واسمعوا قول الله تعالى في أرباب الأموال الذين يحترفون التكاثر فيها حتى تلهيهم عن حق الفقير والمسكين:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (سورة التكاثر).

هذا قليل من علاج القرآن الكريم لمشكلة الفقير مع الغني.

الزكاة في نظام الإسلام:

حرك عواطف الأغنياء بكل الطرق، وأرهف وجدانهم، واستدر عطفهم على الفقراء والمساكين، إصلاحًا لهم وللمجموعة، تارة بالترغيب، وأخرى بالترهيب، وبعد أن استتب الأمر لجماعة المسلمين، وتهيأت النفوس للقوانين والنظم، وضع للفقراء حقوقًا كمورد دائم. وضعه في الكفارات والأجزية على الأخطاء التي يرتكبها إنسان في حياته

الشخصية وعباداته. وضعه في الزكاة فرضًا من الفروض الدينية ينفذه بالقوة، ويقاتل من امتنع عن أدائه، وضعه في الذهب والفضة، وفي البضائع التجارية، وفي المواشي، وفي الزرع بنسب لا ترهق الغني وتسعف المسكين والفقير وتصلح شأنه. بنسب يفوق مجموعها مجموع ما يصرفه أغنياؤنا في ترفهم وبذخهم في البلاد الأجنبية كل عام من غير فائدة تعود عليهم وعلى أمتهم.

وقد كان للزكاة في صدر الإسلام نظام خاص، وكان للحكام بها عناية خاصة في جمعها وصرفها، كانوا بها يجهزون الجيوش، ويدفعون المغارم، ويؤلفون قلوب الضعفاء ويعينون المحتاجين، ويقيمون المصالح.

نداء إلى الأغنياء:

فهل لأغنيائنا أن يخرجوا هذه الزكاة الواجبة عليهم، ويصرفوها في مصالح الفقير فيستلوا حقده عليهم ويصير عونًا لهم، يحرس أموالهم ويعمل على تنميتها حتى يرفرف على الجميع الطمأنينة والسلام؟

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم وينشئوا بها المصانع والمستشفيات التي لا تفي موارد الدولة بإنشائها، فتطهر الأمة من جراثيم المرض، ويخفف عنها ضغط هذا الجيش العاطل الذي تبدو كتائبه في المتسولين الذين يملئون الشوارع والأزقة، وفي المتشردين الذين يهددون الأمن ويقلقون راحة الجميع، وفي المتعلمين وأنصاف المتعلمين وأشباههم مما تطالعنا بإحصائهم في كل نتائج الامتحانات وكشوف المنقطعين عن طلب العلم؟

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم ليصلحوا من شأن هؤلاء ويوجدوا لأمتهم رجالاً عاملين في الحياة يشعرون بالعزة والكرامة، ويشعرون بأنهم أعضاء حية من الأمة لها يعملون وعنها يسألون؟

هل لهم أن يضعوا أيديهم في أيدي العاملين ويتضامنوا معهم على إخراج نظام خاص للزكاة والصدقات، به ينتشلون البلاد من خطر الفقير والعاطل، فتطمئن الجماعة على حياتها، وتنتفع بأموالها وبنيها؟

هذه هي مكانة الزكاة والصدقات من الشئون الاجتماعية، وهي مكانة القطب من الرحى، وهذا هو موقف الإسلام من الزكاة والصدقات، وهو موقف يخفف من وطأة

الأغنياء على الفقراء، ويبعث في الفقراء روحًا طيبة للأغنياء، ويهيئ للجماعة أن تنتفع بهؤلاء وهؤلاء وهو طريق الخير والإصلاح، هو موقف يسد منافذ الأفكار الهدامة والفوضى المفسدة التي تزعزع الأمن والاستقرار، وتقضي على الهدوء والسكينة، وتجعل البلاد والعباد في اضطراب وزلزلة وخوف. وثقوا أنه لا علاج لما نخشى أن يتسرب إلينا سوى قطع دابر التفكير في المشكلة القائمة بين الفقير والغني، ولا يقطع دابر هذه الشكوى سوى قيام الأغنياء بما فرضه الله عليهم من زكاة أموالهم، وأن المال الذي يخرجه الأغنياء إلى الفقراء هو في واقعه من الأغنياء إلى الأغنياء باعتبار فائدته، وما يعود به من خير وصلاح، وأمن واطمئنان.

الروحية المهذبة

لا تبتل ولا تكالب على الدنيا

تكوين الفرد أصل لتكوين المجتمع:

إذا كان المجتمع ليس في واقعه إلا الأفراد التي منها يتكون وبها يبني، وكان كماله من كمالها، فإنه من غير الممكن أن يسعد المجتمع مع شقاء الأفراد أو يشقى مع سعادتهم، وكان البحث عما يكون الفرد ويكمله هو البحث عما يكون المجتمع ويقومه.

وإذن. فهيا بنا إلى منهج القرآن في تكوين الفرد، وإذا ما تم لنا رسم ذلك المنهج وأخذنا به الفرد تم لنا بناء المجتمع كما يحب الله، وكما يسعى إليه المخلصون من عباد الله، وأول ما يطالعنا في تكوين الفرد - على الوجه الذي يكون به لبنة قوية في بناء المجتمع المنشود - أمران لابد من توافرهما في الفرد:

أولهما: تحديد علاقته بهذه الحياة الدنيا، حتى يعرف واجبه فيها فيحققه.

ثانيهما: إحياء الشعور في نفسه بالوحدة الإيمانية، والوحدة الوطنية الخاصة، والوحدة الإنسانية العامة، وبذلك يعرف حق مجتمعه الديني والوطني والإنساني، فيقوم به على الوجه الذي تقتضيه شخصيته في بناء هذه المجتمعات.

ونحن إذا استعرضنا أنواع العلاقة التي يمكن أن يتخذها الفرد بالنسبة للحياة الدنيا، والتي اتخذها بالفعل في أجيال الحياة المتعاقبة، وجدناها لا تخلو عن واحدة من ثلاث:

عداوة الحياة الدنيا:

علاقة العداء للدنيا، والنظر إليها نظرة احتقار وإعراض، بذلك يتجه الإنسان بكله إلى تنمية روحه فقط عن طريق الاعتكاف عن العالم، والتبتل للعبادة: يصوم دائمًا ولا يفطر،

ويقوم دائمًا ولا ينام ، ويزهد فلا يشتهي ولا يتزوج ، ويظل هكذا مسجونًا في تلك الدائرة الضيقة من معبد أو كهف ، حتى يأتيه الموت ويفارق الحياة .

نصوص لم توضع موضعها :

وإذا خوطب من سلك هذا المنهج بالنسبة للحياة قال : كيف لا أسلكه وأفر به من الدنيا والله يقول :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (الآية ٢٠ من سورة الحديد)

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ (الآية ٣٢ من سورة الأنعام)

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ الآية ٥٦ من سورة الذاريات)

ويقول الرسول : : «والذي نفسي بيده ، للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها» يريد شاة ميتة ألقاها أهلها هوانًا بها ويقول : «إن الله عز وجل لم يخلق خلقًا أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها » وهكذا مما ورد وتناقلته ألسن خاصة في ذم الدنيا وحقارتها ، فأخذها بعض الناس على ما يعطي ظاهرها من حقارة الدنيا على وجه عام ، وجعلوها أساسًا لإعراضهم عنها ومعاداتهم لها ، وانحازوا إلى العبادة ، وحصروا أنفسهم في أماكنها بناء على فهمهم الفاسد ، وقالوا : كيف نتصل بالحياة الدنيا وهي لهو ولعب ، وكيف نقترب منها وما هي إلا متاع الغرور ، أم كيف لا نتبتل وما خلقنا إلا لعبادة الله رب العالمين؟

وقد سلك طريق هؤلاء ، في التحذير من الدنيا ، وتبشيعها في نظر الناس كثير ممن نصبوا أنفسهم في الأزمنة الماضية للوعظ والإرشاد ، حتى وجدت في بعض النفوس عقد نفسية منبعها ذلك التأويل المنحرف ، وذلك الوعظ الذي نسج على منواله ، وأضعفت تلك العقد همم الناس في الحياة العامة ، وأصبحوا في حيرة بين هذه التعاليم التي تلقوها على جهل بحقيقتها ، وبين متع الدنيا ونعم الله فيها ، فخارت قواهم ، وتكون منهم وبهم جيل مضطرب بين تصوره وبين واقعه ، فاستسلم للضعف والعجز والاستكانة ، وكان سببا في تلك النكبة التي أصيب بها المجتمع الإسلامي بعد عصوره الأولى .

الإعراض عن الدنيا :

إن هذا المسلك قد احتقره الله في كتابه ، فلم يذكره لأحد من خلقه وهو بصدد ذكر مسالك الناس في الحياة ، وإنما قصر شأن الناس على مسلكين اثنين ، ليس هذا المسلك واحدا منهما . تأمل قوله تعالى :

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(الآيتان ٢٠٠ ، ٢٠١ من سورة البقرة)

مسلكان لا ثالث لهما : العزوف عن الآخرة وجمع الدنيا .

أما العزوف عن الدنيا ، وهو مسلك التبتل والانقطاع ، فلم يذكره الله في كتابه ، وليس أهلاً لأن يذكره الله في كتابه .

الرهبانية تعطيل لأسرار الله في الإنسان والكون :

نعم ذكره الله في مقام الأئمة لبعض الطوائف التي ابتدعته ولم يستطيعوا الوفاء بحقيقته وكانوا كاذبين في تصوره والانحياز إليه

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾
(الآية ٢٧ من سورة الحديد)

وكيف يكون هذا المسلك شأنًا من شئون الإنسان في الحياة يقره الله ويرضى عن أهله ومتخذيه؟ وفيه :

أولاً : تعطيل ما كرم الله به الإنسان من قوى التفكير والإرادة والعمل .

وثانيًا : بقاء أسرار الكون ومنافعه كامنة في أطباق الأرض وأجواء السماء ، وقد سخرها الله جميعًا للإنسان وسلطه عليها ومهد له طريق إظهارها ، وعمارة الكون بها ، وأكثر من الإرشاد إلى ذلك في كتابه الكريم ، الذي ضمنه ما يجب على الإنسان أن يتخذه منهجًا في الحياة :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الآيتان ١٠ ، ١١من سورة النحل)

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الآية ١٤من سورة النحل)

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

(الآية ١٥من سورة الملك)

وما خلق الله الإنسان على هذا النحو ، وسخر له الكون على هذا النحو ، وأرشد في كتابه إلى هذا الخلق وهذا التسخير ، ثم يرضى منه بعد ذلك أن يعطل قواه التي منحه إياها ، ويعطل أسراره التي أودعها في خلقه ، ويهمل إرشاداته وينحاز بكل ذلك إلى زاوية أو كهف ، منقطعًا عن الدنيا التي جعله الله خليفة فيها ، يعمرها وينميها ، ويجعلها مظهراً لرحمته بعباده.

أفهام يجب أن تصحح :

والحق أن لهو الحياة ولعبها ليسا كما يفهم أرباب هذا المسلك ينصبان على ذات الحياة باعتبار ما فيها من خير ونفع للعباد ، وما لها من دلالة على قدرة الله ورحمته بعباده ، وإنما ينصبان على من يتخذ نعم الله فيها سبيلاً لشهوته وهواه ، يدنس بهما نفسه ، ويميت بهما قلبه.

والحق أن عبادة الله التي خلق لأجلها الجن والإنس لم يكن سبيلها في هذه الحياة التبتل والامتناع عن الدنيا ، إنما سبيلها تحقيق إرادة الله في كونه عن طريق العمل في عمارة هذا الكون ، وإظهار أسرار الله الدالة على عظمته ووحدانيته واستحقاقه وحده للعبادة والتقديس.

وهكذا يجب أن يفهم الناس أن الله لا يرضى من عباده أن يزهدوا في الدنيا هذا الزهد العام المطلق ، وأن ينقطعوا في الصوامع والبيع والمساجد لعبادته ومناجاته ، فهو يناجي في

الحقل ، ويناجي في المتجر ، ويناجي في المجتمع وكل تلك مناجاة يسمعها الله ، ويتقرب بها العبد لله .

واجب الدعاة والمصلحين :

وإذن فواجب المصلحين والوعاظ المرشدين أن يبذلوا جهودهم في تصفية النفوس من بقايا هذه الفكرة ، وأن ينتزعوا منها تلكم العقد النفسية التي توارثها بعض الناس ، أثرا للفهم الفاسد في حقارة الدنيا ، والعزوف عنها وعن العمل فيها ، هذا العزوف الذي نسجوا به كلمات التزموها ، وعطلوا بها أنفسهم والناس عن الكد والعمل ، التماسا للرزق من السماء ، ينزل عليهم وهم نائمون باسم الدين والتعبد ، وأصبحوا هم ومن ينحو نحوهم عالة على المجتمع ، ولبنات هزيلة في بنائه ، لا يلبث معها أن ينهار .

الإسلام ينكر التكالب على الدنيا :

وإذا كان الانقطاع عن الدنيا ، والإعراض عنها بالتبتل ، والاكتفاء من منعها وخيرها بما يقيم الأود الشخصي ، مما يأباه الإسلام ، وينكره أشد الإنكار ، فإن الإسلام أشد إباء وإنكارا لفرض آخر في علاقة الإنسان بالحياة ، وهذا الفرض المقابل للانقطاع والتبتل ، هو فرض التكالب على الجمع والادخار في محيط الدائرة الشخصية ، وبذلك يركز الإنسان قواه العقلية في خدمة وجوده المادي الخاص ، ويعمل على أن يبسط به سلطانه على من سواه ، ويسلك إلى تلك الغاية كل السبل التي يراها محققة لها ، غير مكترث بشيء من جوانب الفضيلة الروحية ، ولا الشكر الإلهي على ما هيئ له من نعم ، فلا عطف ، ولا رحمة ، ولا تعاون ، وإنما هو طغيان ولعب ولهو ، وتفاخر وتكاثر .

التكالب سبيل الفردية المادية :

وإذا كان الفرض الأول سبيلاً للفردية الروحية ، ولا يلائم طبيعة الإنسان ولا طبيعة الكون ، فإن هذا الفرض سبيل فقط للفردية المادية التي تقطع ما بين الناس من صلات طبيعية ، وتقضي على عوامل التعاون ، وبواعث النفع العام ، وتغرس في النفوس الشح ،

وتنمي عوامل العداوة والبغضاء . به ينظر فريق المتكاثرين إلى غيرهم نظرة المالك للمملوك، ونظرة المعبود للعابد ، والسيد للمسود ، لا يعترف له بحق ، ولا يسمح له بمتعة، وينظر هؤلاء إليهم نظرة المظلوم للظالم ، والضعيف للقوي ، يضمر له الحقد ، ويتربص به ريب المنون . وقد جربت الإنسانية في عصورها المختلفة ، وجربت مصر خاصة ، هذا الفرض فلم تر منه إلا الشقاء والاضطراب ، والعقم والتفرق والانقسام .

التكالب على الدنيا من دلائل التكذيب بالآخرة :

وإذا كان الإسلام حارب فكرة التبتل والانقطاع عن الدنيا بنصوصه الكثيرة التي حثت على العمل والسعي ، وطلبت إلى الناس أن يضربوا في الأرض وأن يعملوا بقواهم فيما سخر لهم ، من أرض للزراعة ، وأدوات للصناعة وبحار للتجارة ، فإنه قد حارب كذلك بل أشد فكرة التكالب على الدنيا والعمل في تحصيلها لخاصة النفس ، واعتبر هذا الفرض من دلائل التكذيب بيوم الدين :

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (سورة التكاثر)

وقد قص الله علينا شأن كثير من المتكالبين الذي قطعوا - بما أعطاهم الله - صلتهم بالآخرة ، قص علينا شأن صاحب الجنتين الذي افتخر بهما على صاحبه وقال له :

﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (الآية ٣٤-٣٦ من سورة الكهف) .

وكانت عاقبته أن :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (الآية ٤٢ من سورة الكهف) .

في قصة قارون عبرة للمتكالبين :

وقص علينا أمر قارون . أنعم الله عليه بمال تعجز الجماعة القوية عن حمل خزائنه ، ونسى حق الله فيه ، واعتقد - طغيانًا - أنه من محض سعيه ، سيق إليه باستحقاق ذاتي ، فدارت عليه الدائرة ، وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى كان هو ودنياه في طي صحف القضاء العادل :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (الآية ٨١ من سورة القصص)

وهكذا نجد القرآن يحذر منهج التكالب الشخصي في الحياة ، ويجعل عاقبته الخزي والدمار والنكال .

سقوط المجتمعات بين المتبتلين والطاغين :

وكما تسقط المجتمعات من سلوك أفرادها مسلك التبتل تسقط أيضا من سلوكهم مسلك الطغيان المالي ، الذي يقطع صلة الإنسان بأخيه ، وصلته بالله ، ثم تكون عاقبته خسران الدنيا والآخرة :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(الآيتان ١٥، ١٦ من سورة هود)

هذان فرضان كلاهما مانع من تكوين المجتمع الفاضل ، فعلى المصلحين والمقومين المرشدين بذل الجهود في تطهير النفوس من فكرتي التبتل الديني ، والطغيان المالي ، وأن يأخذوا بها إلى الحد الوسط الذي رسمه القرآن ودعا إليه ، وجعله منهج الحياة الطيبة ، وسبيلاً للمجتمع الفاضل .

عناية الإسلام بتهذيب الروح :

وإذا كانت سعادة الإنسان - كما نقضي به طبيعته ، وكما قرره الإسلام - لا تكمل إلا باستكمال حظَّي الجسم والروح معًا ، وإن الروحية البحتة ، أو المادية البحتة لا تصلح

واحدة منهما سبيلاً للسعادة أخذاً من واقع الحياة البشرية ، فإن الإسلام يرى مع هذا وذاك أن الروحية المهذبة أساس للمادية المهذبة ، وأن منها ينبع الروح المهذب للمادة . وبتهذيب الروح المهذب للمادة تكمل للإنسان سعادته في دنياه وأخراه ، في فرده وفي مجتمعه ، ومن هنا عني الإسلام :

أولاً : بتهذيب الروح وطالب به ، ولفت الأنظار إليه في مبدأ دعوته ، حتى إذا ما تم على الوجه الذي يحفظ للإنسان قلبه وروحه ، ويربطه بخالقه والمنعم عليه ، انتقل به إلى المرحلة الأخرى مرحلة التنظيم المادي ، الذي يكون التهذيب الروحي من أهم عوامل تركيزه وإقراره في الحياة ، والذي يكون أثرًا للضمير الحي المهذب الذي يقدر الخير للخير ، والحق للحق ، غير مدفوع برغبة أو رهبة فيما وراء الحق والخير .

وسائل التهذيب الروحي :

وقد وضع الإسلام للتهذيب الروحي جملة من الوسائل ، تتلاقى كلها عند غرض واحد هو تنقية الفطرة البشرية من معاني الشرك ، ونسيج الوثنية التي تطمس في القلب صورة التوحيد النقي الخالص ، الذي فطر الله عليه الإنسان ، والذي يهذب منه الروح ، ويسمو بها في إدارة الشئون ، وتحصل وجوه السعادة العامة :

﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** ﴾ (الآية ١٣٨ من سورة البقرة) .

التفكير أول الوسائل :

ومن أول هذه الوسائل التفكير في ملكوت السموات والأرض :

﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ** ﴾

(الآيتان ٦-١١ من سورة ق)

وبهـذا التـفكيـر تعـرف الآثار الدالة على جـلالة مـصـدرها ، وعلى كـماله في العلم والقدرة، وعلى عـموم رحمته وسلطانه ، فتخضع النفس لإرادته ، وتنشط في طاعته ، وتتوخى في حياتها ما يرضيه ويقرب إليه :

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الآيتان ١٦٣ ، ١٦٤ من سورة البقرة)

وقد صح أن النبي ﷺ قال حينما نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ من سورة آل عمران)

قال : «ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر»

ومن هنا كان ذكر الله والتفكير في آثار قدرته جناحين يرتفع بهما الإنسان عن حمأة المادة المظلمة إلى مشرق الروحية المضيئة ، وقد قلب القرآن في آياته المتلوة صحف هذا الكون أمام الإنسان ، دخل به نفسه ، وصعد به السموات ، نزل به إلى الأرض ، وطاف به الوديان والجبال ، وغاص به البحار ، ودعاه في كل ذلك مراراً وتكراراً إلى النظر في آياته العقلية والحسية ، وكثيراً ما أوحى القرآن أن هذه الدعوة سنة الله في كل رسالاته إلى خلقه ، عني بها كل كتاب ، واهتم بها كل رسول.

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (الآية ١٣٢ من سورة البقرة)

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الآية ١٣ من سورة الشورى)

وبذلك ربط آخر العالم بأوله ، وربط دنياه بأخراه ، وجعل الكل وحدة تتجلى فيها وحدة الخالق ، وسلطانه القوي الرحيم :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (الآيات ٥٣ - ٦٢ من سورة النجم) .

فكر يصحبه ذكر :

إن تقليب النظر في الأرض وما حوت ، وفي السموات وما اشتملت أمر سهل ميسور ، تدعو إليه الأبصار ، وتلح به العقول ، ولكن الذي جعله الله وسيلة للتهذيب الروحي ، وهو التفكير المصحوب بالتذكر ، هو الذي يطبع في النفس صور الجلال الذي يملأ النفس رهبة ، وصور الجمال الذي يملأ النفس رغبة ، وبرهبة ما ينبغي أن يرهب ، ورغبة ما ينبغي أن يرغب ينحي الإنسان عن نفسه صور الرهبة الكاذبة ، التي ليس لها مصدر يخاف ، وصور الرغبة الزائفة التي ليس لها مصدر يرجى ، يترسم في رغبته ورهبته دلائل الحق التي تملأ نفسه بعظمة الخالق وحكمته ، وبذلك يقتعد مكانته التي خلق لأجلها في الحياة ، وهيئت له الآخرة .

وإذا كان القائمون على التربية والتهذيب يؤمنون - كما هو الواقع - بأن العنصر الروحي المهذب لابد منه في تكوين النشء فما علينا في طور التربية والتهذيب إلا أن نعني العناية كلها بتوجيه النشء إلى التفكير والنظر بما يرد الظواهر إلى مصادرها ، وعندئذ يجتمع لديهم الفكر والذكر ، وتفتح أمامهم أبواب الروحية المهذبة .

التفكير المقصور على المادة شر من الجمود :

لم يخل وقت ما للإنسان عن التفكير فيما يقع عليه حسه ، فكر في الأرض وعرف طبقاتها ، وخصائص كل طبقة ، وفكر في السماء ، وعرف الكواكب في أحجامها

وأبعادها وأضوائها ، وفكر في الجبال وعرف صخورها وقممها . وفكر في البحار وغاص في أعماقها واستخرج كنوزها . وهكذا يعمل الإنسان جهده في الاتصال بمركبات الكون وعناصره .

وقد وصل في بحوثه إلى الذرة ، واستخدمها فيما يريد ، ولكن هل نرى أنه تفكير يخدم الروح والقلب ، أو أنه تفكير يخدم العقل بلذة العلم والمعرفة؟ وإن شئت قلت : هو تفكير يخدم المادة ، والمادة الطاغية ، ولا صلة به بالروح ، ولا بالروح المهذبة .

والقرآن حينما يضع التفكير أول الوسائل للتهذيب الروحي لا يريد هذا التفكير الجاف ، الذي يأخذ العقل به آثار الكون المادية ، ثم يطغى بها على الذين لم يهيئ لهم ظروف الحياة وسائل تفكيرهم ، ولا درجة عقولهم ، فهو تفكير شر من الجمود ، وعلم شر من الجهل ، لا يريده القرآن ولا يعرفه . وإنما يعرف القرآن من التفكير ما يصل بالإنسان إلى معرفة آثار مسندة إلى مصدرها الذي أنعم بها . وعندئذ يشكر ولا يكفر .

وإن هؤلاء الذين قصروا التفكير على بعض نتائجه – أو على أحد هدفيه وأغفلوا النظر إلى الهدف الآخر ، وهو أسمى الهدفين – هم في نظر القرآن ممن قال الله تعالى فيهم :

﴿ **الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي** ﴾ (الآية ١٠١ من سورة الكهف)

وقال فيهم :

﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** ﴾ (الآية ١٢٤ من سورة طه)

وقال فيهم :

﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ (الآية ٢٨ من سورة الكهف) .

المزاوجة بين حظوظ الجسم والروح :

وإذا كان الإسلام يحارب في علاقة الإنسان بالحياة ، الروحية البحتة ، كما حارب المادية البحتة ، ورأى أن الروحية البحتة سبيل التعطل وإهمال لقوى العمل المودعة في

الإنسان ، ولقوى الإنتاج المودعة في الكون ، وأن المادية البحتة سبيل لقتل المعاني الفاضلة ، وتدفع بالإنسان إلى جوانب الطغيان المفسد للحياة . كان من ضرورة ذلك أن يدعو إلى المزاوجة بين حظوظ الجسم المعتدلة ، وحظوظ الروح المعتدلة . ويبني منهجه على الواقع الطبيعي للإنسان .

والإسلام دائمًا ينظم بأحكامه واقع الإنسان بما يقف به الحد الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط ، والإنسان في واقعه جسم وروح ، وللجسم حظ ومتعة ، وللروح حظ ومتعة . وكمال سعادته إنما تكون باستكمال حظي الجسم والروح معًا .

ومن هنا نراه في كثير من نصوصه يرفع عن الإنسان الحجر في التمتع بملاذ الجسم المعتدلة ، ويبيح له ، بل يغريه ويأمره بالطيبات في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ، وفي حاجة نفسه من الزوجة والمال والولد ، وينكر أشد الإنكار على من يحرم على نفسه شيئًا من ذلك مع القدرة عليه . ونراه في الوقت نفسه يدعوه بإلحاح إلى أن يتمتع روحه بالعلم عن طريق التلقي والقراءة ، وعن طريق الفكر والنظر .

حملة على المحرمين للطيبات :

وقد صح أن أناسًا جاءوا إلى زوجات النبي ﷺ يسألون عن عبادته فيما بينه وبين الله ، التي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأن أحدهم قال : «إني لا آكل اللحم أبدًا» وقال آخر : «وأنا لا أتزوج النساء» ، وقال ثالث : «وأنا لا أنام على فراش» ، فبلغ أمرهم إلى النبي ﷺ فخرج إليهم غاضبًا وقال : «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، وإني لأخشاكم لله وأتقاكم ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني» .

وصح أنه قال لآخرين أرادوا رفض الدنيا والترهب : «إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به واستقيموا يستقم بكم»

وصح عنه أنه قال «ليس في ديني ترك النساء واللحم ، ولا اتخاذ الصوامع» وقال «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»

فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾

(الآية ٥١ من سورة المؤمنون)

وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (الآية ١٧٢ من سورة البقرة)

واقرءوا في هذا المبدأ قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(الآية ٩٣ من سورة المائدة)

وقوله تعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾

(الآية ٢٦ من سورة الأعراف)

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الأعراف)

والسر في ذلك أن الطيبات نعم الله على الإنسان ، والله يحب من عباده أن يقبلوا نعمه التي تدعو إليها فطرهم ، ويحب أن يرى أثرها عليهم ، ويكره لهم الجناية على فطرهم بمنعها حقها .

أثر تعاليم الإسلام في بناء الحضارة :

ولقد كانت تلك التعاليم ، التي لبى بها الإسلام داعية الفطرة ، عاملاً قويًا في شيوع الحضارة البشرية في مظاهر هذه الحياة ، فقد أرشدت على وجه عام إلى ما يحمل به الإنسان نفسه ، وخاصة في مناسبات التجمل بالزينة والرياش . ولفتت الأنظار إلى تقوى الله إنما هي في الانتفاع بتلك النعم ، وأوحت بذلك إلى إحياء صناعة الطيبات ، وصناعة اللباس ، كما أوحت إلى الجد في تحصيل موادها مما تنبت الأرض ، وأوحت إلى أن ستر العورة وما يثير الغرائز من أهداف الحكمة الإلهية في تقرير هذا المبدأ ، وإلى أن سنة العري

التي يألفها بعض القبائل المتوحشة ، وإبداء شيء من مفاتن الجسم كما نراه اليوم في دعاة الحضارة الزائفة ، مخالف للأدب الإنساني العام ، ومناف لما تقتضيه الطبيعة الآدمية من التحفظ والابتعاد عن مظاهر التبذل وعوامل الفتن .

وما كان ذكر المسجد في الأمر باتخاذ الزينة إلا مثلاً للمجتمعات الفاضلة ، التي يجب أن يظهر فيها الإنسان بنعم الله عليه . ولعلنا ندرك من عناصر الإرشادات النبوية ، التي تدعو إلى التطيب وحسن الملبس في مجتمعات الصلاة والأعياد ، والمناسبات الجامعة .

بهذا ونحوه ، عدل الإسلام الجانب الروحي في الإنسان .

انحراف المسلمين بتأثير ديانات وثقافات أجنبية :

ولكن الإسلام مني كما أسلفنا بقوم تأثرت نفوسهم بمظاهر الرياضة الروحية التي عرفت عند بعض الأمم ، ولم تهتد إلى ما يردها عن الشذوذ فيها ، ورأت أن أساسها يدعو إلى التقشف وطرح التجمل ومعالجة النفس في تعويدها الحرمان من متع هذه الحياة .

وقد اندفع سيل من تلك الأمم على البلاد الإسلامية ، ووجد من أبناء الإسلام من شق له الأنهار ، وحفر له الجداول ، فانساب في النوادي الإسلامية وأنبت كلمات أسندت فيما بعد إلى الرسول ﷺ ، وكان لتلك الكلمات أثرها عند الناس في فهم الإسلام على غير وجهه ، ومنها : «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله» ، وأنه «ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش » ، «لا يدخل ملكوت السماء من ملء بطنه» ، «سيد الأعمال الجوع وذل النفس ، ولبس الصوف» .

وما إلى ذلك مما يقرأ الناس في كتب التصوف التي دخلت على الدين بشيء كثير .

والحمد لله الذي قد هيأ للحق ما كشف عنه ستار الباطل ، فقد علق الحفاظ على هذه الكلمات وأمثالها بأنه لا يوجد لها أصل في صحيح المروي عن الرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ .

تحفظان لابد منهما في التمتع بالحياة :

نعم اتخذ الإسلام في إباحة التمتع بزينة الحياة – جريًا على مبدأ الاعتدال الذي بنيت عليه سائر أحكامه – تحفظين شدد في مراعاتهما : حسن النية : وهو يكون بقصد شكر الله

على نعمه لا بقصد التفاخر والخيلاء ، ثم الوقوف فيها عند حد الاعتدال حتى لا يقع الإنسان في الإسراف :

﴿ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الآية ٣١ من سورة الأعراف)

﴿ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (الآية ١٩٠ من سورة البقرة)

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (الآية ١١٤ من سورة النحل)

وبهذين التحفظين - اللذين يحققهما شكر الله والاعتدال - حارب الإسلام الترف والبذخ والتبذير فيما لا يعود على النفس ولا على الأمة بخير .

وفي الحق أن الترف غول الأمم ، يأكل فيها مكارم الأخلاق ، وينزل بها إلى مهاوي التهلكة .

وقد اعتبر الإسلام الترقي من موجبات الحجر ، احتفاظًا بأموال الله التي هي قوام الحياة وعصبها للفرد والجماعة ، وتطهير لصدور المعدمين من الحقد الذي تولده وتنمية مظاهر الإسراف المحيطة بهم وهم محرومون من حاجتهم الضرورية والمعيشة المطمئنة المريحة .

هذا هو موقف الإسلام في تعديل الروحية وتهذيبها ، وفي علاقة الإنسان بزينة الحياة ، يقطع السبيل على الذين يحاولون تشويهه ، ويرد زيفهم إلى نحورهم ، ويرشد إلى أن روحية الإسلام تعانق المادية الفاضلة ، وكان الإسلام بتعاليمه الواضحة في هذا المقام لايمكن أن تستغني عنه أمة تريد حياة طيبة مضيئة في ظل من الأمن والاستقرار .

اتضح من هذا أن الإسلام وضع للتهذيب الروحي جملة من الوسائل تعمل كلها على تنقية الفطرة من ألوان الشرك وصوره المختلفة ، التي تطمس في القلب صورة التوحيد الخالص الذي فطر عليه الإنسان ، وربطت به سعادته في الدنيا والآخرة .

ورأينا أن التفكير في ملكوت السموات والأرض كان أول ما عني به الإسلام وأرشد إليه من تلك الوسائل ، إذ به تعرف الآثار الدالة على جلال مصدرها وكماله في العلم والقدرة ، والسلطان والرحمة ، ومن هنا تخضع النفوس عن طريق عقلي ووجداني لإرادة مصدرها ، رب العالمين، الرحمن الرحيم ، ويعظم لديها الوعي الديني الذي يخلق فيها النشاط لطاعته ، وتحري ما يرضيه في معاملة النفس ومعاملة الناس .

وإن هذا التفكير الذي دعا إليه الإسلام للحصول على تلك الغاية لم يكن هو ذلك التفكير الجاف الذي يسخره الإنسان في سبيل المادة فقط ، ويستخدم آثاره التي يحصل عليها في العدوان ، وتخريب المدائن والعمائر ، وترويع الآمنين ، والقضاء على نعم الله في خلقه ، كما يدرك ذلك الآن المتحسس لنفسيات العالم في شرقه وغربه ، وإنما هو تفكير يطمئن القلب ويخدمه قبل أن يخدم العقل ودون أن يروع الآمن ، تفكير ينزع بالإنسان إلى جانب الروحية المهذبة ، التي تدعوه إلى استخدام ما يصل إليه عن طريق التفكير في المحافظة على الإنسانية ، والأخذ بها إلى الكمال الذي قدر لها وخلقت لأجله .

أساليب القرآن في الدعوة إلى التفكير النافع :

وقد كان للقرآن في الدعوة إلى هذا التفكير أساليب مختلفة ، من شأنها مضاعفة الرغبة التي تدفع الإنسان إليه ، فمن أسلوب يعلن أن الله ما خلق السموات والأرض باطلاً لاخير فيه ، وإنما خلقهما لغاية قضت بها الحكمة الإلهية في خلقهما وخلق الإنسان .

﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ (الآية ١٩١ من سورة آل عمران)

﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ (الآيات ١٦- ١٨ من سورة الأنبياء)

ولا باطل ولا لعب أكثر وأشد من الإعراض عن النظر فيما خلق الله ، هذا الإعراض الذي تظل به أسرار الرحمة كامنة في جوف المخلوقات دون أن تعرف ، ودون أن تظهر بها الرحمة في خلقه . وكذلك لا باطل ولا لعب بل لا طغيان ولا عدوان أكثر ولا أشد من معرفتها والوصول إليها ثم استخدامها في التخريب والتدمير والقضاء بها أخضر العالم ويابسه ، انقياداً لشهوة زائفة ، أو جبروت كاذب .

تسخير ما في الكون للإنسان :

ومن أسلوب يعلن الله ما خلق العالم على هذا النحو المملوء بالأسرار والسنن التي هيأ الإنسان للوصول إليها إلا لينتفع بها الإنسان .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (الآية ٢٩ من سورة البقرة)

وليس من شك في الانتفاع بأعيانها في الحياة المادية ، وبإداركها في الحياة العقلية ، وبدلالتها في الحياة الروحية . والآية ترشد بعد هذا إلى أن مواطن هذا النفع ليست خاصة بظواهر الكون ، وإنما هي مبثوثة في ظاهره الذي نحصل عليه بمجرد النظر ، وفي باطنه الذي نحتاج إلى قوة في اقتحامه وخوض غماره ، وفي هذا إيحاء بالبحث عما استقر في باطن الأرض ، وطبقات الجبال ، وقاع البحار ، وما يحمل الماء والهواء من قوى الإنتاج ومواد الصناعة والتعمير .

ومن أسلوب يؤكد للإنسان أن الله سخر له الكون ، وأقدره على استخراج أسراره ، وجعله في قبضة يده ومتناول عقله :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (الآية ٢٠ من سورة لقمان)

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الآية ١٢ من سورة الجاثية)

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (الآية ٣٦ من سورة ص)

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ (الآية ١٠ من سورة سبأ)

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ (الآية ١٢ من سورة سبأ)

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الآية ٢٥ من سورة الحديد) .

قسم الله ببعض المخلوقات :

ومن أسلوب ينبه إحساس الإنسان إلى التطلع نحو بعض المخلوقات ذات الشأن في الحياة ، فيندفع إلى تلمس ما اشتملت عليه من آيات وأسرار ، ومنافع وآثار ، وقد استخدم في هذا الأسلوب قسم الله - الغني عن القسم - بهذه المخلوقات :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الآيات ١-٨ من سورة الشمس).

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ (الآيات ١-٥ من سورة العاديات).

تنبيه إلى أصول الثروات :

ومن أسلوب يوجه الأنظار إلى أصول جملة من الثروات ، التي تتكون منها الاقتصاديات الضرورية في حياة الأمم ونهضتها ، ففي الثروة الحيوانية :

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (الآية ٥ من سورة النحل)

وفي الثروات النباتية :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ (الآية ١٤١ من سورة الأنعام)

وفي الثروات المائية :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾

(الآية ١٤ من سورة النحل)

وفي الثروات الجبلية :

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾

(الآية ٢٧ من سورة فاطر)

ومن هذه الآيات ونحوها ، وهو كثير واضح في القرآن ، يتجلى أن الإسلام قد وجه الإنسان إلى بحث الكائنات ، تعرف خواصها وأسرارها ، والانتفاع بها في بناء الحياة على أساس أنها نعمة من نعم الله ، وآثار رحمته بعباده ، تقابل بالشكر والحمد والثناء ، وشكرها هو الإيمان بمصدرها ، واستعمالها فيما ينفع الخلق وعمارة الكون .

التفكير الجاف والجمود المظلم :

وبينما نرى القرآن يدعو إلى التفكير على هذا الأساس نراه ينعي خطة الذين فكروا وعرفوا دون أن يتخذوا من تفكيرهم غذاء للقلوب ، ومداداً للأرواح :

﴿ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (الآية ٧٢ من سورة النحل)

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (الآية ٨٣ من سورة النحل)

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الآية ١٧٩ من سورة الأعراف)

وإذا كان هؤلاء مع بحثهم ، وتعرف أسرار الكون ، وفي منزلة الأنعام التي ليس لأرواحها حظ فيما تحصل عليه من المنافع المادية ، فما بال قوم ألغوا عقولهم ، وسلبوها الاستعداد الفطري للنظر والبحث ، واكتفوا من النظر بتقليب الوجوه في بناء السماء وزرقتها ، والكواكب وكثرتها ، والجبال وضخامتها ، والبحار وأمواجها ، وحرموا أنفسهم من التمتع بالمادة التي تبني الحياة ، وبالعلم الذي يغذي العقل ، وبالدلالة التي تغذي الروح ؟

وكم يضيق الإنسان ذرعًا حينما يرى المسلمين - وتلك تعاليم كتابهم وإرشاداته - في حرمان من اللذات التي ربط الله بها سعادة الناس ، وحثهم على تحصيلها والانتفاع بها !! وكم يشتد ضيقه حينما يراهم فيها عالة على غيرهم ، يأخذونها عنهم على أنها علومهم ونتائج بحوثهم ، ويأخذنها بمنهجهم في قطعها عن مصدرها المنعم بها والمسخر لها !!

ولقد كان هذا الموقف من المسلمين مما هيأ لغيرهم أن يتهموا الإسلام بالجمود ، وأنه دين يعترض التقدم ، ولا يسمح بلذة العلم ولا بعزة الحياة . وبذلك اندفعوا إلى بلاد الإسلام باسم العمل على تقدمهم ، يختبرون فيها الجبال والوديان ، ويحصلون على الخير من بواطنها ، ويتخذون فيها لذلك المراكز الشرعية التي بها يستعمرون . ألا إن واجب المسلمين اليوم وقد تكشفت لهم نوايا القوم ، وذاقوا منهم ومن جهلهم بأسرار الكون ما ذاقوا أن يستأنفوا لهم حياة جادة عاملة ، عمادها البحث والنظر ، والانتفاع بما سخر لهم من مواد الحياة ، وبذلك يستجيبون لله في دعوته ، ويحفظون لأنفسهم سلطان الدنيا ومكانة الآخرة .

الإسلام دين العقل والعلم

قد كان موقف القرآن في الحث على التفكير في ملكوت السموات والأرض بأساليبه التي عرضناها برهانًا واضحًا على مكانة العقل والعلم في نظر الإسلام ، إذ العقل آلة التفكير ، والعلم ثمرته . وإذن يكون كل ما ورد في القرآن حثًا على التفكير هو إعلانًا عن فضل العقل ، وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويته ، وهو في الوقت نفسه إعلان وتسجيل لفضل العلم ، وإيحاء بتحصيله ، فيقف الإنسان على الحقائق ، وتزول عنه غشاوة الجهل، ويحرر من رق الأوهام والخرافات .

وبذلك كان الإسلام دين الفكر ، ودين العقل ، ودين العلم ، وحسبنا أن رسوله لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير ، ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم .

﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾

(الآيتان ٥٠ ، ٥١ من سورة العنكبوت)

وقد ارتفع القرآن بالعقل ، وسجل أن إهماله في الدنيا سيكون سببًا في عذاب الآخرة ، فقال حكاية لما يجري على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والعمل به :

﴿ **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ (الآية ١٠ من سورة الملك)

وكذلك ارتفع بالعلم وجعل أهله في المرتبة الثالثة بعد الله والملائكة :

﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (الآية ١٨ من سورة آل عمران)

ثم جعلهم وحدهم هم الذين يخشون الله من عباده بما أدركوا من آثار قدرته وعظمته ، فقال بعد أن لفت الأنظار إلى نعم الله وآياته :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (الآية ٢٨ من سورة فاطر)

وكان من مقتضيات أن الإسلام دين العقل ، ودين العلم ، أنه حذر اتباع الظن ، وجعل البرهان والحجة أساس الإيمان :

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ (الآية ١٤٨ من سورة الأنعام)

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (الآية ٣٦ من سورة يونس)

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (الآية ٢٨ من سورة النجم)

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الآية ٣٦ من سورة الإسراء)

وقد رفع من شأنه فعبر عنه بالسلطان :

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (الآية ٣٥ من سورة غافر)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ (الآية ٥٦ من سورة غافر)

وهكذا كان العقل ، وكان العلم والبرهان في نظر القرآن .

القرآن ينعي على التقليد والمقلدين :

ومن هنا كثرت آيات القرآن الواردة في ذم التقليد وجرى الخلف وراء السلف ، دون نظر واستدلال ، هؤلاء الذين ورثوا عقائدهم وآراءهم عن آبائهم وأجدادهم ، لا لشيء سوى أنهم آباءهم وأجدادهم . وكأنهم يرون أن السبق الزمني يخلع على خطة السابقين وآرائهم في المعتقدات وأفهامهم في النصوص قداسة الحق وسلطان البرهان ، فالتزموها

وتقيدوا بها ، وسلبوا أنفسهم خاصة الإنسان ، خاصة البحث والنظر . وفي هذا الشأن يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (الآية ١٧٠ من سورة البقرة)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (الآية ١٠٤ من سورة المائدة) .

الجمود مصادم لقانون النمو :

حكى عنهم الجمود على ما كان عليه سلفهم ، فهم يرثون أفكارهم وآراءهم كما يرثون عقارهم وأرضهم ، وحكى عنهم اكتفائهم بمعتقداتهم الموروثة ، ووقوفهم بأنفسهم عندها دون أن يتجهوا إلى الترقي والتدرج في العلم والعمل . ولا شك أن كلا الموقفين : الجمود عند الموروث ، والاكتفاء به مصادم لما تقضي به طبيعة الكون وطبيعة كل حي من النمو والتوليد .

والتناسل الفكري كالتناسل النباتي والحيواني والإنساني ، كلاهما شأن لابد منه في الحياة . ولو وقف التناسل الفكري لارتطم الإنسان في حياته بكثرة ما تلد الطبيعيات التي هو منها ، وعندئذ يعجز عن تدبير الحياة النامية التي لم يقدر لها النماء إلا خدمة له ، وسبيلاً لخيره ونفعه ، فيتحقق فشله في القيام بمهمة الخلافة الأرضية التي اختير لها ووكلت إليه منذ القدم .

الجمود على القديم سلب لإنسانية الإنسان :

وإذا كان الجمود على آراء المتقدمين لمجرد أنهم متقدمون مصادمًا لقانون النمو والتناسل الطبيعي ، فهو في الوقت نفسه سلب لمزية الإنسان في التمييز بين الحق والباطل ، والملائم وغير الملائم ، فيفعل ما يفعل دون عقيدة ، ويترك ما يترك دون عقيدة ، ومثل هذا لا يجد لنفسه حظًا في أن يفعل أو في أن يترك وإنما يقد بالزمام ، وزمامه صور الآباء والأجداد ، فهي دائمًا تجذبه القهقرى ، ولا يجد من نفسه عونًا على التقدم ، فيقع في ضيق من الحياة المتجددة حوله

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ (الآية ٢٨ من سورة الأعراف)

ويظل كذلك حتى تنزل به غاشية من صولة الطبيعة النامية ، فتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون .

ونهاية القول إن الجمود على آراء المتقدمين ، وحظهم في العلم والمعرفة ، وأسلوبهم في البحث والنظر ، جناية على الفطرة البشرية ، وسلب لمزية العقل التي امتاز بها الإنسان ، وإهدار لحجة الله على عباده ، وتمسك بما لا وزن له عند الله .

هذا . . وقد نشأ المسلمون في ظل ما قرره الإسلام ، ودعا إليه القرآن ، ففكروا وبحثوا وتعقلوا ، وطلبوا البرهان ، وأنكروا التقليد ، فسادوا وسادت بهم الأمم . ثم لأمر ما انقلبوا على رءوسهم ، وتعفنت أمعاءهم ، وتولدت في أدمغتهم حمى التقليد ، فجهلوا أنفسهم ، وجهلوا الكون ، وجهلوا الحياة ، وتفرقوا في دين الله وكانوا شيعًا ، فأبطلوا حجة الله على خلقه ، وصاروا حجة على دينه وشرعه .

زعموا أن لآبائهم عصمة تمنعهم من النظر في أقوالهم ، وبذلك لبس الدين فيما بينهم أثوابًا مختلفة الألوان ، مختلفة النسيج ، وراجت عند الجميع البدع والخرافات ، وعقدت على دين الله غبارًا كثيفًا ، فنفر الناس منه ، وأعرضوا عنه ، واتهموا بالإضراب بين حلال وحرام ، وصحيح وفاسد ، وقوي وضعيف !!! وأخذوا يتأهبون للخلاص ، ناقمين على طوائف الدين مواقفهم من موروثاتهم ، التي جعلته في جانب وحياة الناس في جانب آخر .

ألا فليعلم هؤلاء جميعًا أن صدر الحياة ، الذي يتسع كل يوم وكل ساعة ، أصبح غير قابل لضغط تضيق به رقعته ويرجع إلى أغلال الموروثات الأولى ، فلينظروا في أي وضع يكونون ، وعلى أي منهج يسيرون ، حتى يحفظوا لله شرعه ، ويقيموا له دعوته .

استخلاف الإنسان في الأرض :

لم يخلق الإنسان في هذه الحياة ليعبث أو ليلهو ، ولم يخلق ليطغى بقوته وجبروته ، ويستبد قويه بضعيفه ، وإنما خلق وركب فيه ما ركب من قوى العلم والإدراك وآلات العمل والإنتاج ، وسخر له الكون في أرضه وسمائه ، ومائه وهوائه لحكمة سامية تعبر عن جلال الله وجماله ، هي أن يكون خليفة في الأرض ، يعمرها ويعمل على إصلاحها ،

واتساع عمرانها ، وإظهار أسرار الله فيها ، وإقرار الخير والسعادة في نواحيها . وبذلك تكون مظهراً لرحمة الله بعباده ، وآية من آيات قدرته وحكمته .

وقد أرشد إلى هذه الحكمة كثير من آيات القرآن ، منها قوله تعالى وهو يحدث عن مبدأ خلق الإنسان :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (الآيات ٣٠-٣٣ من سورة البقرة)

فتجلت للملائكة حكمة استخلاف الإنسان في الأرض ، واعترفوا له بالمكانة التي أعدت له في هذه الحياة . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (الآية ١٦٥ من سورة الأنعام)

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الآية ٧ من سورة الحديد)

وقوله : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الآية ٢٦ من سورة ص) .

العلم والصحة :

وإذا كانت هذه هي مهمة الإنسان في الحياة ، وهي حكمة خلقه ، وحكمة الإنعام عليه بقوى العلم والعمل ، وحكمة تسخير الكون وإخضاعه له في التفكير والتصريف ، فإنه لاسبيل إلى قيامه بهذه المهمة وتحقيق تلك الحكم إلا إذا تحصن بالعلم ليعرف الخير من

الشر ، والنافع من الضار ، والمعمر من المخرب ، وتحصن كذلك بالصحة ليكمل عقله ، ويسلم تدبيره ، وتتصل جهوده .

فالمعرفة والصحة عنصران لابد منهما في قيام الحياة على الوجه الذي يحقق حكمة الخلق في الخالق . وليس في الحياة شيء إلا وهو محتاج إليهما ، متوقفًا عليهما ، وليس فيما نعلم مقوضًا لأصل السعادة ، وقاضيًا على الهناءة ، ومفككًا لعرى التعاون ، ومضيعًا للعزة والسلطان ، مثل الجهل والمرض ، فهما بحق أصل البلاء ، ونذير الاضمحلال والفناء .

الإسلام يعلن الحرب على الجهل :

ومن هنا عني الإسلام عناية كاملة بالإرشاد إلى الوسائل التي تطهر المجتمع من الجهل ، والتي تطهره من المرض ، فهو قد حارب الجهل وتتبعه في كل وكر من أوكاره ، وفي كل لون من ألوانه : حارب جهل الشرك بالتوحيد ، وبث في النفس والآفاق دلائله ، ولفت الإنسان إليها ، وحثه على النظر والتفكر فيها ، ليؤمن بأن العظمة التي يخضع لها ليست لأحد سواه ، فلا تعترضه في طريق الكمال ما ينسجه الإنسان حوله من صور العظمات الزائفة .

حارب جهالة التقليد وأنكر على الإنسان أن يسلم عقله لغيره ، وأن يقف في عقائده ومعارفه ، ووسائل الحياة عند ما خلفه الآباء والأجداد من الأوهام والخرافات .

تعلم القراءة والكتابة :

حارب الإسلام جهالة الأمية ، وأوحى بتعلم القراءة والكتابة ، ورفع من شأن التعلم .

ولابد هنا من وقفة يسيرة لنرى مبلغ عناية الإسلام بمحو الأمية ، والإرشاد إلى وسيلته . وحسبنا في ذلك أن يكون أول نداء إلهي يفتتح به الله بسم «الربوبية» وحيه إلى نبيه محمد ﷺ ، تلكم الآية الكريمة :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (الآيات ١-٥ من سورة العلق)

يأمر بالقراءة ، والقراءة سلم المجد ، وطريق العلم والمعرفة ، ثم يرشد إلى الاستعانة عليها باسم «الرب» مفيض التربية ووسائلها على جميع الخلق ، فيشعر الإنسان بعزة شأنها ورفعة قدرها ، وأنها من الشئون العظمى ، ذات البال والخطر ، ثم يذكر خلقه وتكوينه في هذا المقام ويردفه بنعمة العلم «الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم» . وبذلك يسوي بين نعمة الخلق والإيجاد ونعمة العلم ، ويكون ذلك إيحاءً بأن المخلوق الجاهل لا اعتداد بوجوده في هذه الحياة . وتنويهًا بشأن القلم ومكانته في العلم والمعرفة ، يقسم به الله في معرض تبرئة الرسول ﷺ من أفدح التهم الباطلة التي ألصقها القوم به عليه الصلاة والسلام، وهي تهمة الجنون :

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾

(الآيتان ١ ، ٢ من سورة القلم) .

العلم ليس خاصًا بمعرفة الدين :

وكما يطلب القراءة على الإطلاق دون تقييد بمقروء مخصوص ، يطلب العلم والنظر على الإطلاق ، دون تقييد بمعلوم مخصوص أو منظور مخصوص :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الآية ٩ من سورة الزمر)

ويرشدنا هذا الإطلاق إلى أن «العلم» في نظر القرآن ليس خاصًا بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام ، وإنما العلم في نظره هو كل إدراك يفيد الإنسان توفيقًا في القيام بمهمته العظمى التي ألقيت على كاهله منذ قدر خلقه ، وجعل خليفة في الأرض ، وهي عمارتها ، واستخراج كنوزها ، وإظهار أسرار الله فيها .

فإدراك ما يصلح به النبات وينمو ويثمر ، وما تستنبت به الأرض وتحيا ، علم .

وإدراك ما يصلح الحيوان ، ويستمر به نسله ، وتتصل قوته ، علم .

وإدراك الطرق المشروعة التي تحصل الأموال ، والتي تنظم بها مواردها ومصارفها ، علم .

وإدراك موارد الصناعة على اختلاف أنواعها وكيفياتها وتوزيعها ، علم .

وإدراك الأمراض وعللها وكيفية علاجها وطرق الوقاية منها ، علم .

وإدراك ما تعرفه الأمم من وسائل الدفاع والهجوم ، حفظًا للأوطان ، ودفعًا لما يرهبهم، علم .

وقد جاء الإيحاء بهذا كله واضحًا جليًا في القرآن الكريم ، وبه كان العلم بمعناه العام الشامل - العنصر الأول من عناصر الحياة في نظر الإسلام .

أسلافنا أدركوا قيمة العلم بكل فنونه :

وقد أدرك المسلمون الأولون إيحاء القرآن الكريم في كل ذلك ، فأدركوا قيمة العلم ومنزلته وضرورته في سعادة الأمم والأفراد : كانوا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب فجدوا في محو أميتهم بكل الوسائل حتى أطلقوا سراح الأسير إذا هو علم عددًا من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، وجعلوا تعليم القرآن الكريم مهرًا في الزواج ، وأطلقوا لأنفسهم سراح النظر في الكائنات ، فأدركوا منها ما يسعدهم في الحياة ، ويجعلهم أئمة يهدون بأمر الله .

رفعوا بالعلم مكانة الخامل ، كان فيما بينهم نسب الوضيع ، وغنى الفقير ، وقوة الضعيف . وفي بطون التاريخ والمكتبات الإسلامية والعالمية - من المؤلفات والمترجمات في شتى العلوم والفنون والصنائع وجميع فروع العلم والمعرفة - ما يشهد لهم بالتركز العلمي ، ويشهد لكل جيل بمنهجه في علمه ومعارفه التي وصل إليها بجهوده وتفكيره ، دون الوقوف عند ما ترك السابقون ، بل نظروا وبحثوا ، واختاروا واختبروا وابتكروا ، وبذلك اقتعدوا مكانة الأستاذية العامة المطلقة ، وكانوا حقًا جديرين بأن يكونوا كما وصف الله .

﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

تسلك إلى الخير طريقه ، وتسد دون الشر سبيله .

أملنا في نهضة علمية جديدة :

هذه مكانة العلم في بناء المجتمع كما يقررها القرآن الكريم ويوحي بها ، وإني أرجو أن يكون الزمان قد هيأ نفسه ليستدير بالمسلمين كهيئته الأولى ، وأن يكونوا بما وقعوا فيه من إحن ومحن قد تكاملت في نفوسهم عوامل اليقظة والوعي ، وآمنوا بأن عزة أسلافهم

وعزة الناس من حولهم كان العلم أول عناصرها وأقواها ، وآمنوا بأن الذلة ، وتهافت الأمم عليهم التي نكبوا بها ، كان الجهل والتلهي بالشخصيات والنظريات والجدليات والفروض الوهمية والأوهام والخيالات ، والعناية بما يكنه الغيب عن طريق الدجل ، كان كل ذلك أول عناصرها وأقواها .

وإني لأحس إحساسًا قويًا بأن النهضة العلمية آخذة - بإخلاص القائمين بها والمشرفين عليها والفاهمين لها - طريقها إلى ما يمحو الأمية ويحقق للأمة الخير والسعادة ، ويرد آخرها إلى أولها ، فننعم بما نعموا ونسعد بما سعدوا ، ونخلع ما نحن فيه من ذل وشقاء ، وتكون العزة كما يحب الله :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

العنصر الروحي في التربية

ضرورة العنصر في التربية :

نقصد بالعنصر الروحي في التربية العمل على إحياء القلب بتنمية النزعة الدينية في الإنسان .

وحديثنا عن ذلك العنصر يتناول جهتين :

الأولى : ضرورته في التربية .

الثانية : المعهد أو التعليم الذي يعد «فنيًا خاصًا» يقوم بمهمة عرض الثقافة الدينية الصافية ، ويهيئ التربة والجو اللذين ينمو فيهما ذلك العنصر الروحي ، حتى يؤتي ثمراته الطيبة في الحياة .

١ - أما ضرورته في التربية فلعلها تنصح مما يأتي :

من القضايا المسلمة عند رجال التربية والتوجيه أنه - ليعظم خير الثقافة للإنسان أو لتكون الثقافة كلها خيرًا إن أمكن - لابد من الاعتماد في التربية على عنصر تهذيبي يعدل نزعة الجسم مع نزعة الروح . والجسم والروح هما العنصران اللذان تكون منهما الإنسان ، ووقع الإنسان في الخلق والتكوين بين نزعتيهما .

وبالموازنة بين عنصر تهذيبي يكونه عمل بشري ، وبين العنصر التهذيبي الديني ، يبدو جليًا أن العنصر التهذيبي الديني لا يمكن أن يغني عنه في مهمة التهذيب عنصر تهذيبي آخر هو من صنع الإنسان وفروضه ، ذلك أن النفس الإنسانية ذات نزعات فطرية ، ومن أولى هذه النزعات الإيمان بقوة غيبية لها وحدها الحكم على القلب والوجدان . والإيمان بهذه القوة يدفع إلى إطاعتها ولذة الانقياد لها فيما علم أنه من جهتها ، وكلما قوى الشعور بتلك القوة في الإنسان ، وشع الإيمان بها في جوانب قلبه ووجدانه ، كان انتفاعه بهذا الشعور وقبوله لما يقوى ذلك الإشعاع بدافع من ميوله الفطرية ونزعاته الأولى ، التي لو سلمت من ضغط العوامل الخارجية لسارع إلى تلبيتها ونزل على وحيها وإرادتها .

هذه حقيقة شهد بها تحليل الطبيعة البشرية من قبل أن يطغى عليها سلطان المادة ، وقد أبرزها واضحة جلية سير الدعوات الدينية التي نجحت في العالم ، وقررتها الكتب السماوية

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الآية ٣٠ من سورة الروم)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ (الآية ١٧٢ من سورة الأعراف)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (الآية ٦١ من سورة العنكبوت) .

التهذيب العقلي لا يصلح أساسا أول للتربية :

وإذا أمكن أن يكون من حكمة الحكماء وفلسفة العلماء عنصر تهذيبي لأنفسهم يتفقون عليه ويؤمنون به ، دون أن يختلفوا فيه - والاختلاف شأن التفاوت في الإدراك - فإنه لايمكن بحال أن يكون منها عنصر تهذيبي للأمم والجماعات التي لا تشعر قلوبها بسلطان الحكمة ولا بهيمنة الفلسفة ، ولا تجد من قلوبها منبعًا لحكمة ولا لفلسفة . وإن الوازع التهذيبي إذا لم يكن نابعًا من القلب ولم يكن تلبية لنزعة فطرية - تنمو في النفس بالمغذيات الخاصة الواصلة إليها من القوة التي تشعر هي بسلطانها الغالب - كان بمثابة تلك القوانين التي يخضع لها الإنسان في ظاهر حياته فقط ، وحيث يخشى طائلة القانون إذا خالفها .

على أن حكمة الحكماء والقواعد الأخلاقية الفلسفية لا تعدو أن تكون عملاً إنسانيًا لايكتنه بطبعه الحقيقة الكامنة في النفس ، ولا يحيط بجميع الجوانب التي كثيراً ما تخفي على العقل المحدود في إدراكه ، ومن هنا اضطربت قواعد ، وظهرت أخطاء ، وتغيرت اتجاهات .

فإلى أن نشعر للعقل بسلطان قوي على القلب والوجدان في جميع الطبقات البشرية وإلى أن نؤمن بقدرة العقل على اكتناه ما يلبي النزعات الفطرية ، وإلى أن نؤمن بصحة النتائج للعمل الإنساني والاتفاق عليها فيما وراء المادة المحسة ، إلى أن يحصل كل هذا

يجب أن ينحي العنصر التهذيبي الإنساني عن مكانة الصدارة التي يجب أن يحتلها العنصر الديني من بين عناصر التهذيب العامة .

أصالة الاعتماد في التربية على العنصر الديني :

وليس هذا الذي نقرره في هذا المقام بالشيء الجديد الذي يفاجأ به الناس ، وليس بالشيء القديم البالي - كما يظنه المفتونون بالتهذيب الفلسفي - وإنما هو القديم المركوز في الطباع من يوم أن هبط آدم وزوجه إلى الأرض :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾

(الآيات ١٢٣-١٢٧ من سورة طه)

هو القديم الباقي الذي يملك باطن الحياة قبل ظاهرها والذي ينبع من القلب والوجدان من قبل أن تمر عليهما التيارات العقلية المتضاربة ، والذي آمنت به من قبل الأرواح الصافية المؤمنة بمهمة إنسان في هذه الحياة . آمن به جد العروبة الأعلى إبراهيم وولده إسماعيل .

أدركا أن تعليم الكتاب والحكمة لا يكفي في إصلاح الأمم وإسعادها حتى يقرن بالتربية على الفضائل ، والحمل على العمل الصالح عن طريق بنبع احترامه وتقديسه من القلب ، ويشعر بسلطانه وقوته الوجدان . ذلكم الطريق هو طريق الوحي والرسالة من الله رب العالمين . أدركا ذلك فكان مما قالاه في التماس سعادة ذريتهم - أبنائهم وأحفادهم -

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الآية ١٢٩ من سورة البقرة)

وقد حقق الله دعوتهما فبعث في ذريتهما المعلم والمربي

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (الآية ٢ من سورة الجمعة) .

موقف تعاليم الدين من قوى الإنسان :

وإذا قد تبين أن العنصر الديني ضرورة تلبي نزعة طبيعية في الإنسان فإن وصايا الدين - كما عرفت من كتب الدعوة ومن كلمات أصحابها الموثوق بنسبتها إليهم ، ومن قبل أن ينالها العقل الإنساني بالصرف إلى غاية بشرية معينة - لتقف جميعها ، مهما تعددت نواحيها وتنوعت موضوعاتها ، من قوى الفرد بعضها مع بعض ، ومن قوى الفرد مع الفرد ومن قوى الجماعة من الجماعة - لنقف موقفًا واحدًا ، هو موقف التوجيه والأخذ إلى الحد الوسط «حد التوازن والاعتدال» فيصان العالم بأفراده وجماعاته عن الشذوذ في نموه وتكامله ، وعن الطغيان في سلوكه وتصرفه . وما الشذوذ والطغيان إلا تغلب بعض النزعات الفطرية على بعض ، وبه يصير الإنسان أسيرًا في تصرفاته لجانب واحد من جوانب نفسه ، بينما تتطلب طبيعته أن تلبي من كل جوانبها في قسط واعتدال :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (الآية ١ من سورة هود)

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ (الآية ١٠٥ من سورة الإسراء)

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (الآية ١٥٣ من سورة الأنعام)

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (الآيتان ١١٢ ، ١١٣ من سورة هود)

والاستقامة ليست سوى الوقوف بالقوى في مستوى التوازن ، والطغيان ليس سوى تغلب بعض القوى على بعض . والركون إلى الظالمين ليس سوى متابعة الذين يصرفون الناس عن حد التوازن بين القوى بما يرون من نظريات لا تلبي فطرة الإنسان التي فطر عليها ، حيث تحقق لهم نزعات خاصة كونتها لديهم أهواء وأغراض .

إن دين الله قد جاءت إرشاداته في كل كتاب وعلى لسان كل رسول طبق الطبيعة الإنسانية ، ولم يكن لها من هدف سوى تنظيم تلك الطبيعة والسير بها في طريق السعادة والخلود . وهو - كما قلنا - طريق توازن واعتدال :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الآية ١٠٤ من سورة آل عمران)

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الآيتان ١١٣ ، ١١٤ من سورة آل عمران)

على هذا اتفقت جميع الدعوات الإلهية .

الدين إنما يؤخذ من مصادره اليقينية :

وإذا بدا لبعض الناظرين في شيء يقال عنه «إنه تعليم ديني» أنه يجافي الطبيعة ، أو يقف حجر عثرة في سبيل تقدم الإنسانية الصحيح ، فليتجه بنفسه مستعيناً بما لديه من مؤهلات سليمة إلى المصادر اليقينية الأولى لتعاليم الدين . ولعله إذا أخلص النية في رحلته تلك عاد فألقى باللائمة على كاهل الإنسان ، الذي أفسد بنزعته التقليدية جو التوازن والاعتدال في حكم الدين البريء .

وجوب مكافحة النزعات الدخيلة :

وهذه ثغرة كثيراً ما شوهت أعاصيرها على الناس رواء الحق وجماله ، وكثيراً ما انعقد غبارها فوق رءوس المؤمنين بشرع الله ودينه ، وأقولها كلمة صريحة : على القيادة الفكرية الناضجة المؤمنة أن تقف من هذه الثغرة موقف ذي القرنين من ثغرة يأجوج ومأجوج :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (الآيات ٩٣-٩٧ من سورة الكهف)

وجوب تضمين مناهج التعليم العام عامل الدين :

وإذا تبين أن طبيعة الإنسان وموقف المبادئ الدينية الصحيحة من قواه المختلفة يقضيان بالاعتماد على العنصر الديني كأساس أول في التهذيب والتربية ، كان من الواجب الحتمي على رجال التربية والإشراف على التوجيه الإنساني أن يضمنوا التعليم العام عامل الدين كعنصر أول في تهذيب الفرد وإعداده لأن يكون مواطنًا صالحًا لنفسه ولجماعته ، وكان خلو المناهج التعليمية أيًا كانت صبغتها من هذا العنصر انحرافًا بالتعليم عن أن يكون وسيلة للتهذيب إلى أن يكون وسيلة لكسب المعرفة التي لا أثر لها في الإنسان سوى القضاء على الجهالة ، وكانت المدرسة التي يخلو منهاجها من الدين مدرسة لا تسوق التعليم وفق طبيعة الإنسان ، وإنما تكون إنسانًا لا يزيد كثيرًا في معناه عن هذا الإنسان الآلي الذي أحدثته المدنية الحاضرة . وقد دلتنا مشاهداتنا أن هذه المعرفة أو هذه المدرسة لم يجن العالم منها إلا الشقاء والدمار ، وأن العلم وحده صار أداة للتخريب والطغيان أكثر من أن يكون أداة للتعمير والعدل . وبهذا انقلبت الحياة جحيمًا لا تحتمل .

مدرسة إعداد المواطن هي العالم كله :

وإذا كان من الواجب الحتمي أن يتخذ الدين مادة أولى لإعداد الإنسان فليس ذلك الإنسان هو الطالب في مرحلة معينة فقط ، وإنما هو الطالب في أية مرحلة من مراحل التعليم ، بل هو ذلكم المواطن الذي تتكون منه الجماعة أينما وجد ، وإلى أي طبقة انتسب وفي أي سن كان ، وإذن فالمدرسة التي يجب أن نطبق فيها هذا المنهج القويم هي العالم كله ، في لغاته المختلفة ، وأجناسه المتباينة ، وأقطاره المتباعدة .

ويدفعنا الحديث هنا إلى معالجة الوسيلة لغرس الروح الديني في نفوس أهل تلك المدرسة العالمية الكبرى .

الشرق في القديم وفي الحديث واجبه تكوين الأمة المثالية :

قد شع من الشرق على العالم كله في حقب التاريخ الماضية نور أحيا القلب الإنساني وأرشد الحائر وهدى الضال ، وما أجدر هذا النور أن يعود من الشرق نفسه إلى العالم كرة أخرى فيضيء له السبيل وينقذه من شر ما هو فيه .

علينا معشر الشرقيين أن نكون «أمة واحدة لها قلبها الحي وروحها الوثاب» تحمل مشكاة هذه الدعوة ، وتبدد بها ظلمات المادة ، ويومئذ تعود لنا مكانتنا الأولى ، مكانة المعلم الإنساني العام . . . ولكن . . . ما السبيل إلى ذلك ؟

تكوين الروح الديني الخالص :

السبيل فيما أرى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بإيجاد الروح الديني الخالص ، الذي يكوِّن العامل الأول في غرس البذرة الأولى في تكوين هذه الأمة ، وإنا لن نظفر بهذا الروح الديني الخالص حتى يكون قد دخل في إعداده :

أولاً : فهم الدين فهمًا صحيحًا أخذًا من مصادره الأولى ، دون التجاء إلى التقيد برأي فرقة خاصة أو مذهب معين .

ثانيًا : الوقوف على العقليات الحاضرة للجماعات ، والإلمام بنفسية الطبقات والفروق الفردية بين الذكر والأنثى والصغير والكبير .

ثالثًا : إتقان وسيلة التفاهم ، وطرق التأثير على القلوب النادَّة .

رابعًا : وهو الأول ، في الاعتبار ، تعهده بأخذ نفسه وقلبه على مقتضى الروح الديني الصحيح .

ويوم أن نظفر بهذا الدين الخالص نستطيع أن نغزو به كل ناحية من نواحي الأمة حتى تشع في الشعب كله الروح العالية ، وتصير الأمة كلها مطبوعة بطابعه ، داعية إلى الخير بأقوالها وأفعالها وأخلاقها ونظمها في الحياة .

العناية باليتيم

الأطفال رجال الغد :

إن أطفال اليوم هم اللبنات الرطبة التي يشاد على كاهلها – في المستقبل – بناء المجتمع ، هم رجال الغد . وبقدر ما يبذل في تربيتهم وتقويمهم بقدر ما يكون للأمة من مكانة وعزة ، وبقدر ما يهملون فتتمكن من قلوبهم أساليب الانحراف بقدر ما يكون للأمة من اختلال وضعف في القوى الموجهة لها ، القائمة بشئونها .

اليتيم وحاجته إلى الرعاية :

واليتيم طفل من بين الأطفال قد فقد أباه ، والعائل الذي يرعاه ، فقد القلب الذي يحنو عليه ، والروح الذي يحوطه ويرعاه فتقوى أعصابه ، وتنمو جوارحه ، وينشرح صدره ، وتبتسم له الحياة ، فقد بموت أبيه كل ذلك ، وأسلمته المقادير إلى الكآبة وتشتت البال والحرمان ، فما أحوجه إلى عناية من الرءوف الرحيم ، تنتشله من تلك الوهدة ، وتجعل له متنفسًا يسري به عن نفسه . ما أحوجه إلى تشريع حكيم ، ووصية كريمة من رب رحيم ، تحفظ عليه نفسه ، وتحفظ له ماله ، وتعده رجلاً عاملاً في الحياة ، ليس كلاً على غيره ، ولا عبئًا على أمته ، ولا عنصر شر ينفث سمومه في أمثاله الأطفال .

في مكي القرآن :

لهذا كله عني الإسلام كتابًا وسنة بأمر اليتيم والحث على تربيته والمحافظة على نفسه وماله ، وقد ظهرت عناية القرآن الكريم بشأن اليتيم منذ أن نزل إلى أن أكمل الله دينه ، وأتم على المؤمنين تشريعه : ظهرت في مكيه حينما عاد الوحي إلى النبي ﷺ بعد أن فتر عنه مدة طويلة توجس الرسول منها أن يكون الله قد قلاه وأبغضه ، فجاءه الوحي وهو في هذا التوجس مؤكدًا له حسن رعاية الله إياه ، وأخذ يثبت ذلك في نفسه ، ويذكره بعناية الله له قبل النبوة ، وهو أحوج ما يكون إلى عطف الأبوة التي فقدها ولم يرها :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ (الآية ٦ من سورة الضحى)

ثم يطلب منه الشكر على تلك النعمة ، وأن يكون شكرها من جنسها ، عطفًا على اليتيم ورحمة به : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾ (الآية ٩ من سورة الضحى)

وظهرت في المكي أيضًا ، إذ جعل الله ازدراء اليتيم وإهمال أمره آية من آيات التكذيب بيوم الدين :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ (الآيتان ١ ، ٢ من سورة الماعون)

وإذ يجعل الوصية به إحدى الوصايا العشر التي تنسخ في ملة من الملل ، وينظمها مع الإيمان بالله في سلك واحد :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

إلى أن يقول : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ (الآية ١٥٢ من سورة الأنعام).

في مدني القرآن :

وقد تأثرت نفوس القوم بهذه الوصايا المكية التي جاءت في شأن اليتيم ، وصاروا من أمره في حرج وحيرة : أيتركون القيام عليه فيفسد أمره ويختل شأنه ، أم يقومون عليه ويعزلونه عن أبنائهم في مأكله ومشربه فيشعر بالذلة والمسكنة ، أم يخالطونه فيعرضون أنفسهم لأكل شيء من ماله ؟ أم ماذا يفعلون ؟

التمست نفوسهم ما ينقذهم من هذه الحيرة ، ويخفف عنهم عبء هذه المسئولية التي ثقل بها كاهلهم ، وعندئذ نزل قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ (الآية ٢٢٠ من سورة البقرة)

فأفهمهم أن المخالطة مع العدل والإصلاح من مقتضى ما بينهم من الأخوة الإنسانية والدينية والرحم .

ثم جاءت سورة النساء وبرزت فيها عناية خاصة باليتيم في شأنه كله ، ومهدت لهذه العناية بطلب تقوى الله والأرحام ، وبيان أن الناس جميعًا خلقوا من نفس واحدة ، فاليتيم حتى لو كان من غير أسرتكم فهو أخوكم ورحمكم ، فقوموا له بحق الأخوة وحق الرحم ، واحفظوا أمواله ، وهذبوا نفسه ، واحذروا اغتيالها وأكلها ، واحذروا إهماله وإلقاء حبله على غاربه ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (الآية ٢ من سورة النساء)

ويقول :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (الآية ٦ من سورة النساء) .

في الهدي النبوي :

هذا بعض ما نقرأ في القرآن الكريم من وجوه العناية باليتيم في ماله وتربيته وتهذيبه . وقد ورد في الهدى النبوي الشيء الكثير من العدة برفع الدرجات فيما يختص بكفالة اليتيم، والقيام بحقه وواجبه . وحسب من كفل اليتيم ورعاه وقام بوصاياه الله فيه أن يكون مع النبي ﷺ في الجنة صاحبًا وقرينًا ، يتمتع بما فيها من النعيم ، كما متع اليتيم برعايته ، وحسن معاملته ، والإشراف عليه : «من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره ، وغدا وراح شاهراً سيفه في سبيل الله ، وكنت أنا وهو في الجنة إخوانًا، كما أن هاتين أختان «وألصق السبابة بالوسطى» ، «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساءُ إليه» .

سفعاء الخدين :

أما هذه الأم التي مات عنها زوجها ، وهي ذات منصب وجمال ، وترك لها أيتامًا فتأيمت عليهم ، وحبست نفسها على خدمتهم حتى تغير لونها وانطفأ جمالها ، ونسيت

وسائل الزينة ومظاهر الجمال في سبيل هيمنتها على الأيتام ، وفي سبيل تربيتهم والمحافظة عليهم . أما هذه السيدة فحسبها مكانة عند الله قول الرسول ﷺ «أنا وامرأة سفعاء الخدين - متغيرة اللون - كهاتين يوم القيامة» وأشار بالسبابة مع الوسطى : يريد أنها بجانبه ملتصقة به لا يفصل بينهما في الجنة شيء .

هذا هو إرشاد الله ورسوله في تهيئة اللبنات التي تبني المجتمع الإسلامي ، والتي يشاد عليها صرحه فيرتفع بناؤه ، ويمتد ظله ، وتكثر ثماره .

إلى الأعمام والأوصياء :

فيا أيها الأعمام ، ويا أيها الأوصياء كونوا في الإشراف على اليتامى في حذر من غضب الله ، واعلموا أن إهمال اليتيم لا يقف ضرره عند اليتيم ، بل هو ضرر تتفشى جرائيمه ، وتنتشر سمومه في جسم الأمة كلها ، فيعتريها الضعف والانحلال ، وتبوء بالخزي والدمار ، وشر بيت كما يقول الرسول ﷺ بيت فيه يتيم يساء إليه ، والأمة بيت ، فشر أمة فيها يتامى يُساء إليهم فيهمل أمرهم وتفسد أخلاقهم ، وتنقطع صلتهم بخالقهم ، ويكونون لبنات هزيلة في بناء الأمة ، فتسقط من عليائها ، وتصبح أثراً بعد عين .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ (الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة النساء)

الإسلام يحارب التسوُّل

الإنفاق الذي يريده الإسلام :

إن الإسلام مع شدة حرصه على تقرير مبدأ الإنفاق في سبيل الله ، لم يرد منه مجرد الإنفاق والبذل بإخراج الغني بعض ماله لغيره أيًا كان ذلك الغير ، وإنما أراد بالإنفاق الذي قرره على أغنياء المسلمين ما يحقق الضمان الاجتماعي بين الأغنياء وأرباب الحقوق عليهم، وذوي الفقر والحاجة الذين لم يكن لديهم قوة عملية يدفعون بها حاجتهم ، وينقذون أنفسهم من مخالب الفقر ، المذلة للنفوس ، المضيعة للكرامات .

ومن هنا رسم للإنفاق دوائره التي ينبغي أن يتجه إليها به : رسم دائرة الأهل والأقارب

﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىَ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىَ ﴾ (الآية ١٧٧ من سورة البقرة)

﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىَ بِبَعْضٍ ﴾ (الآية ٧٥ من سورة الأنفال)

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىَ حَقَّهُ ﴾ (الآية ٢٦ من سورة الإسراء)

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى ﴾ (الآية ٣٦ من سورة النساء)

ورسم دائرة الفقراء والمساكين الذين لا يجدون ولا يقدرون على أن يعملوا

﴿ وَلا يَحُضُّ عَلَىَ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (الآية ٣ من سورة الماعون)

﴿ وَالْيَتَامَىَ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ (الآية ١٧٧ من سورة البقرة)

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ (الآية ٤٤ من سورة المدثر)

ورسم بكلمة ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الآية ٦٠ من سورة التوبة)

دائرة الإنفاق في المصالح العامة والمشروعات الجماعية ، وفي أوائلها المصانع الحربية

والمستشفيات العلاجية ، والمعاهد العلمية ، وما إلى ذلك مما يحقق للمجتمع حاجته في حفظ كيانه وحفظ صحته وعقله وثقافته .

ولا يكاد يشتبه أحد في تحديد دائرة أهله وأقاربه ، ولا في تحديد دائرة المشروعات النافعة ، فهما دائرتان واضحتان لا لبس فيهما ولا خفاء .

احتراف التسول :

نعم ، يقع الاشتباه عند كثير من الناس في دائرة الفقر والمسكنة ، هذه الدائرة التي يتزيا بزي أهلها كثير من المحترفين ، سولت لهم نفوسهم البطالة ، فمدوا أيديهم بالسؤال ، واتخذوا مشروعية الصدقة في الإسلام سبيلاً للجمع عن طريق التمسكن ، والظهور بمظهر الفقراء المستحقين ، وبذلك استغلوا بماء وجوههم عاطفة الناس !

هؤلاء ليسوا في واقعهم إلا أرباب نهب وسلب عن طريق استخدام الغش والخديعة التي تصرف الناس عن حقيقة أمرهم ، وليسوا إلا عناصر بطالة وهدم لكرامة الجماعة التي يجب أن تعيش وحداتها على أساس من العزة والتعفف والرفعة .

يطالب الله الإنسان القادر على العمل أن يعمل تحصيلاً لرزقه وحفظًا لماء وجهه ، ويشدد عليه في ذلك كله ، ويضع السعي أمامه في مستوى العبادة ، فيتحلل الإنسان من تلك الأوامر ، وينزع نفسه من معاني الكرامة نزعًا ، ويتخذ التسول صنعة ، يتنقل بها في الطرق والمقاهي ، ومركبات الترام ، والميادين العامة ، منها يتعيش ، وبها للمال يجمع : ليقف للمارة بالمرصاد ، يسد عليهم طريقهم ، ويعترضهم في سيرهم مرتلاً لهم دعوات . فإذا لم يعط بها قلبها لعنات :

﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

(الآية ٥٨ من سورة التوبة)

إن هذا الصنف كثر في هذه الأيام ، وتفنن في مظاهر العجز ودواعي السؤال ، وكان منهم من يتعارج ، ومن يتعامى ، ومن يزعم أنه خرج من مستشفى القصر وليس معه أجرة القطار ، ولا أجرة المأوى ، ولا ثمن الخبز ، هؤلاء كذبة فجرة ، فقدوا ماء الوجه ، وحرموا فضيلة الحياء ، واستطابوا هذه الوسيلة الوضيعة لجمع المال بغير كد وعمل .

المسكين الذي يستحق العطف :

المسكين الذي يستحق العطف ، ويجب له البذل ، هو من قعد به المرض عن السعي والعمل ، وهو من سعى إلى عمل فسدت في وجهه السبل ، هذا هو المسكين ، ومع هذا فشأنه أن تدل عليه حالته ، فيعطف عليه أهل الخير والسخاء

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (الآية ٢٧٣ من سورة البقرة)

«ليس المسكين من ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لايجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه» ، «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس بوجهه مزعة لحم» .

تنظيم الإنفاق واجب :

لأن تنظيم الإنفاق في هذه الدائرة - دائرة الفقر والمسكنة - من واجب الواجبات على المصلحين والقائمين بشئون المجتمع . عليهم أن يتعرفوا المحتاجين حقيقة ، وبخاصة الأسر التي أخنى عليها الدهر ، وصارت بعد العزة إلى ذلة ، وبعد الغنى واليسار إلى الحاجة والمسكنة ، ويمنعهم الحياء عن الظهور بمظهر السائلين أو المتسولين ، وقد يكون من أقرب الطرق لمعرفة هؤلاء تقسيم المدن إلى مناطق ، يكلف أمناء كل حي من أحيائها بمعرفة المحتاجين للعمل أو المعونة فيها ، وبما يجمعون من أهل الخير واليسار يسدون حاجة المحتاج بنفقة يدفعونها ، أو عمل يهيئونه له ، ويجري هذا التنظيم في كل قرية .

وأعتقد أنه إذا وضع موضع التنفيذ والعناية كانت الصدقات التي يبذلها الأفراد لهؤلاء المتسكعين المتسولين رأس مال كبير ، به تنقذ بلادنا من مظاهر التسول التي امتلأت بها الشوارع وأمكن الانتفاع بكثير من هؤلاء المتسولين فيما تحتاجه البلاد في توسيع الوديان المنزرعة ، وشق الأنهار ، وتعبيد الطرق ، وستجد الحكومة منهم جيشًا جرارًا ، به تنتفع البلاد ، وبه تتقي خطرهم في الأمن ، كما تتقي خطرهم في الكرامة .

الرياضة البدنية في الإسلام

سعادة الإنسان في قوة جسمه وروحه :

ليس من شك في أن سعادة الإنسان معقودة بقوة جسمه وروحه ، لأن الحياة مليئة بالآلام والآمال ، ولابد له من اقتحام الآلام والحصول على الآمال . وضعيف الروح يقعد به ضعف الروح عن مصابرة الآلام كما يقعد به عن الوصول إلى الآمال ، وكذلك ضعيف الجسم تخور قواه الجسمية عن مواصلة الحركة فيما يتوقف على الحركة .

وليس من ريب أيضًا في أن للرياضة البدنية أثرًا عظيمًا في قوة الجسم ومناعته، وأن للرياضة الروحية أثرًا عظيمًا في قوة الروح وعزيمتها .

الشرائع السماوية كفلت القوتين :

وقد عنيت الشرائع السماوية بكل ما يكفل للإنسان قوة الجسم وقوة الروح ، ففرضت العبادات ، وفرضت التذكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وفرضت النظر والاعتبار بسنن الله في الكائنات ، وكان في ذلك كله تصفية الروح من أخلاق الهلع والجزع واليأس والجبن والشح ، وما إلى ذلك من الأخلاق الرديئة التي تؤدي بعزة الروح وسعادتها ، وكان فيه غرس الأخلاق الفاضلة من الصبر والمصابرة ، ورباطة الجأش والتحاب، والتعاون وقوة الإيمان ، التي تدفع بالإنسان إلى عمل الخير والركون إلى جانب التقوى .

ولم تكن عناية الشرائع السماوية بما يحفظ على الإنسان قوة جسمه بأقل من عنايتها بما يحفظ عليه قوة روحه ، فقد أمرت بنظافة الجسم واعتدال المأكل والمشرب ، وطيب المسكن والهواء ، وأمرت بالعلاج عند المرض وبالوقاية دفعًا للمرض .

رياضات يأمر بها الرسول :

١- الرمي :

ثم لم تخل الإرشادات الواردة في أقوال الرسول ﷺ عن لفت الأنظار إلى جملة من أنواع الرياضة البدنية ، وقد صح أن النبي ﷺ باشر بعض تلك الأنواع بنفسه .

فأولاً : الرياضة بالرمي ، وبه فسر النبي ﷺ القوة المأمور بإعدادها في قوله تعالى :

﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ (الآية ٦٠ من سورة الأنفال)

فقال : «ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » وكرر النبي عبارته للترغيب في تعلم الرمي وإعداد آلاته . وقد قال العلماء في شرح هذا الحديث : فيه دليل على مشروعية الاشتغال بتعلم آلات الجهاد والتمرن فيها والعناية بإعدادها ليتمرن بذلك الإنسان على الجهاد ، ويتدرب فيه ، ويروض أعضاءه ، واسمعوا إلى كلمة «يتدرب فيه» وكلمة «يروض أعضاءه» فإنهما يشيران ، أو هما صريحان في فائدة هذا النوع من الرياضة البدنية ، وأنها تدريب على الجهاد وترويض للأعضاء ، وبذلك كان ترويض الأعضاء الذي يكسبها قوة ومناعة مقصوداً في نظر الشريعة ، كالتدريب على الجهاد سواء بسواء .

وقد مر النبي ﷺ على نفر من «أسلم» ينتضلون بالسوق فقال : «ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بني فلان ، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال لهم الرسول : «مالكم لا ترمون ؟ قالوا كيف نرمي وأنت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم جميعًا »، ومعنى ينتضلون يترامون بالنبال ، ولا يكون الرسول ﷺ معهم - وهي معية رضا ومشاركة في النية والقصد - إلا والذي يعملون فيه خير وصلاح ، يقره الدين ويحبب فيه ، كيف وقد حثهم عليه وذكرهم في سبيل الترغيب فيه بأنه من خصال أبيهم إسماعيل الذي ينبغي أن يقتفوا أثره في أخلاقه وأعماله .

٢- السباحة :

وروى أيضًا أنه ﷺ قال : « حق على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي» .

فذكر نوعين آخرين مع الرمي : الكتابة والسباحة . والكتابة مع فائدتها الأصلية - وهي

تقييد العلوم والمعارف ، وتدوين ما يحتاج إلى تدوينه ومحو الأمية - فيها رياضة موضعية هي ترويض أصابع اليد وتمرينها على الحركة ، وإن ذلك مما يجعلها ذات قوة وتحمل .

والسباحة مع أنها من طرق إنقاذ الغرقى ، واصطياد ما في قاع البحر من المعادن المائية التي تعظم وجوه الانتفاع بها ، ومع أنها مران على الجهاد البحري ، هي في الوقت نفسه ترويض لأعضاء الجسم كله ، وهي بإطلاقها تشمل حركة الجسم في الماء والتجديف ، وسائر ما عرف من أنواعها في هذه الأيام .

٣- العدو «الجري» والمصارعة :

وكما ورد الحث على الرمي والسباحة هكذا ورد أن النبي ﷺ كان يرى أصحابه يتسابقون على الإقدام «الجري» ويقرهم عليه ، وقد صح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : «سابقني رسول الله ﷺ فسبقته ، ثم سابقني فسبقني ، فقال : «هذه بتلك» .

وروى أن النبي ﷺ صارع رجلاً معروفًا بالشدة فصرعه النبي ﷺ فقال عاودني في أخرى ، فصرعه النبي ﷺ في الثانية فقال عاودني ، فصرعه النبي ﷺ في الثالثة : فقال الرجل : ماذا أقول لأهلي ؟ شاة أكلها ذئب ، وشاة نشزت ، فماذا أقول في الثالثة ؟ فقال النبي ﷺ : ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك فنغرمك . خذ غنمك وانصرف .

وقال العلماء : دلت هذه الأحاديث على مشروعية المسابقة على الأرجل وبين النساء والرجال المحارم ، كما دلت على أن المسابقة أو المصارعة لا تنافي الوقار والشرف والعلم والفضل وعلو السن ، فإن النبي ﷺ حينما سابق السيدة عائشة كان سنه فوق الخمسين .

٤- المبارزة «اللعب بالحراب» :

وكما وردت من أنواع الرياضة المسابقة والمصارعة ، وردت أيضًا المبارزة : «اللعب بالحراب» ، «الشيش» فعن أبي هريرة قال : بينما الحبشة يلعبون عند النبي ﷺ بحرابهم دخل عمر فأهوى إلى الحصباء فحصبهم بها ، فقال رسول الله ﷺ : «دعهم يا عمر» وقد قال العلماء : «اللعب بالحراب فيه تدريب الشجعان على مواقع الحروب والاستعداد للعدو) .

٥ ــ ركوب الخيل :

وقد نوه القرآن الكريم بالخيل وذكر رباطها في إعداد القوة للجهاد :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الآية ٦٠ من سورة الأنفال)

كما جاء فيها قوله تعالى : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ (الآية ٨ من سورة النحل) .

وصح أن النبي ﷺ سبَّق بين الخيل وأعطى السابق ، وأنه كان يسابق على ناقته الغضباء وكانت لا تسبق ، وقد سبقت مرة فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا سبقت الغضباء ، فقال رسول الله ﷺ : «إن حقًا على الله ألا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه» وهذا من العبر الخلقية التي يكتسبها الإنسان من تأخر القويّ عن الضعيف في ميدان السباق ، وهكذا تضافرت الروايات على إقرار هذه الأنواع الرياضية البدنية : الرمي ، السباحة ، المسابقة على الأقدام ، المسابقة على الخيل والإبل ، المصارعة ، اللعب بالحراب (الشيش) .

الصلاة تعين على الرياضة :

وإذا كانت هذه الآثار النبوية والتعاليم الإسلامية فيما يختص بالرياضة البدنية على سبيل الاستقلال والقصد ، فهناك ناحية أخرى قصد من تشريعها التعبد . وقيام العبودية بحق الربوبية في الطاعة ، والخضوع ، والخشوع ، والمراقبة ، ومع ذلك كان فيها من صور الرياضة البدنية ما هو جدير بأن يوجه الناس نحو الرياضة البدنية ، ويلفت أنظارهم إليها ، تلك الناحية هي الصلاة ، ففيها الوقوف التام مع الاتجاه إلى جهة معينة هي القبلة .

وفيها رفع اليدين تجاه المنكبين أو شحمتي الأذنين .

وفيها الركوع : وهو شد الركبتين باليدين مع تفريج الأصابع ، ونصب الساق ، وبسط الظهر مع تسوية الرأس بالظهر تسوية تامة ، وقد كان النبي ﷺ إذا ركع سوى ظهره حتى لو صب عليه الماء لاستقر .

وفيها السجود : وهو وضع الركبتين على الأرض ، ثم اليدين ، ثم الوجه بين الكفين مع مباعدة العضدين عن الجنبين والبطن عن الفخذين ، وكان النبي ﷺ إذا سجد يجنح حتى يرى بياض إبطه ومن كلام زوجه ميمونة – رضي الله عنها – : «كان إذا سجد جافى

بين عضديه حتى أن بهمة لو أرادت أن تمر بين يديه مرت » ثم يكون النهوض من السجود على صدر القدمين دون اعتماد على اليدين .

وفيها الجلوس : يفترش الرجل اليسرى ويجلس عليها : وينصب اليمنى مع توجيه أصابعها نحو القبلة ، وله أن يفترش الأرض ويدخل الرجل اليسرى تحت رجله اليمنى .

هذه هي هيئات الصلاة التي تعبدنا الله بها ، وفرضها علينا خمس مرات في اليوم والليلة ، وكلها فيما يرى الرياضيون من أوضاع الرياضة البدنية التي أثرها في تقويم العضلات ومران المفاصل وقوتها ، وفي وضع الصلاة على هذه الهيئات والحث على استكمالها إيحاء قوي بما في الرياضة البدنية من فوائد يعود على الإنسان في جسمه وروحه خيرها .

وإذا كان وضع الرياضة البدنية في نظر الإسلام بهذه المكانة ، وقد نظمت في عهدنا الحاضر هذا التنظيم الذي نشاهده حتى سهل على الإنسان أن ينتفع بها وهو في بيته ، فجدير بالإنسان أن يحرص عليها لنفسه ولأبنائه ، وأن يقوموا بها في وقتها ، فينعموا بقوة الجسم وقوة الروح ، وبذلك يأخذون إلى السعادة طريقًا وإلى الخير سبيلاً .

وإذا كان الإسلام يطلب من أهله جميعًا أن يكونوا أهل حرب وجلاد وأصحاب قوة ومنعة ، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد في كل وقت لدفع العدو المهاجم ، أو إخراج المستعمر الغاصب ، فجدير بالمسلمين أن يكونوا دائمًا على اتصال قوي بالتدريب والرياضة البدنية ، حتى تكون منهم القوى المكافحة المجاهدة ، فهيا إلى الرياضة ، وهيا إلى التدريب، وهيا إلى الكفاح والجهاد .

الإسلام والعناية بالصحة

دين الواقع :

إن عناية الإسلام بالصحة لم تكن أقل من عنايته بالعلم ، ذلك أن الإسلام - كما قلنا مرارًا - يبني أحكامه على الواقع ، والواقع أنه لا علم إلا بالصحة ، ولا مال إلا بالصحة ولا عمل إلا بالصحة ، ولا جهاد إلا بالصحة ، والصحة رأس مال الإنسان ، وأساس خيره وهناءته ، ومن هنا عرض القرآن الكريم للمرض ، وكان له في تشريعه الذي يعالج به القلوب أعظم إيحاء وأوضح إشارة إلى اتخاذ وسائل الصحة البدنية والوقاية الصحية .

القرآن وأصول الطب :

وإذا كانت أصول الطب التي وصل إليها الإنسان بتجاربه تدور حول حفظ القوة وعدم مضاعفة المرض ، والحمية من المؤذيات ، واستفراغ المواد الفاسدة من البدن ، فإنا نجد في القرآن الكريم وفي إرشادات النبي ﷺ إشارات واضحة إلى كثير من الجزئيات والأمثلة التي تمثل هذه الأصول الطبية .

وأول ما تجد من ذلك أن الإسلام يبيح للمسافر أن يفطر في رمضان ، حتى لا تجتمع مشقة السفر مع مجهود الصوم ، فتضعف القوة ، وتفقد المناعة . وكذلك يبيح للمريض أن يفطر حتى لا يزداد مرضه بالصوم وعدم الغذاء ، ويبيح لمن خاف المرض ، وتأخر البرء باستعمال الماء في الوضوء أو الغسل أن يتيمم ، وهذا كله من قبيل الحمية عما يؤذي ، ومن هذا القبيل تحريم الخمر والخنزير ، والإسراف في الأكل والشرب ، وما إلى ذلك من كل مايضر ويؤذي .

وأباح للمحرم إذا طرأ عليه مرض ، أو جد برأسه أذى ، أن يحلق رأسه ويزيل شعثه مع تمام إحرامه ، فتزول الأبخرة المؤذية ، وهذا من قبيل استفراغ المواد الفاسدة .

آية قرآنية تسبق الطب الحديث :

وقد جاءت آية كريمة تشير إلى الحمية من الأذى وهي قوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ (الآية ٢٢٢ من سورة البقرة)

قررت الآية أن دم الحيض أذى ضار ، وهكذا قرر الأطباء : قالوا إن وقت الحيض أنسب وقت لانتشار العدوى في الجهاز التناسلي بسبب ما يحدثه من الالتهابات التي من طبيعتها تقوية الجراثيم المرضية وإكثارها ، وأن دم الحيض يضعف درجة الحموضة التي تقاوم الجراثيم ، وأن الالتهاب الذي يحدثه الحيض يقتل الحياة في مادة التناسل ، إذ لا تجد وقت الحيض مكانًا صالحًا للاستقرار فيه .

الهدي النبوي في الوقاية والعلاج :

هذا ، وقد كانت الإرشادات النبوية واضحة جلية في العلاج والوقاية ، جاء فيها الأمر بالتداوي ، وجاء فيها التحذير من العدوى ، وجاء الأمر بعزل المرضى عن الأصحاء : «إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها» ويشير الحديث إلى وقت حضانة المرض المعروف في لسان الأطباء : «وفر من المجذوم كما تفر من الأسد» وجاء فيها النهي عن قضاء الحاجة من بول أو براز في الماء الذي يستعمله الناس في وضوئهم واغتسالهم وسائر شئونهم ، وفي طريقهم الذي فيه يمشون ، وفي ظلهم الذي به يستظلون ، وموارد مياههم التي عليها يجلسون ، ومن ذلك شواطئ الترع والقنوات والأنهار «اتقوا الملاعن الثلاث البراز في الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل» .

وأطلق الرسول عليها الملاعن لأنها تسبب لعن الناس لمن يفعلها ، وقد ثبت طبيًا أن هذا الصنيع - مع قذارته وتقزز النفوس منه - يولد أمراضًا وبائية ، كما يولد مرض «الإنكلستوما ، والدوسنتاريا» وهو السر في كثرة المصابين بهذين المرضين من أبناء الريف ، الذي لا يتحرز أهله عن هذا الصنيع . وإني أعتقد أنهم لو علموا أنه مما يغضب الله ويسخط رسوله ، ويستوجب اللعن والطرد من رحمة الله ، لما فعلوه ولما سكتوا عمن يفعله .

وجاء أيضًا في الإشارات النبوية التحذير من ترك أواني الطعام والشراب مكشوفة «أطفئوا المصابيح بالليل إذا رقدتم ، وأغلقوا الأبواب وأوكئوا الأسقية ، وخمروا الطعام والشراب » أي غطوا الطعام واربطوا قرب الماء ، وذلك حفظًا للطعام والشراب من سقوط الحشرات المؤذية التي تولد جراثيم المرض . وهذا كله من باب الوقاية والتحفظ من الأمراض وأسبابها .

دور العبادات في الوقاية الصحية :

وإذا كانت الوقاية كما يقولون خيرًا من العلاج ، فإن الإسلام ضمن العبادات التي أمر بها ، تقربًا إلى الله ، كثيرًا من أنواع الوقاية التي تحفظ الإنسان إذا داوم عليها ، وأداها حقها - من التعرض للإصابات الجوية بسبب التربة والحرارة . ومن ذلك أمر في الوضوء للصلوات الخمس بغسل الوجه والأطراف ، والأيدي والأرجل ، وبمسح الأذنين ، كما طلب السواك والمضمضة والاستنشاق حفظًا للفم والأنف والأسنان . ومن كلامه في السواك :

«ما لكم تدخلون على قلحًا ؟ استاكوا » يريد تبكيتهم على دخولهم عليه وأسنانه مصفرة ، تنبعث منها الرائحة . وفي السواك أيضًا يقول : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة » وكلنا يعرف شدة حرص الأطباء وكثرة وصاياهم على تنظيف الأسنان ، التي تولد قذارتها أنواعًا من الأمراض في كثير من الأجهزة .

هذه بعض الإرشادات التي جاء بها الإسلام قرآنًا وسنة في المحافظة على الصحة وعلاج الأمراض البدنية ، وقد أثبت الطب صحتها وعظم نتائجها في الوقاية وحفظ الصحة ، وقد جاءت هذه الإرشادات بجانب الإرشادات الأخرى التي رسمها الإسلام لعلاج القلوب ووقايتها من أمراضها ، كالشهوة والغضب والحقد ، وما إليها مما يفسد على الناس مجتمعهم . وبهذه وتلك إذا ترسمها الإنسان سلم في قلبه وعقله ، وفي صحته وبدنه ، فتسلم له أداة التفكير والنظر في معرفة الحق ، وتسلم له آلات العمل في تنظيم الحياة وعمارة الكون كما يحب الله ويرضى ، وبذلك تكتمل له سعادة الدنيا والآخرة .

الإسلام يحارب الأعداء الثلاثة

مهمة الإنسان في هذه الحياة - كما أخبر الله في كتابه - أن يكون خليفة في الأرض :

يعمرها ، ويظهر أسرار الله فيها ، ويعمل على صلاحها ، واتساع عمرانها ، وإقرار السعادة في نواحيها .

سبيل قيام الإنسان بمهمته في الحياة :

ولكن لا سبيل إلى قيامه بهذه المهمة إلا إذا :

تحصن بالعلم ، ليدرك الخير من الشر ، والنافع من الضار .

وتحصن بالصحة ليكمل عقله ، ويسلم تدبيره ، وتتصل جهوده .

وتحصن بالمال ليحفظ به حياته ، وينفذ ما يراه من وجوه الإصلاح والتعمير .

فالمعرفة والصحة والمال ثلاثتها عناصر لابد منها في قوام الحياة الإنسانية العامة ، وما من شيء في هذه الحياة إلا وهو محتاج إليها ، ومتوقف عليها .

العدو الذي يجب أن تحشد له القوى :

ولا نعلم مقوضًا للسعادة ، قاضيًا على الهناءة ، مفككًا لعرى التعاون ، مضيعًا للعزة والسلطان مثل الأعداء الثلاثة .

١ ـ الجهل

٢ ـ المرض

٣ ـ الفقر

وهي حقًا العدو اللدود للإنسانية ، هي العدو الذي يجب أن تحشد له القوى بصدق وإخلاص ، وعزم وحزم ، حتى تنقذ الإنسانية من شره الوبيل .

مسلك الإسلام في كفاح هذا العدو :

وقد كان الإسلام عمليًا في اتخاذ الوسائل التي تقضي على هذه العلل الثلاث ، ولو اتبع الناس ما رسمه في ذلك لوفروا على الإنسانية هذه الجهود الضائعة ، ولاختصروا الطريق ، ووصلوا إلى المدى المنشود من أيسر سبيل ، ولكفينا هذه الدعايات المتكررة ، وهذه الخطب الضافية ، وهذه الحماسات التي تثور لتتبخر ، وترتفع لتنخفض ، والجهل هو الجهل ، والفقر هو الفقر ، والمرض هو المرض .

حرب على الجهل :

حارب الإسلام الجهل وتتبعه في كل وكر من أوكاره ، وفي كل لون من ألوانه : حارب جهالة الشرك بالتوحيد ، وحارب جهالة التقليد بالنظر والبرهان ، وحارب العادات الممقوتة والأوهام الفاسدة بالتقاليد الكريمة ، والحقائق الصادقة ، وقبل ذلك كله حارب الأمية وأوحى تعليم الكتابة ورفع من شأن القلم ، وحسبنا في ذلك أن أول نداء إلهي افتتح الله به وحيه إلى النبي ﷺ قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (الآيات ١-٥ من سورة العلق)

يأمر بالقراءة ، والقراءة سلم المجد ، وعنوان العلم والمعرفة ، ثم يرشده إلى الاستعانة عليها باسم ربه ، فيشعره بعزة شأنها ، ورفعة قدرها ، وأنها من الشئون العظمى ذات البال والخطر ، ثم يذكر خلقه وتكوينه في هذا المجال ، ويردفه بنعمة التعليم بالقلم من الرب الأكرم ، فيسوي في هذا بين الخلق والوجود ، والعلم والقلم ، فيوحي إلينا أن المخلوق الجاهل لا اعتداد بوجوده في هذه الحياة .

وكما طلب القراءة على الإطلاق من غير تقييد بمقروء مخصوص ، طلب العلم على الإطلاق من غير تقييد بمعلوم مخصوص .

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الآية ٩ من سورة الزمر)

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (الآية ١١ من سورة المجادلة)

وفي هذا إرشاد إلى العلم في نظر القرآن هو كل إدراك يفيد الإنسانية توفيقًا في المهمة العظمى التي ألقيت على كاهلها ، وهي عمارة هذه الأرض : فإدراك ما يصلح به النبات وينمو علم ، وإدراك ما يصلح به الحيوان ويزكو علم ، وإدراك ما يسعد به الإنسان ويقوي علم .

أثر العلم في حياة المسلمين :

وقد أدرك المسلمون الأولون قيمة العلم ومنزلته في نظر الإسلام ، وضرورته لسعادة الأمم والأفراد ، وكانوا أمة أمية فجدوا في محو أميتهم بكل الوسائل : أطلقوا سراح الأسير إذا علم عددًا من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، جعلوا تعليم القرآن مهرًا في الزواج ، رفعوا بالعلم مكانة الخامل ، وكان نسب الوضيع ، وغنى الفقير ، وقوة الضعيف .

وفي بطون التاريخ والمكتبات الإسلامية من المؤلفات والمترجمات - في شتى العلوم والفنون والصنائع ، وجميع فروع العلم والمعرفة - ما يشهد للمسلمين بالتركز العلمي ، بل بالأستاذية العامة المطلقة .

الصحة رأس مال الإنسان :

حارب الإسلام المرض ، فأمر بالوقاية ، وحذر من العدوى ، وحث على التداوي ، وأباح للمريض والخائف من المرض إذا توضأ أن يتيمم ، وأباح الفطر في المرض والسفر والحيض والنفاس والحمل والإرضاع والشيخوخة . كل ذلك عناية بالصحة ، ووقاية من المرض . وعني الإسلام هكذا بالصحة ، لأنه لا علم إلا بالصحة ، ولا جهاد إلا بالصحة ، ولا عمل إلا بالصحة ، فالصحة هي رأس مال الإنسان ، وأساس سعادته الحقيقية ، وقد استقر ذلك في نفوس المسلمين حتى اشتهر أن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان .

علاج الفقر في نظر الإسلام :

وحارب الإسلام الفقر ، وكان حربه للفقر شديدًا قويًا لا هوادة فيه : أمر بالكسب وتحصيل الأرزاق ، ونوه في سبيل ذلك بالزراعة والتجارة والصناعة .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (الآية ١٥ من سورة الملك)

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الآية ١٠ من سورة الجمعة)

أوجب على الأغنياء معونة الفقراء والمساكين ، وإنك لا تكاد تجد سورة من سور القرآن الكريم لم تعرض للفقراء فتحرك لهم عواطف الأغنياء ، وتستدر منهم الرحمة والبر والمعونة ، تارة بالترغيب ، وأخرى بالترهيب ، وثالثة بتصوير الإحسان في صورة محببة إلى النفوس ، وتصوير البخل والشح في صورة كريهة ممقوتة :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ (الآية ٢٦١ من سورة البقرة)

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الآية ٩ من سورة الحشر)

وما أعظم ما يقول الرسول ﷺ في هذا المقام : «اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ، ويستحلوا محارمهم»

يهدد بسوء عاقبة الشح والبخل ، ويصور لنا الخطر الذي ينبعث من الشح بحق الفقير والمحتاج .

الزكاة علاج للفقر :

وقد ضمن الإسلام للفقراء حقوقًا في أموال الأغنياء هي مورد دائم متنوع ، نجد ذلك في الكفارات : وهي الأجزية على الأخطاء الدينية التي يرتكبها الإنسان ، وتجده في الزكاة عن الأموال ، والمواشي ، والزروع ، والبضائع التجارية بنسب تصلح من شأن الفقير ولا ترهق الغني .

في المال حق آخر وراء الزكاة :

لم يقف الإسلام في محاربة الفقر عند هذا الحد ، بل أوجب دفع الأموال لسد الحاجات وانتشال الفقراء والمساكين والمرضى والجاهلين من وهدتهم . وفي قوله تعالى :

﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ (الآية ١٧٧ من سورة البقرة)

مع قوله في الآية نفسها ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾. دليل واضح على أن واجب الغني لا ينتهي بالزكاة وفي الأمة فقر وحاجة .

أما بعد :

فهذا هو موقف الإسلام في محاربة عناصر الشر الثلاثة : الجهل ، والفقر ، والمرض ، وهو الموقف السليم والصراط المستقيم .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الآية ١٥٣ من سورة الأنعام)

أسبوع المولود

المولود نعمة جديدة :

طبع الناس على الفرح والسرور حينما يبشرون بمولود جديد ، وليس ذلك لسلامة الوالدة من الوضع فقط ، وإنما لأنهم أيضًا يرون المولود نعمة جديدة ، ومنحة إلهية يشكرون الله عليها ، وينتظرون من الأهل والأصدقاء التهنئة به ، وقد وضع القرآن الكريم نعمة الولد هذا الوضع ، فاعتبره مع المال زينة الحياة الدنيا ، وامتن به على الناس :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (الآية ٧٢ من سورة النحل)

وخلع على أخبار إبراهيم وزوجه بما قدر لهم من ولد صفة البشرى

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (الآية ٧١ من سورة هود)

وأجاب الله دعوة زكريا فحقق له أمنيته ووهبه الولد الذي يرثه ، وناداه :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (الآية ٧ من سورة مريم) .

أسبوع المولود (العقيقة) سنة :

استقر هذا في ضمير الناس ، ودرجوا على تسجيل فرحهم بنعمة الولد وشكر الله عليها بإقامة حفل تقدم فيه الذبائح قربانات ، ويدعى لحضوره الأهل والأقارب للتبريك والتهنئة والمشاركة في الفرح والسرور ، ويعرف ذلك الحفل باسم «أسبوع المولود» وهو مشروع في الإسلام ، وأقل درجاته أنه سنة ، وهو المعروف في الشريعة وفي أحاديث الرسول باسم «العقيقة» ، أو سنة الولادة ، أو «ذبيحة المولود» وكلمة «عقيقة» مأخوذة في

أصلها من العق : وهو الشق ، سميت بها الذبيحة التي تذبح في أسبوع المولود ، وسماها النبي ﷺ «نسيكة» من النسك : وهو التقريب إلى الله بإراقة الدم «مع الغلام عقيقة ، فأهريقوا عنه دمًا وأميطوا عنه الأذى» «كل غلام رهينة بعقيقته ، تذبح عنه يوم سابعه ، ويسمى فيه» ، وصح أن النبي ﷺ عق عن الحسن والحسين، فذبح كبشًا .

آراء في نوعها ومصرفها :

ومن هنا رأى بعض العلماء أن الذكر والأنثى في العقيقة سواء ، تكفي فيها شاة واحدة، وقد تكلم الفقهاء في ذلك ، وفي نوع الحيوان الذي يذبح ، كما تكلموا على وقت الذبح ، واستظهروا أنه في اليوم السابع ، وتكلموا على جهات التصرف في لحمها . وقالوا : منها الأكل للأهل والإخوان ، ومنها التصدق على الفقراء .

عادات فيها لا يقرها الإسلام :

هذا هو مكانة «أسبوع المولود» في الإسلام ، وللناس بعد هذا عادات في أسبوع المولود لا يقرها الشرع ولا يشهد لها عقل ، كتزيين نحر الإبريق بأنواع الحلي والرياحين ، ورش الملح وإيقاد الشموع طول الليل ، والدق بالهون مع كلمات معروفة عند السيدات ، وتعليق عدد من الحبوب مع الملح على الطفل . إلى غير ذلك مما يفعلونه معتقدين أنه يدفع عن المولود شرًا أو جنًا ، فلا يمس بسوء ولا يصاب بمكروه . وهذا كله من الخرافات والأوهام التي خلفها الجهل . وجدير بالمسلمين أن يطهروا أنفسهم ومجتمعاتهم منها ، وأن يقفوا في أفراحهم عند الحد الوسط الذي يأذن به الله ، والذي يحفظ عليهم جمال العمل وحسن السمعة .

النبي ينصح التجار

رسول بر ورحمة :

يقول الله تعالى :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الآية ١٢٨ من سورة التوبة)

وهكذا كان النبي ﷺ يعز عليه أن يصيب أمته عنت أو مشقة . كان شديد الحرص عليها، كان بها رءوفا رحيمًا . كان يتفقد أحوالها ، ويتعهدها بالموعظة ، وكان ينصح بالقول الوجيز خوف الملل والسآمة ، والقول الواضح الذي يفهمه الناس جميعًا ، والقول الذي يتصل بما هم عليه ويباشرونه من أعمال ، وما كان يطيل ، ولا يغرب ويعقد ، ولا يأخذهم إلى النظريات التي لا يرون لها واقعًا في حياتهم .

نصيحة غالية :

خرج ذات يوم إلى سوق الناس فرآهم يتساومون ويتبايعون فاستمع إليهم ، ورأى صور تبايعهم وأصناف المبيعات ، فقال : «يا معشر التجار ، يا معشر التجار » فرفعوا أعناقهم ، ومدوا أبصارهم استجابة لندائه وإنصاتًا لما يقول ، وانتظارا لما يلقي عليهم من إرشاد وتعليم فقال :

«إن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله وبر وصدق» ، «اتق الله » :

اتق سخطه وغضبه فلم يظلم أحداً من خلقه «وبر» : لم يحنث في يمينه إذا حلف «وصدق» فلم يكذب ولم يدلس .

التجارة ابتغاء من فضل الله وتعاون اجتماعي :

بهذا نصح النبي التجار ، والتجار لهم بأصل مهنتهم مكانة عظيمة عند الله ، فهم

يحصلون أرزاقهم وأرزاق أولادهم وأهليهم عن طريق شريف ، وحسبهم أن القرآن الكريم جعل التجارة ابتغاء من فضل الله ، وأمر بها عقب الفراغ من الصلاة المفروضة ، وقرن بها ذكر الله وعلق عليها رجاء الخير والفلاح :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الآية ١٠ من سورة الجمعة)

وهم في الوقت نفسه يساهمون في نوع من التعاون الاجتماعي الذي لابد للناس منه في حياتهم ، والذي أمر الله به على وجه عام في قوله تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ (الآية ١ من سورة المائدة)

ولذلك كان جزاؤهم - إذا سلمت أيديهم وخلصت نياتهم وصدقت ألسنتهم عند الله عظيماً وقد صح في الخبر «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء» .

ولكن من الناس من تدفعه محبة الربح ، وحرصه على جمع الحطام وتحصيل الغنى ، إلى اقتحام سبل تسقط منزلته عند الله ، وتجعله في نظر الناس كالحيوان المفترس الذي لايتورع عن جيفة ، ولا يأنف من خسيسة ، ومن هنا يدخل عليه الفجور ، وتنزع منه الثقة ويكون مآله الكساد ثم البوار .

من غشنا فليس منا :

يدخل عليه الفجور من جهة الغش في المعروضات : ويكون بإخفاء عيوبها وإظهار محاسنها . وقد مر النبي ﷺ برجل يبيع الطعام فأعجبه ظاهره ، فأدخل يده فيه فوجد به بللاً فقال : «ما هذا يا صاحب الطعام ؟» قال : أصابته السماء ، يريد أن المطر نزل عليه ، فقال عليه الصلاة والسلام : «فهلا أبقيته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا» .

حملة تفتيشية على مواد التموين التي تعلق بها حق العامة ، يقوم بها النبي ﷺ من أربعة عشر قرنًا ، ويضبط فيها الغش ويحقق فيه ، ثم يصدر حكمه العادل على الغاش فيخرجه من جماعة المسلمين ، ويرى في ذلك أن الغش لواحد من المسلمين غش لجماعتهم ، «من غشنا فليس منا» ، ويدخل عليه الفجور من جهة نقص الكيل والميزان ، وهي علة قديمة

ينزع إليها التجار في كل عصر وفي كل مكان ، فهذا رسول الله شعيب يدعو قومه إلى عبادة الله ثم يقول :

﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الآية ٨٥ من سورة الأعراف)

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الآية ٨٥ من سورة هود)

فانظروا كيف جمع الله في دعوة شعيب بين الأمر بعبادته وحده والأمر بتوفية الكيل والميزان والنهي عن الإفساد في الأرض ، لتعلموا ما يصيب الأمة من فساد واضطراب بجرم هؤلاء الذين ينقصون الكيل والميزان .

براءة الله من المحتكرين المستغلين :

ويدخل عليهم الفجور من جهة تلبيس السعر على الناس ، ومحاولة البيع بأكثر من التسعيرة ، استغلالاً للحاجة واستكثارا للربح . ويدخل عليهم من جهة خلط البيع بغيره ، كخلط القمح بالذرة أو الشعير ، وكخلط السكر بالدقيق ، واللبن بالماء ، والسمن بجوز الهند . ومن هذا النوع سقي الحيوانات الداجنة حتى تنتفخ حويصلاتها فيثقل ميزانها ويفسد على الناس لحمها ، وهكذا مما يصطنعه التجار الذين لا يرقبون عهداً ولا ذمة . وهذا كله أكل لأموال الناس بالباطل ، وسرقة خفية في ثوب المعاملة المبنية على النصح والأمانة ، والتي لا يمكن استغناء الناس عنها ، فهي أجدر أنواع السرقات بقطع اليد نكالاً من الله .

ويدخل عليهم الفجور من جهة الطمع في الربح الكثير ، فيحتكرون السلع ويحجزون عن الناس طعامهم وشرابهم ودواءهم وكساءهم ، وقد صحت أحاديث الرسول في النهي عن الاحتكار ، وفيها إعلان المحتكرين ببراءتهم من الله وبراءة الله منهم : «من احتكر الطعام أربعين يومًا برئ من الله وبرئ الله منه» .

وهذه البراءة لم يعلنها القرآن الكريم إلا لجماعة المشركين : ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (الآية ٣ من سورة التوبة)

وفيها وعيد المحتكرين بالجذام والإفلاس ، وكأن الجذام جزاء اقتطاعهم أرزاق الناس بغير حق . وكأن الإفلاس جزاء طمعهم في الغنى عن طريق يؤذي الناس ويفقرهم .

الحلف الكاذب خداع وتدليس باسم الله :

ويدخل عليهم الفجور بالترويج الكاذب وتأكيده بالإيمان الفاجرة ، وهذا خداع وتدليس ، وتسخير لاسم الله الكريم في الكذب والخداع والغش والتدليس ، ابتغاء عرض زائل وربح كاسد ، وإيذاء لخلق الله في معاملة هي ابتغاء من فضل الله ، وفي ذلك يقول النبي ﷺ : «اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة» أي أنها تروج السلع فتباع ، وتباع بثمن فاحش ولكنها تنزع البركة وتضيعها ، ومثلها في ذلك الربا الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات** ﴾ ويقول عليه الصلاة والسلام في شأن المتبايعين : «فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتمًا وكذبا محقت بركة بيعهما»

أما بعد :

فهذا إرشاد للتجار وللمتبايعين جميعًا وهو إرشاد يتعلق بحق الجماعة الذي هو حق الله والذي تعظم غيرته عليه ، وليسمعوا قول الله فيه :

﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الآيات ١-٦ من سورة المطففين)

وقوله تعالى :

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾

(الآية ٧٧ من سورة آل عمران)

المنكرات وأثرها في المجتمع

ما رأيت معولاً يهدم بناء المجتمع ويهد كيان الأمم ويعرضها لخطر التحلل ، ثم خطر الفناء مثل شيوع «المنكرات» فيما بينهما . والمنكرات بطبيعتها تأخذ بالناس عن طريق الخير إلى طريق الشر ، وتسلبهم تقدير القيم الكريمة التي يسوسون بها أنفسهم ، ويشيدون على أساس منها صروح عزتهم .

والمنكرات أشبه شيء في سرعة التنقل والشيوع بجراثيم الأمراض ، لا تلبث إذا وجدت في مكان ما أن تنتقل وتنتشر وتعم وتعمل عملها في المجتمع كله ، وبذلك تنقلب حياة المجتمع رأساً على عقب : تتعرض فيها الأعراض للانتهاك ، والأموال للاستلاب ، والحقوق للضياع .

وليس من شك في أن أمة مصيرها هذا المصير لا تعرف شيئًا من نسمات الأمن والطمأنينة ، ولا من بواعث الاستقرار والسكينة ، وبذلك ينحل ما بين أفرادها من روابط ، وتنساق في سبل الانفرادية الخاصة ، لا يهمها سوى شهوات تقضي . وانفعالات تحتدم .

المنكرات بينة غير خافية :

وليست المنكرات من الشئون الغامضة حتى تحتاج إلى تعريف أو توضيح ، وهي تكاد بحكم الطبيعة الإنسانية البريئة ومقتضيات الاجتماع الإنساني الذي يقرر حاجة الناس إلى الناس - تكاد تعلن عن نفسها بنفسها وبآثارها . وقد آزرت الشرائع السماوية - على تعدد مراحلها - الطبيعة البشرية في الإعلان عن كثير من صورها ، أرشدت إلى ذلك في الأنفس والأموال والأعراض والحقوق وسائر الواجبات . وكان الاعتداء على شيء من ذلك في نظر الشرائع منكراً يقف بالحياة الفاضلة عن السير في طريق التقدم والكمال ، ويردها إلى مهاوي التهلكة وبؤر الانتكاس . وجدير بقادة الأمم ، ورجال التربية والتهذيب فيها أن يعنوا العناية كلها بتدقيق النظر في صور ما يمس المجتمع من خلال السوء ،

وطرق الغش والخديعة ، وأساليب النفاق التي كثيراً ما تتخذ ستاراً لغرس بذور المنكرات في مناحي الحياة . جدير بهم ألا يندفعوا وراء بريق يزين للناس «المنكر» بزينة «المعروف» ، فيستباح المنكر باسم الحرية ، وباسم التقدم ، وما كان المنكر في طبيعته وفي آثاره إلا طغيانًا تتحلل به معاني الحرية ، وحجر عثرة أمام التقدم . وكثيراً ما تلوي النظرات الخاطفة ، أو التقاليد الوافدة ، نظرات الإنسان عن حقيقة ما يرى أو يعمل ، فيظنه خيراً وهو شر ، ويظنه تقدماً وهو تأخر ، ويظنه حرية وهو فوضى وانحلال .

عناية الإسلام بمكافحة المنكرات :

لهذا كله عني الإسلام في مرحلته الأخيرة ، وصورته التي ظهر بها على عهد خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله بهذا الجانب ، عناية قوية كاملة ، وكان لمكافحة المنكرات في نظره - وهو الدين الذي قضت الحكمة الإلهية بإرشاد الإنسانية إليه وهي في مراحل الكمال البشري ، ذلكم الكمال الذي يتجه إلى الحياة الجماعية ، ويأخذ بالناس عن طريق الآحادية إلى وحدة الجماعة ، التي يتبادل أفرادها في ظلها بواعث الاجتماع والألفة ، والمحبة والصفاء - كان لمكافحة المنكرات في نظره بهذه الاعتبارات مكانة تجلت في القرآن الكريم وفي إرشادات الرسول ﷺ .

عناية القرآن الكريم بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف :

وأول ما يطالعنا من ذلك في القرآن الكريم أنه يرسم دائرة الخير والفلاح ، ولا يجعل لأحد نصيبًا فيها ولا حظًا منها سوى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والداعين إلى الخير . .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الآية ١٠٤ من سورة آل عمران)

بينما يحصر القرآن الكريم المفلحين فيمن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر نراه يجعل الأمر بالمعروف من شئون الإيمان ، لازمًا من لوازمه لا يوجد إلا به . ثم يقدمه في ذلك على الواجبات الدينية العينية الأخرى ويفرده بالذكر عن عموم إطاعة الله ورسوله . انظر ذلك في مثل قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الآية ٧١ من سورة التوبة)

وبينما يضعه هذا الوضع من أصول الدين تراه يضع الأمة التي تقوم به والتي تعتمد عليه في التوجيه في المستوى العالي ، والقمة الشامخة من الفضل والكرامة :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

وبينما يقف هذه المواقف كلها في الجانب الإيجابي للنهي عن المنكر ، يقول في الجانب السلبي :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(الآية ٧٨، ٧٩ من سورة المائدة)

وقد قص علينا حادثة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر حينما اعتدوا على أمر الله في تحريم الصيد يوم السبت ، واستباحوه في ظل حيلة تفتقت عنها حيلهم ومكرهم في إشباع نهمهم بالحصول على ملء بطونهم ، وكان مما قاله في هذا الشأن :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

(الآيتان ١٦٥ ، ١٦٦ من سورة الأعراف)

وهكذا وقف القرآن الكريم هكذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقف منه الرسول بالأحاديث الصحيحة هذا الموقف عينه . فمنها ما روى عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾

(الآية ١٠٥ من سورة المائدة)

عناية السنة بسلامة المجتمع :

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » وفي هذا الحديث توجيه إلى شأن طبيعي في شيوع المنكرات وقد سبق أن أشرنا إليه ، ذلك أن المنكرات كما قلنا أشبه بجراثيم الأمراض المعدية في انتشارها وتنقلها والتأثر بها ، فإذا وجدت كفاحًا يحجر عليها في مكانها حتى يقتلها ويبيدها سلم منها موضعها وسلم منها وراءه ، وإذا لم تجد كفاحًا وتركت وشأنها اتسعت دائرتها وتفشت في جميع الأرجاء، وقضت على عناصر الحياة ، وعرضتها للفناء والدمار . ومن هنا كان أثر المنكرات غير خاص بمرتكبيها ، وكان الساكتون عليها عاملين على نشرها وإذاعتها . وبهذا القدر من الموقف السلبي يكونون أهلاً لحلول العقاب بهم ، وإصابتهم بما يصاب به المباشرون لها . ولعل أول ما يدل على هذا في تقرير السنن الاجتماعية قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (الآية ٢٥ من سورة الأنفال)

وقوله ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ (الآية ١٧٩ من سورة المائدة)

وهو ليس - كما يظن - أخذًا للبريء بجريمة المذنب ، وإنما هو أخذ للمذنب بجريمة ذنبه .

فالذنب ذنبان : ذنب يصدر عن شخص وهو الفعل نفسه ، وذنب يصدر عمن يعلم هذا الذنب ويقدر على مكافحته ، ثم هو - طمعًا في مال أو مكانة - يبعد بنفسه عن مكافحة هذا الذنب ، وبذلك يكون شريكًا في العمل على نشره ، وإساءة المجتمع به .

مراتب تغيير المنكر :

المرتبة الأولى « التغيير باليد » :

وقد كان من أصول هذه المسئولية - مسئولية السكوت عن مكافحة المنكر مع القدرة عليها - ما أرشد إليه الرسول في واجب المسلم حينما يرى المعروف يترك والمنكر يرتكب : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان» . وبذلك قيست درجات الإيمان بمراتب القدرة على كفاح المنكر ، وكان كفاحه على درجات متفاوتة . فهو على صاحب السلطان أقوى وأوجب ، لأن الله قد وضع في يده سلطان التأديب ووسائل الزجر بما شرع من عقوبات وبما فوض إليه من تعزيزات . وهي المرتبة الأولى من مراتب التغيير ، وأبرز أهلها الحكام المهيمنون ،

فهم وحدهم القادرون على التغيير العملي العام . ثم يلحق بهم رب الأسرة فيمن يلي من الأبناء والأهل في حدوده المرسومة بمقتضى القوانين والشرائع ، وكذلك المربون وسائر الرؤساء الذين ملكهم القانون شيئًا من صور التغيير العملي ، فالوالد مسئول عن ولده ، والزوج مسئول عن زوجه ، والمربي مسئول عمن وكلت إليه تربيتهم ، والرئيس مسئول عن مرءوسيه . وسيحمل الجميع أمام الله ذنوب من يسألون عنهم :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الآية ٢٥ من سورة النحل)

وليس الإضلال بالإيقاع في الضلال ، وإنما هو بعمومه يتناول عدم الوقوف أمام الضال في طريق ضلاله . ولو أنك رأيت أعمى اعترضته بئر في طريقه - ولو ترك لتردى فيها- وكنت قادرًا على رده عنها ، ثم تركته حتى تردى وهلك لكنت مسئولاً عنه بحكم القوانين والشرائع . وما ترك المذنب يتوغل في ذنوبه حتى تقضي عليه بأقل شأنًا من ترك الظمآن تقتله شدة الظمأ ، وفي يد أخيه الإنسان ماء يطفأ به غلته ، ويقتل ظمأه ، ويرده إلى حياته ، وقد غرم عمر - رضي الله عنه - مثل هذا الإنسان دية الظمآن حين مات بظمئه ولم يقدم له أخوه الماء .

المرتبة الثانية «الإنكار بالقول» :

أما المرتبة الثانية من مراتب التغيير فهي مرتبة الوعظ الحسن النافذ للقلوب ، المؤثر في النفوس ، مرتبة التغيير بالقول ببيان آثار المنكر في حياة الشخص ، وفي صحته وفي كرامته ومكانته ، وفي رضا الله والمجتمع عنه ، وتلك مرتبة تتطلب كثيرًا من الحكمة حتى تقع في دائرة قوله تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (الآية ١٢٥ من سورة النحل)

كما تتطلب أن يكون المغير للمنكر ذا عناية خاصة بنفسه تجعل منه لقومه قدوة حسنة ينقادون له ويطيعونه في دعوته ووعظه . وما فشل توجيهنا وتدهورت دعوتنا إلا حينما جعلناها مهنة وحرفة نؤديها بحكم التكليف ، وبحكم أنها وسيلة من وسائل العيش . . هذا الوضع الذي إليه توجيهنا جعلنا نقف فيه عند رسوم وصور لا قدرة لها على التغلغل في القلوب جعلنا نقف فيه عند طوائف معينة ليس لها من الجاه ما نطمع فيه أو في شيء منه .

وأبرز أهل هذه المرتبة رجال الدين ، ورجال التربية ، والإذاعة والصحافة والنشر . **وهؤلاء جميعًا مسئولون أمام الله وأمام المجتمع عن موقفهم من المنكرات وكلهم أرباب** تغيير بالقول . فعليهم إذا أرادوا أن يكونوا أداة توجيه للأمة أن يتحلوا بالحكمة ووسائل التوجيه القيمة التي يكون لها أثرها الطيب في طهر المجتمع من المنكرات المزرية التي لاتخفى عليهم ، والتي ينوء بحملها كاهل المجتمع والتي يخشى أن يقترب بها من الهوة التي تبعد بنا عن معاني الحياة الفاضلة .

المرتبة الثالثة «الإنكار بالقلب» :

أما من يعجز عن التغيير بالفعل وبالقول فليس شأنه أمام المنكرات شأنا سلبيًا : يغمض عينه ، ويسد سمعه ، ويحوقل في بيته أو مكتبه ، كما يزعم كثير من الضعفاء المتواكلين ، الذين يفهمون قوله ﷺ في هذه المرتبة : «ومن لم يستطع فبقلبه» على أن المقصود منها بخصوص الإنكار بالقلب دون أن يكون لهذا الإنكار أثر إيجابي ، فإن هذا الإنكار السلبي لا يصدق عليه تغيير ، وقد سبق نوعًا من التغيير كما هو واضح من عبارة الحديث وهو في واقعه من مقتضى أصل الإيمان ، وإن من لم ينكر المعصية بقلبه لا يكون مؤمنًا بأنها معصية . وإنما سبيل الإنكار بالقلب قطع الصلات التي تربط المؤمن بهذا المرتكب فلا يجالس ، ولا يعامل ، ولا يؤاكل ، ولا يعان ، ولا تقضي له حوائج . وملاك ذلك كله أن يقاطع مقاطعة تامة يشعر فيها بعزلته ، وأن المجتمع قد لفظه .

ولما كان هذا التغيير لا ينتفع به إلا خاصة المرتكب ، وليس له أثر بارز يعم الناس جميعًا : يرونه بأعينهم . ويسمعونه بآذانهم كان أدنى المراتب ، وكان من «أضعف الإيمان» .

أمل ورجاء :

وبعد : فهذه مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نظر الإسلام الحريص على حياة أهله ، وهذه مراتب التغيير التي جعلها الرسول وسيلة لتطهير المجتمع من المنكرات ، فهل لنا أن نطمع في أن يعرف الدعاة واجبهم ؟

وأن يعرف كل مسئول مرتبته التي يقدر عليها في التغيير ؟

وأن يقوموا جميعًا بتعبئة شاملة ليطهروا المجتمع ، ويذودوا عنه عوامل الشر والفناء ؟

نرجو ذلك ، ونرجو أن يكون قريبًا – والله ولي التوفيق .



في شئون المرأة

القرآنَ يتحدث عَن المرأة

يظن كثير من الناس الرأي، وفساد التدبير، وضعف التفكير من الخلال التي خلقت عليها المرأة، وأنها لا تستطيع - بمقتضى الخلق والتكوين - أن تكون غير ذلك، ومن هنا تراهم يصدفون عنها في مواضع الرأي، ولا يعبئون بمشورتها، ولا يعتدون بأفكارها، بل ترى طائفة منهم أو طوائف، إذا وجدوا ناشئًا هزيل الخلق غير كامل الرشد قالوا عنه : تربية امرأة ! وإذا سمعوا برأي فاسد، أو فكرة منحرفة قالوا : رأى امرأة.

الطبيعة واحدة:

وهو موقف دفعهم إليه ما تخيلوه من أن الأنوثة يتبعها ضعف البدن والعقل، وأن الذكورة هي موطن القوة والسداد. والحقيقة أن الطبيعة البشرية في الرجل والمرأة تكاد على حد سواء، وأن الله قد وهب الرجال، ومنح كلاً من الرجل والمرأة المواهب التي تكفي في تحمل المسئوليات، والتي تؤهل كلاً من العنصرين للقيام بالتصرفات الإنسانية العامة والخاصة.

ومن هنا جاءت أحكام الشريعة الإسلامية تضعهما في إطار واحد، فهذا يبيع ويشتري، ويزوج ويتزوج، ويجني، ويدعي ويشهد، وتلك تبيع وتشتري، وتزوج وتتزوج، وتجني وتعاقب، وتدعي، وتشهد.

ولو تتبعنا حالتي الرجل والمرأة لوجدناهما في خضم هذه الحياة كمؤسسي شركة، أو مصنع، وزرعت أعماله المتعددة في نواحيه المختلفة، والتي لا قوام له إلا بها عليهما معًا، كل يقوم بنصيبه في هذه الشركة، ولكل منهما فيما يقوم به علم وحكمة، وتدبير ونظر.

الوضع التاريخي للمرأة:

وإذا كان القرآن قد رسم الخطوط العامة التي يشترك الرجل والمرأة بالسير فيها، وتجلى منها أن وضع المرأة على وجه هو من نوع وضع الرجل، وأن كلاً من الوضعين يكونان

الوضع العام للحياة في أعمالها ومقتضياتها ومسئولياتها وتبعاتها، فإن القرآن سار بهما في التحدث عنهما بإبراز المصلحين والمصلحات، وإبراز المفسدات على هذا النحو الذي يشتركان فيه، والذي يدل دلالة واضحة على أنهما من قديم الزمان قوتان تعملان وتوجهان وتكتسبان، وأنهما قد يكتسبان الخير والصلاح، وقد يكتسبان الشر والفساد، وأن التاريخ وأقلامه التي لا تنسى تسجل للمصلحين صرحهم، وللمصلحات صلاحهن، وتسجل على المفسدين إفسادهم، وعلى المفسدات إفسادهن، وبذلك تطابق الوضع التشريعي القرآني للرجل والمرأة مع الوضع التاريخي القرآني لهما.

ففي التاريخ الذي قصه القرآن الكريم عن الأولين، والذي حفظناه عن عهد الرسالة المحمدية، أبرز الأمثلة التي يتبين بها أن وضع المرأة التاريخي كوضع الرجل التاريخي: عند الرجل ثقة بالله، وسلامة في الرأي، وحسن في التدبير، ودقة في النظر، وقوة في الفراسة، وقدرة على استجلاء الحقائق الغامضة، وتصريف الشئون على أساس متين، وعند المرأة من كل ذلك ما يحفظ لها مكانتها، بل وفضلها إزاء أخيها الرجل.

اصطفاء واصفاء:

أنبأنا القرآن الله اصطفي من النساء كما اصطفي من الرجال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ (الآيتان ٣٣، ٣٤ من سورة آل عمران)

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (الآيتان ٤٢، ٤٣ من سورة آل عمران)

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الآية ٣٥ من سورة الأحزاب).

امرأة عمران وابنتها مريم :

وأنبأنا القرآن أن الله تقبل المرأة فيما يتصل بشئون العبادة، والقيام بخدمة أماكنها المقدسة، كما يتقبل الرجل، وقص علينا في ذلك ما كان من شأن امرأة عمران :

﴿ **إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا** ﴾ (الآيتان ٣٥، ٣٧ من سورة آل عمران)

كان المعروف أن الذي يقوم بخدمة الأماكن المقدسة هو الذكر دون الأنثى، وفي ظل هذا العرف المنحرف تحسرت امرأة عمران حينما وضعت حملها المنذور أنثي، وظنت بمقتضى السائد في العرف إذ ذاك أنه قد فاتها الوفاء بنذرها، فأبطل الله عليها هذا الظن، بل قال هنا بعض المفسرين، إن قوله تعالى «وليس الذكر كالأنثى» من كلام الله، ومعناه : أن رجلاً من الرجال لا يصل في هذه المهمة إلى مرتبة هذه الأنثى التي اصطفاها لأمر أرده بعد، والقصد تخطئة امرأة عمران في تحسرها على أنها وضعت أنثي، وفي ظنها أن الرجل هو المقبول دون الأنثى، وقد أبدت الإيمان واللجوء إلى الله واضحة فيما قالت، حينما عوذت ابنتها بالله من الشيطان الرجيم، وحينما امتد نظرها إلى الأفق البعيد، فلم تكتف بتعويذ ابنتها حتى عوذت معها ذريتها : «وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم».

مريم توجه زكريا إلى دعاء ربه :

وأنبأنا القرآن أن زكريا وهو نبي مرسل قد كفل مريم

﴿ **وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ (الآية ٣٧ من سورة آل عمران)

احتلت مريم من قلب زكريا مكانًا عليًا، هيأه لها عقلها ورشدها، وسداد إجابتها، وحسن عبادتها، وكمال ثقتها بالله، وأوحي إليه قولها - في شأن الرزق الذي ما كان يعرف مصدره - إن عطاء الله لعبده لا يتقيد بسنة معرفة، ولا يتوقف على سبب معين،

ولا حالة معينة فهو يعطي إن شاء، ويمنع إن شاء، فدفعه ما رأى منها وما سمع إلى الالتجاء إليه سبحانه فيما يهمه في أن يكون له ذرية طيبة، على ما به من كبر وشيخوخة، وما بامرأته من عقم وعقر.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الآيات ٣٨ – ٤٠ من سورة آل عمران)

وبذلك كان يحيى - عليه السلام - أثراً لدعوة زكريا التي وجهته مريم إليها، وأوحت بها إليه.

وبمريم هذه ابتدأ العالم مرحلة جديدة من المراحل الإلهية، وكان مظهرها البارز، ولسانها الناطق، وربانها الطاهر، عيسى، كلمة الله، عيسى ابن مريم، وحدها، قد اختصت به الأنثى، ليس للرجل فيه نصيب:

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (الآيات ٣٠ – ٣٢ من سورة مريم).

المرأة في عهد موسى:

وإذا كان عهد عيسى يذكر بمريم وأمها، ويذكرنا بزكريا ويحيى، وما كان للجميع من سمو ومكانة، وقيادة روحية، سجلها القرآن الكريم الخالد فإن عهد موسى يذكرنا بعدة نساء كان لهن أثر وتدبير، ورأي وفراسة، وقوة وإيمان. خلال تجمعت فيهن، وحفظن بها موسى قائد العهد الذي اصطفاه الله برسالته وكلامه، وقد سجل القرآن شأنهن في هذه المرحلة:

١ – وكانت أول امرأة أم موسى، يوحي الله إليها:

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الآية ٧ من سورة القصص)

وما الظن بامرأة تلقي ولدها في اليم ؟ إنها المؤمنة أم موسى ، يوحي الله إليها ، ويرسم لها خطة النجاة لولدها ، وهي فيما يرى الناس ، خطة الهلاك ولكنها الواثقة بأن الذي يوحي إليها هو الله ، فتطمئن وتتلقى وعده وبشراه ، وهي المرأة .

أم موسى وأخته :

٢- وكانت المرأة الثانية في حياة موسى ، هي أخته ، التي وكلت إليها أمه متابعته في السير ، ومعرفة اتجاهه ، والعمل على إنقاذه .

﴿ **وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ** ﴾

تتبعي أثره ﴿ **فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** ﴾ (الآيات ١١ - ١٣ من سورة القصص)

امرأة وابنتها يديران خطة كيد لطاغية جبار ، فتنقذان فريسته من مخالبه ، ويرده طائعًا إلى أمه على هذا النحو من الإعزاز والتكريم للوليد وأم الوليد ، وتلك هي المرأة!

٣- وكانت المرأة الثالثة في حياة موسى هي امرأة الطاغية نفسه « امرأة فرعون» «تنقذه من يده ، وقد هم بقتله ، وتستغل عقمها وحرمانها من الولد وتملك على فرعون قلبه وعاطفته

﴿ **قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾ (الآية ٩ من سورة القصص)

فتأخذه من ناحية العاطفة ، وتفتح أمامه أبواب الأمل ، وما أقوى العاطفة والأمل ، سلاحين مؤثرين في القلوب القاسية وتلك هي المرأة ! .

٤- وكانت المرأة الرابعة هي ابنة شعيب ، تلقت موسى مع أختها وهو شريد طريد عند الماء

﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ (الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة القصص)

سقي لهما فذهبتا إلى أبيهما، وكان من فراسة أحدهما في موسى، ما جعلها تعرف فيه مواطن العظمة، وقوة الشخصية، وخلق الأمانة. من الصفات الباطنة التي لا بد في إدراكها من عشرة طويلة، وتجارب متكررة ولا يكفي في إدراكها اجتماع واحد، ولا نظرة واحدة. وبنت شعيب هذه لم تر موسى قط إلا حينما سقي لهما، وهذا القدر من الرؤية ليس من شأنه أن يمكن من معرفة أسرار النفوس ودخائلها، ولكنها ابنة شعيب، وقد أوتيت من قوة الفراسة ما أدركت به أمانته وقوته، فوصلت بينه وبين أبيها، وتعانق بهذا الوصل فرعان نبويان، وفي ظل هذا التعانق، نودي موسى

﴿ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىَ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الآية ٣٠ من سورة القصص)

وبذلك تمت سلسلة من التدبير الإلهي، تمهيداً لرسالة السماء في القضاء على البغي والطغيان، وكانت معظم حلقات السلسة من صنع المرأة. !

امرأة فرعون:

وإذا كان القرآن قد سجل للمرأة الثالثة في هذه السلسة - وهي امرأة فرعون - عظيم موقفها في إنقاذ موسى من يد زوجها وقد هم بقتله، فإنه قد سجل لها وراء فضلها في ذلك فضلاً في قوة إيمانها بربها، وشدة بغضها لزوجها، كانت به في نظر الحكمة الإلهية المثل الأعلى للمؤمنين، يرسم لهم التأسي والتوجيه

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الآية ١١ من سورة التحريم)

امرأة تحت ملك، له قوته وجبروته، ويقول:

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾

ويأبى دعوة التوحيد، ويعمل على التنكيل بكل من خالف إرادته. امرأة تحت هذا الملك القوي العنيد تستطيع أن تحتفظ بعقيدتها، ولا تأخذها عنها فتنة الرهبة أو الرغبة، وتتجه أعماق قلبها إلى ربها أن يخلصها منه، ومن عمله، وأن يخلصها من القوم الظالمين. فأية نفس عالية في ثياب هذه المرأة الكريمة؟ وإذا كان مثلها في النساء قليلاً فإن مثلها في الرجال كذلك قليل.

هذا هو الوضع التاريخي القرآني للمرأة، قد حفظ لها مواهبها وجهادها وأثرها في الحياة.

عهد سليمان:

وإذا كان عهد عيسى وعهد موسى يذكران بما للمرأة من فضل في مرحلتين من مراحل التربية الإلهية للعالم، فإن عهد سليمان - عليه السلام - يذكر هو الآخر - كما حدثنا القرآن الكريم في سورة النمل - بامرأة ذات رأي وحزم، وفراسة وقوة في استجلاء الحقائق الغامضة، وتدبير التخلص من المآزق الطارئة على وجه يبعد به الشر، ويعم به الخير. تلك هي «ملكة سبأ».

يصل إلى سليمان - عليه السلام - أن في سبأ - من بلاد اليمن - ملكًا كبيرًا، وأن امرأة هي صاحبة السلطان على ذلك الملك، وأن لها عرشًا فيه أنواع من الزينة والجواهر يقصر دون الإحاطة بها العد والتقدير، وأنها أوتيت من كل شيء، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله.

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ (الآيات المذكورة في قصة ملكة سبأ في سورة النمل من ٢٣ - ٤٤).

يصل هذا النبأ إلى سليمان فيرسل إليها داعيًا لها ولقومها إلى التوحيد، مترقبًا ما يكون منها إزاء دعوته.

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

فتقرؤه وتردده في نفسها. وهنا - على ما يقص القرآن تظهر مواهبها وسداد رأيها في حسن التدبير وتقدير العواقب، وسعة الحيلة في كشف ما لم تعرف من شئون سليمان.

لم تشأ أن تستبد بالأمر، وأن تلقي أوامرها كما تريد، بل جمعت رجال دولتها وأهل مشورتها، وأعملتهم مضمون الكتاب، وقدرت ما في دعوته من سمو، فوصفته أولاً بالكرم

﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾

وهكذا تأخذ بمبدأ الشورى الذي هو أساس طبيعي لبقاء الملك وحفظه. وحينما أظهر لها رجالها العزة والاعتداد بقوتهم، وأنهم طوع إرادتها، وصاحوا صيحة الحماس والاستعداد للدفاع:

﴿ نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾

يقظة المرأة الحاكمة:

لم تخدع بما أظهروه من قوة واستعداد عن الحقيقة التي تؤمن بها في نوايا الملوك المغيرين، والتي تؤمن بها في نفوس الأتباع المروجين، فنظرت في الأمر بعين الفطنة وقالت لهم في وضوح وجلاء:

﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ـ غزاة محاربين ـ أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾

وهكذا أخذت من الأحداث التاريخية التي تعملها نتائج الحروب في تدمير البلاد والعباد، فلم تستسلم لما أظهروه من قوة واستعداد، ومثلت أمامهم تلك الحقيقة التاريخية، وعرضت عليهم - حلاً لتلك الأزمة التي فوجئت بها - رأيًا آخر قد تنجو به البلاد، ويسلم العباد، ذلك هو أن تصانع سليمان وتخطب مودته، أو تأخذه من نفسه وترده عن هدفه في الهجوم عليها، فترسل إليه هديه لتنظر أثر هذه في نفسه، وماذا يكون موقفه منها بعد أن تصل إليه.

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾

وفيما روي أنها قالت: إن كان نبيًا حقًا لا تصادف هديتنا مكانًا من قلبه، ولا تحول بينه وبين تبليغ رسالة ربه. وإن لم يكن نبيًا، وكان ملكًا تهمه الدنيا وسلطانها، فسوف يفرح بها ويعرض بزخرفها عن قتالنا.

قدرت هذا، وكان ما قدرت، وعلمت أن سليمان نبي ذو دعوة إلهية لا يرده عنها سلطان ولا زخرف، وأنه لا بد عامل على تبليغ دعوته، وتنفيذ أمر مولاه، وعلمت بجانب ذلك ومن رسلها إليه قوة سليمان وما لديه من جند وعتاد

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

صدق المرأة في الفراسة:

جاءها رسولها بهديتها يؤكد لها صدق تنبئها وصحة رأيها، وقوة فراستها واستنتاجها، فلم يفرح سليمان بالهدية، ولم يعدل عن قتالهم، لأنه، كما قدرت، نبي مأمور بتبليغ رسالة ربه، وقد أفهمت رجالها ذلك وهي تفاوضهم في الأمر، وقد حمل لها رسولها أيضًا توعد سليمان لهم بجنود لا قبل لهم بها، وأنه سيخرجهم بها من سبأ أذلة وهم صاغرون. وهكذا تنبأت لقومها وقالت لهم من أول الأمر.

﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾

وهكذا تنبأت ملكة سبأ وقدرت ما في الحروب لبلادها من تدمير وتخريب، وصدق رسولها - بما رأى وبما سمع - كل ذلك، فأشفقت على قومها واقتنعت بأن سليمان نبي مرسل صاحب دعوة إلهية، وأنه ليس من الرأي الحكيم حرمان قومها من التمتع بهذا الحق، ولا الإلقاء بهم في أتون الحرب ونارها المستعرة دفاعًا عن باطل، أو مكافحة لحق.

رأت كل ذلك ملكة سبأ فأجمعت على الذهاب إليه في رجال دولتها، وانتهى أمرها إلى التسليم بالحق، ودخلت في دين الله عن يقين واطمئنان، وقالت:

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وهكذا قادت المرأة شعبها، وحفظت بلادها وقومها، وفتحت لهم باب الخير والهداية. وهكذا تكون قيادة الشعوب إلى الخير وإلى الصلاح، لا إلى الشر والفساد، وإلى الهدي لا إلى الضلال.

قالت: كأنه هو:

وإذا كان في تدبير ملكة سبأ شأنها وشأن قومها وبلادها مع سليمان ما يرشد إلى أن المرأة، في اعتمادها على مبدأ الشورى، وفي يقظتها وتقدير مواقفها على الوجه الذي تسلم فيه من الأزمات التي تطرأ عليها، لا تقل عن أخيها الرجل في تقديره ويقظته

واعتماده على مبدأ الشورى، فإن في هذه الكلمة «كأنه هو» دلالة أخرى على التأني والتريث في إصدار الأحكام، حتى يتبين لها واقع الأمر، وحتى لا تساق إلى الرأي تبديه، أو الحكم تصدره، بناء على مظهر قد لا يكون له في واقعه إلا مجرد المشابهة والمماثلة لما تسأل عنه ويطلب رأيها فيه.

عرش ملكة سبأ :

علم سليمان أنها أجمعت رأيها على زيارته في عاصمة ملكه، فشيد لها صرحًا عظيمًا، ومرد أرضه بالزجاج، وأظهر لها ما عهد لليمن بمثله، وأراد أن يظهر لها مع ذلك وفي هذا الصرح العظيم من دلائل القوة، ونعم الله عليه، ما يملك عليها قلبها وإحساسها، ويجعلها أمامه كالحالمة في نومها بما لا تراه عينها، فاعتزم أن يأتيها بعرشها الذي تعرفه، والذي كانت تجلس عليه في ملكها، فتجلس عليه نفسه في ذلك الصرح الذي أعده لها. فسأل جنوده عن قوي يأتيه بعرشها قبل أن تأتي إليه، فتقدم إليه عفريت من الجن قائلاً:

﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

فتقدم الذي عنده علم من الكتاب قائلاً:

﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

وكان الأمر كما قال، فأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه، ووضع في الصرح الذي هيئ لاستقبالها بعد أن أخفيت بعض مظاهره، فلما أقبلت ودخلت الصرح ورأت العرش قيل لها: أهكذا عرشك؟ فوقفت حائرة تفكر وتدبر وتنظر: تركت عرشها في ملكها والزمن لا يسمح بنقله إلى صرح سليمان، وجوهر العرش جوهر عرشها، وجوه هو جو عرشها، وإحساسها يدفعها للتصريح بأن هو، ولكن أين مظهر كذا وكذا؟ لم تستطع وقد أخذتها هذه النواحي التفكيرية العميقة أن تطبق ما تعلم إلى ما ترى، ولا أن تصدر الحكم بأن ماترى هو ما تعلم، أو غير ما تعلم، وأخيراً قر رأيها وحرصها على الحزم في الرأي، والدقة في الحكم، وعدم التورط في النفي القاطع أو الإثبات القاطع على أن تقول «كأنه هو».

وبعد:

فهذه مثل تاريخية أبرزها القرآن وتحدث بها عن عهود الإنسانية الأولى فيما يختص بحسن سياسة المرأة، ودقة استجلائها للحقائق، وكان حديثه عنها تسجيلاً لمقتضيات

الطبيعة الإنسانية البريئة التي لم يتصل بها ما يقطع عنها آثارها، وأنها ما دامت سليمة - مما يحجبها، أو يضعفها، أو يقطعها - فهي مقتضيات متقاربة في الرجل والمرأة، إن لم تكن متساوية.

العناية بتثقيف المرأة وتهذيبها:

ولعل في هذا ما يرشد إلى أن العناية بتثقيف المرأة وتهذيبها، والاحتفاظ بطبيعتها الإنسانية، دون أن تنظر إلى نفسها، أو ينظر إلها باعتبارها ذات مهمة خاصة للرجل. لعل في هذا ما يرشد إلى العناية بها على هذا الوجه من أقوى ما يؤهلها للأعمال الجادة النافعة، والآراء الصائبة الحكيمة، والطهر النفسي المقدس.

أما أن تتخذ - باسم الحرية، وباسم الأنوثة، وباسم مهمة الرجل - مسرحًا تقلب فيه بألوان مغرية، وحركات عابثة، وفنون لا تتصل بكيانها الإنسانية، وإنما تقلب عليها وضعها البشري الكامل، وتسلبها حق إنسانيتها الفاضلة. إن كل ذلك مما يجعله، أو جعلها بالفعل نوعًا آخر غير الرجل ليس له قوته ولا عزمه، ولا رأيه ولا حسن تدبيره، ولا صابرة على مقاومة الصعاب وقدرته على مشاق الحياة.

وبذلك تكون أنثى فقط، ليس لها من خصائص أخيها شيء، فإن شاءت المرأة أن تكون كأخيها وجب عليها أن تقوم بحق إنسانيتها، وتعني بواجبها كإنسان له هدف في الحياة الجادة العاملة، البعيدة عن مظاهر الخداع والتلبيس. وإن شاءت أن تظل «أنثى» - بكل معاني الكلمة ولوازمها ومغرياتها - فإن واجب الرأي العام الإنساني أن يردها إلى صوابها، وأن يضع أمامها العقبات، حتى لا تستخدم زخرفها وبريقها وعري سيقانها في التنكيل بإنسانية الرجل وزلزلته عن مستواه، فينحدر إلى هواة يلتقي معها في قرارها السحيق، وعندئذ تفقد الإنسانية عنصريها فلتنظر المرأة أين تضع نفسها، ولينظر الرجل كيف يقوم من أمرها.

المرأة في عهد البعثة المحمدية

حدثنا القرآن عن جملة من النساء اللاتي كان لهن شأن في عهود الرسالات الإلهية الأولي: فذكر عن عهد عيسى أمه مريم، وجدته امرأة عمران.

وذكر عن عهد موسى أمه وأخته، وامرأة فرعون وبنت شعيب، التي صارت فيما بعد زوجًا له، تلقي في جوها رسالة ربه.

وذكر عن عهد سليمان ملكة سبأ التي ساست ملكها على أساس من الشورى والحزم وحسن التدبير، حتى أنقذت شعبها من ضلال الشرك والوثنية، وبصرته بالإيمان والتوحيد، وأنقذت بلادها من حرب التدمير والتخريب، والتقت مع سليمان في دعوته عن يقين واطمئنان، وقالت: «رب إني ظلمت نفسي، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين».

خديجة بنت خويلد:

وإذا كان القرآن قد حدثنا عن هذه المثل من النساء في عهود النبوة الأولي، ففي تاريخ النبوة المحمدية، أمثلة كثيرة برزت فيها مواهب المرأة على هذا النحو. في نواحي العقل، وحسن الرأي والتدبير، والشجاعة والكرم، والرواية والعلم. وحسبنا من هذا التاريخ المليء بفضليات النساء ذوات الأثر الخالد، أن نذكر هنا سيدة كان لها الفضل الأكبر، والأثر الأعظم في تثبيت دعائم الرسالة المحمدية، وفي شد أزر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتثبيت قلبه، وتهدئة خاطره، وطرد عوامل القلق والحرج التي كانت تساور نفسه في بعض فتراته الأولي وتلك هي: خديجة بنت خويلد، التي لقبت في قومها وعشريتها «بالطاهرة». كانت أعقل العقائل، وفضلى الفواضل، وقد أدركت بفراستها، وبعد نظرها ما ينتظر محمداً من مستقبل كريم، وشأن إلهي عظيم، فوصلت حبلها بحبله، وألقت بمالها بين يديه، ثم خلطت نفسها بنفسه.

كان عليه الصلاة والسلام يتعبد في غار حراء، ويقضي فيه الليالي ذوات العدد، منقطعًا عن أهله ونفسه، متفرغًا لربه، ذاكرا لآلائه ونعماته، وما كانت خديجة في هذه الليالي بالمرأة التي تدفعها غايتها الشخصية، أو منزلتها المالية، إلى الوقوف في وجه زوجها، وتحويله عن الغار إلى البيت، وعن مناجاة ربه إلى مناجاته لها، بل كانت على العكس تزوده وتغريه، وتطعمه وتعينه وتقويه! وكأنها بذلك كله وكل إليها أمره في إعداده، وكلفت شأنه في تهيئته.

نوبة الوحي:

وبينما هو غارق في بحار الاتصال الإلهي، إذ جاءه الوحي، ورأى من أمره ما رأى، فعاد إليها يرجف فؤاده، وقص عليها ما رأى، وهنا تجلى منها سداد الرأي، وعظم القلب، ورجاحة العقل، وصحة الاستنتاج: موقف لو أتيح بين ولد ووالده لذابت نفس الوالد إشفاقًا على الولد، ولضرب حوله بسور يحول بينه وبين ما يثير عليه تلك الرجعة التي يمتقع بها لونه، ويضطرب منها فؤاده، غير ذاكر ولا مقدر أهمية النتائج. ولكن المرأة برجاحة عقلها، وشدة حزمها وإيمانها بوحي نفسها، قد أقبلت عليه تمسح وجهه، وتذكي روحه، وتبسط أمامه الأمل الواسع، وتصور له العاقبة الطيبة، وتبعد عن قلبه كل بواعث الخوف والاضطراب «كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق» وكأنها إذ تقول: «ما يخزيك الله أبدًا» كانت تنظر بعين الغيب إلى وعد الله الصادق، بنفي الخزي عنه وعن المؤمنين:

﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ (الآية ٨ من سورة التحريم)

ثم تذهب في الاستدلال على ما تقول بما عرفت عنه عليه الصلاة والسلام من خلق الوفاء والكرم، والإيمان والصدق. تلكم الأخلاق التي تتمثل فيما يتصل بالناس من صاحبها في الرحمة والنجدة، وبعد الهمة، في إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج، وصلة القريب. كل ذلك في دائرة من الحق والكمال الإنساني، والشعور بما يرضي الله، بعيدًا عما يرضي النفس والهوى.

ورقة بن نوفل:

ثم بعد أن تطمئنه بنفسها هكذا، وترجع به إلى الحصن الوقائي الخلقي، الذي تعرفه

فيه، ويعرف هو من نفسه، تذهب به إلى ورقة بن نوفل، زيادة في طمأنينته، تذهب به إليه، وهي واثقة كل الثقة بأنها لن تسمع منه في شأنه إلا ما قدرت واعتقدت وقالت، وقد تحقق يقينها، وتجلت ثقتها، إذ قال له ورقة بعد أن قص عليه أمره: هذا هو الناموس الذي أنزله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، يا ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك. فيقول الرسول: أو مخرجي هم؟ فيقول ورقة: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، وقدتم الأمر لمحمد، وتلقي رسالة ربه، وأنزل عليه قوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (الآيات من أول المدثر)

وكانت الرسالة الإلهية العامة الخالدة. كانت هذه الرسالة لمحمد، وشاركت في تلقيها واحتضانها والإعانة عليها، والوقوف بجانبها، حتى خرجت سليمة قوية زوجه الطاهرة «خديجة بنت خويلد».

المرأة في جو الدعوة:

ومن هذا الحين بدت المرأة عنصراً فعالاً قويًا في تركيز المرحلة الإلهية الأخيرة في تربية العالم والنهوض بالإنسانية، على يد «محمد» خاتم الأنبياء والمرسلين. فشاركت في الدعوة، وشاركت في الهجرة، وشاركت في الابتلاء، وشاركت في الرأي، وشاركت في تأمين الأعداء. شاركت في كل ذلك، وكان لها في كل عصر من عصور الرسالة الزاهرة مشاركة وأثر، ولم تكن إلا عنصراً من عناصر الدعوة، عليها ولها مثل ما على أخيها الرجل من واجبات وما له من حقوق.

المرأة في حفظ الجماعة:

وإذا كان للسيدة خديجة - كما قص علينا التاريخ الصادق - فضل تركيز المرحلة الأخيرة من مراحل التربية الإلهية العامة التي بدأت على يد محمد بن عبد الله، فإن التاريخ النبوي يحدثنا كذلك عما كان للمرأة من فضل في حفظ كيان الجماعة الإسلامية ووقايتها من التدهور في أزمة داخلية، أوقدت نارها - بين المسلمين وبين قائدهم الأكبر ـ عليه

الصلاة والسلام ـ شروط الصلح التي تم عليها عقد الهدنة في رحلة الحديبية والذي كان من ذلك أن النبي ﷺ أنبأ أصحابه وهم مجتمعون معه في المسجد، أنه رأى في منامه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، وكانت رؤياه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثالاً صادقًا عن حق واقع، أو حق يقع، ولهذا كان يتخذ منها توجيهًا إلهيًا إلى العمل في الوسائل التي يتوقف عليها - بمقتضى العادة - حصول ما تبشر الرؤيا بحصوله.

الدعوة إلى الحج:

ومن هنا، أذن النبي في الناس بالحج، وكان ذلك في شهر ذي القعدة للسنة السادسة من الهجرة، فانتعشت نفوس المؤمنين، وتحركت عواطفهم نحو مكة التي فيها أوذوا، ومنها أخرجوا، وخلفوا فيها المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. تحركت عواطفهم نحو مكة التي فيها المسجد الحرام الذي حرموا رؤيته، والطواف حوله، والتعلق بأستاره، والمناجاة بجواره منذ أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. حرموا من المسجد الحرام الذي تربط به قلوبهم، وتهفو إليه عواطفهم في كل دعاء، وفي كل صلاة.

الصد عن المسجد الحرام:

يخرج النبي بالمسلمين، ومن لبي دعوته من غيرهم، ويبذل غاية جهده في إقناع قريش بأنه خرج حاجًا زائرًا، لا غازيًا ولا محاربًا، فيقفون أمامه ويصدونه هو وأتباعه عن مكة وعن المسجد الحرام، ويشتد بينهم الأمر، ويتبادلون الرسل، وتنتهي الشأن بمعاهدة أمضيت بين المسلمين والمشركين على شروط أهمها: وقف القتال مدة معينة، وأن من هاجر من المكيين إلى المسلمين يرده المسلمون إليهم، ولا يرد المكيون من هاجر إليهم من المسلمين، وأن يرجع المسلمون عن مكة هذا العام، على أن يعودوا إليها في العام المقبل.

شدة وقع الشروط على المسلمين:

كانت هذه أهم شروط الصلح، وقد رأى فيها بعض الأصحاب غبنًا شديدًا على المسلمين، وأن قبولها لون من الذلة لا يتفق وعزة الإسلام، وبذلك أخذت الثورة تنمو في نفوسهم، وتشتعل جذوتها في القلوب، حتى جرت على بعض الألسنة كلمات ما كان

يظن أن يجري مثلها على مثل تلك الألسنة: والله ما حلقنا ولا قصرنا ! ولا دخلنا المسجد. ألست رسول الله ؟ ألسنا بمسلمين ؟ فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

تنفيذ المعاهدة:

على الرغم من هذا الاضطراب الذي ملك على المسلمين قلوبهم، وأطلق بما لا ينبغي ألسنتهم، شرع الرسول في تنفيذ المعاهدة، وأصدر أمره لأصحابه ليأخذوا الأهبة في الرجوع إلى المدينة، وطلب إليهم أن يتحللوا من إحرامهم، فعظم الأمر في نفوسهم ولم يستطيعوا المبادرة إلى تنفيذ أمره، وبدت آية العصيان والتمرد على وجوههم، فاشتدت غضبه عليه الصلاة والسلام، وتوجس شراً مستطيراً. توجس انفراط عقدهم، وانفضاضهم من حوله. إنه لموقف في غاية الحرج: قائد كمحمد. بعث متمماً لمكارم الأخلاق، وفي أولها الوفاء بالعهد، يمضي صلحاً مع أعداء له أشداء ككفار قريش، يخذله جيشه، ويعصي أمره، ويثور عليه في تنفيذ صلحه والوفاء بعهده؟ إنها الأزمة وأية أزمة. تدرك جماعة المسلمين وهم في مثل هذا الموقف، وبعد أن أبلوا مع قائدهم ما أبلوا، من احتمال الأذى والتشريد، والهجرة والجهاد والقتال، وبعد أن صاروا من النصر النهائي المبين قاب قوسين أو أدنى.

من يحل هذه الأزمة ؟:

قف معي قليلاً لتعرف قد ما يهدد جماعة المسلمين من خطر في هذا الحال الطارئ، ثم لتعرف مقدار السمو، ومبلغ التوفيق في الرأي، أو في مصدر الرأي الذي يكون برداً على هذه الجماعة المؤمنة بعزتها فيطفئ ثورتها، وينقذها من هذه الأزمة، ويا ليت شعري لمن ياترى هذا الرأي ؟لمن يكون هذا التوفيق الذي سيحفظ في بطون التاريخ ولا ينسى، تتناقله ذكريات الأيام، وأحداث الأزمات الحادة، مقروناً باسم صاحبه إلى يوم الدين ؟ لمن يا ترى هذا الرأي ؟ أمصدره وحي من السماء ؟ لا ! أمصدره طلاب العزة، وقد أثارتهم الشروط من جهتها ؟ وكان من كبارهم الثائر والغاضب ؟ . . . لا.

أم سلمة زوج الرسول:

إنه للزعيمة السيدة زوج رسول الله أم سلمة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ يدخل عليها الرسول في هذا الموقف الحرج، وفي الجيش أبو بكر وعمر وأضرابهما من أبطال المؤمنين،

يدخل عليها صائحًا : هلك المسلمون يا أم سلمة . أمرتهم فلم يمتثلوا ! وفي روية وحزم قالت : **اعذرهم يا رسول الله ! فقد حملت نفسك أمرًا عظيمًا في الصلح**، ورجعوا دون فتح ولا حج فهم لذلك مكروبون. والرأي: أن تخرج، ولا تلوي على أحد، فتبدأ بما تريد، فإذا رأوك فعلت تبعوك، وعلموا أن الأمر حتم لا هوادة فيه، وهم مؤمنون بك، محبوك، مضحون فيك، فانشرح من النبي صدره، واستقر قلبه، واطمأن إلى ما ارتأت ربة الفكر الجيد، والرأي الناضج. وقام من فوره إلى هديه فنحره، ودعا بالحلاق فحلق رأسه، وصدق رأى أم سلمة. فلم يكد المسلمون يرون النبي يذبح ويحلق حتى تواثبوا إلى الهدي فنحروا، وإلى الرءوس فحلقوا ثم رجعوا إلى المدينة موفين بعهدهم، مؤمنين بحكمة نبيهم، وبذلك التأم الشمل، وعصم الله أولياءه من التدهور والانحلال، واعتصموا بحبل الله وكان ذلك – في نظر الحكمة الإلهية – فتحًا وأي فتح

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الآيات أول سورة الفتح)

انتظم الشمل، وسار جند الله، برأي أمة الله، في سبيل الله، حتى تمت كلمة الله، وأنزل على نبيه :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (الآية ٣ من سورة المائدة)

وتلك هي المرأة، الناشئة في حضانة القدس والطهر، لم تبخل عليها الحكمة الإلهية بما تهيأت لها نفسها من رأى حكيم، وفكر سديد، كأن له في العالمين أثره . فهل تستطيع أن تعرف امرأة اليوم نزعة أختها الماضية، وتسير في طريقها، فتنعم لما نعمت به، ويكون لها من الخلود والذكر ما كان لها ؟

مُبايعة النَّبيّ للنساء

قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىَ أن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الآية ١٢ من سورة الممتحنة)

هذه آية من سورة الممتحنة، وسميت بسورة الممتحنة لأنها أوجبت على المؤمنين أن يمتحنوا النساء في إيمانهن إذا هاجرن إليهم من دار الحرب مظهرات إسلامهن، وقد صح أن عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ كان يحلِّف المرأة المهاجرة هكذا :

«بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبًا لله ولرسوله» وكانت إذا تم امتحانها هكذا وتبين صدقها في الإيمان احتفظ بها المؤمنون ولا يردونها إلى الكفار.

﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ (الآية ١٠ من سورة الممتحنة)

وهذا من أسمى ما يعادل به أهل دين أهل دين آخر، لا إكراه ولا غضب ولا احتيال.

سورة الممتحنة :

وسورة الممتحنة من السور المدنية التي بينت مدى علاقة المؤمنين بغيرهم فحذرتهم اتخاذ الأعداء أولياء، وأرشدتهم إلى اتخاذ إبراهيم وقومه أسوة في ذلك

﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (الآية ٤ من سورة الممتحنة)

وأباحت لهم أن يبروا – من مخالفيهم في الدين – من لم يقاتلهم ولم يخرجوهم من

ديارهم ولم يؤلبوا عليهم، ثم جاءت منها هذه الآية الكريمة التي ذكرناها أولاً، تبين مبايعة النبي للنساء، وكان ذلك في يوم الفتح الذي تم في شهر رمضان الكريم.

إن القرآن قد رفع من شأن المرأة إلى درجة لم تكن تحلم بها من قبل، ولم تصل إليها من بعد في غير جو الإسلام: جعل لها حقًا في المال كالرجل، ومنحها حق التصرف فيه دون رقابة عليها أو ولاية، وجعل إذنها شرطًا في صحة زواجها، وجعل لها من حقوق الزوجية مثل ما عليها، وجعلها ذات مسئولية مستقلة في العبادات والمدنيات والجنائيات، وفي الثواب والعقاب عند الله.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (الآية ١٢٤ من سورة النساء)

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الآيتان ١٠، ١١ من سورة التحريم)

فالمرأة في وضع القرآن لا يؤثر عليها - وهي صالحة - فساد الرجل وطغيانه، ولا ينفعها، بخصوص وعموم، فخص «ألا يشركن بالله شيئًا» فلا يعبدون سواه، ولا يسألن غيره.

«ولا يسرقن» ويكثر فيهن أن يختلسن - بحكم الزوجية - من أموال الأزواج بدعوى التقتير عليهن في المأكل والملبس ولوازم الحياة والزينة.

«ولا يزنين» وإذا حرم الله شيئا فقد حرم وسائله، لذلك حرّم النظر، وحرّم الاختلاط، والسفر بغير المحارم.

«ولا يقتلن أولادهن» كراهة فيهم وتخلصًا منهم، وفي حكم القتل التستر عليهم فيما يذهب بالكرامة، ويسلب معاني الشرف. «ولا يأتين ببهتان» هو المولود تلتقطه المرأة التي لاتلد وتقول لزوجها هذا ولدي منك تفتريه بين يديها ورجليها، وتنسبه لزوجها استدامة لعلاقة الزوجية، أو سبيلاً لحصولها على تركته.

«ولا يعصينك في معروف» عام في كل ما يأمر به النبي ﷺ و هو لا يأمر إلا بمعروف، فيشمل ترك النياحة، وخمش الوجوه، وشق الجيوب، والهلع على المصاب، ويشمل إحسان العشرة، والقيام بحقوق الزوجية والصون عن التبذل في الشوارع والمجتمعات، وما إلى ذلك مما يكثر منهن.

هذه متابعة النبي ﷺ للنساء، وعلى نساء العصر أن يحفظنها وليتدبرنها، وليعلمن أنها مبايعة لهم قام بها أسلافهن، ويجري حكمها عليهن، فإذا قمن بحقها، ووفين بما عاهدن الله عليه حصلن على ما حصل عليه أسلافهن: مغفرة الله ورحمته، إن الله غفور رحيم.

في عيد الأم

أيها الأبناء :

يملكني الحياء من الله أن أستأنف لكم قولاً في الوصية بالوالدين بعد أن وجه سبحانه إليكم وصيته بهما في سبع سور من كتابه الكريم، وهي كلها تدور حول كلمة واحدة «الإحسان بهما» والإحسان كلمة فذة في عالم الجميل تجمع إلى حسن القول والبر حسن القلب والعاطفة.

بر الوالدين بعد الإيمان والتوحيد :

وقد جعلته الآيات كلها في المنزلة التالية للإيمان بالله وإفراده بالعبادة والتقديس، كما جعلته شرعة العام الذي تقتضيه الإنسانية في جميع أطوارها ولا تختص به رسالة دون رسالة ؛ ذلك أن بواعثه ترجع إلى الإحساس الفطري بما لهما من فضل في تحمل أعباء وجودكم، والعناية بكم في السهر على تربيتكم وتنمية أجسامكم وإعداد قواكم، لتكونوا في الحياة عناصر عاملة على سعادة أنفسكم وسعادة أمتكم.

١ - أخذ به العهد على بني إسرائيل، وذكرتنا به سورة البقرة

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (الآية ٨٣ من سورة البقرة)

٢ - جعلته سورة النساء العنصر الثاني بعد توحيد الله في رباط الجماعة الذي ينبت في الأسرة وتبني على وحيه، ثم يشع نوره ويتصل أثره بجميع الصلات البشرية فتقوى به عوامل الآفة والمحبة والتعاون، وتشعر الأمة بوحدة لا تعرف التفرق، وتكافل لا يعرف التخاذل

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

(الآية ٣٦ من سورة النساء)

٣- وتجيء سورة الأنعام فتجعله إحدى وصايا الله العشر التي نزلت بها كل كتبه وبعثت بها كل رسله، والتي هي صراطه المستقيم

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الآيات ١٥١ - ١٥٣ من سورة الأنعام)

٤- ثم تجيء سورة الإسراء فتذكره، وتسوقه بكلمة (القضاء) الدالة على الأحكام والنفاذ، وبأسلوب قوي من المناشدة في التحذير من أقل ما يؤذي وفي الإغراء بالقول الكريم والعاطفة الحية التي يحملها ذل الرحمة لا ذل القسوة، وتدفع إلى إخلاص الضراعة لله أن يرد إلى الوالدين جميل عنايتهما في التربية والتقويم، ثم تلفت إلى عهد الكبر الذي يصل فيه الوالدان إلى حالة تشبه حال الابن في الصغر، فيتخذ من حاجته إليهما ومن عنايتهما به في الصغر حاجتهما إليه وعنايته بهما في الكبر:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ وليس هذا فقط بل ﴿ وَلا تَنْهَرْهُمَا ﴾ وليس هذا فقط بل ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) ﴾ وليس هذا فقط بل ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ وليس هذا فقط بل ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة الإسراء)

٥، ٦ ـ وتجيء سورة لقمان مع سورة العنكبوت، فيرفعان منزلة الإحسان بالوالدين إلى درجة ليس بعدها لدرجات الإحسان قمة ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (الآية ١٥ من سورة لقمان)

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾

(الآية ٨ من سورة العنكبوت)

صورتان للبر والعقوق:

٧- أما السورة السابعة وهي سورة الأحقاف فإنه تسلك في الوصية بالوالدين سبيل المقارنة بين صورتين بارزتين للبنوة. أحدهما صورة مضيئة مشرقة للبنوة البارة التي تؤمن بفضل الأبوة عليها:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (الآيتان ١٥، ١٦ من سورة الأحقاف)

والأخرى صورة مظلمة قاتمة وهي للبنوة العاقة التي شقت عصا الطاعة في وجه الأبوة الرحيمة ورفضت نصحها الكريم

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾

(الآيتان ١٧، ١٨ من سورة الأحقاف)

تأكيد الوصية بالأم:

أيها الأبناء: هذه منزلة الوالدين عند الله لفت أنظاركم إليها وحثكم على احترامها والقيام بحقها في سبع سور من كتابه المحكم. ولا تفوتنكم إذ تقرءون آياتها ما عرضت له سورة لقمان وسورة الأحقاف بخصوص «الأم» من جهة ما انفردت بتحمله من المشاق في حملكم تسعة أشهر وإرضاعكم حولين كاملين والسهر في سبيل الحرص الشديد على حسن تنشئتكم وتربيتكم وتوفير راحتكم وصحتكم.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (الآية ١٤ من سورة لقمان)

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾

(الآية ١٥ من سورة الأحقاف)

وتطبيقًا لهذه الخصوصية التي يقدمها لكم الواقع المشاهد عند كل أم، يسجلها القرآن الكريم في سورتين من سوره، كانت إجابة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمن جاء يسأله : من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله؟ - هكذا : أحق الناس بحسن صحابتك، أمك، فقال السائل : ثم من ؟ قال . أمك . فقال السائل : ثم من ؟ قال أمك . فقال السائل : ثم من ؟ قال : أبوك .

أيها الأبناء : هذه هديتي إليكم في «عيد الأمومة» وهي ليست إنشاء كاتب، ولا حكمة فيلسوف، ولا إرشاد واعظ، وإنما هي وحي الله الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقة ثم هدى . فاكتبوها في قلوبكم بحروف بارزة من النور تضيء لكم السبيل، وتطبعكم على تقدير الجميل . وقولوا معي كما أمرنا الله :

﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

في التعبئة والجهاد

الحرب في الإسلام

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

(الآية ٢٥١ من سورة البقرة)

الإسلام دين الحجة والبرهان، دين الأمن والسلام، دين التعاون والتآخي، دين التعمير والبناء، وهو لا يعدل عن الحجة ما وجد منها سبيلاً إلى هدفه، وهو إقرار الحق في نصابه، وتمتع الناس بحريتهم الطبيعية وثمار العدل والمساواة، فإذا ما التوت بالعقول السبل، واختلس الإنسان من سكان الكهوف والمغاور أخلاقهم وطيشهم، فعبث بالحياة، وأراق الدماء، وسخر الضعفاء، وتحكم بجبروته في الحقوق، وانقض على الهادئين فزلزل عليهم أمنهم، وعلى المالكين فاغتصب حقوقهم، وانتزع منهم أوطانهم، وفتنهم في دينهم ودنياهم.

فهنا وهنا فقط ـ حفظًا لعرض الإنسانية أن يثلم، ولحكمة الله في خلق الإنسان أن تذهب ـ لا يجد بدًا من ارتكاب الصعب، وهو خوض معامع الحرب والقتال، فيأذن بها لأهله حتى يرد أهل البغي والعناد وليحترموا حقوق الإنسانية المكرمة:

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾

الإسلام دين الواقع:

وما كان للإسلام، وهو دين عملي واقعي، أن يتجاهل سنة الاجتماع البشري، التي كثيراً ما يندفع بها الناس إلى التنازع وارتكاب المظالم، والتنكر للحق، والاعتداء على الحريات:

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (الآيتان ٦، ٧ من سورة العلق)

على هذا اعترف الإسلام بالحرب، واتخذها حيث لا تنفع الحجة والبرهان وسيلة عملية لمكافحة البغي ورد العدوان، وإزالة العقبات والقضاء على المفاسد والطغيان.

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (الآية ٨٤ من سورة النساء)

﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ (الآية ٩١ من سورة النساء)

اعترف الإسلام بالحرب في تلك الدائرة وجعلها ذروة سنامه، وأفرغ عليها صبغة جهاده في سبيل الله، يقيم بها العدل والميزان، ويمهد بها سبل الحياة والطبيعة السعيدة، وحينما يصل المسلمون بالحرب إلى هذه الغاية أوجب أن تضع الحرب أوزارها، وأوجب الكف عنها.

﴿ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (الآية ١٩٣ من سورة البقرة)

﴿ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾

(الآية ٩٠ من سورة النساء)

وهو إذ يقررها ويدعو إليها وسيلة لإقامة العدل والميزان، يحوطها بالتشريع الذي من شأنه أن يحقق هدفها، وهو إخضاع قوى الشر والفساد، الذي من شأنه في الوقت نفسه أن يخفف من ويلاتها ويضمد من جراحها: لا يترك أهله يفتحون بها على الناس أبواب الجحيم من كل جانب، لا يترك لهم أن يبقروا فيها بطون الحبالى. ولا أن يمثلوا بجثث الشيوخ والرضع.

هذا الجحيم الذي نري دعاة الحضارة والمدنية وحقوق الإنسان يدقون ناقوسه لسبب ولغير سبب، ويوقدون ناره في جميع الآفاق، فلا تلبث أن تلتهم المشرق والمغرب، ويصير الناس فيها كمثل قوم في سفينة، أخذتها الأعاصير من كل جانب، واضطربت بهم في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، يكاد اليم يبتلعها فيها. أو كمثل قوم حوصروا بالنار ذات الوقود في بيت مغلق النوافذ، وقد تقطعت بهم أسباب النجاة، فجمدوا في أماكنهم شاخصة أبصارهم، يشهدون التهام النار متاعهم ونفائسهم وأموالهم وأبنائهم وأنفسهم، ثم لا يستطيعون أن يحركوا ساكنًا، وأن يلتمسوا طريقًا للخلاص من هول ما هم فيه سوى العويل والصياح، والاستغاثة من الخطر الذي داهمهم وحل بهم وبدارهم، إلى أن تخمد أنفاسهم ويصيروا جثثًا تحت أنقاض البيوت وعروش العمائر!!.

حرب المدنية:

هذه هي مدنية القرن العشرين. مدنية العلم الذي أنعم الله به على الإنسان، ليسعد به الإنسانية فأشقاها، ويحييها فأماتها. هذا هو حربها، وهذا هو سلامها الذي يتغنى به الخراصون الأفاقون، والذي نسجوا من اسمه أحبولة يكيدون بها للسلام الحق، وبها يفسدون حكمة الله في خلق الإنسان، هذا هو السلام الذي يحتفل الأفاكون الخراصون بعيده كل عام، ويزعمون أنهم ينسبون إلى رسوله الذي كانت آية الله فيه:

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (الآيات ٣٠ ـ ٣٣ من سورة مريم).

عناصر الانتصار:

أقر الإسلام الحرب طريقًا للسلم وتحقيقًا لهذا الهدف السامي، أرشد القرآن الكريم إلى عناصر النصر الذي يرد العدوان ويكافح الظلم والطغيان، أرشد إلى القوة المادية وإلى جملة من أصول التنظيم لعملية الحرب، وأرشد إلى الروح المعنوية، وإلى عنصر رابع به تعمل الحرب عملها، وتصل إلى هدفها.

القوة المادية:

أرشد إلى القوة المادية ونزلت فيه آية محكمة

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الآية ٦٠ من سورة الأنفال)

والقوة كلمة، تتسع لكل ما عرف ويعرف من آلات الحرب برية وبحرية وجوية.

والرباط كلمة، تتسع لكل ما عرف ويعرف من آلات الحرب برية وبحرية وجوية. والرباط كلمة تتسع لكل ما عرف ويعرف في تحصين الثغور ومداخل الأعداء، وقوى الدفاع، الظاهرة والكامنة. ويعلن في الآية أن فائدة هذا الإعداد العام الشامل، ليست هي النصر في المواقع الحربية فقط، وإنما هي قبل ذلك وسيلة قوية لإقرار الحق، ومنع الأعداء من التفكير في زلزلته والطغيان عليه، «ترهبون به عدو الله وعدوكم» ومن هذا الجانب تكون

القوة المادية عاملاً من عوامل السلم تحفظ الحقوق، وتقيها شر الاعتداء، وتنشر على العالم ظلال الأمن والاستقرار.

وكما يرشد القرآن إلى القوة المادية من جهة العدد والآلات يرشد أيضًا في دائرة المادية أن تكون الأمة كلها جندًا مدربًا على السلاح، ومدافعًا عن الحوزة، ولا يستثنى القرآن في ذلك سوى أرباب الأعذار التي تحول بينهم وبين القيام بهذا الواجب وفي ذلك يقول:

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (الآية ٩١ من سورة التوبة)

ولكن المسلمين فيما انتابهم من عصور الضعف والانحلال، تحللوا من هذا الواجب وعولوا على حماية أنفسهم ووجدوا منهم لقمة سهلة لينة، فمضغوها وهضموها، وكانت أثرًا بعد عين.

أهملوا الجندية وجعلوها صورة هزلية، ومظهرًا من مظاهر السلطان الفاسد، ولونًا من ألوان الخدمة لكبار الدولة المأجورين، فقصروها على الفقراء الذين لا يستطيعون دفع البدل النقدي، وأخرجوا من صفوف المجاهدين حملة القرآن والعلم، وأبناء الأغنياء والوزراء، وأرباب الوظائف الإدارية، وبذلك صارت الجندية في أذهاننا وفي أوضاعنا عنوان الذلة والضعة. وإني لأحمد الله الذي هيأ لهذه الأمة من وضع الجندية في مكانتها ورفع من شأنها، وأحمده مرة أخري إذ تلقت الأمة هذا الوضع الجديد بإيمان قوي، وصدر ممتلئ بمعني العزة والكرامة، وستكون أمتنا إن شاء الله منارة لهذه اليقظة الواعية، مستلهمة أحكام الله وشرعه، وبه يكون لها النصر المؤزر، والكلمة العالية.

التنظيم الحربي:

وكما أرشد القرآن إلى القوة المادية في عدتها وعددها، أرشد كذلك إلى جملة من وجوه التنظيم الحربي التي يجب على المحاربين مراعاتها والتمسك بها إذا ما نشبت المعركة واشتبك الجمعان، وخص منها بالذكر ما كان يفعله الرسول ويوصي به في الأعمال التمهيدية للغزو: توزيع وحدات الجيش على مواضع الدفاع، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ (الآية ١٢١ من سورة آل عمران)

والسمع والطاعة للقيادة. وفي ذلك يقول:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الآية ٤٦ من سورة الأنفال)

وقد ذكرهم بأن سبب فشلهم في غزوة أحد كان يرجع إلى المخالفة والتنازع:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ (الآية ١٥٢ من سورة آل عمران)

والثبات في الموقف وفيه يقول.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الآيتان ١٥، ١٦ من سورة الأنفال)

وترتيب الهجوم عند تعدد الأعداء على أن يؤخذ منهم الأقرب فالأقرب حتى لا يتعرض الجيش لحركات التفافية من العداء، وفيها: يقول

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (الآية ١٢٣ من سورة التوبة)

فهذا درس في الإعداد للحرب في مادته وتنظيمه، أرجو أن تنفعل به قلوب إخواننا المسلمين، ويتلقوه من كتاب الله ووحيه، دينًا به يتقربون إلى الله، وبه يكون لهم مقام الصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقًا.

خذوا حذركم

قال الله تعالي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ (الآية ٧١ من سورة النساء) .

سورة النساء تعالج الكيان الداخلي والخارجي:

آيه من سورة النساء بدئ بها سياق طويل عالجت به السورة أمر القتال، وتحدثت فيه عن كثير من طوائف المنافقين وخلالهم، وعما يجب على المؤمنين من إعداد العدة وشحذ العزيمة، وتقوية الإرادة في محاربة الأعداء، وتقوية الروح المعنوية في نفوس المجاهدين حتى يظفروا برد كيد المفسدين، وإقرار الأمن والطمأنينة فيما بين عباد الله. وسورة النساء عنيت بتركيز عوامل السلم والطمأنينة في داخل الأمة بما قررته من أحكام تنظيم الأسرة، وتحفظ كيانها، وتغرس مبادئ الخير في نفوس الأبناء، وبذلك سبحت كثيراً في الشئون المتعلقة بالنساء حتى سميت السورة بسورة النساء. ولما كان الشر قد يصيب الأمة من داخلها، وعلاجه الأول أحكام النساء والأسرة، فقد عنيت به السورة أيما عناية. ويصيبها أيضًا من خارجها- بإغارة الأعداء واعتدائهم على الأمن ـ تحدثت السورة أيضًا عن العلاج الذي يجب أن يتخذ دفعًا للشر من هذا الجانب، وبهذا وذاك يضمن للأمة استقرارها وأمنها من داخلها وخارجها.

أمران إلهيان يتوقف عليهما حياة الأمة:

أمرت الآية بالاستعداد الحربي، واتخاذ الحذر من الأعداء بما تقضي به مستحدثات الزمن من أنواع القوة والسلاح: «خذوا حذركم»، ثم أمرت بالنفير: وهو الخروج لمقابلة الأعداء على حسب ما تقضي به الأحوال، ببعض الجيش أو كله: «فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا» ولا ريب أن أخذ الحذر على هذا النحو، والنفر على هذا النحو يستدعيان من الأمة

العلم بحال عدوها في عدده وعدده ومسالكه، والعلم بوسائل المقاومة المعروفة المستعملة، ثم رغبت الآيات في القتال، واستثارت نحوه النفوس بإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وقررت أن الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، لإقامة العدل في الأرض، وتطهيرها من جرائيم الشرك، وأن الذين كفروا يقاتلون في سبيل إقرار الظلم والطاغوت، وأنهم ليسوا في ذلك إلا أولياء الشيطان وجنده. أمرت بقتال هؤلاء ووعدت من يقاتلهم فيقتل أو يغلب بالأجر العظيم: إما النصر والغلبة، وإما الاستشهاد والحياة الخالدة،

﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الآية ٧٤ من سورة النساء) .

مهمة الطابور الخامس:

وقد عنيت الآيات في هذا المقام بالتحذير من عناصر الشر والتخذيل التي لا تسلم منها أمة من الأمم: هؤلاء الذين يبطئون الناس عن القتال، ويثبطون الهمم، ويشمتون في المصائب فيقول قائلهم:

﴿ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ (الآية ٧٢ من سورة النساء)

ويتمنون الاشتراك في المغانم، ويقول قائلهم:

﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الآية ٧٣ من سورة النساء)

يقولها هكذا كأن لم يشترك معهم في مصلحة أو وطن، وهؤلاء الذين ينكصون عن القتال ويخشون العدو كخشية الله أو أشد خشية، ويرجون لذلك تأخير الجهاد خوفًا من الموت والموت لاحق بهم:

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (الآيتان ٧٧، ٧٨ من سورة النساء)

هؤلاء الذين يظهرون الطاعة والامتثال لأول سماع الأمر بالقتال، ثم يذهبون فيبيتون غير الذي يظهرون:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (الآية ٨١ من سورة النساء)

هؤلاء الذين إذا جاءهم أمر شأن من شئون القتال وخبر من أخباره فيه خوف أو أمر مما يجب أن يكتم أذاعوا به، ليرجفوا على المؤمنين فيقولون مثلاً : تم لكم النصر فلا حاجة في الاستمرار على تهيئة العدة، أو قد أحاط العدو بالبلاد وأصبحت الهزيمة محققة فلا فائدة للجمع والاستعداد، وهذا الصنف هو المعروف في لسان العصر باسم «الطابور الخامس» ويقول الله فيهم :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (الآية ٨٣ من سورة النساء).

وهكذا تمضي الآيات المتعاقبة في التنقيب عن أوصاف المنافقين، وتضع الحد الفاصل في القتال بين المسالمين وغير المسالمين، وتوجب قتال المنافقين الذين «كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها» ثم توجب الجهاد على كل قادر مستطيع غير أولي الضرر من أرباب الأعذار والضعفاء، وتنذر المقيمين بين الأعداء، غير المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، أن يستمروا في مقامهم بين الأعداء. ثم تلتفت الآيات إلى تقوية الروح المعنوية للجيش المحارب عن طريق التنبه للصلوات المفروضة، فتأمرهم بأدائها وقت القتال وتخفف عنهم في عدد ركعاتها وكيفية أدائها، اكتفاءً بما تحدثه من المحاربين مشقة الجهاد، وتشعرهم بأنهم ممتازون عن خصومهم بحسن العاقبة عند الله .

﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الآية ١٠٤ من سورة النساء).

المخذلون

للحرب التي أثارتها قوى البغي والعدوان في وقتنا الحاضر، وعلى بلدنا المسالم، شأن واقعي ملأ الدنيا وشغل الناس، ولولا بقية من أولي النهي صرخت في وجه العدو المعتدي، ووقفت أخرى تضرب في صدره وترسل عليه شواظًا من نار حتى أيأسته من نفسه وهدفه، فعاد أدراجه يجر ذيول الخزي والعار، ولولا ذلك لتعرضت الإنسانية في جميع أقاليمها للتحلل من مزاياها وخصائصها التي خلقت بها وجعلتها في صحفية الترتيب الكوني سيدة هذا العالم، واستحقت بها أن تكرم وأن تفضل على كثير من الخلق.

وللحرب على وجه عام شأن نظري، يلوكه في كل الأزمان - بالنسبة للإسلام - كثير من المنتسبين إلى الرسالات السماوية الذين لم يستطيعوا أو لم يريدوا أن يفهموا أن الدين عند الله واحد في كل العصور، وعلى ألسنة كل الرسل، وأن الرسالة الأخيرة - وهي رسالة محمد - عليه الصلاة والسلام - لم تكن إلا الطور النهائي لأصول التشريع الذي يساير الطور النهائي للبشرية في حاجاتها ومقتضياتها الحيوية، وأنها لم تأت بما ينقض أصلا قررته الرسالات السابقة

﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (الآية ١٦١ من سورة الأنعام)

وإنما قررته، وأكدت ورسمت للإنسانية سبيل الأمن والاستقرار، وكفلت بمبادئها سلامة العالم من الزلزلة والاضطراب، ودعت إلى التعارف والتعاون بما يحقق إرادة الله في الإنسانية، وهي أنه لم يخلقها ليغتال قويها وضعيفها، وإنما خلقها ومنحها ما منح من قوى العقل والتفكير. وسخر لها ما سخر من ميادين العمل وقوى الإنتاج، ليكون العالم بها مظهرًا من مظاهر الرحمة الإلهية، التي تهيئ للعباد سبل الحياة الطيبة الخالدة، ولكن القوم - بشرهم وطغيانهم وفساد إنسانيتهم - أبوا إلا أن يغيروا خلق الله، وإلا أن ينحرفوا عن صراطه المستقيم، فيتخذوا وليًا من الشيطان.

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ (الآيتان ١٢٠ ـ ١٢١ من سورة النساء) .

دعوة الإسلام:

دعا الإسلام إلى التعارف والتعاون، وأرشد الناس إلى أن العلاقة الإنسانية بينهم ليست سوي ما تقتضيه الرحم الواحدة من السلم والأمان، ثم دعاهم إلى إقرار العدل والحرية فيما بينهم، ليتمكن كل إنسان من القيام بواجبه وتقديم ما يستطيع في رقي الحياة وتقدمها، ومن هنا حذر البغي والعدوان، وحذر تسخير نعم الله في التدمير والتخريب، ودعا إلى اتخاذ القوة سبيلاً إلى السلم الذي ينسج من خيوطه رداء السكينة التي تملأ القلوب أمنًا واطمئنانًا، وتسير في دفته القوى العاملة الكادحة، تدفعها محبة الخير العام والرحمة الشاملة، ثم وقف بتلك القوة على حدود السلم يردع بها أرباب الشر، وعناصر الطغيان.

﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الآية ٦٠ من سورة الأنفال)

ولهذا كانت الحرب في الإسلام .

الدواء الناجع:

وقد أرادها الإسلام دواءًناجعًا مفيدًا، فدعا أهله ومعتنقيه، المعتصمين بحبله، المؤمنين بإرادته، ليكونوا جميعًا جندًا من جنود الله في حفظ الأمن والسلام:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الآية ٢٥ من سورة الحديد)

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (الآية ١٩٣ من سورة البقرة)

عالج الإسلام الأمن والسلام بإعداد القوة، ودعا إلى الإيمان بالغاية التي لأجلها يجب أن تستعمل تلك القوة، وهي الحصول على رضا الله بحفظ كيان الإنسانية على أساس من الحكمة والنظام الذي رسم الله وأراد

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ (الآية ٧٦ من سورة النساء)

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الآية ٧٤ من سورة النساء)

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الآية ١١١ من سورة التوبة)

ولقد لفتنا الأنظار في الموضوع السابق إلى شيء من عناية القرآن بهذا العلاج في قوته المادية: عدتها وعددها، وفي تنظيم العمل بها تنظيمًا يكفل نجاحها والحصول على هدفها وهو نصر الحق وخذلان الباطل.

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الآية ٧، ٨ من سورة الأنفال)

التخذيل:

وإذا كان عنصر القوة المادية، وعنصر التنظيم الحربي، لا بد منهما في الحصول على النصر والظفر وعلاج الأمن والسلام، وكان تدبيرهما بما يعرف من أحدث الآلات وأقواها، ومن أحدث النظم التي يمليها جو المعركة ومسالكها يرجع شأنه إلى القيادة الحربية والرياسة الحاكمة، فإن وراء هذين العنصرين عنصرًا ثالثًا، هو أساس النصر بهذين العنصرين، أرشد إليه القرآن ومنحه من العناية والأهمية ما لم يمنحه لعنصر سواه، ذلك أنه عنصر يعلق بالنفوس والاتجاهات، والنفوس نزاعة متفاوتة، والاتجاهات مختلفة متعاكسة، وهو فوق ذلك ليس خاصًا بالجيش العامل المحارب وإنما هو عنصر يعمل عمله في الأمة كلها، جيشها: قواته ووحداته، أو فيها، قوة العزيمة، أو شيوع الهزيمة، مهما كانت القوة، ومهما كان التنظيم. ومن هنا كان على الأمة ـ بمن فيها من المرشدين والأخلاقيين، وبجميع ما تملك من قوى التوجيه، وأجهزة الإرشاد ـ عبء المسئولية عن

هذا العنصر الذي لا يجدي في تحققه سوي الإخلاص النقي، والتجرد من ذات النفس، وقوة الثقة بالفضائل الإنسانية، ووسائل القربى إلى الله.

وعلى الهيئة الحاكمة تذليل قوى الإرشاد والتوجيه، وإزالة ما يعترض المخلصين كثيراً في طريق الإرشاد والتوجيه من مظهر الخداع التي تنكس الفضائل في النفوس، وتفسد عليها تصورها لما ينبغي أن تتحلى به وتنشأ عليه.

ذلكم العنصر هو عنصر التطهير من التخذيل وتثبيط الهمم، وإثارة الفتن.

التخذيل وليد النفاق:

ولا نكاد نعرف في تاريخ المعامع الحربية ـ بين الحق والباطل ـ عنصراً ينزل بجلال الحق، وإن عظمت قوته المادية، ويرتفع بزبد الباطل، وإن وهنت مادته، أقوى ولا أشد من عنصر الفتنة والتخذيل، يتمكن من الصفوف فيفرقها، ويتصل بالإخلاص فيفسده، وبالعزائم فيزلزلها، ويلقي بظله الكثيف أمام البواسل فتضرب بهم السبل. فالفتنة والتخذيل نضح القلوب المريضة، والنفوس الحائرة، والإيمان المزعزع الضعيف. وهذه الانحلال هي عناصر التكوين لخلق النفاق، والنفاق جرثومة الانتكاس في كل نهضة، والفساد في كل صلاح، والتعويق في كل تقدم، والهزيمة في كل حرب. ومن هنا حارب القرآن النفاق حربًا لا هوادة فيها، ووضع المنافقين في أسوأ وضع:

﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴾ (الآية ١٤٥ من سورة النساء)

﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً** ﴾ (الآيتان ١٤٢، ١٤٣ من سورة النساء).

سورة التوبة:

نعى عليهم في دنياهم وأخراهم بما لم ينع بمثله على الكافرين، وجمع لهم من خلال السوء ما لم نر مثله في عباد الأصنام والأوثان، ولا نكاد نجد سورة من سور المرحلة التي

فيها نبت النفاق وشب على ساق، إلا عرضت للمنافقين، وفضحت من نياتهم، وكشفت عن سوءاتهم حتى جاءت سورة التوبة، وهي آخر ما نزل فيهم، فكانت المنكلة، والحافزة، والمبعثرة، والمدممة. وقد ورد عن بن عباس ـ وقد ذكرت له سورة التوبة ـ أنه قال: هي الفاضحة، ما زالت تنزل فيهم، وتنال منهم، حتى ظننا أنها لا تبقي أحدًا إلا ذكرته: ومنهم، ومنهم، ومنهم، ومنهم. ويشير بهذا ابن عباس إلى الأسلوب الذي أبرزت به السورة أصنافهم، وألوان فتنتهم.

وإذا كان ما أنزله الله في عنصري القوة والتنظيم لا يعدو بضع آيات، فإن ما أنزله في شأن النفاق وما ينبثق منه من صور التخذيل وألوان الفتنة التي تفسد على الناس حياتهم، وتقف دون النصر والظفر، وخاصة في أوقات الغزو والجهاد، لأكثر من أن يحصى، وهو بكثرته أوضح برهان على أن عنصر التخذيل في الأمة الناهضة أشد فتكًا من أقوى العدد وأحدث النظم، وعلى أن طهارة الأمة من هذا العنصر الخبيث ـ الذي يعمل في الأمة من نفسها، وينبت فيها ـ كفيلة بالنصر، مهما قل عدد المجاهدين وضعفت قوتها المادية.

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الآية ٢٤٩ من سورة البقرة)

وما أصيب المؤمنين بما أصيبوا في أحد وحنين إلا عن طريق التخذيل والفتنة

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (الآية ٢٥ من سورة التوبة)

لهذا عظمت عناية القرآن بالكشف عن كثير من صور التخذيل وألوان الفتن التي كان يبثها المنافقون في صفوف المؤمنين والمجاهدين، لتكون مثلاً حية بارزة، وصوراً ناطقة لهؤلاء المرضى الذين لا يفتئون ينفثون سمومهم في جسم الأمة الواحدة ذات الهدف السامي.

ألوان من التخذيل يكشفها القرآن:

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (الآيتان ٥٥، ٥٦ من سورة التوبة)

هذه خاصة المخذلين. تعمل عملها في قلوبهم، وترشد إليهم آثار أقوالهم وأفعالهم، وتحدد مواقفهم من المؤمنين المخلصين، يضعها القرآن على جباههم، ويلفت بها الأنظار إليهم.

والناس لا يعرفون في تاريخ التصادم بين الحق والباطل - وهو فيما بينهم قديم بقدم الشهوات والأهواء وتنازع الرغبات - عنصراً يستر من الحق جلاله وإن عظمت مادته، ويصنع للباطل زبده وإن وهنت قوته، أقوي ولا أشد من عنصر الفتنة والتخذيل، يتصل بالصفوف فيمزقها، وبالقلوب فيفسدها، وبالعزائم فيضعفها، ويلقي بظله الكثيف أمام المؤمنين المخلصين، فيعوقهم في التقدم والظفر.

عبرة الماضي:

ومن هنا عظمت عناية القرآن - وهو يقص علينا معامع القتال بين الحق الذي يدعو إليه أولياؤه، والباطل الذي يحتضنه ويكافح عنه أعداؤه - بالكشف عن كثير من ألوان التخذيل وصوره، التي كان يدبرها القوم ويبثونها في صفوف المؤمنين عامة، والمجاهدين خاصة. عني القرآن بالكشف عنها ليكون للمؤمنين منها، ولمن يأتي بعدهم من الأبناء والأحفاد، الدروس العملية الواقعية في التطهير منها، ومن التأثير بها، ولتكون بعد ذلك مثلاً حية بارزة لمرضى القلوب، فأسدى الأهداف والنيات، الذين لا يفتئون ينفثون سموم فتنهم وتخذيلهم في جسم الأمة، ذات الهدف السامي.

وقد عرض القرآن كثيراً من الصور في جملة من السور، عرض منها في آل عمران، والنساء، والأنفال، والتوبة، والأحزاب، والقتال، والمنافقون. وإليكم هداية الله في ذلك.

في سورة آل عمران:

ففي سورة آل عمران عرض - وهو يتحدث عن غزوة أحد وما أصاب المسلمين فيها - صورة التخذيل بإشاعة قتل الرسول - عليه الصلاة والسلام - على أمل أنها تفت في عضد الجيش، وكان علاجها تذكير المجاهدين بأن ظاهرة الموت ظاهرة عامة، تدرك الناس جميعًا متى وافتهم الآجال ولا ترتبط بسلم أو قتال، فلا ينبغي أن توهن من عزيمة المجاهدين المؤمنين:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾

(الآيات وما بعدها في سورة آل عمران الآية ١٤٤)

وعرض صورة التخذيل بإشاعة الأسف والندم على موت من خرج للجهاد والغزو، وأرشد إلى أنها شأن الكافرين الذين لا يؤمنون بفضيلة، ولا يعرفون مكانة الاستشهاد في سبيل الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ (الآية ١٥٦ من سورة آل عمران)

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ (الآية ١٦٨ من سورة آل عمران)

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ (الآية ١٥٤ من سورة آل عمران)

وكان علاجها ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾

(الآية ١٥٤ من سورة آل عمران)

﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (الآية ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة آل عمران)

في سورة النساء :

وفي سورة النساء عرض صورة التخذيل بالتثاقل عن تلبية الدعوة إلى الجهاد، وتثبيط الهمم بهذا التثاقل فيمن تري عليه علامة الإقدام والرغبة في الجهاد :

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الآيتان ٧٢، ٧٣ من سورة النساء)

وإن قومًا يربطون أنفسهم في الإقدام والإحجام بما يترقبون من النتائج المادية للجهاد، ويجعلونها كل همهم، دون أن يكون لهم من الحدب النفسي، والإيمان القلبي، ما يدفعهم إلى التضحية في سبيل إيمانهم، ونصرة دينهم، وإنقاذ وطنهم، إن قومًا هذا شأنهم لجديرون بالطرد من صفوف المجاهدين، وجدير بالمجاهدين وبالمؤمنين جميعًا أن يتعرفوهم ويحذروهم، ويرموا بهم خارج محيطهم النقي الطاهر.

وكان علاج هذا النوع من التخذيل ـ الذي يربط المعاهدين بتقدير الغنم المادي ـ لفت الأنظار إلى أن الغنم الروحي، الذي يظلله رضا الله ونعيمه أسمى في ذكريات الدنيا ودرجات الآخرة من هذا الغنم المادي الزائل.

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

وعرض صورة التخذيل بالنكوص عن القتال، بعد أن كان الناكصون يتحدثون به في وقت السلم ويستعجلونه، ولكن حينما يدعون إليه، ويتمثلون مشقته يقولون ـ ضنًا بحياتهم ورهبة من الناس ـ **﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾**

وكان علاجها : **﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾** (الآية ٧٧ ، ٧٨ من سورة النساء)

وعرض صورة التخذيل بإظهار الطاعة والامتثال مع إخفاء العزم على المخالفة حين الأمر بالقتال **﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾** وكان العلاج إعلانهم بأن أمرهم في هذا النفاق لا يخفي على الله، فهو يعلمه ويحفظه عليهم، ويفضحهم به ويحاسبهم عليه **﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾** (الآية ٨١ من سورة النساء)

وعرض صورة التخذيل بإذاعة أخبار الحرب، وهم لا يعرفون شرها من خيرها، ولاضارها من نافعها **﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾**وكان علاجها الإرشاد إلى ترك تلك الأخبار في إذاعتها وكتمانها إلى القائمين عليها، الخبيرين بنتائجها

وآثارها وواقع شأنها ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾(الآية ٨٣ من سورة النساء)

في سورة الأنفال والأحزاب:

خرج الرسول وأصحابه إلى بدر، وهم قليلو العَدد والعُدد، فتهكم بهم المنافقون وقالوا: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ وأخذوا يخذلون المؤمنين عن هذا الطريق، وكان العلاج الذي تم به النصر للمؤمنين قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الآية ٤٩ من سورة الأنفال)

ينصر أولياءه ويجعل لهم الغلبة والعزة كيفما كانوا

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (الآية ٦٥ من سورة الأنفال)

ويخرج الرسول وصحبه لمقابلة الأحزاب التي تكتلت وجاءت لتغزو المدينة ويشتد الأمر على المؤمنين فيأخذ المنافقون والذين في قلوبهم مرض بالتخذيل التهكمي ويقولون:

﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الآية ١٢ من سورة الأحزاب)

ويكون العلاج أن يسجل الله عليهم الخزي والنكال، ويرد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، ويتوعد المنافقين بسوء العاقبة.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ (الآيتان ٦٠، ٦١ من سورة الأحزاب).

في سورتي المنافقون والقتال:

وعرض في سورة «المنافقون» إلى لونين هما من أحط أنواع التخذيل، إن كان التخذيل يتفاوت في الدرجات، يرتبط أحدهما بما يجب على الأمة وقت الشدة من المعونة المالية التي تسد حاجة المهاجرين وأبناء المستشهدين، وحاجة المصابين والمجاهدين، وفيه تقول السورة:

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ (الآية ٧ من سورة المنافقون)

وفي كبتهم والرد عليهم في تخذيلهم تقول :

﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ (الآية ٧ من سورة المنافقون)

ويرتبط اللون الآخر بإشاعة أمنية فاسدة ـ وهي في أوقات المحنة العامة، التي إن تم فيها الأمر للأعداء قوضت شأن المجتمع، وذهبت بكل سلطانه وعزته غاية في السوء، وغاية في فساد الإنسانية عند أصحابها، وفيها تقول السورة :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾

وفي رد نصالهم إلى نحورهم، وعكس تصورهم في الأعز الذي يخرج الأذل، وفي الأذل الذي يخرجها الأعز، تسجل السورة الذلة عليهم، وتجعل العزة للمؤمنين بالله، المجاهدين في سبيله بصدق وإخلاص :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الآية ٨ من سورة المنافقون)

أما سورة القتال : «سورة محمد» فإنها تضع على بيوت المخذلين لون الخطر، ليحذر ويتقي. تضع «الشارة الحمراء» وتقول :

﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ (الآية ٢٠ من سورة محمد «القتال»)

فتقول :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾

(الآيتان ٢٩، ٣٠ من سورة محمد «القتال»).

رجاء إلى الله :

وبعد : فهذا النوع من الدراسة الموضوعية للقرآن الكريم، أبعث به في مرحلة الكفاح الإسلامي العربي إلى شعوبنا المخلصة لدينها وعروبتها، جملة من صورة التخذيل أرشد إليها الوحي الإلهي، وحذرنا الله إياها، راجيًا منه سبحانه أن يلهمنا السداد في التعرف على أشباهها، التي يحوكها ويثيرها في مجتمعنا مرضى القلوب الذين يسارعون في الأعداء، وإيقاظًا للفتنة، وتفريقًا للكلمة، وإضعافًا للروح، والتماسًا لمصلحتهم الذاتية وإن ضاعت البلاد، وهلك العباد، والله من ورائهم محيط .

موالاة الأعداء

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (الآية آخر سورة المجادلة)

العصبية تطغى على الجماعات :

درج الناس في أوضاعهم البشرية على اتخاذ العصبية الجنسية أو الإقليمية الأساس الأول في تكوين الجماعات، واتخذوا لهم من نظم الحياة والسلوك ما أملت عليهم الشهوات والأهواء، في تصور سعادتهم الجنسية أو الإقليمية، وفيما يحقق لهم تلك السعادة الضيقة المحدودة.

والعصبية ـ جنسية أو إقليمية ـ وليدة نزعات خاصة، لا تعرف غير الجنس أو الإقليم، ولا تمت في أكثر أحوالها إلى القلب، ولا إلى الصالح العام، وبها يذوي الضمير العالمي، وينكمش الروح الإنساني، وينسى الرحم العام، الذي يقضي بالتعاون العام، والسلام العام، ويقضي بالحدب الشديد على المصالح العامة، ثم تجعل من أفراد الإنسان أو جماعاته حيوانات غابية مفترسة، يفتك قويها بضعيفها، ويأكل كبيرها صغيرها.

وليس من ريب في أن حكمة الحكيم، الرءوف الرحيم، تأبى أن يخلق الإنسان ويسويه ويعدله بالعقل والقلب والإرادة، ويفضله على كثير من خلقه، ويسخر له كل ما في كونه ويجعله بذلك خليفة في أرضه، يظهر رحمته وجوده، وفضله وكرمه، وقدرته وحكمته، وعدله وميزانه، ثم مع ذلك كله يتركه على هذا الوضع الذي تجذبه إليه الشهوات والإثم، فيأكل بعضه بعضًا.

الإسلام ينحي العصبية :

وقد كان من رحمته في ذلك أن بعث إليه برسالاته، وأنزل عليه كتبه، تهديه إلى التي

هي أقوم في الحياة، وتشق له طريق سعادته. تهديه إلى ما يجب أن يتخذه أساسًا لمجتمعه، وسبيلاً لتنظيم حياته على الوجه الذي يحقق الحكمة الإلهية في خلقه.

ولذلك نحى في هدايته عصبية الجنس والإقليم وغيرها من المبتدعات البشرية عن مكانة الأساس الأول للجماعة الإنسانية الفاضلة، وسما بها عن أن يكون اجتماعها وترابطها راجعين إلى اعتبارات تقصر بطبيعتها عن تحقيق الحكمة السامية من هذا الوجود البديع المنسق، وكثيراً ما تدفع إلى التفرق والخصام، وتولد العداوة والبغضاء، فتفصم عرى الإنسانية المكرمة، وتقضي على روح التعاون والتراحم، وتطمس معالم السعادة والهناءة، وتجمع على العالم ألوانًا من الشرور والمفاسد، يكابد بها أصنافًا من الآلام والمتاعب التي تقض عليه مضاجع الأمن والاستقرار.

سما باجتماع الإنسانية وترابطها عن هذه الاعتبارات، وجعل الأساس في ارتباط الجماعة، الذي يساير الحكمة في الخلق والتكوين، الاعتصام بمبدأ الخير العام، والرحمة الواسعة، والعدل المطلق.

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الآية ١٠١ من سورة آل عمران)

وبذلك تكون الإنسانية مهما اختلفت أصنافها، وتباعدت أقاليمها، وتباينت ألوانها وألسنتها، تدور في اتجاهاتها وأعمالها في جو المبدأ الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، ولا يعتريه نقص ولا أفول، فتسري إليها وحدته، فينفخ فيها من روحه، فتنشط في رفعة شأنها والقيام بواجبها: تعمر ولا تخرب، وتصلح ولا تفسد، وتعدل ولا تظلم، وبذلك تسمو الحياة، ويسعد الناس، ويرضي الله

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الآية ١٣ من سورة الحجرات).

الأخوة الدينية هي الأساس:

هكذا أرشدت هداية السماء إلى الأساس الأول لترابط الإنسانية الفاضلة، وفي سبيل ذلك طلب القرآن التضحية بالنفس والمال والولد:

﴿ قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (الآية ٢٤ من سورة التوبة)

وجعل الأخوة عنوانًا لهذا الترابط، وحذر من الاختلاف والتفرق، وبذلك تتحقق لهم شخصية بارزة، لها هيبتها ومكانتها، ولها سلطانها وآثارها.

صيانة الشخصية:

وصونًا لهذه الشخصية أن تخدش، أو تتعرض للضعف والانحلال، وحرص القرآن الكريم في هدايته على التحذير الشديد مما يضعفها أو يفسدها. وكان من أبرز ما حذره في هذا الشأن موالاة الأعداء الذين لا يؤمنون بتلك الشخصية، ولا يؤمنون بأساسها، وقد جاء ذلك التحذير في جملة من السور بأساليب مختلفة، ومعان متعددة، ففي سورة آل عمران:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الآية ١١٨ من سورة آل عمران)

وفي سورة المائدة: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الآية ٥١ من سورة المائدة)

وفي سورة التوبة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ﴾ (الآية ٢٣ من سورة التوبة)

وفي سورة الممتحنة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ (أول سورة الممتحنة)

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الآية ٢ من سورة الممتحنة)

وتشير آية المائدة إلى أن ممن ينتسبون إلى الإسلام، ويلبسون ثوبه، فريقًا تغلب على

إيمانه مصالحه الشخصية، فيلقي نفسه بين أحضانهم، ويسارع - التماسًا لما يؤمل ويرجو من النفع الخاص - إلى موالاتهم والاندماج معهم، والدخول في دائرتهم، وأن هذا الفريق بسلوكه المعوج عرض نفسه لردة تخدش شخصية الجماعة التي ينتسب إليها ويزعم لنفسه أنه منها.

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ (الآية ٥٢ من سورة المائدة)

ثم تقطع عليهم أملهم في الحصول على ما يرجون، أو اتقاء ما يخافون.

﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾

مجرد المخالفة في الدين ليس سبب العداء:

هذه حملة القرآن وغضبته على الذين يخرجون من محيط الجماعة الإسلامية، ويمدون يدهم إلى الأعداء، موالين أو محالفين، راجين أو خائفين.

إن الإسلام لا يجعل مجرد المخالفة في الدين سببًا يحمل على التقاطع بالتفريق وسلب الحريات والإخراج من الديار، وإنما يجعل العداء، الذي يدفع المخالفين إلى الإيذاء والفتنة، سببًا مانعًا من موالاتهم والامتزاج بهم، والاعتماد عليهم، وقد قرر ذلك في آيتين واضحتين:

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الآيتان ٨، ٩ من سورة الممتحنة).

من صور الموالاة:

هذا. ولموالاة الأعداء صور وألوان: المعونة الفكرية بالرأي والتدبير موالاة للأعداء. والمعونة المادية بالبذل والإنفاق موالاة للأعداء. وترويج سلعهم بالبيع والشراء، تنمية لأموالهم، وتثبيتًا لأقدامهم في بلاد المؤمنين، موالاة للأعداء. والاغترار بزخرف

ثقافتهم، وأن فيها ماء الحياة، وتوجيه النشء إليها، وغرس عظمتها في نفسه، موالاة للأعداء. والعمل معهم في المصانع والمعسكرات التي يهيئونها للنيل من المؤمنين موالاة للأعداء. وإفشاء الأسرار، والترتيبات التي يعدها المؤمنون لمكافحتهم، وزعزعة سلطانهم موالاة للأعداء. وهو فوق هذا «جاسوسية» على الوطن وأهله، يهدر ـ في حكم الشرع والدين ـ دم القائمين به، ويجعلهم في حكم المرتدين.

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الآية ٢١٧ من سورة البقرة)

والتثاقل عن رد عدوانهم ومدين المعونة الفعلية في كبح جماحهم موالاة للأعداء:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ (الآية ٣٨ من سورة التوبة)

أيها المؤمنون:

﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

المنشأة الفاسقة

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الآية ١٠٧ من سورة التوبة) .

سورة التوبة :

هذه أولى آيات أربع من سورة التوبة، وسورة التوبة نزلت في أواخر السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي استنفر فيها النبي ﷺ جميع المسلمين، وأعلمهم بأنه يريد الخروج إلى تبوك، غزواً للروم، وصداً لهجومهم الذي اعتزموه على الجزيرة، بعد أن صارت بالفتح في حوزة الإيمان وسلطان التوحيد، وهي السنة التي بعث في شهرها الأخير ابن عمه عليًا ليبلغ عنه الناس ـ وهم في موسم الحج ـ أوائل سورة التوبة.

وقد كان للسورة بحكم هذين الحادثين، وما يتصل بهما من شئون الجماعة الإسلامية، هدفان أصليان : أحدهما : بيان القانون الأساسي الذي يسير عليه المسلمون في علاقتهم بمشركي العرب، وبالمنحرفين من أهل الكتاب، الذين كانوا يمالئون المشركين، ويسيرون أمامهم أو خلفهم في معاداة الرسول وصحبه. وقد عرضت السورة لهذا الهدف بشقيه في آياتها الأولى. وجاء فيها بالنسبة للمشركين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ (الآية ٢٨ من سورة التوبة)

وجاء فيها بالنسبة للمنحرفين من أهل الكتاب :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (الآية ٢٩ من سورة التوبة)

أما الهدف الثاني فهو مرتبط بحالة المنافقين وما قابلوا به الدعوة إلى تبوك، وهو كشف نواياهم وما انطوت عليه قلوبهم من أفانين الحقد، وأساليب الفتن، وألوان الكيد والتخذيل. وقد سبحت السورة في هذا الجانب سبحًا طويلاً، إلى أن حذرته ﷺ أن يشركهم معه في قتال:

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ (الآية ٨٣ من سورة التوبة)

وربطتهم بعضهم مع بعض برباط السوء والمنكر، وعزلتهم بهذا الرباط عن جماعة المسلمين المؤمنين:

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (الآية ٦٧ من سورة التوبة)

ولم تقف السورة في كشف فتنهم عند تخلفهم عن الجهاد بالأعذار المختلفة، والأراجيف الضارة والدعاوى الباطلة

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ (الآية ٩٤ من سورة التوبة)

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (الآية ٩٦ من سورة التوبة)

لم تقف السورة في كشف فتنهم عند هذا وأشباهه، بل امتدت فكشفت مكنون سرهم في «منشأة» أقاموها وألبسوها ثوب الخير والصلاح للمسلمين، وهي ليست في واقع أمرها إلا وسيلة لاستجابة المفسدين في تحقيق أغراضهم السيئة بالنسبة للنبي وأصحابه. وقد زاد فداحة هذه المنشأة أنها كانت بوحي عدو لدود للنبي ﷺ، وكثيراً ما بذل جهوده في التأليب عليه، وممالأة أعدائه ومحاربيه. وضاعف من شأن هذه الفداحة أنه أوحي إليهم بإقامتها لتكون موئلاً وملجأ لمن يستنصر بهم، ويستقدمهم من جيش الروم لقتال المؤمنين المخلصين.

أبو عامر الفاسق :

كان بالمدينة قبل مقدم الرسول إليها رجل عربي خزرجي، يقال له «أبو عامر الراهب» وكان قد تنصر في الجاهلية، وصار إلى رهبنة وعبادة، وكان كثير التحدث للناس بأوصاف النبي التي عرفها من التوراة والإنجيل، ولكن لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وصارت فيها للإسلام كلمة عالية، انتكس «أبو عامر» هذا، وانسلخ من آيات الله، والتهم قلبه الحقد على النبي ﷺ، وبارزه بالعداوة والبغضاء. وأتخذ سبيله إلى المشركين بمكة لاستثارتهم إلى حربه، حتى تم له ما أراد بغزوة «أحد» التي أصاب المسلمين فيها ما أصابهم. وكان من أمر هذا الفاسق في تلك الغزوة أن حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، فجرح وجهه، وكسرت رباعيته، وشج رأسه. وكان من أمره أيضًا أنه تقدم في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، وأخذ يستميلهم إلى جانب المشركين عن طريق المخادعة والعدة. وقد كشف لهم إيمانهم الصادق دخيلته وهدفه، فعرفوا نيته ومقصده، وبادروه بتلك الكلمة الحازمة التي ردته على أعقابه. لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق، يا عدو الله. فرجع وهو يقول: لقد أصاب قومي شر بعدي « وانقلب هائمًا على وجهه في القبائل يغريهم بقتال النبي وأصحابه، وأخيرًا ذهب إلى ملك الروم يستنصره على النبي فوعده ومناه، وما وعده الشيطان إلا غرورًا. وكتب إلى جماعة من قومه المنافقين يعدهم هو أيضًا ويمنيهم، يعدهم أنه سيقدم عليهم بجيش جرار يقاتل به المسلمين، ويردهم عما هم فيه، وأشار عليهم أن يتخذوا معقلاً يكون مرصدًا له ولجيش حلفائه الذي وعد به.

مسجد الضرار:

وهنا فكر قومه المنافقون، ودلهم شيطانهم على فكرة «إنشاء مسجد» في مكان قريب من مسجد قباء، فبنوه بقصدهم السيئ وشيدوه وأحكموه، ثم جاءوا إلى الرسول وسألوه أن يصلي فيه ويباركه لهم، وقالوا إنا بنيناه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية **«وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون»** برروا إنشاءهم إياه بهذا الانتحال الكاذب، وقصدوا بصلاة الرسول فيه أن تكون سبيلاً لإقبال المسلمين عليهم والاتصال بهم، وبذلك يستطيعون إغراءهم وانتزاعهم من صفوف النبي وأصحابه، وبهم يكثر سوادهم وتقوى شوكتهم، ويعلنون محاربة الرسول حتى يخرجوه من المدينة كما أخرجه قومه من مكة.

ولما عاد الرسول من غزوة تبوك، وهمّ بإجابة ملتمسهم، نزل عليه الوحي بهذه الآيات الأربع، فكشفت أهدافهم السيئة التي قصدوها بإنشاء هذا المسجد، وحذرت من دخوله والقيام فيه «والذين اتخذوا مسجدا ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المومنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل. . . لا تقم فيه أبداً»، ثم تشير الآيات إلى أنه مسجد أنشئ على إرادة السوء بالإسلام، والتنكيل بأهله، وإلى أن الريبة الناشئة عن إحساسهم بالجريمة لا صقة بقلوبهم، لا يزول عنهم خوف افتضاحهم وظهور أمرهم إلا بموتهم وتقطيع قلوبهم، وهكذا شأن المريب، يكاد يقتل نفسه

﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ (الآية ١١٠ من سورة التوبة).

هدم المسجد:

ولم يكد النبي ﷺ يتلقى عن الوحي هذه الآيات حتى دعا جماعة من أصحابه وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وحرقوه. ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى عادوا بعد أن وصلوا بتحريقه وهدمه إلى الأرض، وتفرق عنه منشئوه المنافقون شذر مذر.

إن الإسلام يقرر في «الكوة» - يفتحها الرجل في جدار بيته، فيطلع منها على أهل جاره ويكشف بها أسرارهم ومتاعهم - إنه يجب سدها، فما بالنا بها لو أدخل صاحبها أجنبياً منزله، ومكنه منها فاطلع على الجيران وعرف شئونهم، ومحتويات منزلهم!!؟ ثم ما بالنا إذا كانت تلك النافذة لا تكشف أسرار منزل واحد، ولا مرافق أسرة واحدة، وإنما تكشف أسرار أمة ضاربة في شرق البلاد وغربها، ولها مجدها وقوميتها، وتمكن منها أعداءها الذين يعملون على استعمارها، وسلب سلطانها، وتثبيت أقدامهم فيها!!؟ ليس من شك في أن خطب هذه النافذة جلل، وشرها مستطير، وأنها جديرة بتكتل القوى المخلصة على إزالتها وإحكام سدها، حتى لا تفوح منها على الأمة الكريمة رائحة الاستعمار الخبيث، غلول الأمم الحرة الشريفة. وجديرة بمطاردة صاحب هذا المنزل، الذي سخر نفسه وقوميته لأعداءالدين والأمة، واتخذ من بلده - بسلطانه الفاسد، وشرهه القذر - جسراً يعبر عليه الأعداء إلى أمته، فيستذلونها ويستنزفون مواردها، ويقبضون عنها وسائل الخير والتقدم.

إن الاستعمار صنو الشرك وتوأمه، كلاهما كفر بسنن الله ونظامه، وكلاهما طغيان وفساد في الأرض، وقضاء على الفطرة في استقرار العيش والحياة، وكلاهما هدم لحكمة

الله في إرسال الرسل وإنزال الكتب، وهي إقامة القسط بين الناس. وما كان إرسال الرسل إلا محوا للشرك والاستعمار، وتأمين الناس على بلادهم وأوطانهم، وتمكينهم من حرياتهم وحقوقهم:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾

(الآية ٢٥ من سورة الحديد)

وإذا كان الشرك قد استدعى من الحكيم أن يطلب من عباده نبذ عهود المشركين، ويطهروا أرض الإيمان منهم، فإن نبذ عهود الاستعمار والقضاء على وسائله، وتطهير المسلمين من أعوانه، لا تقل أهمية في نظر الإسلام عن مكافحة الشرك ووسائله.

المنشآت الاستعمارية الفاسقة:

وهذا حكم كل منشأة فاسقة، ولو كانت مسجداً تقام فيه الصلوات الخمس، ويذكر فيه اسم الله. وإذن فما بالنا به لو كانت المنشأة غير مسجد؟!

إن المنشآت الفاسقة خطة رسمها المستعمرون الغاشمون، كيداً للإسلام والعروبة، واستعانوا على تنفيذها في بلاد الإسلام والعروبة بمرضى القلوب الذين يسارعون فيهم، ويستنصرونهم على إخوانهم وأوطانهم وإن حاربوا بها الله ورسوله والمؤمنين.

وإذا كانت المنشأة الفاسقة ألبسها أهلها في صدر الإسلام ثوب المسجدية وعبادة الله وطاعته، فإنها في عصرنا الحاضر يلبسها أهلها أثواب أغراض متعددة: يلبسونها ثوب الثقافة والعلم، ثوب الحضارة والفن، ثوب العلاج والرحمة، ثوب الاقتصاد والمال، وأخيراً ثوب «الأحلاف العسكرية» باسم وقاية البلاد من شر العدوان والفوضى.

نسل أبي عامر:

وليس الذي يشغل الإسلام والعروبة اليوم في جميع أقطارها، ويفتح عليهما فوهات الاستعمار، ويعرضهما لخطره من هذه المنشآت الفاسقة، التي يلبسها مدبروها خداعًا وتمويها ثوب الخير وتبادل المنافع، إلا امتداداً لحياة أبي عامر الفاسق، واستمراراً في خطته، وليس مدبروها والقائمون عليها إلا بقية من نسله. وليست منشآتهم إلا كمنشآته، أسس بنيانها على شفا جرف هار، فانهار به «والله لا يهدي القوم الظالمين».

عناصر النصر

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(آخر سورة آل عمران)

* * *

نعمة الله على مصر:

أكمل الله لمصر - قبلة العروبة والإسلام - استقلالها، وأتمه عليها، وطهرت أرضها من قوى الغاصب المستعمر، وصارت أرضها لها، وشئونها كلها لها، لا تعمل فيها ولا تشق غبارها إلا أيد مصرية وأقدام مصرية، وصار العقل المصري والإدارة المصرية هما وحدهما مصدر التفكير والتنظيم والعمل، وصار المصريون هم وحدهم العاملين المستغلين لخيرات بلادهم، صار سلطانها لها ومنها، وقوانينها لها ومنها، وجيشها لها ومنها، وارتباطها الدولي لا تساق إليه ولا ترغم عليه، وإنما ينبع من ضميرها الحي الممتلئ بالإحساس العربي الإسلامي الكبير.

هكذا أكمل الله لمصر استقلالها، وشعرت أن العبء الثقيل الذي احتملته ثلاثة أرباع قرن وكاد يسلبها - لولا فضل الله - عز الحياة، قد خف عن كاهلها، وأصبح تملك أمرها في نفسها لا شأن فيه لأحد سواها.

شعرت أن الباطل مهما طال أمده، واشتدت وطأته، وقويت عناصره فهو أمام الحق والعزم القوي، والنية الصادقة والجهاد الموفق، والإيمان بالله، خائر العزيمة مفكك الأوصال، مهدم البنيان، وأن مصيره - بمقتضى سنة الله ووعده - إلى التلاشي والزوال.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾

(الآية ١٧ من سورة الرعد)

شعرت أن الباطل لا تستقر أقدامه وتستر ظلمته نور الحق إلا حين يغفل الحق وينام أهله، فيأخذهم زبد الباطل، ويستسلمون للضعف، ويسكنون إلى الذلة والهوان، وتعز عليهم نفوسهم وأموالهم، ويخافون الموت والردى. وهكذا تموت الأمم وتطوى صفحاتها من الوجود.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الآية ١٣٧ من سورة آل عمران).

شعرت أن الحق في نهضته وانتصاره لابد له من قوة تعلنه وتجليه وتزيل عنه غشاوة الباطل، ثم من قوة تركزه وتحميه، وأن هاتين القوتين لاتستكملان أسباب الحياة، ولاتأخذان حظهما من الوجود فتثمران ثمرتهما اليانعة إلا إذا تنبه وعي الأمة واستيقظ شعورها، وتوحدت صفوفها وقويت إرادتها وهانت عليها النفوس والأموال، فضحت بهما في سبيل حقها والاحتفاظ بكيانها والاعتصام بكرامتها.

شعرت مصر بكل هذه المعاني، ولكون عوامل النصر عند الله لا تقف عند حد هذا الشعور، فإن هذا الشعور وحده لا يعدو مكان اللبنة الأولى في البناء الشامخ، لا يعدو أن يكون طريقًا لميدان فسيح الأرجاء، يجب أن تتكاثف فيه قوى التشييد للحصون الواقية من الفساد والاضطراب، من البغي والعدوان في جميع صورهما ومن جميع مصادرهما، وبذلك تسلم الأمة وتسلم نهضتها من عدويها : عدوها النابت فيها ومنها، وعدوها الوافد عليها الطامع فيها.

وإذا كان جهاد العدو المغير على الأمة شأنًا لابد منه في سلامتها والاحتفاظ بها أمة بين الأمم، فإن العدو النابت فيها ـ المخذل لها، الموزع الآمال والأماني ـ أكبر عدة يعتمد عليها العدو الوافد إليها. ومن هنا نجد الإسلام ـ وهو الحريص على عزة أهله، وعلى التمكين لهم في دينهم وبلادهم، وهو الذي يأبى علو كلمة المناوئين، وأن يكون لهم سلطان على المؤمنين ـ نجده يعني العناية كلها بتوجيه المؤمنين توجيهًا عمليًا نحو الجهاد في سبيل الله، ويعدهم الوعد الصادق بمعية الله لهم وتوفيقه إياهم

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آخر سورة العنكبوت).

الجهاد المطلوب :

والجهاد في سبيل الله كلمة عامة تنتظم أول ما تنتظم جهاد النفس والهوى، جهاد المروق والإلحاد، جهاد الترف والانغماس في الفسوق والمعاصي، جهاد الفقر والجهل والمرض، لا أقول مرض الأجسام فقط، ولكن مرض القلوب الذي هو أشد فتكًا بالأمم من مرض الأجساد، مرض القلوب الذي يلقي بأصحابه في أحضان الأعداء للتوسل بهم إلى الأطماع الكاذبة والمظاهر المادية الفانية في الجاه والتحكم والسلطان، وهؤلاء هم الذين عناهم الله بقوله :

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ (سورة المائدة الآية ٥٢).

هؤلاء هم الذين يعلن الله في واضح آياته كفرهم وانقطاع صلتهم بالمؤمنين الصادقين

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (آخر سورة المجادلة).

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة المائدة الآية ٥١).

وإذا كان الجهاد في سبيل الله ينتظم هذه النواحي فهو ينتظم معها جهاد التفرق والتنازع

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٠٣).

﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (سورة الأنفال الآية ٤٦).

عناصر النصر عند الله «الصبر» :

والصبر أول القوى التي يعد بها المجاهدون في سبيل الله أنفسهم للحصول على أقصى درجات الخير والفلاح، وقد جمع الله تلك القوى في آية قصيرة، يجدر بكل مسلم أن يجعلها شعاره، وأن يكتبها في صفحة قلبه بحروف بارزة من النور :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(آخر سورة آل عمران)

عقد لؤلؤي نظمه الله من حبات أربع ، هن عناصر النصر عند الله : الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله ، ثم أمر عباده وناداهم بوصف الإيمان الذي يشعرهم بتبعاته ، والذي يرفعهم إلى مكانة العزة والكرامة ، ناداهم أن يتقلدوه في أعناقهم درعًا قوية ، تقيهم فشل الحياة وخسارتها ، وتضمن لهم عزها وفلاحها .

١ ـ والصبر قوة إيجابية بها يكافح المؤمن عوامل الضعف والهلع ، وبها يواصل السير بخطوات واسعة قوية في إزالة ما يعترضه من عقبات ، وليس الصبر مجرد الاستكانة أمام المكاره والخضوع لقهرها وغلبتها ، ليس هو ترقب زوالها بمحض القضاء والقدر ، ألا إن القضاء والقدر ليرجعان في حقيقتهما التي يريدها الله إلى الأخذ بما قضى به وحكم ، وبما قدر من وسائل النصر ، وقد قضى وحكم في آياته القرآنية وسننه الاجتماعية ومظاهر الكون أن المسببات طريقها الجد في الأسباب ، وأنه قدر للنتائج مقدماتها ، وللمسببات أسبابها ، وللغايات وسائلها ، وإذن يكون الإيمان بالقضاء والقدر ، كما يفهم الناس ، والركون إلى الاستكانة باسم القضاء والقدر دون عمل ، كفرًا بالقضاء والقدر ، فليتنبه المسلمون إلى هذا ، وليفهموا سنة الله التي بنى عليها عز الحياة وذلها ، وعلوها وهبوطها . هذا هو الصبر .

٢ ـ العنصر الثاني « المصابرة » :

أما المصابرة فهي مغالبة الشدائد التي تقع بينك وبين غيرك إلى أن تخر صريعة في صفوف القتال ، في كفاح الظلم والمنكر ، في كفاح البغي والعدوان ، في تقويم عوج النفوس وانحرافها ، في فك أغلال الجمود ودفع الأفكار التحللية الضارة ، في هذا ونحوه تكون المصابرة .

٣ ـ العنصر الثالث « المرابطة » :

والرباط هو الوقوف بإيمان وحزم أمام منافذ الشر والعمل على إحكام سدها ، فالعتاد الحربي في الثغور ومداخل الأعداء ، وتدريب أبناء الأمة على الجهاد وعلى الرمي ، وكبح

جماح النفوس عن محرمات الأعراض والأموال، والتسلح بالعلم النافع والخلق الفاضل والمال المشروع، كل ذلك مرابطة، ومرابطة في سبيل الله.

وإذا رابط الإنسان للشر من جميع نواحيه أمن الوقوع فيه، وتفرغ للسير في طريق الكمال.

فالصبر والمصابرة علاج للشدائد النازلة، والمرابطة وقاية وتحصن من الشدائد المترقبة، وبذلك يسلم حاضر الحياة ومستقبلها وتسير قدمًا إلى الأمام.

٤ ـ العنصر الرابع «التقوى»:

وإذا كان الله قد أمر المؤمنين بالعلاج والوقاية على هذا النحو، فإنه قد أمرهم بملاك الأمر كله الذي يجعل للعلاج أثره وللوقاية هدفها، أمرهم بتقواه والمحافظة على شرائعه وشعائره، وأمرهم بصون النفوس عما يدنسها ويؤثمها عنده ويغضبه عليها. وإذا تم للمؤمنين هذا العقد بحباته الأربع وتقلدوه عظمت صلتهم بالله وأوامره، وأيدهم وأدخلهم في حصن من رعايته، وكانت كلمتهم العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

أيها المؤمنون: هذه عنصار النصر عند الله، فلنتدارسها ولنتفهمها ولنملأ بها قلوبنا ولنعاهد الله وأنفسنا عليها في السرّاء والضراء، في الشدة والرخاء ولنذكر دائما قول الله:

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (سورة العصر).

واستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم.

مَثلٌ مِنَ البُطولة في صَدر الإسْلام

الغدر والنفاق يتحالفان :

كان بنو النضير حلفاء الخزرج ، وكانوا يجاورون المدينة التي هاجر إليها الرسول ﷺ ، وكان بينهم وبين المسلمين تعاهد على الأمان وحرية التدين ، ولكنهم لم يلبثوا أن دفعهم الحنق من انتصارات المسلمين على كفار قريش إلى أن نكثوا أيمانهم ونقضوا عهدهم مع المسلمين ، وتجلى ذلك في تآمرهم على قتل الرسول بإلقاء صخرة عليه وهو جالس فيما بينهم وفي ديارهم ، فألهمه الله ما بيتوا من الغدر والخيانة ، فاحتاط عليه الصلاة والسلام لنفسه ولمن معه من أصحابه ، ورأي أن الحزم ـ وهو يكون دولة ، وينشر دينًا ، ويدعو إلى رسالة ـ يقضي بسرعة الضرب على أيدي من يعرفهم بالغدر والخيانة ، ويعرفهم بالشر والإفساد . رأى ذلك حرصًا منه على الأمن والسلام ، وصمم على تطهير المدينة منهم حتى يأمن جانب فتنتهم ، فطلب خروجهم منها ، وأوعز المنافقون إليهم بالبقاء وعصيان الأمر وقالوا لهم لا تخرجوا وسنقاتل معكم ، وندافع عنكم ، ولا نطيع فيكم أحدًا أبدًا .

قاعدة يهودية في خيبر :

استمعوا إلى رأي المنافقين ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، وامتنعوا عن الخروج ، فحاصرهم جيش الإيمان في حصونهم التي ظنوا أنها مانعتهم ، وتخلي عنهم المنافقون وتم جلاؤهم عن المدينة ، ونزل فريق منهم بخيبر ، وكان على رأس هذا الفريق رئيس يدير أمره هو : «أبو رافع سلام بن أبي حقيق» ، وكان (أبو رافع) هذا ذا ثروة طائلة ، فأخذ يستميل بها القلوب ، ويستهدي بها النفوس ، ويؤلب بها على الرسول وصحبه حتى يضطرب في المدينة حبل الأمن عليهم ، وتشتعل نار العداوة والبغضاء بين سكانها ، وتنفصم عرى وحدتهم ، ويفسد عهد تآخيهم ، وعندئذ تتهيأ له الفرص لما يريد من شر وإفساد .

قيادة واعية وتصرف حازم :

أدرك الرسول ﷺ كل ذلك بنافذ فكرته وبعد سياسته، فندب له خمسة من أبطال المؤمنين، وكلهم من الخزرج حلفاء بني النضير، وأمَّر عليهم منهم رجلاً جلداً، وشابًا قويًا، تذوب نفسه في إيمانه وهو «عبد الله بن عتيك» وأوصاهم الرسول بألا يقتلوا امرأة ولا وليداً، وخرجوا إلى خيبر، تدفعهم قوة الإيمان إلى التضحية بالنفس في سبيل الله. وفي مكمن قريب من حصن (أبي رافع) المليء بالعدد والعدد، المحوط بأسوار من الحديد والنار، جلس الخمسة يتشاورون في الأمر، كيف ينفذون إليه ؟ وماذا هم صانعون في مناعة الحصن، وفي بطولة حُرَّاسه، وخبرتهم بالحروب، وفي أن الحراس يلهون مع صاحبهم طول الليل ولا يتركونه إلا في الهزيع الأخير منه ؟.

بطولة خارقة :

وبينما هم يتحدثون بمثل هذه المثبطات ليرسموا طريق الخلاص، وطريق القيام بالواجب الذي حُمِّلُوه من الرسول وعاهدوا أنفسهم عليه إذ صاح فيهم البطل المؤمن رئيسهم «عبدالله بن عتيك» : دعكم من ذلكم كله، ولتكن في حراسته جميع شياطين الأرض، فإنا قاتلوه إن شاء الله، لقد آمنا بالله ورسوله، وآمنا بأن (أبا رافع) عدو الله ورسوله، وقد اشترى الله منَّا النفوس والأموال بأن لنا الجنة، فاجلسوا مكانكم وخذوا حذركم، وانطلق (عبدالله) إلى الحصن، انطلق إلى فريسته، مجرداً من كل شيء إلا سيفه وإيمانه، انطلق كالصاعقة يرسلها رب السماء القوي القاهر، فلا تعرف غير مهمتها التي أرسلت إليها، واستطاع (عبد الله) أن ينفذ إلى داخل الحصن رغم الأسوار والحراس، واتخذ له مكمنًا قريبًا من الباب الأول، وظل فيه حتى نام الحراس وهدأت الأنفاس، فنهض من مكمنه، وأخذ المفاتيح من جانب البوَّاب، وأخذ يفتح بها الأبواب بابًا بابًا، وكلما فتح بابًا أغلقه من الداخل حتى انتهى إلى أبي رافع، وهنا تذكر وصية الرسول : «لا تقتلوا وليداً ولاامرأة»، وخاف أن يكون مع أبي رافع أو زوجه أحد، فنادى : يا أبا رافع، وعلى صوت الإجابة أهوى بسيفه فلم يغن شيئًا، فعرفت امرأته صاحب الصوت، فقالت بصوت مضطرب هذا صوت ابن عتيك، فقال لها أبو رافع : ثكلتك أمُّك، وأين منَّا الآن ابن عتيك ؟ فعاد عبد الله للنداء مرة ثانية، مغيِّراً صوته، قائلاً : ما هذا الصوت الذي نسمعه

يا أبا رافع - موهمًا أنه أحد حراسه - فصاح به وقال لأمك الويل ، أين أنت ورجل في البيت يضربني بالسيف ؟ وعلى الصوت ضرب عبدالله أخرى، وكانت كالأولى ، فلم تغن شيئًا ، ولبث عبدالله قليلاً، ثم أقبل عليه بنفسه ثالثة كالمغيث، فوجده مستلقيًا على ظهره، فوضع السيف في بطنه ولم ينزعه حتى سمع صوت العظام وهي تتحطم وكانت القاضية ، وخرج عبد الله ونور إيمانه يهديه إلى الباب الخارجي .

يد تأسو المؤمنين وإن كانت حربًا على الكافرين:

وبينما هو يقفز الدرج إذ انزلقت رجليه فانكسرت فعصبها بعمامته حتى وصل إلى أصحابه وهم جلوس في مكانهم، فزف إليهم البشرى، ثم انتهوا إلى رسول الله وحدثوه، فأشرق وجهه، وطابت نفسه، وقال لعبد الله : ابسط رجلك، فمسحها عليه الصلاة والسلام بيده الكريمة. قال عبد الله : فكأنها والله لم تصب طول حياتها بسوء، ولَهِيَ والله أقوى رجليَّ. وبذلك انكدرت شمس أبي رافع، وطوى سجل حياته، ولم ينفعه ماله الذي جمع وعدد، ولم يغن عنه ماله وما كسب وكفى الله رسوله والمؤمنين شره، وهكذا كانت البطولة التي غرسها الإيمان في قلوب المؤمنين، ثم نمى فيهم شجرتها، وأنضج ثمرتها تعليم القرآن وإرشاده، وآياته الحكيمة .

الإيمان يصنع البطولات الخارقة في كل عصر:

وإذا كان الإيمان هو الذي غرس شجرة البطولة في قلوب المؤمنين الأولين، والقرآن هو الذي نماها وأنضج ثمرتها، فالإيمان نفحة إلهية يهديها الله لمن شاء من عباده في كل عصر وفي كل مكان، ولا تضن به الرحمة الإلهية الكريمة على النفوس المستعدة، والقلوب الحية التي تدرك سر الإيمان، وتدرك عزة المؤمنين، سواء في ذلك السابقون واللاحقون، والأولون والآخرون. والقرآن الذي كان لآياته الأثر الواضح في تطهير نفوس الأولين من الجبن والخور وضعف العزيمة، وتحليتها بالشجاعة والإقدام والتضحية في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، هو القرآن الذي نتلوه اليوم ونتدبره، وقوته وأثره في نفوس الآخرين هي قوته وأثره في نفوس الأولين، متى خلص الإيمان، وقوى الاستعداد، وتجردت القلوب من الأهواء والمطامع ، وطهرت من الغايات والشهوات .

الإصلاح العالمي هدف القرآن:

جاء القرآن وهدفه إصلاح العالم، والإرشاد إلى الصراط المستقيم، صراط الأمن والسلام، صراط تركيز الحق والعدالة، صراط العمل المنتج، صراط العزة الرفيعة والحياة الطيبة. وربط كل ذلك بروح الشجاعة في الحق، وروح التضحية في سبيل الإصلاح والتطهير، وفي هذا يقول:

﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ** ﴾ (الآية ١١١ من سورة التوبة).

ويقول: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ (الآية ٧٨ من سورة النساء).

ويقول: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ** ﴾ (الآية ٧٦ من سورة النساء).

فلنتمسك بالقرآن مرشداً وهادياً:

ولعل ما هيأ الله للأمة المصرية اليوم على أيدي المؤمنين من أبنائها، الذين عاهدوا الله على تخليصها من المفاسد، وتطهيرها من المظالم، والسير بها إلى صراطه المستقيم، صراط العزة والمجد. لعل هذا من أوضح المثل على أن الإيمان له في اللاحقين أثره في السابقين. وعلى أن القرآن هو معلم الإنسانية وهاديها ومرشدها في كل عصر وأمة.

﴿ **إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء).

فلنتخذه المرشد الذي لا يضل، والقائد الذي لا ينحرف، ولنرتقب بعد ذلك ما وعد الله المؤمنين من نصر وعزة.

﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾

(الآية ١٧٠ من سورة الأعراف)

إعداد المؤمنين لمكافحة البلاء

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٨٦).

الأخذ بالأسباب من عناصر النصر :

آية من سورة آل عمران، وسورة آل عمران قص الله فيها على المؤمنين نعمته عليهم بالانتصار في غزوة بدر

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٢٣).

نصركم وأنتم قليلو العدد والعُدد، تخافون أن يتخطفكم عدوكم: مكنكم منهم وآواكم وأيدكم، وقذف الرعب في قلوبهم، وقص عليهم فيها ابتلاءه إياهم بالهزيمة في غزوة أحد، تلك الهزيمة التي أصابتهم حينما خالفوا أمر الرسول، وفارقوا أماكنهم التي أمروا بالثبات فيها، وحينما اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم وخطفت أبصارهم زخارف الدنيا، ورغبة الحصول على الغنيمة، وحينما ظنوا أن الله الذي نصرهم في بدر وهم قلة لايخذلهم في أحد وهم كثرة، لأنهم عباده الذين أسلموا، والذين يجاهدون في سبيله، حينما ظنوا هذا فاتهم أن النصر لا يكون منحة تنزل من السماء لمجرد أنهم مسلمون، وأنهم مجاهدون في سبيل الله، بل لابد له في حكم الله، وبمقتضى سننه التي لا تتبدل، من الوقوف عند الأسباب التي وضعها سبيلاً للانتصار، من اتخاذ العدة والثبات في المواقف التي أمروا بالثبات فيها، لابد له من إخلاص القلب، والوجهة نحو الغاية السامية التي لأجلها يحاربون. وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٥٢).

ويقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٥٥).

اعتبارات وقرت في النفوس يجب أن تزول:

قص الله علينا في السورة نعمة الانتصار في بدر، وبلاء الهزيمة في أحد، وقص علينا بعد ذلك إرجاف المنافقين والأعداء فيها بموت الرسول حتى تزلزلت أعصاب كثير من المؤمنين وفي ذلك يقول:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٤٤).

ابتلاء عظيم أصيب به المؤمنون في فجر حياتهم، ضاعت فيه أموالهم، وذهبت أرواحهم، وتزلزت أعصابهم، وأخذ يتسرب الضعف إلى نفوس كثير منهم حتى جرى فيما بينهم: كيف نصاب بالهزيمة، وتضيع أموالنا، وتذهب نفوسنا، ويلحقنا ذلك الأذى الكثير من أعداء الله ونحن الذين أسلموا، وآمنوا، وأجابوا الدعوة؟ ولا ريب أن هذه المعاني لو تركت تجري في نفوسهم، ومكن لها من الاستقرار في قلوبهم حتى بنوا عليها حياتهم، واتخذوها سبيلاً لهم لأودت بحياتهم، وقضت على دعوتهم، وسلبت سلطانهم، وصيرتهم إلى ذلة وشقاء. ولقد سلكت هذه الاعتبارات إلى قلوب المتأخرين من المسلمين سبيلها، ووجدوا من يساعدهم على اعتقاد أن الله لا ينصر الكافرين وهم أعداؤه على المسلمين وهم عباده: يصلون له ويصومون ويرتلون القرآن ويسبحون، ويقفون في المحاريب ويدعون، اعتمدوا على هذا وأهملوا جانب الأخذ بالأسباب: أهملوا القوة المادية، وأهملوا القوة المعنوية وحاق بهم الضعف من كل جانب فأطمع فيهم الأعداء، وتداعى إليهم الخصوم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، ولم يكن ذلك من قلة فيهم بل هم كثير، ولكنهم غثاء كغثاء السيل، تملكهم الضعف والوهن فأصيبوا بما أصيبوا.

سورة كريمة تقدم تربية إلهية حكيمة:

علم الله كل ذلك، وهو يحب لعباده المؤمنين دوام العزة والسلطان، فأنزل عليهم هذه الآية الكريمة تربية إلهية حكيمة، تربية ممن خلق الحياة وسواها على نظم ثابتة، وسنن دائمة، وأسباب لابد منها في المسببات تجري على الناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم. والفوز في الحياة لمن عرفها وسلك سبيلها، والخسران في الحياة لمن جهلها وأعرض عنها، تربية ممن خلق النفوس ومنحها خصائصها، وأحاط علمًا باتجاهاتها وأمراضها وعلاجها:

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾

(سورة آل عمران الآية ١٨٦)

فهو يرشدهم إلى الابتلاء في الأموال والأنفس شأن من شئون الله، وسنة من سننه، يصيب بها المؤمن والكافر، لا يمنعه عن المؤمن إيمانه، ولا يلحقه بالكافر كفره، ويكون للمؤمن تمحيصًا وتصفية حتى يخرج كالذهب الإبريز صافيًا نقيًا، ويكون للكافر تنكيلاً وإيلامًا، ولا يخرج منه إلا كالفحم الأسود المحترق

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٤١).

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٤٢).

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٧٩).

ويرشدهم إلى أن الشأن - كما جرت بذلك سنته أيضًا - أن يسمع أرباب الحق - الذين نصبوا أنفسهم للدعوة إليه، والعمل على نشره - من أعدائهم كثيرًا مما يؤذي النفوس، ويحرج الصدور: يثيرون فيما بينهم الشكوك والشبه فيما يتصل بدينهم، ويشيعون الأباطيل والمفتريات فيما يتصل بجماعتهم، وينفثون سموم الفتن والتفريق بألوان الإغراء والتخذيل.

كل ذلك يقوم به نصراء الباطل في وجه نصراء الحق كي يحرجوا صدورهم، ويمزقوا وحدتهم، ويفرقوا كلمتهم. شأن عرف في قديم الزمن وحديثه، ولا يزال نصراء الحق يسمونه من دعاة الباطل في كل مكان وبكل لسان، ثم يرشدهم إلى علاج قوي ودواء ناجع، إذا هم أحسنوا استعماله وصدقوا في تناوله وقاهم شر ذلك البلاء، أو عصمهم من التأثر بهذا الأذى، ذلك العلاج هو ما تضمنه قوله تعالى في الآية الكريمة:

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

أي لا تظنوا أن مجرد إسلامكم ونسبتكم إلى الله ودينه تقيكم شر الابتلاء وشر الإيذاء، وإنما الذي يقيكم ويعصمكم هو الصبر والتقوى، والصبر هو تلقي المكروه بالاحتمال، والعزم على دفعه والاحتيال في مقاومته. أما التقوى فهي التحصن من الأخطاء والسبل المعوجة، وذلك إنما يكون بالتزام السنن التي وضعها الله في خلقه، والأحكام التي شرعها، والآداب التي أرشد إليها، وبهذا كان الصبر والتقوى من الشئون التي يجب أن تعقد عليها العزائم، وتمتلئ بها النفوس، وكان النصر بوعد الله حليف الصابرين المتقين.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

تربية إلهية كريمة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة الآيات ١٥٣ - ١٥٧).

* * *

المؤمنون بالله مطالبون بحكم إيمانهم في كل وقت ومكان بحفظ عقائدهم من الشكوك والشبه، والشهوات والأهواء. مطالبون ببذل الجهود الصادقة القوية الموفقة في الدعوة إلى الخير، وإقرار المعروف وإزالة المنكر والبغي، مطالبون بالمحافظة على حدود الله وإقامة القسط وميزان النصفة والعدل بين الناس، وأخيرا مطالبون ببذل الأموال والأنفس في سبيل الأمن والاستقرار في رد كيد الأعداء والقضاء على الفتن، في إعلاء كلمة الحق والحرية، في الدين الذي به يؤمنون، والوطن الذي منه يرزقون:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (سورة البقرة الآية ١٩٣).

﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ (سورة البقرة الآية ٢٤٦).

تبعات الإيمان:

هذه تبعات الإيمان الحق، ناطها الله بالمؤمنين، وكانت آثاره التي تدل عليه وترشد إلى الصدق فيه:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الآية ١٥ من سورة الحجرات).

والمؤمنون - مع تحملهم أعباء الإيمان والقيام بتبعاته - كسائر الناس عرضة بمقتضى سنة الله في خلقه لكثير من المحن الكونية: الموت والمرض، والفقر والضعف.

وإذا ترك الإنسان أمام هذه التكاليف وتلك المحن، وما يغلب عليه من تنازع الرغبات في نفسه وما أودع فيه من إيثار الراحة أو اللذة العاجلة، ولم يشد أزره بإرشاد إلهي يؤمن به ويثق بعدته. ناء كاهله بعبء الحياة، وخارت قواه، وذاب احتماله، ولا يكون بعد ذلك هو الإنسان الذي اختير للخلافة في الأرض، يعمرها وينميها ويكون مظهراً لرحمة الله فيها، لا يكون هو الإنسان الذي حمل الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

العلاج:

ومن هنا شد الله أزر عباده المؤمنين، وقوى فيهم روح الإيمان والعمل، وأرشدهم في هذه الآيات الكريمات أن يستعينوا في القيام بتكاليفهم الدينية، وواجباتهم الوطنية، ومحنهم الكونية، بأمرين لهما خطرهما في قوتهم واحتمالهم، والوصول إلى أهداف المؤمنين الصادقين، بهما يستعذبون مشاق التكاليف، وبهما تهون لديهم المصائب، وتسهل أمامهم الصعاب، ولا يقفون دون خير أو فضيلة: الصبر والصلاة.

الصبر والصلاة:

وقد صرح القرآن الكريم بما يجده المؤمنون الصادقون في نفوسهم من أثر الصبر والصلاة في تقويمها وتطهيرها من بواعث اليأس والهلع عند المصيبة، ومن بواعث الطغيان والبطر عند النعمة، فهو يقول في الصبر:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (الآيات ٩ - ١١ من سورة هود).

ويقول في الصلاة:

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ (الآيات ١٩ - ٢٢ من سورة المعارج).

فالصبر والصلاة ـ كما يريدهما الله ـ عدتا المؤمن في هذه الحياة، بهما تحقق الرغائب، وتدفع النوائب، وبهما يكون المؤمن ملحوظًا من الله بعين الرعاية والتوفيق، ويكون منه سبحانه في معية النصرة والمعونة، وحسب المؤمن في سعادته أن يكون الله معه.

فليكن المؤمن مع الله ليكون الله معه، ولنذكر جميعًا في هذا المقام قول النبي لصاحبه وهو معه في الغار:

﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (الآية ٤٠ من سورة التوبة).

وقول الله لنبيه: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الآية ٤٨ من سورة الطور).

رد الأراجيف:

زود الله المؤمنين بعلاج الصبر والصلاة، وأمدهم بهذا العلاج لتحمل تبعات الإيمان.

وأبرزها الجهاد في سبيل الله، والدفاع عن شرف الإيمان وكرامته، وسلطانه وعزته، ولكن الأعداء وصنائعهم المنافقين لا يفتئون يضعون أشواك التخذيل، وألغام الفتن في صفوف المؤمنين، يتوسلون بها لإضعاف روحهم، وزلزلة قواهم «لو أطاعونا ما قتلوا»«لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا».

وأمام هذا التخذيل، وطرد الإثارة السيئة من النفوس، يعنى القرآن بالرد على أراجيف الأعداء، وبتقرير الحقيقة في نفوس المؤمنين:

﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (الآيتان ١٦٨، ١٦٩ من سورة آل عمران).

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾

(الآية ١٥٤ من سورة البقرة)

حياة الشهداء:

إن القتل الذي يصيب المؤمنين وهم يجاهدون في سبيل الله ليس موتًا كما يرجف الأعداء وإنما هو حياة، حياة ليست من حياة الموتى التي يفهمها الناس، وإنما هي حياة لايعرف قدرها ولا مكانتها إلا الله الذي وهبها للشهداء من عباده:

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

(الآية ١٥٧ من سورة آل عمران)

فسدوا إذن أيها المؤمنون آذانكم، ولا تجعلوا لشيء من هذه الأراجيف سبيلاً إلى قلوبكم تفوزوا بإحدى الحسنيين: إما النصر والغنيمة وإما الصبر والشهادة، وأنتم في الحالين العباد المكرمون. وثقوا بأن الإيمان ليس كلمة تجرى على اللسان، وإنما هو روح تملك على الإنسان قلبه ونفسه وإحساسه، روح تدفع بصاحبها إلى التضحية واحتمال البلاء بعزم قوي في الكفاح وطرد اليأس والغرور، روح به يبدد الخوف، وتزول ظلمة الجوع، وبه يكون نقص الأموال والأنفس والثمرات سبيلاً للثبات والدفاع عن الكرامات:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (أول سورة العنكبوت).

وتلك سنة الله مع أوليائه، اختبروا بها، وصبروا عليها، حتى أتاهم نصر الله والفتح، واستقرت بهم كلمة الله، فاطمأنت قلوبهم، وزالت مخاوفهم، وكان لهم عند الله الجزاء الأوفى «أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون».

أيها المسلمون:

هذه تربية الله لكم، وهدايته إياكم، أبعثها إليكم وأنتم الشعب المؤمن الكريم، وهي درس من كتاب الله، يرسم لكم طريق الخير والنجاة، ويقيكم - إذا تمثلتموه، وتركزت في قلوبكم أهدافه ومراميه - شر البغي والعدوان، ويمكن لكم من وسائل الأمن والاطمئنان، والعزة والسلطان.

النّصرُ حليفُ التعاونِ

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (سورة العصر).

* * *

وعد الله بالنصر مشروط:

في القرآن الكريم آيات كثيرة تحمل عدة الله لعباده المؤمنين بالنصر والتأييد، وعلو الكلمة ونفوذ السلطان، ولكنها لم تجعل هذه العدة منحة تنزل عليهم من السماء لمجرد أن يقولوا ربنا الله، أو لمجرد أنهم ينتسبون إلى دين أو كتاب أو رسول، وإنما جعلها لمن عرف واجب الإيمان في حق نفسه، وحق جماعته، ثم أخلص في القيام بهذا الواجب، فزكى نفسه، وعاون جماعته بما رسم الله في كتابه، وعندئذ يكون قد أوفى بعهده لله، فيوفي الله له بعهده

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (الآية ٤٠ من سورة البقرة). ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (الآية ١١١ من سورة التوبة).

وعلى هذا الأساس جاءت الآيات تعد المؤمنين بالنصر والتأييد:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ④⓪ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾

(الآيتان ٤٠، ٤١ من سورة الحج)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (الآية ٧ من سورة القتال).

وقد نفى القرآن الكريم أن يكون النصر والإنعام بمجرد التمني، أو لمجرد الانتماء إلى دين أو كتاب:

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤ من سورة النساء).

واجب الإيمان:

وقد ربط الله واجب الإيمان في النفس والجماعة بأسس من واقع الإنسان، وهو: أن للإنسان شخصيتين: شخصية انفرادية، بها يخاطب، وبها يكلف، وبها يتصرف في شئونه الخاصة في دائرة أحكام الله وإرشاده، وبها يسأل عن نفسه أين وضعها؟ وعن عمله ماذا قصد به؟ وعن ماله فيم أنفقه؟ وعن عمره فيم أفناه؟. وشخصية اجتماعية، بها يكون لبنة في بناء مجتمعه. وإذا ما أدى الإنسان واجب الإيمان باعتبار شخصيته الانفرادية، فقويت عقيدته في الله، وزكت نفسه بالخلق الفاضل، وأعدت لتكون عنصرًا إيجابيًا في الشخصية الاجتماعية، ساهم مع إخوانه بدافع العقيدة والخلق في بناء المجتمع، ثم تشييده وتقويته والإعلاء من كلمته وسلطانه. وبهذه المساهمة يتبادل مع إخوانه الحقوق والواجبات، وبهذا التبادل تكمل الشخصيتان في المؤمن، ويرمي بهما متعاونين عن قوس واحدة هي قوس الإيمان، ومحبة الخير العام، إلى هدف واحد هو صلاح الفرد والجماعة، وهذا هو واجب الإيمان الذي يحقق وعد الله لعباده المؤمنين بالنصر والتأييد:

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ٤٧ من سورة الروم).

سورة العصر:

وفي سورة العصر التي توجنا بها هذا الحديث إيحاء واضح بهاتين الشخصيتين وبواجب الإيمان في كل منهما، وكذلك فيها إيحاء واضح بأن كما لهما في الإنسان أساس الخير المطلق والفلاح الشامل، وبأنهما وقاية تحفظه من التردي في هاوية الخسران والانتكاس، فبالإيمان والعمل الصالح تتركز الشخصية الانفرادية، ثم تقوى وتثمر، وبالتواصي بالحق والصبر في سبيل الخير تتركز الشخصية الاجتماعية، ثم تقوى وتثمر.

ومهما تنوعت جهات التواصي بالحق والصبر، فإن مردها إلى كلمة واحدة هي - كما تقضي بها الفِطَرُ، وكما سجلها القرآن الكريم ودعا إليها، وجعلها أصلاً في حياة المجتمع -

«التعاون على البر والتقوى»، فالتعاون على البر هو توجيه القوى المتكاتفة إلى فعل الخير والإرشاد إليه، والتعاون على التقوى هو توجيه القوى إلى دفع المضار، وسد منافذ الشر، وإلى الرباط دونها. ومتى تركزت الحياة على قوة من التعاون في جلب الخير فعلاً ودعوة، ودفع الشر كذلك فعلاً ودعوة شعر المجتمع بمسئولية مشتركة، واندفع بها في طريق التقدم حتى يحظى بالسيادة والعزة والسلطان في جميع نواحي الحياة، وكان له من نفسه بتلك المسئولية التي وعاها الوازع القوي والضمير الحي اليقظ، يحرسهما الرأي العام الناضج، ويلهمهما الهدف الأسمى، فيقتحم الصعاب، وتذلل له العقبات.

للتعاون شعبتان:

ولهذا التعاون ـ المحروس بالضمير الحي، والرأي العام ـ شعبتان: شعبة مادية، وسبيلها مدُّ يد المعونة في حاجة من أصيبوا في الدفاع عن عزة الجماعة وشرفها، وفي إيواء المهاجرين الذين أخرجهم الظلم والبغي من ديارهم وأموالهم، وفي إغاثة الملهوف وتفريج كربة المكروب، وتأمين الخائف، وأخيراً في إقامة المصالح التي تحفظ على الأمة كيانهاالاقتصادي والصناعي والعسكري.

وقد كانت هذه الشعبة المادية أول مظهر من مظاهر الوجود الدولي أو الجماعي للمسلمين، حينما هاجر الرسول وصحبه من مكة إلى المدينة، وخرجوا من ديارهم وأموالهم من غير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، فقابلهم إخوانهم الأنصار وبذلوا لهم ذات أيديهم: أمدوهم، وأنزلوهم في بيوتهم، وأعانوهم على تجارتهم وكسبهم، وقد سجل الله تلك الأريحية للأنصار في كتابه الكريم:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الآية ٩ من سورة الحشر).

أما الشعبة الثانية للتعاون فهي شعبة التعاون المعنوي، ونعني به التعاون بالتعليم والإرشاد والتوجيه، والمشورة الصادقة المخلصة. ولا تكمل هذه الشعبة وتثمر ثمراتها الطيبة، وتبسط ظلها الظليل على الجماعة إلا بقوتين: قوة موجهة مرشدة، وأخرى مستمعة طيبة. وفي القوة الموجهة يقول الله في كتابه:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(الآية ٧١ من سورة التوبة)

ويقول ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الآية ١٠٤ من سورة آل عمران).

وما المعروف إلا ماتعارفت عليه الفطر، واستقر خيره في الضمير الإنساني، وهيمن عليه الرأي العام، وما المنكر إلا ما أنكرته الفطر، ورماه الضمير الحي الإنساني، وتقزز منه الرأي العام الناضج.

وفي القوة المستمعة الملبية يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (الآيات ٦٦ - ٦٨ من سورة النساء).

ويقول: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (الآيتان ١٧، ١٨ من سورة الزمر).

الإسلام والتعاون:

على هذا التعاون بشعبتيه بنى الإسلام شرائعه وأحكامه، وبه نهض المسلمون الأولون نهضتهم التي عم سلطانها المشرق والمغرب، وبه قام سلطانهم في وجه الهوى والشهوة، وفي وجه التفريق والانحلال، وفي وجه الظلم والطغيان، وفي وجه المفاسد كلها، إلى أن تسرب الوهن إلى القلوب فضعف الشعور بالمسئولية المشتركة، ونبتت بين المسلمين نابتة السوء، فأفسدت علينا تصورنا للحياة، وأخذناها انفرادية انحلالية، وانساب كل منا في طريقه الخاص. واقتحمت حرمات مقدسة، وتوارت الفضيلة خلف حجب الرذيلة، ووجدت الرذيلة أنصارًا يفسحون لها الطريق باسم الرأي وحريته، وما كانت الرذيلة في عهد ما برأي، وما كان الدفاع عنها في عهد ما بحرية، ولكن هكذا قدر، وإلى هذا صرنا!!

عظة من الله:

ألا إن فضل الله ورحمته بعباده المؤمنين لأوسع وأجل من أن يتركنا وما دفعتنا إليه الأهواء والفتن، فبعث إلينا من عظاته وعبره ما أيقظ ضمائرنا، ونبه وعينا، وأحيا حسّنا، ولفتنا إلى الرجوع إليه، والتعلق بعزته وجلاله، فناجيناه، وكبرنا جميعًا، ودعوناه جميعًا، وأخذنا من وراء ذلك كله نلم شملنا جميعًا، ونجمع كلمتنا، ونوحد صفوفنا، ونقف كتلة واحدة بالنفس والمال، نرد كيد الكائدين، وندفع في نحور العادين. وسنصل ـ إن شاء الله ما دمنا كذلك ـ بالمحنة إلى المنحة، وبالضراء إلى السراء، وبالابتلاء إلى النعماء، وتلك سنة الله ولن تجد لسنته تبديلاً.

القردة الخاسئون

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة البقرة).

من هم القردة الخاسئون؟:

القردة: نوع من الحيوان، معروف بالشره والنزوات الوضيعة، والحركات العابثة المفسدة.

والخاسئون: هم القوم الذين تتقزز الإنسانية من رؤيتهم على موائدها، وتأبى أن يدخلوا في محيطها الفاضل، يحسبون منها ويعدون فيها، فتطردهم وتبعثرهم أفرادًا في الأرض، تعلوهم المهانة وتسمهم الذلة والصغار.

والقردة الخاسئون: تعبير إلهي، وصف به العليم بما يغلب على النفوس المريضة من غرائز الشر، وفاسد البيئات والنيات ـ أخلاق قوم من اليهود، خرجوا بفسوقهم عن أوامر ربهم من مكانة الإنسانية، ورتعوا في مراتع البهيمية القذرة. وقد تحدث القرآن الكريم عنهم ورسم للأجيال الحاضرة والمقبلة شيئًا من ظواهر انتكاسهم وعبثهم بنعم الله وآياته، مما يضيء للإنسانية في جميع مراحلها طريق الحذر الدائم، والوعي القوي الملتهب من عبثهم وإفسادهم.

أمثلة من خستهم ولؤم طباعهم:

١ - يذلهم فرعون وملؤه، يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويكلفهم المشاق والعنت والإذلال والمهانة، فينجيهم ربهم من فرعون وكيده:

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

(الآية ٥٠ من سورة البقرة)

فتخطف أبصارهم الزائغة أصنامٌ لقوم عليها يعكفون فيقولون لنبيهم: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة. فيقول لهم. إنكم قوم تجهلون.

٢- يريد لهم نبيهم العزة والكرامة، ويأمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، فيأبون إلا الذلة والصغار، ويقولون كلمة الجبان المضطرب المخذول: إن فيها قومًا جبارين

﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(الآية ٢٤ من سورة المائدة)

٣- يظلل عليهم - وهم في صحراء التأديب - الغمام، وينزل عليهم المن والسلوى، فيرفضون النعمة، وتعاودهم ذكرى التسخير والإذلال التي ألفوها ونشأوا فيها، فينتحلون المبررات الكاذبة ويقولون لنبيهم: لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. فيقول لهم نبيهم: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟.

٤- يخرج نبيهم إلى ميقات ربه ليتسلم ألواح التوراة وفيها لهم هدى ونور، فيتخذون من حليهم عجلاً جسدًا له خوار. يعبدونه من دون الله، ويقولون: لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

(الآية ١٤٨ من سورة الأعراف)

٥- يختار منهم نبيهم سبعين رجلاً ليعتذروا عن عبادة العجل، فينقلبون على وجوههم ويرتدون على أدبارهم - وهم من البررة الأتقياء!! - ويقولون لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

٦-يريد الله أن يهذب أرواحهم ويزكي نفوسهم، ويوقظ الشعور الديني في قلوبهم، ويفك عنهم أغلال المادة التي سلبتهم خلال الكرامة والشرف، فيخصص لهم يوم السبت للعبادة والتقديس والاتصال بالله. ويحظر عليهم فيه جمع الحطام الزائل، وحسبهم ستة أيام من الأسبوع يعملون فيها لدنياهم كما يريدون، فيحتالون لجمع المال ويتخذون حظيرة ويحبسون الأسماك فيها يوم السبت ليأخذوها يوم الأحد، وبهذا الصنيع الماكر والاحتيال المكشوف تحللوا من أمر الله، وفوتوا على أنفسهم حكمة الله التي أراد إنقاذهم بها من تهالكهم على الدنيا وانطماس بصائرهم بها، فمسخهم الله وبدل طباعهم، ومكن من نفوسهم أخلاق القردة طيشًا وشرهًا وإفسادًا، وكانت هذه خاصتهم التي بها يعرفون، وعنوانهم إلى يوم يبعثون

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

(الآية ١٦٦ من سورة الأعراف)

وبها كانوا مثلاً للأولين وعبرة للآخرين:

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(الآية ٦٦ من سورة البقرة)

وهكذا لا يمنحهم الله نعمة، ولا يفتح لهم بابًا من الخير إلا كفروا بالنعمة وسدوا باب الخير على أنفسهم.

عقاب إلهي صارم:

تركز هذا الخلق في نفوسهم حتى رانت عليها المعاصي، وأخذوا يقتلون الأنبياء بغير حق

﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾

(الآية ٧٠ من سورة المائدة)

ولكن الله الذي خلق الإنسانية وبوأها مكانة التكريم، لا يذر قومًا من خلقه يكفرون بنعمه وينتهكون حرماته ويفسدون في أرضه، حتى يقرر فيهم سنته الماضية، سنة التنكيل التي بها يقوم عوجهم، ويرد كيدهم، ويعظ غيرهم:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الآية ١٦٧ من سورة الأعراف).

سنة قررها الله فيهم وفي أمثالهم ممن يرفضون هديه، ووعد حق شهدت به المثلات الماضية، وسجل القرآن ما أصابهم بمقتضاها، ثم سجل اطرادها بالنسبة إليهم إلى يوم القيامة، وفي ذلك تقول سورة بني إسرائيل:

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

(الآية ٤ من سورة الإسراء)

وأفسدوا في الأرض مرتين، فبعث الله عليهم عبادًا أولي بأس شديد جاسوا خلال ديارهم، وساموهم سوء العذاب، وأذلوهم وشتتوهم، وسلبوا منهم ما هيئ لهم من عز

وسلطان، وهيبة وجلال، ثم عفا عنهم تحت هذه السنة الإلهية النافذة، التي ختمها بخاتم القهر والجبروت:

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (الآية ٨ من سورة الإسراء).

الغدر يتكرر أيام الرسول:

مضت القرون وجاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا. ومع ذلك أكرم نبي الله محمد جوارهم وعاملهم بالحسنى، فأمنهم على دينهم، ومنحهم حرية الكسب والتقلب في البلاد، وأخذ عليهم في ذلك العهد والميثاق فنقضوا العهد، وكفروا بالحسنى وحرفوا الكلم عن مواضعه ومالئوا الأعداء، وتحزبوا معهم إطفاء لنور الله، وخانوا الرسول وهموا بقتله، ودسوا له السم في الطعام، فنبأه الله بنياتهم وعصمه من شرهم، وسلطه عليهم، فذلوا وشردوا بما كسبت أيديهم وبما كانوا يفسقون

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (سورة الأنفال الآيات ٥٥ - ٥٧).

وهكذا فعل بهم رسول الله: كسر شوكتهم وأدبهم، وشرد بهم من خلفهم، ثم خلفه من بعده أصحابه الراشدون، فتعقبوهم وأعملوا سيوف الحق في رقابهم، حتى أخضعوهم لحكم الله، وعاملوهم بالعدل والحسنى، وعاشوا في ظلهم آمنين مطمئنين.

يهود اليوم على سنة أسلافهم:

وظلوا كذلك فيما يرى الناس ويشاهدون، وفي قلوبهم ما فيها من الضغن والحقد، حتى إذا ما تقلبت الأحداث، والتوت السبل، وارتفع زبد الباطل على الحق، وهدأت بواعث الإيمان في القلوب، انكشف مكنون سرهم، وبدت العداوة والبغضاء من أفواههم، وماتخفي صدورهم أكبر. عادوا إلى أخلاقهم - ولقانون التوارث حكمه وسلطانه، ليس في الأموال فحسب، وإنما في الأخلاق والنوايا والاتجاهات - عادوا إلى

أخلاقهم - بها الله يحاربون، وفي أرضه يفسدون، ووجدوا من قوى الشر والفساد ما يغريهم ويقويهم ويركز لهم سلطان البغي والعدوان بين قوى الحق والإيمان، ولكن الله وهو الغيور على عباده وضعهم من حيث لا يشعرون ولا يشعر «سماسرتهم» بين شقي الرحى: بين عوامل التهلكة بقوى الإيمان من جانب، وستقذف بهم إن شاء الله قوى الحق إلى قاع البحر، فتمكن منهم الأسماك التي جمعوها في الحظيرة يوم السبت واتخذوا حبسها طريقًا للتحلل من أوامر الله وأحكامه.

أيها المسلمون: أيها العرب: خصومكم الآن حفدة هؤلاء الخائنين: أخلاقهم من أخلاقهم وكيد من كيد، وإفساد من إفساد، وقد تمتعوا في ظلكم ظل الرحمة والعدالة، كما تمتع أسلافهم في ظل أسلافكم. وقد نضح الآن ما نضح على أسلافهم فاستحقوا منكم أن تؤدبوهم كما أدبهم أسلافكم، وقد ابتلاكم الله بهم ومكنكم منهم حتى إذا ما كاد الأمر يتم وينقلبون في الحافرة، فيستريح العالم من شرهم سمعتم زائفًا يدعو إلى السلم، فاستجبتم لدعوته حينما جنحوا لها، ونزلتم بحكم الإيمان، وشرف الجندية الكريمة على مقتضى العهد والميثاق، فلم تريقوا لهم دمًا، ولم تنتهبوا لهم مالاً، ولم تدبروا لهم كيداً ولا خيانة. واليوم وقد تكرر منهم النكث والبغي، ولم يرقبوا في عهدكم إلا ولا ذمة، وطاولتموهم فأتممتم إليهم عهدهم مع غدرهم المرة بعد الأخرى. أما اليوم وقد كان منهم ما كان، فدونكم ورقابهم، طهروا أرض الله من رجسهم، واذكروا أن بيت المقدس وإقليمه في مستوى بيت الله الحرام وإقليمه، ربط الله قلوبكم به، كما ربطها بالبيت الحرام. فصونوا تراثكم، وأجمعوا أمركم، وكونوا مع الله في وعده الحق: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾

(سورة القتال الآيتان ٧-٨)

كونوا مع الله في وعده الحق، وسنته الماضية فيهم كما مضت في أسلافهم: «وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً»(*).

(*) نشرت هذه الأحاديث «في التعبئة والجهاد» بمناسبة العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.

في الأخـــلاق

الأعمال بالنيات

يقول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الآية : ١٢٨ من سورة التوبة) .

* * *

كان النبي ﷺ حريصًا على قومه، وكان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، وكان من رحمته بهم تعهدهم بالموعظة الحسنة ، وإرشادهم إلى ما يزكي نفوسهم، ويطهر قلوبهم، ويطبعهم على محبة الخير والفضيلة، لأنه خير وفضيلة، وبذلك سمت أغراضهم، وقويت عزائمهم، ونهضت هممهم، وارتبطوا في أعمالهم بمصدر الخير الدائم الذي لا ينقطع مدده، ولا يحجب رفده، فاستقامت لهم الأمور ، وانتظمت بهم الشئون وسارت في طريق الكمال، لاتلتوي بهم مسالك الهوى، ولا تأخذ بهم تيارات الشهوة عما أعده الله لعباده المؤمنين من حياة عزيزة دائمة ، وسعادة أبدية خالدة .

وهكذا كان يرشد الرسول أمته، وهكذا نهضت أمته بالحياة، وكملوا نفوسهم بالإخلاص لله فألقت الدنيا إليهم بمقاليدها، واستقرت لهم الكلمة في أرجائها، وأصبحوا بعد جاهلية آثمة أئمة يهدون بأمر الله .

أساس الأعمال وقبولها عند الله:

ولقد كان من أهم الإرشادات التي تتصل بإصلاح القلوب والنفوس، بل من أهم أنواع العلاج في تقوية العقيدة، وتهذيب النفس والخلق، ما رواه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

حديث عظيم الشأن، جليل القدر، لا من جهةدلالته على فرضية النية في الوضوء أو عدم دلالته، وإنما من جهة ما يبين للناس الأساس الذي تحوز به أعمالهم المشروعة:ـ

وضوءا أو صلاة، زكاة أو حجًا، صومًا أو إرشادًا ـ درجة القبول عند الله، ويبين لهم أن هذا الأساس ليس من الشئون التي تخرج عن طرق الإنسان وقدرته، أو تعزب عن إدراكه وتقديره. يبين لهم أن هذا الأساس ليس هو مجرد الحركات والسكنات، أو الصور والأشكال التي يراها الناس فيخلعون على صاحبها صفات التقوى والورع، غير ناظرين إلى ما تحمل نفسه من البواعث التي تدفعه إلى هذه الأعمال.

يبين لهم أن الشأن في قبول الأعمال أو رفضها عند الله، إنما هو في الروح الذي يحسه الإنسان من نفسه، ويعلمه الرب في عبده حين يتجه إلى العمل وحين يعمل، وعلى قيمة هذا الروح عند الله يكون جزاء العامل على عمله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. ذلكم الروح هو الغرض الذي يبعث الإنسان على العمل، فإن كل عاقل لابد له من غرض يقصد إليه بعمله، وإذا ما خلا من غرض يقصد إليه بعمله كان عابثًا، وكان عمله كجثة هامدة، لاقيمة له ولا خير فيه.

وإذا كان لابد لكل عاقل من غرض يقصد إليه بعمله، فإن ذلك الغرض هو الأساس في قبول الأعمال ورفضها، هو الميزان الذي به تعرف درجة الأعمال عند الله، فإذا ما سما الغرض، ونبل القصد، واتصل بالإرادة الدائمة، والتمس به مرضاة الله كان ذلك سببًا قويًا في تقبل الأعمال، وارتفاع الدرجات، وكان في الوقت نفسه دليلاً واضحًا على قوة إيمان العامل بالله، وشدة مراقبته لمولاه، فيتقي ويحسن، ويكون منه في كنف ومعية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (الآية ١٢٨ من سورة النحل).

وأما إذا سفل الغرض، وانحط المقصد واتصل بإرادة الحصول على شهوة زائلة أو سمعة زائفة، أو حيلة خادعة، فإن ذلك يكون سببًا قويًا في رفض الأعمال، وردها على أصحابها، وكان في الوقت نفسه دليلاً واضحًا على خلو القلب من روح الإيمان الصادق، وعلى عدم تمثله عظمة الله ومراقبته، وكان العامل في تلك الحالة باذلاً بعمله دينه لدنياه، هازئًا بعبادة مولاه، وكان جديرًا ألا ينظر الله إليه ولا يزكيه ولا يكلمه.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾
(الآية ١٦ من سورة البقرة)

الأعمال مرتبطة بمقاصدها:

فمن ابتغى تقديس الله بصلاته وصومه، وابتغى مرضاته بالبذل والجهاد في سبيله، وابتغى بإرشاد الناس إصلاحهم وتوجيههم إلى الخير، وابتغى بحكم الناس والهيمنة عليهم إقامة العدل، وإيصال الحقوق إلى أربابها، وإنصاف المظلوم من الظالم، والرحمة بالضعفاء، وقعت أعماله عند الله موقع الرضا والقبول، وتولاه برعايته، وسدده في قوله وعمله، ونشر عليه من رحمته، وجعله مورد خير دائم لله ولعباد الله.

﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (الآية ١١٤ من سورة النساء).

﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ** (بستان بمكان مرتفع) **أَصَابَهَا وَابِلٌ** (مطر غزير) **فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ** (ثمارها مثلين) **فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ** (مطر قليل) **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ (الآية ٢٦٥ من سورة البقرة).

أما من صلى أو صام، أو تصدق أو جاهد، أو دعا الناس إلى شيء من ذلك بقصد أن يخلع الناس عليه لباس التقوى والصلاح، أو لباس السخاء والكرم، أو لباس الشجاعة والإقدام، أو لباس الحكم والسلطان، أو لباس العلم والمعرفة، فهذا ونحوه مردود عليه عمله، وصفقته عند الله كاسدة غير نافقة، وخاسرة غير رابحة، لا يعرف صور الخير إلا حيث قدر لنفسه مغنمًا خاصًا، أو لمع له برق لا ينتفع به سواه، ولا يظهر له في أخراه.

مهاجر أم قيس:

هذا هو الأساس في قبول الأعمال ورفضها عند الله، وقد ضرب الرسول ﷺ في تلك العظة القيمة الهجرة من مكة إلى المدينة مثلاً طبق عليه هذا الأساس الذي قرره: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امراة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

مثل من واقع الحياة التي انتظمته ﷺ هو وأصحابه. كانت الهجرة من مكة إلى المدينة في ذلك الوقت ـ وقت أن تألب الكفار على النبي ومن آمن معه ـ من أهم الواجبات الدينية التي أمر الله بها رسوله، كانت واجبة حفظًا للدين بإقامة شعائره ونشر أحكامه والجهاد في

سبيله مع المهاجرين والأنصار، كانت واجبة جمعًا للكلمة وربطًا للقلوب في إعلاء كلمة الحق والدين.

وقد هاجر في سبيل ذلك مع النبي من هاجر، وكان من بين المهاجرين رجل لم يهاجر بنية المهاجرين الصادقين، وإنما هاجر تبعًا لامرأة يقال لها (أم قيس) يريد أن يتزوجها، وشاع بين الناس أمره ووصل إلى الرسول خبره، فاتخذ الرسول من واقعة الحال المعلومة لهم نصيحته الغالية وحكمته البالغة، فقال: «إن من هجرته إلى ما هاجر إليه» فليلتمس منها الجزاء، فليس له عند الله جزاء.

هذا هو الأساس في تقدير الأعمال عند الله، وهذا إرشاد النبي ﷺ لأمته، كي يظفروا بالقبول والرضا عند الله، وكي تنطبع في نفوسهم محبة الخير لمحبة الله إياه.

فإلى مهاجري (أم قيس) في هذا الزمن وما أكثرهم، إلى هؤلاء الذين يتخذون الدين مغنمًا، والدعوة إلى الفضيلة متجرًا، والحكم بين الناس صلفًا وتعسفًا.

إلى هؤلاء الذين يلبسون للناس مسوح التقوى، ويتسترون بصور من الطاعات لا روح فيها ولا حياة، ليتخذوا من صور الخير قنطرة يعبرون عليها إلى الشهوات والأغراض السيئة، نوجه هذا الحديث العظيم «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».

الدين المعاملة

قضية صادقة، وحكمة بالغة، وتحديد دقيق لحقيقة الدين، وأهداف الهداية الربانية. هذه القضية هي: «الدين المعاملة» لو عرفها الناس حق المعرفة لا تخذوها شعاراً لهم، وميزانًا يزنون به أعمالهم، ومقياساً يقيسون به مدى اتصالهم بالدين الصحيح، أو بعدهم عنه. لو عرفوها لجعلوها أساس سعادتهم وسبيل نجاحهم وعزتهم، ولكن كثيراً من الناس عن حقيقتها غافلون.

مواقف الناس أمام التدين:

إن من يلقي نظرة على الناس ليعرف منازلهم من التدين، ومدى انطباق هذه الحكمة عليهم، يجدهم طوائف ثلاثا:

الطائفة الأولى:

طائفة تكتفي من التدين بمجرد الانتساب إلى الدين، وأداء رمزه الأول كالنطق بالشهادتين:

لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وترى أنها بذلك قامت بحق التدين الذي تقتضيه الفطر السليمة، وتدعو إليه الهداية الإلهية، وهم بعد هذا بعيدون عن جميع المعاني الفاضلة، يطلقون لعقولهم ونفوسهم ورغباتهم وجوارحهم العنان في كل شيء، فلا حد في عقيدة، ولا ضابط في تفكير، ولا وازع عن شهوة، ولا حائل دون رغبة، كأنه لا إله، ولا دين، ولا رسل ولا بعث، ولا حساب، ولا جزاء.

الطائفة الثانية:

طائفة ترى أن التدين يقع في دائرة مادية مرسومة هي: صلاة وصوم، وهمهمة وتسبيح، وسمت خاص، وزي خاص، وخطو خاص؛ ونظرات خاصة، وكلمات معينة

تقال في مناسبات معينة، وتحسر وتباك على الأخلاق التي ضاعت، وعلى الدين الذي أهمل، ولوم وتقريع لكل من تحدثه نفسه بالخروج على شيء من المظاهر التي رسموا بها حدود الدين، وجعلوها علامة على الإيمان والتدين.

ومن مظاهرهم أنهم يعطون أنفسهم حق الهيمنة على عباد الله، فالمؤمن من وصفوه بالإيمان، والمارق من وصفوه بالمروق، والمقبول من اتبع أهواءهم، والمطرود من حاد عن سنتهم، يوحون بذلك إلى الناس أنهم هم المتدينون، وأنهم وحدهم منبع الهداية.

هذه هي أبرز صفاتهم من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فتراهم أبعد الناس عن آثار التدين الصحيح، وأبطأ الناس عن تلبية الدعوة إلى الخير، يقبضون أيديهم عن البذل والعطاء، ويثقل عليهم أداء الحقوق. وإذا تعاملوا ببيع أو شراء ما كسوا في القليل والكثير، والخسيس والنفيس، يبخسون الناس أشياءهم وإذا اكتالوا عليهم يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون.

يقطعون الأرحام، ولا يصلون الفقير، ولا يخففون عن مكروب، ذلك بأنهم يأكلون التراث أكلاً لما، ويحبون المال حبا جما، وقد امتلأت نفوسهم بالشح، وتمثل لهم في كل شأن من شئونهم شبح الفقر، فهم منه في وجل دائم، وفزع مستمر.

وتراهم إذا دعا داعي الدين، أو استغاث الخلق، أو استنصرت الفضيلة أجبن الناس:

يفرون وينكصون على أعقابهم، ويجعلون أصابعهم في آذانهم، ويثنون صدورهم، ويستغشون ثيابهم، ويؤثرون العافية والانكماش على متاعب الحق ومآزق الحق.

القرآن يبرز خصائص هؤلاء:

ولا نجد في تصوير هؤلاء - وإبراز خصائصهم، وبيان مقدار تجافيهم عن الدين وبعدهم عن هدايته وتعاليمه - أوضح ولا أقوى من هذا البيان الذي تضمنته هذه السورة القصيرة، التي لا يكاد مسلم يجهلها.

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (سورة الماعون).

يقول الله تعالى: إن كنت يا محمد، أو أيها العاقل، لا تعرف المكذب بالدين فآيته الواضحة، وعلامته البارزة أنه شخص قد نزعت الرحمة من قلبه، وهانت عليه الحقوق فأهدرها، ونسي ما تقتضيه صلاته من روح الخوف والمراقبة، والشعور بغيرة الله على الحق وعلى عباده الضعفاء، وقد اتخذ صلاته ثوبًا من الرياء يلبس به على الناس، ويخفي وراءه نفسًا مظلمة قابضة ممسكة، لا تنضح بخير، ولا تعين على معروف.

الدين حسن الخلق:

وقد جاءت أحاديث الرسل الكرام ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وحكمهم العالية في الإرشاد والتهذيب، وشرح حقيقة الدين، مؤذنة بأن وضع هؤلاء وما اتخذوه لأنفسهم هو وضع بعيد عن الدين، بعيد عن مرضاة الله ونعيمه. جاء رجل إلى النبي ﷺ مرة من بين يديه وسأله: ما الدين يا رسول الله؟ فأجاب الرسول بقوله: الدين حسن الخلق، فأتاه من قبل يمينه وسأله: ما الدين يا رسول الله؟ فأجابه بقوله: الدين حسن الخلق، ثم أتاه من قبل شماله وسأله: ما الدين يا رسول الله؟ فأجابه: الدين حسن الخلق، ثم أتاه من ورائه وسأله: ما الدين يا رسول الله؟ فالتفت إليه الرسول وقال له: أما تفقه؟ هو ألاَّ تغضب.

وقيل لرسول الله: إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها، ولكنهاتؤذى جيرانها بلسانها، فقال عليه الصلاة والسلام: لا خير فيها، هي من أهل النار.

لا دين لمن لا أمانة له:

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فأقبل علينا رجل من أهل العالية فقال: أخبرني يا محمد عن أشد شيء في هذا الدين وألينه. فقال له: يا أخا العالية: ألين شيء في هذا الدين أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأشده يا أخا العالية الأمانة، ألا إنه لا دين لمن لا أمانة له وإن صام وصلى.

هذه هي مكانة الذين ساء فهمهم للدين، وظنوه مظهرا من المظاهر، ولونًا من الألوان دون أن يكون له أثر في أخلاقهم ومعاملاتهم.

المؤمنون حقًا:

أما الطائفة الثالثة فهي طائفة المؤمنين حقًا، الذين امتلأت قلوبهم بخشية الله وسلطانه، وآمنوا بغيرته على الحق وعلى الضعيف، وظهر أثر ذلك الإيمان في أخلاقهم: فلا غل ولا حقد، ولا حسد ولا غضب، ولا بغضاء ولا شح، ولا قطيعة ولا جبن، ولا أثرة. وفي معاملاتهم: فلا غش ولا خديعة، ولا تلبيس ولا مخاصمة، ولا احتيال على أكل الأموال بالباطل، ولا نكوص عن العهود، ولا كذب في التحديث، ولا تشويه للحقائق ولا خيانة للأمانة.

ولا نجد ما يصور لنا حقيقة التدين الصحيح، ويبرز لنا أوصاف أهله كقول الله تعالى:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (الآية ١٧٧ من سورة البقرة).

هذا هو الدين: عقيدة نقية، ونفس سخية، وأخلاق رضية، وقلوب وفية. وما إلى ذلك مما تنتظمه هذه العبارة الجامعة القوية:

«الدين المعاملة»

الرَّحْمَة

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ . عن النبي ﷺ قال : «من لا يرحم لا يرحم» رواه البخاري وغيره .

رحمة الله :

إن من صفات الله الذي خلقكم فأحسن الخلق، ورباكم فأحسن التربية «صفة الرحمة» كتبها على نفسه وقال :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الآية ١٥٦ من سورة الأعراف) .

واتخذ له منها اسمين كريمين « الرحمن الرحيم» وطلب من عباده المؤمنين أن يستعينوا بهما «بسم الله الرحمن الرحيم» وطلب منهم الثناء عليه والاعتراف له وحده بالربوبية العامة عن طريقهما «الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم . . . . »فبالرحمة نظر إليكم وأنتم أجنَّة في بطون الأمهات، وبالرحمة نظر إليكم وأنتم في ميدان العمل وعهد الكبر، وبها ينظر إليكم وملائكة الموت تخرج منكم الروح وسر الحياة، وبها ينظر إليكم وأنتم وقوف بين يديه يحاسبكم على ما قدمتم من عمل، فيعرفكم الحسنات والسيئات ثم يقول :

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾

(الآية ١٦٠ من سورة الأنعام)

وما نعمة أنعم الله بها على عباده ـ عامة كانت أم خاصة ـ إلا وهي أثر من آثار رحمته، فالصحة، والمال ، والزوجة الحسنة، والأبناء الصالحون، من رحمة الله . والعلم والهداية، وراحة الضمير من رحمة الله، والإلهام بما ينفع في الحياة وبما يضر من رحمة الله، والحكم والجاه ونفوذ الكلمة من رحمة الله، فانظروا إلى آثار رحمة الله المحيطة بكم، الشاملة لجميع شئونكم، في خلقكم في أبدانكم، في موارد رزقكم، في تعليمكم، في هدايتكم .

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

تخلقوا بأخلاق الله :

إن الله يحب من عباده أن يكونوا على صفته، يجب أن يكونوا رحماء فيما بينهم. فيعطف كبيرهم على صغيرهم، ويوقر صغيرهم كبيرهم، ويواسي غنيهم فقيرهم، ويعين قويهم ضعيفهم، ويرشد عالمهم جاهلهم، ويهدي حكيمهم سفيههم، ويرى المحكوم رحمة الحاكم به، كما يرى الأبناء رحمة الآباء، والتلاميذ رحمة المعلمين، والمرضى رحمة الأطباء، أولئك هم الذين يرحمهم الله ويعطف عليهم، ويسعدهم بحسن لقائه، وينجيهم من فتنة الحياة والممات «الراحمون يرحمهم الرحمن». وكما أوجب الله تعالى من الإنسان أن يرحم أخاه الإنسان أوجب عليه أن يرحم الحيوان، فالحيوان محتاج إلى الرحمة، كما أن الإنسان محتاج إلى الرحمة، قال رسول الله ﷺ: (اتقوا الله في هذه البهائم العجماوات، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة).

الإيمان مصدر الرحمة :

الرحمة أثر من آثار الإيمان، يبعثها الطمع في رحمة الله ـ وهي تعد فضيلة من فضائل الإنسان ـ وتدفع إليها العواطف النبيلة، والإحساس الإنساني الشريف، وقد وصف الله تعالى بها نفسه، وتفضل بها على خلقه فقال تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الآية ٥٤ من سورة الأنعام)

ورفع الله درجة المخلصين، فأضافهم إليه بصفة الرحمة.

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ (الآية ٦٣ من سورة الفرقان) وامتن بها على نبيه.

أما القسوة: فمن صفات الجاحدين، الذين لا يؤمنون بالله، أو لا يشعرون بعظمة الله، أو لا يعرفون أن القسوة هي من صفات الوحوش المفترسة، ولا ينبغي أن يقيم أصحابها بين بني الإنسان، وجدير بالإنسانية الفاضلة أن ترمي بهم في المغاور والكهوف، وحسب القساة على خلق الله أن الله تعالى شبه قلوبهم بالحجارة، بل جعلها أشد منها قسوة.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (الآية ٧٤ من سورة البقرة) .

حسب القساة قول الرسول الرحيم : «لاتنزع الرحمة إلا من شقي» ، وأي شقي أكبر من ذلك الذي يرى اليتامى والمساكين والضعفاء والمرضى، تتابعهم البلايا والمحن، وتلعب بهم المصائب وتفتك بهم الأمراض والعلل، ثم لا يتأثر قلبه بعاطفة الشفقة عليهم والرحمة بهم. وإن ما نشاهده اليوم من آثار الحروب إنما هو نتيجة لنزع الرحمة من القلوب، وخلو النفوس من الشفقة، إن الفرق بين الرحيم والقاسي إنما هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، هو الفرق بين السعيد والشقي، هو الفرق بين الإنسان وغير الإنسان، فارحموا وتراحموا يكمل إيمانكم وتعظم سعادتكم وتفخر بكم الإنسانية .

إغاثة الملهوف

الرحمة والمروءة والشهامة خلال إنسانية كريمة:

إغاثة الملهوف خلق فاضل كريم، تغرسه في الإنسان مجموعة من الخلال الفاضلة الكريمة، تغرسه الرحمة والمروءة والشهامة.

فالرحمة تحمل صاحبها على أن يتألم لآلام الناس، ويبكي لبكائهم، فإذا رأى فقيراً أحس بآلام فقره، وأثقال بؤسه، وإذا رأى منكوبًا تأثر بوطأة نكبته، وإذا بكى أمامه باك حزين تجاوبت بالبكاء والحزن أرجاء نفسه!

والمروءة تحمل صاحبها على أن يخفف الويلات، ويمسح العبرات، ويكافح الآلام، ويدافع الأحزان، ويحنو على الضعفاء والمنكوبين، كما تحنو الأم الرءوم على أبنائها المستضعفين!

والشهامة تأبى على صاحبها أن يعكف على لذاته ومسرَّاته، وأن يتمتع بثروته وهناءته، وقد علم أن بجانبه منكوبًا أصابته الأيام، أو جائعًا حرمه الجوع لذيذ المنام، أو مريضًا يتقلب على فراش الآلام، أو يتيمًا يبكي أباه، أو ثكلى فرق بينهما وبين وحيدها الزمان!

وبهذه الصفات الثلاث - الرحمة، والمروءة، والشهامة - ينبغي أن يكون الفرق بين الإنسان والحيوان، فإذا كان المرء رحيم القلب، شهم الفؤاد، ذامروءة ونجدة، ينبعث إلى إغاثة الملهوف، وتفريج المكروب، وقضاء حاجة المحتاج، فذلك هو الإنسان!

قسوة القلب تنافي الإنسانية:

أما إذا قسا قلبه، وخلت من المروءة والشهامة نفسه، وعاش لنفسه فقط لا يعبأ بآلام الناس، ولا يكترث لمصائب الناس، ولا يشارك في تخفيف الويلات، فذلك وحش ضار في صورة إنسان!

إن الرجل الذي لا تؤثر في نفسه مناظر البؤس، ولا ضحية من ضحايا الفقر، لهو رجل فظ غليظ، قُدَّ من الحجر الصلد قلبه، وصيغت من الصلب الجامد أعصابه.

إن الرجل الذي يكون همه في ليله ونهاره أن يحسب حساب دخله وخرجه، ولايحدث نفسه في ساعة من ساعاته عما أحسن أو بر أو تصدق، لهو رجل غير جدير بإنسانيته، غير جدير بأن يعيش بين الناس كأنه واحد منهم، وإنما مكانه بين الوحوش الضاريات في جبل أو فلاة.

إن الإنسان هو الذي يرحم، هو الذي يحس ويتألم، هو الذي يغيث الملهوف، هو الذي يهدي الحيران، هو الذي ينقذ الموروط. هو الذي ينهض العاثر، هو الذي يحمل الكل ويحنو على الضعيف.

تفريج كربة المكروب قرين الايمان:

لقد أيد الله في كتابه الكريم هذا المعنى الإنساني الشريف، وحض على إغاثة الملهوف، وسد حاجة المسكين، وتفريج كربة المكروب، وجعل ذلك في كثير من الآيات قرين الإيمان، ونظير الصلاة، وسبب الغنى واليسار، وطريق النجاح والفلاح:

١ـ **﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾** (سورة الماعون).

٢ ـ **﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾** (الآيات ١١ ـ ١٧ من سورة البلد)

٣ ـ **﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾** (الآيات ١٥ ـ ١٨ من سورة الفجر).

٤ ـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ (الآيات ٣٨ ـ ٤٤ من سورة المدثر) .

٥ ـ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (الآيات ٥ ـ ١٠ من سورة الليل) .

٦ ـ ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الآية ٩ من سورة الحشر) .

الرسول يدعونا إلى البر ويحذرنا من البخل:

ولقد كان رسول الله ﷺ بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، يصل الرحم، ويحمل الكَلَّ، ويَقْري الضيف، ويعين على نوائب الحق، ولم تكن رحمته ﷺ خاصة ببني الإنسان، وإنما كان يرحم الحيوان الأعجم، ويوصي أصحابه برحمته، وبلغ من أمره في ذلك أنه كان يُميل الإناء للهرة بيده الشريفة حتى ترتوي ثم يرفعه .

وروي عنه أنه قال ما معناه : إن امرأة دخلت النار بسبب هرة حبستها حتى ماتت فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض .

وحدث أصحابه يومًا فقال: «بينما رجل يمشي بطريق، فاشتد عليه الحر، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث «يأكل» الثرى من العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له . فقالوا: يارسول الله ، وإن لنا في البهائم لأجراً ؟ قال : في كل كبد رطبة أجر» .

ولقد صور لنا رسول الله ﷺ موقف البخلاء والمتقطعين عن مواساة الناس، حين يعرضون على رب العالمين بهذه الصورة الرهيبة إذ يقول :

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم : مرضت فلم تعدني ، قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده؟ أما إنك لو عدته لوجدتني عنده! يا ابن آدم : استطعمتك فلم تطعمني قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي! ـ يا ابن آدم : استسقيتك فلم تسقني ، قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لوسقيته لوجدت ذلك عندي» .

بمثل هذا يحث رسول الله ﷺ أمته على الشفقة والرحمة والإيثار وإغاثة الملهوف ، وتفريج كربة المكروب ، ولذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم مُثُلا عليا في البر والرحمة والإيثار ، ومما يروى في ذلك أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله : إني مجهود! فأرسل النبي إلى بعض نسائه يسألها : هل عندها طعام؟ فقالت لا والذي بعثك بالحق ، ما عندي إلا ماء ، ثم أرسل إلى أخرى من زوجاته فقالت مثل ذلك . . حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، فقال النبي ﷺ : من يضيف هذا الليلة؟ فقال رجل من الأنصار : أنا يارسول الله ! فانطلق به إلى رحله ، فقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله ، ثم سألها : هل عندها شيء ، فقالت : لا . إلا قوت صبياني ، قال : فعلّليهم بشيء ، وإذا أرادوا العشاء فنوميهم ، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل معَه ، ثم قعدوا فأكل الضيف وباتا طاويين» .

وبعد .

فكم هم الذين يتخلقون بأخلاق رسل الإنسانية الفاضلة ، وأخلاق الرسول الكريم وأخلاق صحبه الأماجد؟ إني لأتخيل الناس وما هم به الآن ، وأنا أكتب هذه الكلمات وأستعرض صورهم وأحوالهم ، فأجد لهم أحوالاً مختلفة :

هذا رجل قد جلس على فراشه الوثير هادئ النفس ، مطمئن القلب ، يحيط به من نعمة الله ألوان وألوان ، ومن حوله أبناؤه وبناته وشريكته في حياته ، ترفرف عليهم أعلام النعيم ، ويسري في جوهم نسيم الصفاء ، فإذا كنت أيها المسلم كذلك فإني أهنئك بما أنت فيه من نعمة ، وأرجو من الله أن يزيدك متاعًا ونعيمًا ، ولكني أرجو منك أيضًا أن تذكر وأنت في نعيمك السابغ أن قومًا من بني وطنك يعيشون في ظلال الفاقة ، وتحت جناح

الذل، يفترش أحدهم الأرض، ويلتحف السماء، ويتعرض للأجواء والأنواء، والأعراض والأمراض! وأرجو منك أن تذكر حين تذكر حين ترى أبناءك من حولك ـ بارك الله لك فيهم وجنبك وإياهم أحداث الزمان ـ أن الليل ينطوي على آباء وأمهات قد أخذ الفقر بتلابيبهم، وأمسك العدم بخناقهم، ومن حولهم أطفال كصغار القطا يتضورون جوعًا، ويتلوون ألمًا، قد تفشت فيهم الأسقام، وتعرت منهم الأجسام، وتحالفت عليهم الليالي والأيام!

اذكر وأنت تداعب ولدك أن أطفالاً من بني وطنك كانوا بالأمس بين أحضان آبائهم ناعمين، وهم اليوم في كنف الضياع يذوقون آلام اليتم والتشريد، ولا يجدون من يطعمهم إذا جاعوا، ولا من يكسوهم إذا تعروا، ولا من يمسح دموعهم إذا بكوا متوجعين!

﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾ (الآية ٩ من سورة النساء).

اذكري أيتها الزوجة السعيدة، ومن حولك زوجك وأبناؤك، أن أمًّا هي أختك في الوطنية والدين قد أفزعها الفزع فخرجت تهيم على وجهها، وتتعثر في حيرتها وخجلها، وقد ذهلت من هول ما أصابها، حتى إذا استفاقت من هذا الفزع نظرت فإذا هي أرملة قد فقدت زوجها، وإذا هي ثكلى قد حرمت وحيدها، وإذا هي مشردة قد تهدم بيتها. وإذا هي مضيعة قد سلبت مالها ومتاعها!

اذكروا ذلك أيها السعداء المترفون، واشكروا الله على ما حباكم به من فضل، وما أنعم عليكم به من إحسان، «لئن شكرتم لأزيدنكم» ولا يكن شكركم كلمات تلوكها الألسنة، وتمصمص بها الشفاه، أو حسرات وزفرات، فهذه رحمة سلبية لا تفيد المنكوبين، ولا تسد رمق الجائعين، وإنما تفيدهم الرحمة الإيجابية، والإغاثة العملية، إنما يفيدهم أن تسري في بيتكم روح المروءة والشهامة، والنجدة والغوث، فيتبرع الأب في الحال بكذا، وتتبرع الأم بكذا، ويتبرع الأبناء والبنات بكذا. فهل أنتم فاعلون؟

ثم ماذا أرى؟ هذه جماعة في ناحية أخرى قد اجتمعت في عناية واهتمام إلى مائدة خضراء، ماذا يصنعون؟ إنهم يلعبون البوكر. وينفقون في سبيله الأموال الطائلة.

وهذه جماعة أخرى تلعب النرد، وتلك جماعة ثالثة تلهو بسباق الخيل وبألوان من اللهو والعربدة والفسوق.

أيها السادرون في غفلتهم: أيها الممعنون في لهوهم وعبثهم. أيها المسرفون في لذاتهم وشهواتهم: على رسلكم قليلاً، فإن البلاد مهددة بالجوع والخوف والنقص في الأموال والأنفس والثمرات. على رسلكم قليلاً فإن البيوت العامرة تخرب، وإن الأرواح الزاكية تزهق، وإن الأسر المجتمعة تمزق، وإن أفاريز الشوارع تعج في هذا الليل المظلم باللاجئين الحائرين.

أنتم في نواديكم لاهون، وفي شهواتكم وشرابكم ولذاتكم غارقون، وفي البلد أناس لا يسكنون ديارًا، ولا يعرفون لأنفسهم وأبنائهم قراراً، فهم في يومهم حائرون، ومن غدهم يائسون، قد أوصدت في وجوههم أبواب الأمل، وأظلمت أمام أعينهم أيام الحياة.

اهجروا هذه النوادي، ولو مؤقتًا، وجربوا الإحسان إلى هؤلاء، جربوا الرحمة وإغاثة الملهوف، جربوا لذة البر بالفقير، وإدخال السرور على اليتيم، وتخفيف الويلات عن الحيارى من الثكلى والأرامل، فإنكم إن فعلتم تذوقتم اللذة الحقيقية، وأرحتم ضمائركم، وأرضيتم ربكم، وأنقذتم وطنكم، وأديتم واجب إنسانيتكم.

إن دعاء الملهوف الذي أغثته ليصعد إلى الله تكاد تبصره عيناك وتلمسه يداك. إن كلمة الشكر يفتر بها ثغر مسكين، أو يتلثعم بها مريض، أو تتحرك بها شفتا مجهود لأشهى وأعذب - عند ذوي المروءة والإنسانية العالية - من نغمات الغناء، ورنات المزاهر والأعواد!

أيها السادة:

لست أدعوكم إلى الرحمة، وإغاثة الملهوف، والإحسان إلى الفقراء، والبر بالضعفاء باسم الدين والإنسانية فقط، ولكني أدعوكم أيضًا باسم المصلحة العامة للوطن، وباسم مصلحتكم الخاصة.

إنكم بالإحسان والبر، وتنظيمه على وجه يغيث الملهوف، ويؤسس المشروعات العامة النافعة، تجدون من أبناء الشوارع جيشًا جراراًينهض بالبلاد ويعمل على تقدمها، وفي الوقت نفسه تضعون سدا قويًا يحول دون طغيان الأفكار الخطرة، والمبادئ الضارة بسلامة البلاد وأمنها.

إنكم بالإحسان والبر تستلون الضغائن من القلوب، وتذهبون الأحقاد من

الصدور، وتستجلبون لأنفسكم سعادة الرضا والثقة والمحبة، والتعاون الصادق والطمأنينة على النفس والمال.

إن الفقير إذا أحسنت إليه جعل من نفسه عبداً لك، يفديك بروحه، ويبذل دونك نفسه.

إن الكثير ليصان بالقليل، إن الأرواح لتفدى بالأموال، إن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

أيها الأغنياء. أيها السعداء. أيها الرجال والنساء: هلم إلى إغاثة الملهوفين، هلم إلى إنقاذ المنكوبين، هلم إلى التفريج عن المكروبين.

هلم إلى إجابة داعي الإنسانية، وداعي الدين، وداعي الوطن، وداعي المصلحة الذاتية.

هلم إلى جميع هؤلاء. وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء!

الجهر بالسوء

قال الله تعالى:

﴿ **لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴾

(الآيتان ١٤٨ - ١٤٩ من سورة النساء)

* * *

«يحب الله كذا»: يرضاه ويثيب عليه و«لا يحب الله كذا» يغضب منه ويعاقب عليه.

والجهر: الإذاعة والإعلان، ويقابله السر والكتمان. والسوء: ما يؤذي الإنسان ويؤلمه، أكان في نفسه أم بدنه، في ماله أم أهله. في أقاربه أم وطنه، وبعبارة أخرى: ما يحدث أثرًا ضارًا في الفرد أو الجماعة.

وسعادة الناس في حياتهم الفردية أو الاجتماعية معقودة بسد منافذ السوء، وفتح منافذ الخير.

وهاتان الآيتان قد تكفلتا بالأمرين معًا، فالآية الأولى - ﴿ **لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ إذ تقرر أن الله سبحانه لا يحب من عباده أن يجهروا بالسوء من القول فيما بينهم، بل يمقته ولا يرضاه - تسد أهم النوافذ التي يتسرب الشر منها إلى الأمة، والثانية - ﴿ **إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴾ - تغري الناس بوسائل المحبة والاطمئنان فيما بينهم.

ومثل القول ما في معناه من كل طرق النشر، يغضب الله منه ويعاقب عليه ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الآيات ٦٠ - ٦٢ من سورة الأحزاب).

وللجهر بالسوء صور وألوان، ولكل من صوره وألوانه أثره السيئ في الناس: في أخلاقهم، وفي علاقاتهم بعضهم ببعض، وفي حياتهم كلها. فذكر عيوب الناس والتحدث بها جهر بالسوء، وإشاعة الفاحشة ونسبتها إلى أفراد معينين أوأسر معروفة جهر بالسوء. والتحدث بما يقبح من المنكرات، كالزنى وشرب الخمر، والسرقة، وطرق الاحتيال، جهر بالسوء، ونشر الصور العارية، أو شبه العارية في المجلات والصحف، جهر بالسوء، ومناظر القبل والمعانقة والنوم على السرير التي تظهر في دور التمثيل والسينما، أو تلصق إعلاناتها على الجدران في الشوارع، جهر بالسوء.

الشكوى من الأمة جهر بالسوء:

ومن أشد أنواع الجهر بالسوء فتكًا بالأمة ـ ولا يتنبه إليه كثير من الناس ـ ما يجري على ألسنة كثير من الآباء وهم بين أبنائهم، ومن رجال التربية والتعليم وهم بين تلاميذهم، ومن رجال الزعامة والسياسة وهم في نواديهم، ومن الجماهير في مقابلاتهم، من التحدث عن ضعف الأمة، وانحطاط أخلاقها، وأنها أمة غير صالحة للبقاء في ثوب من يأس الحصول على الإصلاح.

هذه نماذج من صور الجهر بالسوء من القول وما في معناه، وله على اختلاف صوره أنواع عدة من العواقب السيئة التي تنزل بالأمة وتُحيقُ بها، وتحول بينها وبين سعادتها، فهو يفرق الكلمة، ويغرس العداوة والبغضاء، ويغري باقتحام الشرور والمفاسد، ويخلق عند من يألفها عاطفة التجرؤ عليها، وما أشد تأثيره في الأحداث الذين تنطبع في نفوسهم صور ما يسمعون، وكثيراً من نشأت عنه الجرائم، وكثيراً ما نشأ عنه التحلل من معاني الوطنية الفاضلة، والارتماء في أحضان الأمم، والتعلق بنظمها وإن كانت فاسدة ضارة.

فعلى الآباء، وعلى رجال التربية، وعلى زعماء البلاد، وعلى عقلاء الجماهير إذا أرادوا السلامة والخير لبلادهم، وأرادوا السلامة من خروج بعض الأبناء عليها، عليهم

جميعًا أن يراقبوا أنفسهم، ويكبحوا جماحها عن الأراجيف والسوء، وأن يتتبعوا منافذ هذا السوء فيضعوا عليها سدًا منيعًا، يعصم منه الأسماع والقلوب، وبذلك تحفظ الروابط، وتصان الأخلاق، وتقدس الحرمات، وتسود الفضيلة.

حدود الرخصة في الجهر بالسوء:

وقد أباح الله الجهر بالسوء في حالة واحدة، وهي حالة الظلم يقع على الإنسان ولايجد منقذًا له من هذا الظلم سوى الجهر به للحاكم، أو لمن يرجو النجدة لديه. وهذا ترخيص يجب الوقوف به عند حد الضرورة دون زيادة أو استرسال، وهو قوله تعالى:

﴿ **إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا** ﴾

أماالآية الثانية: ﴿ **إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ** ﴾

فقد فتحت باب إيصال النفع بقوله: ﴿ **إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ** ﴾

وفوضت الأمر في اختيار الإظهار أو الإخفاء إلى ما يقدره فاعل الخير ويراه، فمن الناس من يرى إبداء الخير ليقتدي به غيره ولينال ثواب «من سن سنة حسنة»، ومن الناس من يرى إخفاء الخير اتقاء للرياء والسمعة.

ثم لفتت الآية بعد ذلك الأنظار إلى أن العفو عن السوء ممن أوذي به في خاصة نفسه، وعدم المحاسبة عليه، بمثابة فعل الخير في ربط القلوب، وصفاء النفوس.

أما السوء الذي يؤذي الجماعة، ويزلزل الأمن، ويفسد النظام والأخلاق، فلا يملك أحد حق العفو فيه، فهو حق الله وحده، حق النظام العام، والله يقول: ﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ** ﴾ ويقول: ﴿ **لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾

المجاهرون بالمعاصي

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان: عملت البارحة كذا وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه.

* * *

أصناف الناس:

من الناس من يكون قوي الإيمان بالله، يتمثل عظمته ويخشى غيرته، فيراقبه في السر والعلن، ويتجه إليه في السراء والضراء. هؤلاء هم الذين زكت أرواحهم وصفت قلوبهم فأشرق عليها نور الحق فأضاء لهم سبل الخير والهداية. هؤلاء في حفظ الله ورعايته ومحل عطفه ورحمته «سالموا الناس فسالموهم، وأحسنوا إليهم فاحترموهم وأحبوهم، وسالموا الله فسالمهم، وأبعد عنهم البلايا والمحن، وادخر لهم مكانة الصديقين والشهداء».

ومن الناس من تغلب عليه شهوته ويطغى غضبه، وينسيه ذلك جانب الله وجانب الناس، ولا يجد من نفسه عزمًا يقاوم به الشهوة، أو يدفع به الغضب، فتحلو له الخطيئة فيقع في الزلل فيقتحم حرمات، ويمد يده إلى الناس بالإيذاء فيخدش العرض المحترم، أو يسلب المال المعصوم، أو يقتل النفس البريئة، ولكن مع هذا يخشى أن يطلع عليه الناس فيشتهر أمره وتسقط منزلته وتهون كرامته، فيدفعه ذلك إلى التستر، فيرتكب ما يرتكب في جنح من الليل أو في غفلة من الناس، ولا يزال ـ من خشية أن يعلم الناس به ـ في اضطراب ووجل، يدفعان به إلى التستر والإخفاء. مثل هذا تناله في حكم الرسول المعافاة والسلامة من البلايا والمصائب التي يجرها إليه علم الناس به، وقد يفتح له أيضًا باب الخوف من الله فيخشاه كما يخشى الناس، فيطرق باب التوبة والندم، فيمد الله إليه يد القبول، ويفتح له باب الرحمة ويمنحه عفوه ومعافاته.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ

الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

هذان صنفان من الناس: صنف نؤمن له بحسن العاقبة عند الله، وصنف نرجو له بالتوبة العفو والمعافاة.

وهناك صنف ثالث غلبت عليه شقوته، وحرم الحياء من الله فارتكب ما حرمه الله، وحرمه الخيار من الناس، فجاهر بالمعصية وأعلن الجريمة، تراه وقد أريق ماء الحياء من وجهه، يعبث بالحرمات لا يؤنبه ضميره، ولا يروعه خوف، لا يخشى الله ولا يخشى الناس، تراه وقد انطلق كالأفعى ينفث سمومه في الطرقات والنوادي والبيوت، فإذا ما رأى سيدة أو فتاة اقتفى أثرها يمشي خلفها إذا مشت، ويقف إذا وقفت، ويركب الترام إذا ركبت، ويدخل المتجر إذا دخلت، وهكذا يتبعها ويشدد الخناق عليها وهو يخنق الفضيلة على ملأ من الناس، غير مكترث بغيرة الله، ولا عابئ بكرامة الناس. هذا الصنف في حكم الرسول لا تناله رحمة الله ولا معافاته لا في جسمه ولا في كرامته، ولا يحظى بالسلامة، فهو عند الناس دائمًا في موضع السخط والازدراء، وهو عند الله في موضع الطرد والحرمان.

المجاهر الذي يقصده الرسول:

هذا هو المجاهر الذي يقصده الرسول بقوله: كل أمتي معافى إلا المجاهرين. وقد أرشد الرسول ﷺ إلى لون رابع هو في واقعه أشد خطرًا من المجاهرين إذا لم يكن منهم، ذلك اللون هم الذين يرتكبون ما يرتكبون من فسوق وعصيان في بيوت تؤويهم أو في ظلام يسترهم، ثم يصبحون فيتحدثون بما فعلوا، ويتفاخرون بما ارتكبوا، ويتآمرون على المعاودة والاستمرار، فيميلون معهم ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب.

هؤلاء يفضحون أنفسهم وقد سترهم الله، وهم دعاة شر بأقوالهم وتحريضهم كالمجاهرين سواء بسواء، وفي حكم هؤلاء الذين خصهم الرسول بوصف المجون وكانوا دعاة شر بأفواههم كالمجاهرين: هؤلاء الذين يعملون على إذاعة اجتماعاتهم الساخرة، ولياليهم الساهرة بما فيها من عبث بالسيدات وشرب للخمور عن طريق التصوير والنشر في المجلات والصحف التي تملأ الشوارع وتدخل البيوت وتنطبع في نفوس الفتيان والفتيات، فتعدهم للمصير السيئ، وتسلبهم معاني الفضيلة والكرامة والشرف، بل هم أشد ضررًا وأقبح أثرًا، فإلى هؤلاء وهؤلاء جميعًا نوجه قول الرسول الحكيم والمربي العظيم «كل أمتي معافى إلا المجاهرين».

التوبة علاج

إن السلامة من الذنوب، والعصمة من الخطايا، والتجرد لمحض الخير والطاعة، شأن الملائكة المقربين، الذين هم بمقتضى الخلق والتكوين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، أما الإنسان فهو - بما ركب فيه من قوتي الشهوة والغضب - مستعد للتفكير في الذنوب، ومستعد للوقوع فيها. وكثيرًا ما يضعف عن مكافحة عوامل الشهوة أو الغضب، فتتسلط عليه وتخرجه عن حدود ما رسم الله، وبذلك يقع في المخالفة والعصيان.

الوقوع في المعصية لا ينافي التقوى:

وسعادة الإنسان عند الله لا تتوقف على أن يكون ملكًا، سليمًا من الذنوب والمعاصي سلامة مطلقة، لا يشوبها لمم، ولا يغير لونها ذنب، ولكن حسبه في أن يكون سعيدًا عند الله، له مكانة المتقين ومقعد الصديقين، أن يعرف إذا وقع في المخالفة والعصيان أنه وقع في الشر، ودنس نفسه وأغضب ربه. فيفزع إلى تطهيرها بتذكر عظمة الله وغيرته، والتماس عفوه ورضوانه، وهذا هو القرآن الكريم يجعل المتقين صنفين:

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا ﴾

ثم يجمع بين الصنفين في الحكم والجزاء والرضا والنعيم:

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (الآية ١٣٦ من سورة آل عمران).

ومن هنا، لم يكن مجرد الوقوع في الذنب حائلاً بين العبد وبين سعادته وسمو درجته، فإن ذكر الله والإحساس بثقل الذنب يدفعان المؤمن في المسارعة إلى مغفرة الله وينيران أمامه السبيل، فيمشي على صراط مستقيم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الآية ٢٠١ من سورة الأعراف).

آدم والمعصية:

وقديمًا أمر الله آدم ونهاه، فنسي واندفع بما ركب فيه من قوى الأمل والشهوة إلى المخالفة فعصى وخالف ربه، ولكن لم يلبث أن عاد إلى نفسه ووازن بين الطاعة والمخالفة، فأدرك قبح المخالفة وقرع سن الندم وأقبل تائبًا إلى ربه:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الآية ٢٣ من سورة الأعراف).

ولم يكن شيء من ذلك بمنقص عند الله قدر آدم: استمع لتوبته: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (الآية ١٢٢ من سورة طه).

المحروم من عفو الله:

نعم، إن من يقع في الذنب وتتكرر منه الخطيئة حتى يعتادها ويألفها، ويستمر على العصيان والمخالفة حتى ينسى أنه في عصيان ومخالفة، ويظل سادرًا في ظلمة الذنوب، غير ذاكر لربه ولا مستشعر غضبه وغيرته، فذلكم هو الذي لا يصح أن يذكر في عداد المؤمنين ولا أن يأخذ مكانة المتقين.

الوقاية والعلاج:

وإذا كان لمرض البدن علاج يستأصله ويقضي عليه ويعيد إلى المرء صحته ونشاطه، وكان للإنسان في الاحتفاظ بصحته البدنية وقاية تمنعه من التأثر بالجراثيم المرضية وأجوائها، فإن القلوب والأرواح لها من الأمراض ما يعظم خطره على الإنسان بالنسبة لما قديكون من مرض الأبدان. والواقع أنه لا سبيل لعلاج أمراض القلوب ولا للوقاية منها يستطيع الإنسان أن يجهزه بنفسه، وإنما الذي يجهزه ويكوِّن أجزاءه، ويأمر باستعماله والتداوي به، هو خالق القلوب وخالق الأرواح، العليم بخصائص القلوب والأرواح، والموجه للقلوب، المهذب للأرواح.

ومن هنا رحم الله عباده، فرسم لهم من العبادات ما يقيهم شر الوقوع في المعاصي وما يعالجهم إذا وقعوا فيها، فالصلاة وقاية:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (الآية ٤٥ من سورة العنكبوت).

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (الآيات ١٩ - ٢٢ من سورة المعارج).

وكذلك الصوم وقاية، وقد قال الله تعالى في حكمته: «لعلكم تتقون» وقال عليه الصلاة والسلام: «الصوم وجاء» ومعناه أنه يسد منافذ الشر والسوء، فيقي المؤمن من المعاصي ويمنعه من الوقوع في المخالفة. وقدجاء في كلام النبوة التعبير عن وقاية الصوم من الشرور والمآثم بتفتح أبواب الجنة وتغليق أبواب جهنم، وتقييد الشياطين بالسلاسل، والكل تعبير صادق قوي عن اختفاء عوامل الشر في جو الصوم والصائمين.

التوبة:

وكما جعل الله من الصوم وسائر العبادات وقاية من الشرور والمآثم، جعل من التوبة علاجًا دائمًا يمحو أثر المعصية من النفس بعد الوقوع فيها، والتوبة علاج عام يستطيعه كل من أصيب بالمرض كيفما كان، وفي أي زمان كان، وفي أي مكان كان، فالتوبة علاج شعبي لأمراض النفوس وسيئات الأعمال، شرعه الله وحبب فيه ولوَّح به، ووعد عليه بما شاء من فضل ونعمة: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الآية ٣٩ من سورة المائدة).

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الآية ٧٠ من سورة الفرقان).

وقد أكد الله محبته لعباده الذين يسرعون إليه كلما دهمتهم المعصية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

فرح الله بتوبة عبده:

وقد صور رسول الله ﷺ في حديث نبوي شريف عظم موقع توبة العبد عند الله وفرحه بها، يقول عليه الصلاة والسلام: «لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية، مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة، ثم استيقظ فوجد راحلته وعليها طعامه وشرابه قد ندت، فطلبها حتى اشتد عليه الحر وأخذه العطش فقال:

أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت! فرجع إلى مكانه ووضع رأسه على ساعده ليموت، ولكنه نام ثم استيقظ فإذا راحلته عنده، عليها طعامه وشرابه، فالله تعالى أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته».

حقيقة التوبة:

والتوبة التي تعالج الذنب وتمحو أثره هي، كما قال الله تعالى، التوبة النصوح. والتوبة النصوح مزيج أجزاؤه: شعور كامل بقبح الذنب عند الله، وامتلاء القلب بالحزن والألم من غضب الله، وتصميم قوي مقرون بالتنفيذ في ترك الذنب في الحال، وعدم الرجوع إليه في الاستقبال، مع محاولة التخلص من آثار الماضي بقدر الإمكان، فإذا تمت هذه العناصر وكلهامستطاعة للإنسان، يصل إليها عن طريق كلام الله، وعن طريق البصر والنظر في الكائنات، وعن طريق الرجوع بالضمير والعقل والشعور إلى الله وعظمته وغيرته على حدوده وشرعه، أوامره ونواهيه.

إذا تمت هذه العناصر، وامتزجت وتفاعلت، وأخذت حيزها من النفس، بدلت بذنبها قربة، وألمها لذة، وسيئتها حسنة، وظلمتها نوراً، وحيرتها هداية وتوفيقًا.

الناس أمام التوبة:

درج كثير من الناس على النطق في مقام التوبة والاستغفار بكلمات: تبت واستغفرت، ويظنون أنهم بهذا القدر قد تحققت منهم التوبة التي وعد الله عباده قبولها، ولكن الواقع أن التوبة كسائر الطاعات، ليست حقيقتها الكلمات تقال، ولا الصور ترسم، وإنما حقيقتها ندم يملك على الإنسان قلبه على ما فرط في جنب الله، وهذا هو التائب، ولكن يجب أن تكون التوبة عقب ارتكاب المعصية والإصابة بالمرض، فلا يترك المرض يتفاقم ويتضاعف

حتى يصير زمانه، يستعصي على العلاج، وينقلب منبع عدوى تصاب بها البلاد والعباد، وهذا هو الوقت القريب الذي ذكره الله تعالى شرطًا للتوبة التي كتب قبولها على نفسه فإنه حينما قال:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ (الآية ٢٥ من سورة الشورى).

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الآية ١٧ من سورة النساء).

شرط في قبول التوبة أمرين: أن يعمل السوء بجهالة، ومعناه باندفاع وطغيان وشهوة، وأن تجيء التوبة في وقت قريب منه. فإذا توافر الشرطان كانت التوبة الصحيحة، وكانت التوبة المقطوع بقبولها، وإذا تخلف الشرط الأول فكان فعل السوء يتعود عليه، واطمئنان إليه، ورضا به دون شعور بقبحه ولا بغضب الله منه، كانت التوبة في تلك الحالة بعيدة الحصول، ولم يكن منها سوى الكلمة تجري على اللسان، لأن ظلمة العصيان المستمر تختم على القلب ويشتد الختم حتى يقترب الأجل ويكشف الغطاء، وهنا يبدو المصير، ويقول: إني تبت الآن، وهذا صنف مقطوع بفساد توبته، وقد سوى الله بينه وبين الذين يموتون وهم كفار. قطعًا للأطماع الباطلة ومنعًا للغرور الفاسد.

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الآية ١٨ من سورة النساء).

صنفان: صنف قطع الله بقبول الله توبته، وهو التائب الذي عمل السوء تحت ضغط الشهوة والسفه، ثم تنبه فتاب عقب الوقوع فيه. وصنف قطع الله بفساد توبته، وهو الذي تطيب له السيئات ويطمئن إليها ويفعلها دون شعور منه بالمخالفة ولا بقبحها، ويستمر كذلك حتى يشاهد أهوال الموت، وعندئذ يقول: «آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» ومثل هذا ليس له جواب سوى:

﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (الآيتان ٩١، ٩٢ من سورة يونس).

صنف ثالث:

وهناك بعد هذين الصنفين صنف ثالث، غلبت عليه شهوته حتى وقع بها في المعصية وهو يعلم سوء مغَبَّتها، أي أنه تحقق فيه الشرط الأول من شرطي التوبة المقبولة، وهو «عمل السوء بجهالة» ولكنه لم يبادر إلى التوبة ويحقق الشرط الثاني، وهو حصولها عقب المعصية بل تمهل في التوبة، ثم تاب وهو في سعة من العمر، أي قبل حضور الموت، وهذا الصنف لم تحكم فيه الآيات، لم تحكم بقبول توبته كالصنف الأول، ولم تحكم بفسادها ورفضها كالصنف الثاني، وبذلك ظل هذا الصنف يتردد بين رحمة الله وغضبه، إن شاء رحمه فقبل توبته، وإن شاء فعل به ما يريد، ولكن رحمة الله وسعت كل شيء، والتي كتبها على نفسه والتي يحسن بها على عباده كرمًا وجودًا وفضلاً ونعمة، كل ذلك يضاعف عندنا الرجاء في العفو والغفران، ما دام في سعة من العمر يستطيع فيه تلبية الشهوة والهوى، ثم رد نفسه عن غيها، وعصاها عن هواها، ورجع إلى ربه تائبًا مستغفرًا.

أما بعد:

فهذه مراتب التائبين، وهذا موسم التوبة والوقاية، فعلينا أن ننتهز أوقات التجلي، فتفتح أمامنا أبواب السماء، ويعظم أجرنا عند الله بتقبل الأعمال وتمام الرضا والغفران:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (الآية ٨ من سورة التحريم).

في رحاب رمضان

شهـر رمضان في القرآن

الاختصاص والاصطفاء من شئون الألوهية:

آية من كتاب الله استوقفت نظري، فتأملتها، فوجدت مصداقها في هذا الكون واضحًا جليًا. هذه الآية هي قوله تعالى في سورة القصص:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (الآية ٦٨ من سورة القصص) وجدت مصداقها واضحًا في الأشخاص، واضحًا في الأمكنة، واضحًا في الأزمنة.

هؤلاء هم البشر من عهد آدم لا يحصيهم العد، خلقهم الله جميعًا. ولكنه اصطفى منهم لقيادة الخلق من شاء، ويصطفي منهم إلى يوم القيامة من يشاء: اصطفى العلماء والفلاسفة، واصطفى القواد والمصلحين، ثم اصطفى الأنبياء والمرسلين:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (الآية ٣٣ من سورة آل عمران).

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الآية ١٢٤ من سورة الأنعام).

﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ (الآية ١٤٤ من سورة الأعراف).

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ (آخر سورة الأنعام).

وهذه الأمكنة منذ خلق الله الأرض، وجعلها للناس مستقراً ومقامًا، يمتاز بعضها عن بعض، منها مهابط الوحي، ومنها منابت الذكرى، ومنها مثابة التقديس والعبادة، قد اصطفاها الله على سائر الأماكن، وجعل أفئدة من الناس تهوي إليها:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ (الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران).

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ (الآيات ١١ - ١٣ من سورة طه).

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (أول سورة الإسراء).

وهذه الأزمنة منذ خلق الله الليل والنهار تتتابع أيامًا إثر أيام، ، وأعوامًا إثر أعوام، وكلها متشابهة متناسقة تطلع شمسها وتغيب، ويتجلى نهارها، ويغشى ليلها، ولكن الله اصطفى منها مواسم لرحمته، واختار منها أيامًا وليالي لنعمه وأفضاله:

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (أول سورة الفجر).

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (الآية ٧٨ من سورة الإسراء).

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (الآية ٣ من سورة القدر).

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ (الآية ٣ من سورة الدخان).

اصطفاء شهر رمضان:

على هذه السنة اختار الله شهر رمضان، واصطفاه على سائر الأزمان، فهو الشهر الوحيد الذي صرح باسمه في القرآن الكريم، وهو الشهر الوحيد الذي أفاض الله فيه أكثر نعمه على عباده، وهي كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. هذا الكتاب الذي كان من أبرز تعاليمه أن سما بالعقل الإنساني عن الوثنية المظلمة، وعن صفوف المربوبية والخضوع لغير الله، إلى التوحيد الخالص الوضاء، فأصبح الإنسان لا يعرف إلا ربًا واحدًا، له تعنو الوجوه، وإليه تنيب القلوب:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (الآية ٦٤ من سورة آل عمران).

تعاليم القرآن:

هذا الكتاب الذي كان من أبرز تعاليمه أن فك عن العقل الإنساني أغلال التقليد والجمود، ودفع به إلى النظر في ملكوت السموات والأرض، وحرصه على اقتحام الحجب، واكتناه الأسرار كي ينتفع الناس بما سخر لهم في هذه الحياة، ويشعروا بسلطان العزة الفكرية التي كرم الله بها الإنسان:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الآية ١٨٥ من سورة الأعراف).

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الآية ١٠١ من سورة يونس).

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾

(الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة الذاريات)

هذا الكتاب الذي كان من أبرز تعاليمه أن أهاب بالناس إلى تحطيم الفوارق بين بني الإنسان، وأعلنهم في صراحة لا تعرف المواربة أنهم جميعًا من نفس واحدة، وأنهم ما جعلوا شعوبًا وقبائل للتناحر والتقاتل، ولكن للتعارف والتعاون، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم، وهو من يعمل الخير للخير، ويسدي الجميل للجميل.

هذا الكتاب الذي كان من أبرز تعاليمه أن رسم للناس جميعًا طريق الخير في حياتهم، ثم دعاهم إليه، وحذرهم من مخالفته: ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (الآية ١٥٣ من سورة الأنعام).

جدير بكتاب هذا شأنه ـ تطأطئ الرءوس لعظمة تعاليمه ـ أن يكون زمن الإنعام به عيدًا يذكر به الموحدون جميعًا فضل الله على الإنسانية بهذا الهدي الإلهي الكريم.

شرعية الصيام في شهر رمضان:

وإذا كان مما ألفه الناس أن يحتفلوا بذكرياتهم العظيمة ذات الأثر الخالد في حياتهم، حين يمرون بأمكنتها، أو تمر عليهم أزمنتها، فإن الله سبحانه وتعالى قد رفع شأن رمضان،

فرسم بنفسه أسلوب تكريمه، ومظهر تعظيمه، فافترض على المسلمين في جميع بقاع الأرض صومه، وجعله ركنًا من أركان دينهم، وعنصراً من عناصر الشخصية الإسلامية.

وصوم رمضان «عبادة تلتقي في هدفها مع أهداف القرآن في تربية العقول والأرواح وتنظيم الحياة» يوحد بين المسلمين في أوقات الفراغ والعمل، وأوقات الطعام والشراب، ويفرغ عليهم جميعًا صبغة الإنابة والرجوع إلى الله، ويرطب ألسنتهم بالتسبيح والتقديس، ويعفها عن الإيذاء والتجريح، ويسد عليهم منافذ الشر والتفكير فيه، ويملأ قلوبهم بمحبة الخير والبر لعباد الله، ويغرس في نفوسهم خلق الصبر الذي هو عدة الحياة. وهكذا يريد الله أن يكون الإنسان.

هذا هو رمضان:

هذا هو رمضان في القرآن، وهذه هي النعمة التي أنعم الله بها على عباده في رمضان، وهذا هو الصوم الذي طلبه الله في هذا الشهر، شكراً على تلك النعمة.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الآية ١٨٥ من سورة البقرة).

* * *

هذا كتابكم يهدي للتي هي أقوم، وهذا شهركم يذكركم بنعمة الله عليكم، فاتقوا الله فيهما واصبروا وصابروا.

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الآية ١٠٣ من سورة آل عمران)

رمضان وإيحاؤه

مصادر الإيحاء للإنسان:

لكل شيء في هذه الحياة إيحاء، فلأسماء الأشخاص إيحاء، ولأسماء الأمكنة إيحاء، ولأسماء الأزمنة إيحاء، وما من مرئي ثم عليه البصر أو مسموع يتصل بالسمع إلا وله إيحاء.

ولعل أقوى ما يربط الإنسان بماضيه وينير له طريق مستقبله، ويركزه في حاضره على أسس قوية وسبل بينة تكشف له سنن الخير، وتبعده عن سنن الشر، هو ما يتلقاه من هذه الإيحاءات.

ولعل أيضًا أقوي ما بعث الناس إلى اتخاذ أماكن الذكريات أو أزمنتها أو أصحابها، أعياداً يتنبهون بها وعيهم القومي والتاريخي، ويقبلون فيها صفحات مجدهم الماضي، ومبعث عزتهم التي عليها يحافظون. لعل أقوى ما بعثهم إلى ذلك هو ما يلهمون به في تلك الإيحاءات من وسائل العزة والكرامة، ووسائل الخير والفلاح.

على هذا وذاك فطر الإنسان فتلقي الوحي من الزمان والمكان والإنسان، واندفع بطبيعته أيضًا إلى تقديس مصدر ذلك الوحي.

الإيحاء الشعبي لرمضان:

ورمضان لم يكن إلا اسمًا زمنيًا لشهر معروف في السنة القمرية، يقع بين شعبان وشوال، ولكن له عند المسلمين إيحاء تهتز له قلوبهم وتنشر به صدورهم وتسمو به أرواحهم، وتكثر خطوط إيحائه كلما اتسعت معارف الإنسان بخصائصه وحوادثه وآثاره.

وفي الحق أن إيحاء رمضان امتد واتسع حتى أدركه الأطفال وهم في الشوارع يلعبون، فهم لا يكادون يلهمون بحلوله حتى تراهم مجتمعين وقد رتلوا الأغاني وحملوا المصابيح

وجاسوا خلال الديار في الأزقة والشوارع، معلنين الفرح والابتهاج بحلول رمضان، وكأنهم لمحوا من وراء الحجب ومن حيث لا يشعرون ما يحمله رمضان من النور والهدى، ومن معنى التآلف والترابط، فرمزوا إلى كل ذلك في حفاوتهم الطبيعية البريئة بالتآلف والتجمع وإضاءة المصابيح.

الإيحاء للخواص رحلة إلهية:

أما الذين يفهمون رمضان ويعرفون خواصه وأحداثه، فكلمة رمضان توحي إليهم بما توحي- توحي برحلة إلهية ميقاتها الشهر كله، يخلع فيها المؤمن نفسه من حياة مادية مظلمة إلى حياة روحية مضيئة، يخلع فيها نفسه من هموم الدنيا وأكدارها إلى لذة لا يعرفها ألم، وسعادة لا يعرفها شقاء، فيبدأ يومه: باسمك اللهم صمت، ويختم نهاره: باسمك اللهم أفطرت، وفيما بين الوقتين يقوم لله قانتًا: يركع مسبحًا، ويسجد داعيًا، مرتلاً وحيه وقرآنه حتى مطلع الفجر، وهكذا دواليك حتى يبلغ الغاية ويصل إلى النهاية، فيسبغ الله عليه حلة الرضا والغفران، ويعود بعد ذلك إلى دنياه وقلبه متعلق بمولاه، يخشى الحرمان بعد العطاء، والغضب بعد الرضا، والطرد بعد الإيواء، فظل متمسكًا بجانب التقوى ما استطاع فيفي للرب بعهده، ويقوم للعبد بحقه ويصير مصدر خير لنفسه وللناس، وهكذا إيحاء رمضان.

شهر الثورة السماوية على الباطل:

وإذا كان لرمضان هذا الإيحاء الروحي من جهة ما فرض فيه من عبادة الصوم وترك المشتهيات، فإن له من جهة أحداثه التي وقعت فيه إيحاء بهذه الثورة السماوية التي زلزلت عرش الباطل وهدمت قوائمه وأركانه، ذلك الباطل الذي أفسد على الإنسان عقله فأنكر ربه وخالقه، وألّه ما لا يسمع ولا يبصر، فعبد الشمس والقمر، وعبد الأصنام والأوثان، واتجه في شدته وكربه إلى ما لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرراً، ذلك الباطل الذي أفسد على الإنسان عاطفة الرحمة وملأ قلبه جبروتًا وقسوة، فقتل الأبناء وهتك الأعراض واستلب الأموال واستذل الضعفاء وسخر الفقراء ولم تجد الرحمة منفذًا إلى قلبه وسلب الإنسان خاصية الإنسان، ذلك الباطل الذى أفسد على الإنسان تصوره للحياة فظنها مادة عليها

يتهالك ولها يجمع وبشهواتها يلهو . أغضب هذا الباطل رب السماء، ولم ترض الحكمة الإلهية ببقاء الإنسان على هذه الحال، يكتنفه الفساد من كل جانب، فأطلقت نور الحق في شهر رمضان على يد محمد ﷺ، ونزل عليه توجيهًا له نحو القضاء على الفساد :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (الآية أول سورة العلق)

وبذلك نزل الكتاب المبين يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا، فكان هدى للبشرية، وفرقانًا ميزت به الخبيث من الطيب، وعرفت به كلمة الحق في الألوهية والرسالة، والبعث والجزاء، وفي علاقة الإنسان بأخيه الإنسان في الحياة الدنيا، وهكذا كان إيحاء رمضان :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (الآية ١٨٥ من سورة البقرة)

النصر والفتح في رمضان:

وإذا كان رمضان يوحي هكذا بهذه الهداية العظمي، هداية التشريع والإرشاد، فهو يوحي من جانب آخر بالعوامل الحقة في تركز السلطات واستقرار الكلمة، يوحي بعوامل النصر والغلبة، يوحي بأن النصر معقود بالصبر والإخلاص والتقوى، وليس معقودًا بكثرة الجنود ولا بسعة الملك والعمران ولا بقوة الحديد والنار، يوحي بذلك رمضان حينما نذكر أن أول صدمة زعزعت حصون الشرك والضلال والبهتان هي صدمة الحق للباطل في غزوة بدر ، وكان ذلك في رمضان :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الآية ١٢٣ من سورة آل عمران)

وإذا كان رمضان يوحي بتركز الحق هكذا، بيانًا وتشريعًا، وقوة وسلطانًا، فهو يوحي أيضًا بذلك الحادث العظيم الذي عاد به أنصار الله أولياؤه إلى أوطانهم بعد أن أخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ذلك الحادث هو حادث الفتح الأعظم الذي يذكرنا به رمضان . ذلك الحادث الذي طهر فيه بيت الله من الأصنام والأوثان، وامتد سلطان الله في أرض الله، وأصبحت كلمته هي العليا وكلمة الضلال والبهتان هي السفلى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾

(الآيات من ١ـ٣ من سورة الفتح)

واجب المسلمين في استقبال رمضان:

هذا هو رمضان وهذا هو إيحاؤه، جدير بالمسلمين أن تنفتح له قلوبهم، وتصغى إليه أفئدتهم، وأن يسدوا به منافذ الإيحاء الشيطاني، الذي تملكهم وألهاهم عن إيحاء الخير: فرق كلمتهم وأضعف سلطانهم، وأفسد أخلاقهم، وأمات الغيرة من نفوسهم، وسلبهم شخصيتهم الكريمة، وصاروا إلى خليط من الشخصيات لا تعرف جنسيته ولا يعرف دينه، شخصية لا شرقية ولا غربية، ولا إسلامية ولا مسيحية ولا يهودية.

جدير بهم وقد استظلوا بظل رمضان أن يفقهوا إيحاء رمضان، وأن يذكروه، وأن يعملوا بمقتضاه عسي أن ترجع إليهم الكلمة ويعود إليهم السلطان وتستقيم لهم الحال، وعندئذ يكون استقبالهم لرمضان، وابتهاجهم برمضان، استقبالاً للعزة والكرامة، وابتهاجًا بالمجد والعظمة:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الآيتان ١٦، ١٧ من سورة الحديد)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (الآيات ١٠ - ١٤ من سورة الصف)

العبادة في شهر رمضان

شهر القرآن:

اختار الله شهر رمضان ليكون مظهرًا لرحمته بعباده، أنزل عليهم فيه القرآن الكريم، والقرآن هو كتاب الهداية السماوية الأخيرة الذي أكد تطهير العقيدة وتهذيب النفس، وإصلاح العمل، وأرشد إلى كثير من سنن الاجتماع، التي ترتبط بها سعادة الناس وشقاؤهم، وحثهم أن يسلكوا إلى السعادة سبيلها، وحذرهم سبيل الشقاء.

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الآية ١٥٣ من سورة الأنعام)

وفتح أمام العقل البشري كتاب الكون، وقلب له صفحاته، وأطلعه على صوره، وأهاب به أن يفك عن نفسه أغلال الجمود والتقليد، والأوهام والخرافات، ودفعه إلى النظر فيه ليتعرف أسراره، والوقوف بها على آياته، وباهر صنعته في خلقه.

ثم منحه به حرية واسعة يفكر بها في شأنه ويقدر ما يحتاج إليه في حياته، وينعم به في مجتمعه، وبذلك كله عرف الإنسان قيمته عند الله، ومكانته في هذه الحياة، عرف أن الله لم يخلقه ليقاد بالزمام، أو ليسخر لنفر من الطغام، وإنما خلقه ووهبه العقل والإرادة ليحتفظ بكرامته، فيفكر ويعمل، فيسعد أو يشقى:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الآيتان ٢، ٣ من سورة الدهر)

شهر التصفية الروحية:

أمام هذه الآية الإلهية التي جلاها الله بالقرآن للإنسان في هذا الشهر، اقتضت حكمته أن يجعل منه ميقاتًا للتصفية والرياضة الروحية، التي تلتقي في غايتها مع تلك الهداية

العامة التي فتح القرآن أبوابها للناس، فشرع فيه جملة من العبادات يتخذها المؤمن وسيلة للتقرب إليه، وعنوانًا على التعلق به، وتعبيرًا صادقًا عن الخضوع له، والشعور بسلطانه عليه، شعورًا منشؤه الإيمان بعظمته، والإيمان بجلاله وجماله، وتلك هي العبادة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ (الآية ٢١ من سورة البقرة)

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الآية آخر سورة الحجر)

شرع فيه الصوم، وشرع فيه الصلاة، وشرع فيه الاعتكاف. وثلاثتها من صور العبادات القديمة التي شرعها الله عنوانًا على تقديسه وعبادته في جميع رسالاته إلى خلقه، شرعها مادة تغذي الإيمان وأثرًا واضحًا يرشد إليه.

الصوم:

أما الصوم فقد كان من خصائص رمضان فيه فرضيته على المؤمنين، وقد أرشد القرآن إلى قدمه بقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (الآية ١٨٣ من سورة البقرة)

وأرشد إلى حكمته بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وأرشد إلى اختيار رمضان للصوم بقوله:
﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (الآية ١٨٥ من سورة البقرة)

وأرشد إلى رحمة الله فيه بأصحاب الأعذار الذين يضعفهم الصوم، وإلى أنه لم يحتمه إلا على الأصحاء المقيمين في أوطانهم بقوله:

﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

أما الصلاة فقد حكاها الله في كتابه عن الأنبياء والمرسلين، فإبراهيم يُسكن ذريته بواد غير ذي زرع عند بيته الحرام ويقول:

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (الآية ٣٧ من سورة إبراهيم)

وعيس ـ عليه السلام ـ يحدث عن نعمة الله عليه ويقول: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ ﴾، وينوه الله بشأن إسماعيل ويقول: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ ﴾

(الآية ٣٥ من سورة مريم)

ثم يوجه الخطاب إلى النبي محمد ﷺ ويقول، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (الآية ١٢٣ من سورة طه).

قيام رمضان:

وقد خص الإسلام من الصلاة شهر رمضان بنوع يعرف عند المسلمين بصلاة التراويح، فعله الرسول مع أصحابه في رمضان، ودرجوا عليه من بعده، واستمر المسلمون عليه من بعده إلى اليوم، يحيون به ليالى رمضان، ويؤدونه جماعة في مساجدهم، وبذلك كانت صلاة التراويح شعارا تعبديًا خاصًا بشهر رمضان، يهرع إليه المسلمون في مساجدهم، به تستنير القلوب، وبه تضاء المساجد، وهي تؤدي عقب صلاة العشاء وقبل صلاة الوتر، ركعتين ركعتين مع استراحة بين كل أربع وأربع. بها يتحقق إحياء رمضان، وقيامه، وقد جاء فيها قوله ﷺ: إن الله عز وجل فرض صيام رمضان، وسننت قيامه، فمن صامه وقامه إيمانًا واحتسابًا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. والمراد من الاحتساب أن يقصد به وجه الله دون رياء ولا سمعة، والاحتساب هو روح التقوى الذي يتقبل به الطاعات «إنما يتقبل الله من المتقين».

الاعتكاف:

أما العبادة الثالثة، وهي الاعتكاف، فهي أن يقيم المسلم في بيت من بيوت الله بنية حبس النفس على طاعته وملازمة بيته تدريبًا على تذوق الطاعات والبعد عن المغريات، وقد جاء قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ (الآية ١٨٧ من سورة البقرة)

ودل على أنه شرع قديم قوله تعالى لإبراهيم وإسماعيل: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (الآية ١٢٥ من سورة البقرة) ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (الآية ٢٦ من سورة الحج).

وصفته في المشروعات الدينية أنه سنة مؤكدة في العشر الأواخر من رمضان على سبيل الكفاية، ومعنى هذا أنه يطلب من جماعة المسلمين أن يكون فيهم من يقوم بهذه العبادة، وقد روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان يعتكف في العشر الأواخر منذ قدم المدينة إلى أن توفاه الله تعالى. وقال بعض التابعين: «عجبًا من الناس، كيف تركوا الاعتكاف، وقد كان رسول الله ﷺ يفعل الشي ويتركه وما ترك الاعتكاف حتى قبض» والوجدان يشعر أن الاعتكاف فيه مع المراقبة والإخلاص تسليم النفس إلى المولى، وملازمته عبادته في بيته، والتحصن بحصنه، وقد نبه على المقصود منه، وأماط الغطاء عن حقيقته ما قاله أحد المتذوقين لحلاوته « مثل المعتكف مثل رجل يختلف على باب عظيم لحاجة، فالمعتكف يقول لا أبرح حتى تغفر لي» تلك هي العبادات الثلاث التي شرعها الله في رمضان شكرًا له على نعمة القرآن، وتعويدًا للنفس على ما يقويها ويرفع روحانيتها، ويصل بها إلى مكانة الملأ الأعلى.

أيها المسلمون:

صوموا رمضان، وقوموا ليله بمناجاة الله، قفوا ببابه ولازموا تقواه يكن كل ذلك عونًا لكم على القيام بالواجب، وإصلاح الفاسد، وتنظيم الشئون، والسير في طريق العزة والخلود:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾
(الآية ٣١ من سورة آل عمران)

الصيام في الإسلام

هذا شهر رمضان قد أظل المسلمين ووحد بينهم في مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم. وحد بينهم في شعورهم، وسرورهم، وحد بينهم في استعادة ذكرياتهم المجيدة، وحد بينهم في ليلهم ونهارهم، وفي وقت طعامهم وشرابهم. جعل فقراءهم وأغنياءهم، وحكامهم ومحكوميهم، ورجالهم ونساءهم، في ذلك كله سواء.

كأني بهم جميعًا يتبادلون التهنئات بهذا الشهر المبارك، مشرقة وجوههم، باسمة ثغورهم، منشرحة صدورهم، طيبة نفوسهم. وكأني بهم يذكرون بهذا الشهر المبارك «عيد القرآن» عيد الكتاب العربي المبين، الذي كان نعمة الله على المسلين، بل نعمة الله على البشر أجمعين:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾

(الآية ١٨٥ من سورة البقرة)

كأني بهم جميعًا وقد قاموا بالأمس من نومهم في غير وقت قيامهم، ممسكين عن طعامهم وشرابهم وسائر شهواتهم إيمانًا بالله، واحتسابًا لثوابه، وابتغاء مرضاته، لا فرق بين صعلوكهم وأميرهم، ولا امتياز لغنيهم على فقيرهم، كلهم أمام أمر الله عباد مستوون.

كأني بهم وقد نشطت نواديهم، وحفلت مجتمعاتهم، وانطلقت ألسنة محاضريهم وخطبائهم، يذكرون بالخير، ويحضون على البر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتواصون بالحق، ويتواصون بالصبر.

فمرحبًا مرحبًا بك أيها الشهر الكريم، وهنيئًا لكم أيها الصائمون المؤمنون المحتسبون.

عبادة قديمة:

إن الصوم عبادة قديمة جاءت بها الأديان السابقة فكانت ركنًا مهما من أركان كل دين. فأناجيل النصارى تذكر الصوم وتمدحه وتعتبره عبادة كبري، وقد صام عيسي ـ عليه السلام ـ والحواريون ـ رضي الله عنهم ـ. والتوراة تفرض الصوم بعض الأيام، ومنها فيما يروى يوم عاشوراء، وقد صام موسى ـ عليه السلام ـ أربعين يومًا، بل إن الوثنيين يعرفون الصوم، فقد كان المصريون في أيام وثنيتهم يصومون، وأنتقل منهم الصوم إلى اليونان والرومان، ولا يزال الوثنيون في الهند يصومون إلى الآن، ويكاد الصوم يكون أمرًا فطريًا يلجأ إليه كل كائن حي فترة أو فترات من الزمان، حتى إننا نجد بعض الحيوانات كالجمال مثلاً تصوم، فالصوم إذن فطرة مألوفة، وعبادة معروفة، ولذلك يخاطب الله المؤمنين في آخر تشريع إلهي بقوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾

(الآية ١٨٣ سورة البقرة)

الصوم في الإسلام:

والصوم في الإسلام هو الإمساك عن الطعام والشراب والمعاني الجنسية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس إيمانًا واحتسابًا لله تعالى.

وقد حُدد طلوع الفجر مبدأ للصوم على خلاف ما كانوا يفعلون: فإنهم كانوا يأكلون ويتمتعون من الغروب إلى وقت النوم، فإذا نام أحدهم فقد بدأ صيامه فليس له أن يذوق بعد ذلك طول ليله طعامًا أو شربًا، ولا أن يتمتع بالنساء ولو استيقظ قبل الفجر بوقت فسيح، وعلم الله أن ذلك تشديد تأباه رحمته ولا يتفق مع شريعته السمحة، وأنهم بذلك ينتقصون حقوق أنفسهم في التمتع بالليل كله، فقضت حكمته أن يتوب عليهم ويعفو عنهم فيما ضيقوا به على أنفسهم، وأن يبين لهم مبدأ الصوم ونهايته فقال:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ (الآية ١٨٧ من سورة البقرة)

وكان هذا نوعًا من التعديل الذي أدخله الإسلام على الصوم، وجري فيه على سنة التخفيف ودفع الحرج عن الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الآية ١٤٣ من سورة البقرة) .

اليسر في الصوم الإسلامي:

نعم . جرى الإسلام في تشريعه للصوم على سنته في تكليف الناس بما لا يعنتهم

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الآية آخر سورة الحج)

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (الآية ١٨٥ من سورة البقرة)

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ (الآية ١٤٧ من سورة النساء)

فجعل المسلمين أمام الصوم أقسامًا ثلاثة :

القسم الأول : المقيمون الأصحاء القادرون على الصوم بلا ضرر يلحقهم ولا مشقة ترهقهم، وهؤلاء يجب عليهم أن يصوموا شهر رمضان كله، ومن انتهك منهم هذا الشهر بإفطاره، وجرح شعور المسلمين في مظهر وحدتهم الدينية، وكدر صفاء روحانيتهم فقد استوجب غضب الله وباء بسخطه، ووجب على ولي الأمر تأديبه بما يزجره عن المعاودة، ويردع غيره عن المجاراة .

وإذا أحس هذا المسيء الخارج على وحدة المسلمين بذنبه، وأراد أن يتطهر منه وأن يستمطر عفو الله عنه، فليتب إلى الله توبة نصوحًا، وليؤد ما وجب عليه من القضاء والكفارة .

وكم يؤسفني، ويؤسف كل مسلم غيور، أن نري كثيرًا من الأجانب ينزلون على حكم الآداب العامة الاجتماعية، فلا يتناولون طعاما ولا شرابًا، ولا يدخنون أمام الصائمين من المسلمين رعاية لشعورهم، وكراهة لإزعاجهم، على حين نري المسلمين أنفسهم يجاهرون بالإفطار على ملأ من إخوانهم الصائمين فلا يستخفون من الله ولا يستخفون من الناس !

المريض والمسافر:

القسم الثاني : هم المرضى والمسافرون، وهؤلاء يباح لهم الإفطار، وعليهم قضاء ما أفطروا في أيام أخر قال تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (الآية ١٨٤ من سورة البقرة)

قضت الشريعة بذلك، لأن شأن المرض والسفر التعريض للمشقة، فإذا ما تعرض المسافر أو المريض للضرر ولو بالظن القوي وجب عليه الإفطار، وكان الصوم حينئذ إعراضًا عن رخصة الله، وإلقاء بالنفس إلى التهلكة باسم التدين والطاعة، وما ذلك إلا التنطع والعصيان!

وقد أطلق الله المرض الذي أباح به الفطر، فلم يقيدة بالشديد وبما يخاف تماديه أو زيادته بالصوم، فكل حالة تستحق عرفًا أن تسمى «مرضًا» فهي مبررة للفطر، أما ما لا يسمى مرضًا في العرف كالصداع الخفيف الطارئ، واحمرار العين، والبثرات الجلدية الخفيفة ونحو ذلك، فليس من هذا السبيل.

قال طريف بن تمام العطاردي: دخلت على محمد بن سيرين في رمضان وهو يأكل، فلما فرغ قال: وجعت أصبعي هذه.

وقال البخاري: اعتللت بنيسابور علة خفيفة، وذلك في شهر رمضان، فعادني إسحاق ابن راهويه في نفر من أصحابه فقال لي: أفطرت يا أبا عبدالله؟ قلت: نعم. فقال خشيت أن تضعف عن قبول الرخصة. فقلت: حدثنا عبدان عن ابن المبارك عن عبدالله جريج قال: قلت لعطاء: من أي المرض أفطر؟ قال من أى مرض كان كما قال الله تعالى:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾

قال البخاري وهذا الحديث لم يكن عند إسحاق، أى أن إسحاق كان يري هذا فهمًا من الآية، وقد تأيد بالحديث فهي رخصة عظيمة لا يأباها إلا من يضع نفسه موضع المشرع الحكيم.

وكما أطلق الله سبحانه في المرض أطلق في السفر، فلم يقيده بشيء لا في مداه ولا في وقته: فكل حالة تستحق عرفًا أن يطلق عليها لفظ السفر فهي مبيحة للفطر، وسواء في ذلك ما طرأ من السفر بعد الصوم وما كان قبله.

روى البخاري وغيره عن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ في رمضان والناس مختلفون فصائم ومفطر، فلما استوى على راحلته دعا بإناء من لبن أو ماء فوضعه على راحلته، ثم نظر الناس(*).

(*) زاد في رواية: «ثم دعا بماء فشرب نهارا ليراه الناس».

وعن محمد بن كعب قال: أتيت أنس بن مالك في رمضان وهو يريد سفراً وقد رحلت له راحلته ولبس ثياب السفر، فدعا بطعام فأكل، فقلت له: سنة؟ فقال: سنة، ثم ركب. رواه الترمذي.

وعن عبيد بن جبر قال: ركب مع أبي بُصرة الغفاري في سفينة من الفسطاط في رمضان فدفع، ثم قرب غداءه، ثم قال: اقترب، فقلت: ألست بين البيوت؟ فقال أبو بصرة: أرغبت عن سنة رسول الله ﷺ؟ رواه أحمد وأبو داود.

وهذا من تمام نعمة الله على عباده وسيره بهم في طريق اليسر والسهولة، فلا ينبغي لمؤمن أن يضيق صدره بصدقة الله عليه، ولا يجوز له أن يتزمت فيجتنب رخص الله، فإن الله يحب أن تؤتى رخصه، ويجب أن يرى آثار نعمته على عباده ﴿إنه هو البر الرحيم﴾.

الشيخ الكبير ومن يماثله:

القسم الثالث: من يشق عليهم الصوم ويجهدهم جهداً شديداً لسبب من الأسباب التي لا يرجي زوالها: كالشيخوخة، والمرض المزمن، ونحو ذلك.

وهؤلاء أباح لهم البر الرحيم أن يفطروا، وكلفوا بالإطعام بدلاً عن الصوم. قال تعالى: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ** ﴾

يطيقونه: أي يتحملونه بعسر ومشقة وجهد. يقال: فلان يطيق حمل الصخرة العظيمة، ولا يقال: يطيق حمل البيضة أو النواة مثلاً. فمعنى الآية أن من كان يطيق الصوم ويتحمله بجهد ومشقة فوق ما يعتاد من التكاليف فعليه فدية هي إطعام مسكين عن اليوم الواحد.

وفي حكم ما ذكرنا من الشيخوخة والمرض ما يزاوله بعض العمل والصناع من أعمال تكاد تكون مستمرة طوال العام، ويشق عليهم الصوم معها مشقة عظيمة، فإذا تعينت هذه الأعمال سبيلاً لعيشهم بأن لم يجدوا سواها، أو لم يحسنوا غيرها، فلهم أن يفطروا ويطعموا عن كل يوم مسكينًا، ومن هؤلاء عمال المناجم، والغواصون الذين يستخرجون الأشياء من البحار وأمثالهم.

مراتب الصوم:

هذا. وللصيام في الإسلام مراتب ثلاث:

المرتبة الأولى: هي الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة خاصة فحسب، فهذا هو الصوم الظاهر الذي يكتفي أكثر الناس به، ويظنون أنهم أدوا به الواجب، وخرجوا به من العهدة.

المرتبة الثانية: وهي المرتبة الأولى مضمومًا إليها صوم الجوارح عن ارتكاب الآثام: فصوم اليد إمساكها عن الإيذاء وتناول المحرمات، وصوم الرجل إمساكها عن السعي إلى الفساد والمشي إلى ما يغضب الله، وصوم اللسان إمساكه عن قول المنكر، وعن اللغو والكذب والهذيان والغيبة والنميمة والفحش والمراء وزور الكلام، وصوم الأذن: إمساكها عن الإصغاء إلى الإفك واستماع الأكاذيب، والإنصات إلى المشائين بالنميمة، وصوم العين: إمساكها عن النظر إلى الحرمات، والتطلع إلى الأسرار، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم».

«وقد صامت امرأتان على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار، حتى كادتا أن تتلفا، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ تستأذنانه في الإفطار، فأرسل إليهما قدحًا وقال ﷺ قل لهما: قيئا فيه ما أكلتما، فقاءت إحداهما نصفه دمًا عبيطًا ولحمًا غريضًا، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه، فعجب الناس من ذلك، فقال ﷺ: هاتان صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما: قعدت أحدهما إلى الأخرى فجعلتا تغتابان الناس، فهذا ما أكلتاه من لحومهم!

أما المرتبة الثالثة: فهي مع كل ما تقدم صوم القلوب، وتطهيرها عن كل ما لا يناسب الإيمان ولا يلائم الإخلاص، فالتفكير في الخطايا وتدبير الفتن إفطار، والتوجه إلى غير الله بالقصد والرجاء إفطار، وصرف الهمة في دنيات الأمور إفطار، والحسد إفطار، والحقد إفطار، وترك المعروف بهجر إفطار، والسكوت عن المنكر يرتكب إفطارا، والتهاون في إقامة الحدود ورد المظالم إفطار، والتلاعب بالمصالح العامة إفطار، وهكذا.

تلكم - أيها المسلمون - هي مراتب الصوم، وإذا كان الفقهاء قد تمسكوا بظواهر النصوص فقالوا بصحة الصوم بمجرد الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة وهي المرتبة الأولى، فذلك لأنهم يشرحون صوم المؤمنين، ومن قضية الإيمان - قبل الصوم - كف الجوارح عن الآثام، وتطهير القلوب عن التفكير فيما لا يناسب الإيمان، وليس من قضية الإمساك عن الطعام والشراب والمعنى الجنسي، وقد أفصح رأي العلماء الذين عرفوا روح الشريعة، وأدركوا أسرار الدين أن هذه المرتبة من الصوم لا تعتبر ولا تعد شيئا مذكوراً، وأن الصوم الذي أمر الله به وكلف به عباده، لا يتم إلا إذا صامت مع البطن الجوارح والقلوب، وقد روي جابر عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة» وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش».

الصوم تكليف تعبدي:

هذا هو الصوم في الإسلام، وهو تكليف إلهي صادر عن الرب، الذي له بمقتضى ربوبيته وألوهيته أن يكلف عباده بما شاء من التكاليف، وأن يرسم لهم ما يريد من مراسل العبادة ودلائل الخضوع والعبودية: هو تكليف إلهي كسائر التكاليف التي تظهر بها ربوبية الرب، وعبودية العبد، يجب علينا أن نخضع لأمر الله فيه كما طلبه هو، وكما رسمه هو.

تعليل العبادات بأغراض مادية:

ولقد يطيب لكثير من الناس أن يأتوا إلى العبادات التي كلفنا الله بها فيبحثوا عن المقصود منها، وعن الغرض الذي كان لأجله التكليف بها. ولما كان اتجاه الناس دائمًا أو غالبًا إلى الأمور المادية التي يظنونها مقياس السعادة وأسباب الصلاح والهناءة. فإنهم يتجهون في بحوثهم التي يحاولون بها تعليل العبادات وأنواع التكاليف إلى أحكام مادية، وأغراض عملية يربطون بينها وبين التكليف بالعبادة المطلوبة على نحو من الأنحاء.

تراهم في الوضوء يقولون: لقد شرعت هذه الطهارة المائية لأغراض صحية لا تخفي، فإن الإنسان إذا غسل وجهه وأطرافه خمس مرات في كل يوم نظف وصح بصره، وأزال عن نفسه العرق والغبار... إلخ. فإذا قيل لهم: شرعت هذه الطهارة بالتراب وبإمرار اليد على الصخرة الملساء - وقفوا حيارى!

وتراهم يقولون في الصلاة: هذه الصلاة نوع من الرياضة الجسمية بديع، فهي حركات في اتجاهات مختلفة من قيام وجلوس، وركوع وسجود ورفع، يقوم بها الإنسان في أوقات معينة فيستفيد منها هذه الفائدة الرياضية.

وإذا قيل لهم. إن هناك حركات بأوضاع الصلاة أقوى في تحصيل الرياضة من حركات الصلاة - وقفوا حيارى !

وتراهم يقولون عن الحج : هو مؤتمر عام للمسلمين في كل عام يجتمع فيه المصري مع الشامي، والتركي والعراقي والحجازي وهكذا، فيتدارسون شئونهم، ويتعرفون أحوالهم، ويستمع بعضهم إلى بعض، ثم يعودون إلى بلادهم، وقد ارتبطت بينهم الصلات، وأنشئت العلاقات . . . إلخ.

فإذا تحدثوا عن الصوم قالوا : ما أبدعه من رياضة صحية تستريح بها المعدة من عناء العمل المتواصل المضطرب عامًا كاملاً، فإن الجوع والإمساك وقاية من كثير من الأمراض، وعلاج لكثير من الأمراض . . . وهكذا.

ما لهم به من علم:

هؤلاء يفسرون العبادات والتكاليف التي كلفهم الله بها على هذا النحو، يخترعون لها عللاً وأغراضًا مادية كالتي ذكرنا، لأن المادة غلبت عليهم، ولأنهم رأوها هي كل شيء، وظنوها أساس الحياة السعيد، ولكنهم نسوا أن هذا كله إنما هو التماس لشيء من الحكم على سبيل الظن والتخمين، وما لهم بذلك من علم، فمن ذا الذي يستطيع أن يقطع بأن الله حين شرع الوضوء، وجعله شرطًا للصلاة أراد منه هذا المعنى الذي يذكرون؟ ومن ذا الذي يطمئن إلى مثل ما قالوا عن الصلاة والحج والصوم، إلا الذين تعجبهم مثل هذه الخطابيات التي تظهر بها براعة الخطباء، وحسن تعليل المؤلفين، وقدرة الكتاب والمنشئين؟

لا - أيها - المسلمون - لا تركنوا إلى مثل ذلك، ولا تعدوه غاية التشريع ومقصد المشرع، ولكن اسموا بالعبادة عن هذا المستوي المادي، وارتفعوا بها عن هذه الأغراض التي هي قصارى ما يعرفه الناس في تشريعاتهم، واعلموا أن الذي يأمر وينهي هو الله، هو الرب الخالق المبدع، المصور الحكيم الذي يدين كل شيء في الوجود لعظمته وجلاله، فهو

يأمر لأنه إله، وهو ينهي لأنه إله، وهو يرسم الطريق الذي يريده هو من عباده، فعلى عباده أن يفعلوا ما أمرهم بفعله، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه، وألا يحاولوا تعليل أوامره في العبادة ونواهيه بما يضلون فيه، أو بما قد يجرهم إلى التهاون في أمر الله ونهيه، اتكالا على أنهم حققوا في أنفسهم الغرض المقصود من طريق غير هذا الطريق.

نتائج سيئة الاتجاه:

لقد سمعنا بعض الناس يقول: إذا كان الغرض من الصوم أمرًا يعود إلى الصحة، أو إلى العطف على الفقير والمسكين، أو إلى تعود الصبر أو نحو ذلك، فنحن نستطيع أن نحقق هذه الأغراض بغيره من أنواع الرياضيات والتربويات، ولا لزوم للصوم.

وسمعنا من يقول: إذا كان الغرض من الحج تقوية الروابط بين المسلمين وتعرف أحوالهم، فإن لذلك وسائل كثيرة، وليس منحصراً في الحج وما فيه من عناء وسفر ومشقة في بلاد تكثر فيها الأمراض، وتقل فيها وسائل الحياة والتنقل والإقامة.

وسمعنا من يقول: إذا كانت الصلاة رياضة بدنية أو روحية - إنما شرعت لتصلح الناس ظاهراً أو باطنًا - فهي وسيلة وليست غاية، فإذا تحققت فلا لزوم للوسيلة.

سمعنا هذا كل، وسمعنا كثيراً غيره، وما جرنا إلى هذا وأمثاله إلا أننا أردنا أن نفلسف العبادات والتكاليف، ونربط بينها وبين الأغراض المادية التي ألفناها وأولعنا بها، ومن الخير للمؤمنين أن ينظروا إلى ما طلبه الله منهم نظرة غير هذه النظرة، نظرة أسمى منها وأجل، ذلك أنهم عباد لله خاضعون، وأنهم مربوبون لرب العالمين الذي خلقهم وسواهم وأنعم عليهم، وهو المالك لهم، فمن شأن أن يأمر بما شاء أمراً مطلقًا، لا تقييد فيه بما يفهمه الناس أولا يفهمونه، بل لا تقيد فيه بما يشتمل في ذاته على فائدة للناس أو لا يشتمل، وله أن ينهي عما يشاء، ولا يعد شيء من أمره أو نهيه عبثًا في حال من الأحوال، لأنه تكليف من ب قاهر لمربوبين خاضعين وكفى.

واجبنا نحو العبادات:

أيها المسلمون: إننا إذا تلقينا أمر العبادات والتكاليف الإلهية على أنها أوامر ونواه أمر بها الإله، الذي له أن يأمر بما يشاء وينهى عما يشاء، ولا يسأل عمل يفعل، صناها عن

فلسفة المتفلسفين، وحذلقة المتحذلقين، وارتفعنا بها عن مستوى ما يشرعه المخلوقون، وضمنا لهذا التنفيذ ونحن آمنون مطمئنون.

هذا هو سبيل العبادة كما يريدها الله: إخلاص في التقبل، وإخلاص في الامتثال والتنفيذ، وثقة واطمئنان ورضا بحكم الله كما أمر به الله:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (الآية ١١٤ من سورة النساء)

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

على هذا ينبغي أن تتلقى التكاليف، وأن تؤخذ العبادات، وعلى هذا ينبغي أن يفهم صوم رمضان على أنه امتثال لأمر الله، ونزول على حكمه، وإيمان به واحتساب لثوابه، لا على أنه نزول على حكم الصحة أو التماس للرياضة الطبية، أو قصد إلى مصلحة الفقراء والمساكين، أو غير ذلك مما يذكرونه من التعليلات، ويلتمسونه من قريب أو من بعيد.

فمن قصد بالوضوء النظافة فهجرته إلى غير الله، ومن قصد الرياضة بالصلاة فهجرته إلى غير الله، ومن قصد بالصوم العلاج الصحي فهجرته إلى غير الله، وهكذا من يفعل العبادة لغير وجه الله خالصاً فهجرته إلى ذلك الغير.

الآثار النافعة للعبادة:

وليس معنى ما ذكرته لكم أيضاً عن العبادات أنه لا يترتب عليها شيء من الآثار النافعة المفيدة، كلا. فإن لها آثاراً نشهدها ونراها وندركها بعقولنا، ولكن لا يصح لنا أن نقطع بأنها الغرض من التشريع، أو المقصودة بالتكليف إنما هي آثار تابعة تنجم عن العبادات، يعلم الله أنها ستكون، وسينتفع بها الناس، وليست هي الأساس المقصود.

فما هي إذن الآثار النافعة التي تنجم عن الصيام، والتي يخرج بها المسلم من شهر رمضان؟

لا أريد أن أتكلم عن الآثار الصحية، فإن ذلك شأن الأطباء وهم أهل الاختصاص فيه، والإسلام يحترم الاختصاص وينهي عن إقحام المرء نفسه فيما لا يحسن، وأن يخوض فيما لا يعلم:

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (الآية ٤٣ من سورة النحل). ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الآية ٣٥ من سورة الإسراء).

وحسبي أن أتكلم عن آثار الصوم من النواحي الروحية المعنوية، فإن الإنسان مادة وروح، والروح هي أبرز عنصريه وأهم ناحيتيه، وهي الأساس الذي به كان، وبه فضل، وبه كلف.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (الآية ٢٩ من سورة الحجر).

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الآيات ٥ - ٨ من سورة الانفطار).

فهو يخاطب في الإنسان روحه التي ركبت في صورته المسواة المعدلة، فدل ذلك على أنها هي أبرز الناحيتين وأشرفهما في الإنسان.

وكما قام الإسلام بمقومات البدن، وعني بالجسم وما يصلحه أو يحفظه، فأحل الطيبات وحرم الخبائث، وأباح زينة الله التي أخرج لعباده، وأمر بالنظافة والدواء... إلخ. قام أيضًا بمقومات الروح، فعني بالعقيدة الصحيحة، وحارب العقائد الفاسدة والأوهام الباطلة، وعني بكل ما يتصل بالأخلاق الفاضلة والمعاني الإنسانية الشريفة.

الآثار الروحية للصوم:

والصيام - مع مظهره المادي الذي يبدو في الإمساك عن الطعام والشراب والشهوات - هو عبادة روحية لها آثارها المعنوية، ولأمر ما ربط الله بين القرآن، كتابه الخالد الذي جعله روحًا منه

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الآية ٥٢ من سورة الشورى).

وبين هذا الشهر الكريم الذي تبدو فيه روح الإنسان متغلبة على ما سواها، قاهرة لشهوات الجسم، ومطالبه المادية، فكما أن القرآن روح سما بالعقل، فالصوم تكليف يسمو بالروح، وكذلك فرض الصوم في شهر نزول القرآن تذكيرًا بهذه النعم.

لذلك أحب أن أجعل حديثي في هذا الشأن مقصوراً على آثار الصوم من الناحية الروحية.

وأهم هذه الآثار في نظري ثلاثة:

التحرر من سلطان العادة:

١ ـ التحلل من العادات، فإن للعادات سلطاناً على النفوس، وهيمنة على القلوب، وهي تتركز في الإنسان فتصبح كأنها طبيعة من طبائعه لا يستطيع التخلص منها، ولا يقدر على مفارقتها، وكم منا من تملكه عاداته في طعامه وشرابه، ونومه ويقظته فلا يستطيع الفكاك منها، ولا التخلص من سلطانها. عادات في الغذاء، وعادات فيما يتناول بعد الغذاء من شاي أو حلوى أو تبغ أو نحو ذلك، وعادات في النوم، وعادات في العمل... وهكذا.

فالصوم علاج نافع لكثير من هذه العادات المألوفة، تمرين على التخلص من سلطانها، والتخفف من أعبائها وأثقالها، وتذكير للإنسان بأن هذه العادات ليست أموراً طبيعية لا مناص منها، وإنما هي أشياء فرضها على نفسه، أو فرضتها عليه ظروف حياته من غير أن يكون له فيها اختيار، وأنه يستطيع ـ إذا عزم وصمم ـ أن يتركها ويتخلى عنها دون أن يصيبه أذى أو يلحقه ضرر.

فإذا اطمأن إلى ذلك في شهر الصوم، ومرن عليه مراناً عملياً، كسب خلقاً جديداً هو خلق العزم الصادق على التخلص من كل ما يضره ولا ينفعه، فينتقل من محاربة هذه العادات المتصلة بحياته في طعامه وشرابه إلى محاربة عادات متصلة بحياته وحياة الأمة من ناحية أخرى، عادات لها مضارها ومآثمها. كالليالي الساهرة، والحفلات المستهترة، والعلاقات الخبيثة، وكالإدمان على الشراب أو الكيوف أو الشهوات من كل ما هو نتيجة لضعف الإرادة، وعدم التمرن على المقاومة، والاستسلام المخزي الذي لا يليق بالرجولة، ولا يتفق مع الروح الإنسانية الشريفة.

الصبر:

٢- تعويد الصبر، والصبر هو خلق الأخلاق وروح الفضائل الإنسانية. لقد اهتم به القرآن الكريم وأوصى به وحث عليه في كثير من آياته وسوره، وقد ورد أن الصبر نصف

الإيمان، وأن الصــوم نصف الصــبر، والله سبـحـانه وتعـالى يعطي لكل حسنة جزاءها ويضاعف لمن يشاء، حتى إذا تحدث عن جزاء الصابرين قال:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الآية ١٠ من سورة الزمر).

فالصوم تعويد على الصبر وتمرين عليه. يدع الصائم طعامه وشرابه وكل ما تشتهيه نفسه، ويرى بعينيه أطايب ما ترك فيكبح جماح نفسه امتثالاً لأمر الله، بصبر الصائم المحتسب.

إذا أوذي أو شتم فلا يغضب ولا يقابل الإساءة بمثلها ولا تضطرب نفسه، كأنه يقول لمن أساء إليه: افعل ما شئت فقد عاهدت الله بصومي على أن أحفظ لساني وجوارحي فكيف أخيس بالعهد فأجيبك أو أسيء إليك كما أسأت إليّ؟.. «لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العـالمين». الصـائم المحـتسب يعلم أن الصوم أمانة، لأن رسول الله ﷺ يقول: «الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته» وأن عليه أن يصبر على هذه الأمانة ويحفظها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (الآية ٥٨ من سورة النساء).

الصائم المحتسب لا يجد في نفسه اضطرابًا ولا انزعاجًا، بل يكون راضيًا مطمئنًا هادئًا، قد يصيبه فتور في جسمه، ولكن روحه تظل قوية متيقظة. الصائم المحتسب لا يغضب في رمضان مما كان يغضب منه في غيره، ولا يمل مما كان يمل منه وهو مفطر، لأن صيامه لله، وصبره بالله، وجزاءه على الله.

أما هؤلاء الذين يغضـبـون في رمضـان، ويثـورون لأتفـه الأسـبـاب، ولا يتسلحـون بالصبر، فهم الذين ظنوا أن الصيام عقوبة وحرمان، فثارت لذلك نفوسهم، واضطربت أعصابهم، وخرجوا عن اتزانهم.

ومن العجيب أن الناس إذا رأوا رجلا ثائرًا، وقد أخرجه الغضب عن حده في رمضان قالوا: لا عتب عليه ولا ملامة فهو صائم، كأن الصيام مبرر للغضب والسخط ومساوئ الأخلاق، ألا ساء ما يحكمون!

ولا ريب أن الإنسان في هذه الحياة عرضة لكثير من البلاء في نفسه بالمرض، وفي ماله بالضياع، وأولاده بالموت، وفي حياته العامة بالحروب وتوابعها من فقدان كثير من حاجاته التي تعودها في حياته، فإذا لم يتعود الصبر على ترك ما يألف أو على المشاق وقع صريع تلك الأحداث.

وينبغي أن يفهم أن الصبر ليس معناه الخشوع والذلة والاستكانة، فإن المؤمن لا يصبر على الحرمات إذا رآها تنتهك، ولا يصبر على الباطل إذا رآه ينتصر، وعلى الحق إذا رآه يخذل، ولكنه يغار ويغضب لله صائمًا كان أو غير صائم، وأن المؤمن لا يعرف الذلة والاستكانة ولا الخضوع المطلق إلا لله، فافرقوا بين الصبر وبين الخشوع، وبين ذل المؤمن لربه الذي خلقه فسواه، وبين ما يكون من الصغار والذلة للطغاة والمتجبرين.

الوازع الديني:

٣- ومن آثار الصوم تعود المراقبة والخوف من الله في السر والعلن. ترى الصائم أمينًا على نفسه، رقيبًا عليها في الصغيرة والكبيرة. وتتمثل فيه هيبة مولاه ومراقبته كأتم ما تكون.

وهنا مسألة يجب على المصلحين وقادة الأمم وحكامها أن يتنبهوا إليها. ذلك أن وازع الدين يفعل في النفوس مالا يفعله وازع القوة والسلطان، فإذا ألف المرء أن يستمع إلى صوت ضميره، وأن يراقب ربه ويخشى عقابه، فقد أمن المجتمع بوائقه واستراح من كثير من شروره، أما إذا كان الاعتماد على وازع السلطان، وحارس القانون، فإن الحارس قد يغفل، والقانون قد يؤول وقد يتحايل للتخلص من سلطانه، لذلك تكثر الجرائم والمفاسد إذا قلت التربية الدينية، فعليكم ياحراس الأمن ويا رعاة النظام والاستقرار أن تعمدوا إلى تربية الناس بأسلوب الدين والفضيلة لتستريحوا وتوفروا جهودًا ضائعة في غير فائدة، فالمراقبة حارس قوي يمنع الإنسان من التفكير في الجرائم والشرور، ولعل هذا هو معنى ما ورد من قوله ﷺ: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وأغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين» أي شدت بالأغلال.

أيها المسلمون:

هذه بعض الآثار المترتبة على الصوم، وهي آثار كما ترون روحية معنوية، فيها تربية للنفوس، وتقوية للقلوب، وتقريب للعبد من الإله الصمد، ولذلك ينسبه الله من بين سائر العبادات إلى نفسه «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»، ويفخر بعبده الذي يقوم به على وجهه إيمانًا واحتسابًا فيقول: «يذر طعامه وشرابه وشهوته من أجلي».

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الصائمين المؤمنين المحتسبين، وأن يعيد هذا الشهر المبارك والمسلمون على خير حال في دينهم ودنياهم إنه سميع مجيب.

ليلة القدر

أفكار الناس عن ليلة القدر:

جرت عادة الناس في عهودهم الأخيرة أن يقيموا في ليلة السابع والعشرين من رمضان احتفالاً بليلة القدر، ويرون أنه يحقق معنى القيام الذي رغب فيه الرسول بقوله: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه»، ويجري على ألسنة كثير من الناس في خصائص تلك الليلة ما لا يتصل بمكانتها الروحية، التي ربطت بين السماء والأرض وبين عالم الغيب والشهادة، والتي صرح بها وأشار إليها القرآن، لسان الحكمة وقانون الخلود وعلاج الأدران ووسيلة الطهر، وقد كثر الكلام عليها في ذلك حتى عند العلماء، كثرة خرجت في معظم ما قالوا أو كتبوا إلى حد صرف الناس عن تدبر جانبها الروحي إلى الاشتغال بظواهر مادية، ومفاجآت حسية، لا تعنى بها الروح ولا يهتز لها القلب.

حديث في وقت السحر:

وقد أردت أن أتحدث عما أراه وأطمئن إليه في هذا الشأن، وقد اخترت لهذا الحديث[1] ساعة من ساعات الليل الذي تخضع فيه الأصوات، وتسكن الكائنات، وتنطلق الأرواح، تسبح في ملكوت الأرض والسموات، وقد زالت من أمامنا العقبات، ورفعت بينها وبين مقصدها الأسمى حجب الماديات، وقصر بينهما شاسع المسافات. وهناك تتجلى الآيات، وتفيض بحار الرحمات، وتنتعش النفوس بما تتلقى من دروس، تكون لها في حياتها الرائدالذي لا يضل، والضوء الذي لا يخبو.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

(سورة القدر)

---

(١) أذيع هذا الحديث في سحر ليلة من ليالي رمضان.

في سكون الليل يتحنث النبي ويتعبد، ويسري به ربه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ويأمره بالتهجد في الليل عسى أن يبعثه مقامًا محمودًا، وفي الليل يتلقى من ربه وهو في خلوته يناجيه:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (أول سورة العلق).

ويفاجئ محمد الناس بهذا الخطاب الإلهي الكريم، الذي يشعرهم بفضل الله عليهم في تربيتهم المادية، وتربيتهم العقلية ويصير هذا الخطاب الذي لا يألفون شغلهم الشاغل، فيصفونه بأنه شعر أو سحر أو كهانة، وتكون مهمة الوحي إذ ذاك تأكيد أنه حقيقة صادرة عن الله لهداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فينزل

﴿ نّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (أول سورة القلم).

وينزل ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ (الآيات ٢ - ٥ من سورة النجم).

وتنزل السور المعروفة في القرآن باسم «الحواميم» وكلها تؤكد أنه «تنزيل من الله العزيز الحكيم»، وتزيد سورة الدخان فتذكر الليلة التي نزل فيها وتخلع عليها صفة الخير والبركة، تلك الصفات التي وصف بها القرآن.

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (الآية ٣ من سورة الدخان).

﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الآية ٩٢ من سورة الأنعام).

وفيما بين هذا وذاك تجيء سورتنا، وتذكر الليلة أيضًا، وتخلع عليها صفة القدر والشرف التي هي صفة القرآن عند الله ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾.

معنى «القدر»:

وإذا كان جو الإنزال والتنزيل يتصل كله كما نرى بالقرآن الكريم ـ فليس من السهل أن يكون المراد بالليلة المباركة غير الليلة التي أنزل فيها القرآن، كما أنه ليس من السهل أن يكون المراد بالقدر غير الشرف الذي اكتسبته الليلة من نزول القرآن فيها، وعلى الرغم من ذلك يقال: إن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان، وإن القدر هو تحديد ما يجريه الله على عباده من الأرزاق والأعمار والأحداث الكونية. وأين هذا من جو الآيات التي ذكرنا؟ وأين هو من موقف القوم في شأن ما فوجئوا به من خطاب الرسالة والوحي؟

إنزال القرآن في تلك الليلة:

وإذا تجاوزنا هذا وقلنا ـ كما هو واضح من القرآن ـ إن الليلة المباركة هي ليلة القدر، وإن الكلام يتعلق بالقرآن وحده ولا علاقة له بالأحداث الكونية، فإنا نجد خلافًا آخر في المراد بالقرآن الذي أنزل في تلك الليلة، هل هو أول ما نزل منه؟ يذهب فريق إلى الأول، ويقولون: ليس الحديث عن إنزاله للناس، وإنما هو إنزاله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا التي نزل منها بعد ذلك منجمًا في مدة الوحي والتشريع، وأن قبول هذا الرأي مع جو آيات النزول والإنزال يعوزه حجة، أقل درجاتها أن تكون نقلاً صحيحًا إن لم تكن متواترة يقينية، وإذن فالحديث قطعًا عن القرآن للناس والبدء في إنزاله من القادر الحكيم مستتبع قطعًا لإنزاله كله، فصح أن يقال «إنا أنزلناه».

أقوال كثيرة في تشخيصها وتحديد زمنها:

وإذا خرجنا من هذه المرحلة بتلك النتيجة فإنا نجد خلافًا ثالثًا واسع المدى فسيح الخيال، يدور هذا الخلاف على تشخيص هذه الليلة: أهي ليلة متميزة بنفسها، لها خصائصها من أصل الخلقة، ومعروفة بشرفها ومزاياها قبل نزول القرآن فيها، وأن الله قد اختارها لفضلها وقتًا لنزول القرآن، أم أن قدرها وشرفها لم يكن إلا بنزول القرآن؟

يذهب فريق إلى الأول، ولعلنا لا نحتاج في رفضه إلى أكثر من معرفة أن شرف القرآن وعظمته من عظمة مصدره التي تفوق كل عظمة في الكون.

وإذن يتعين المصير الثاني، وهو أنها كانت بنزول القرآن فيها ذات قدر وشرف.

وإذا واصلنا السير بعد هذا مع القوم نجد خلافًا رابعًا حول شهر هذه الليلة من السنة وأسبوعها من الشهر، ويومها من الأسبوع وتصل الأقوال في هذه المرحلة إلى أربعين ونيف من الأقوال.

موقفنا من هذه الأقوال:

والذي تشهد له الأحاديث الصحيحة ويدل عليه قوله تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾

هو أن شهرها رمضان ولا شك، وأن ليلتها إحدى لياليه ولا شك، وأنها الليلة التي وصفت بالبركة ووصفت بالقدر والشرف، ولا شك، وأنها الليلة التي بدئ فيها بإنزال القرآن.

وليس بلازم أن يكون الرسول على علم بموقعها من الشهر، ولا بالشهر نفسه، فإن اشتغال روحه وقلبه بمولاه ـ وبانحصار تفكيره في دائرة المناجاة والتلقي عن الله ـ لا يسمح له بتذكر وقت أو مكان أو مخلوق. نعم ورد أن الله أعلمه بها بعد، ثم أنساه إياها لحكمة يريدها، وصح أن الرسول وجه أصحابه إلى تحريها والتماسها ليذكروها ويتمثلوا بذكرها نعمة الله عليهم فيها.

وإن ليلة ينزل فيها رب العزة والقدر كتابًا ذا قدر، تحمله سفرة أصحاب قدر على رسول ذي قدر، لأمة ذات قدر، لا شك أنها تكون ليلة من ليالي التجلي الأعظم، إذا ما توجه فيها المؤمن إلى ربه، مستحضرًا ما لها من ذلك الشأن، كان اتصاله الروحي بمولاه أقوى مايمكن أن يحصل عليه مؤمن من درجات القرب والاتصال، وقد صور الله لنا في كتابه عظمتها بما يملأ القلب إيمانًا بعظمة القرآن:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾

صور عظمتها بما يملأ القلب إيمانًا بأن القرآن شمس الهداية الإلهية، التي حملت أشعتها ملائكة الرحمة والبركة والسلام، وأنه حبل الله الممدود بين السماء والأرض ليصعد به الإنسان إلى ربه الذي خلقه وهداه

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾

أما بعد - فهذا هو ما ينبغي أن نقف عنده في شأن ليلة القدر، ولا نخوض بعده في غيبي لا سبيل إلى معرفته إلا بنقل صحيح عن الصادق الأمين، وعلينا أن نتذوق من القرآن هدايته، وأن نخلص تفسيره مما شغل الناس عنها، وأن ندعوهم بعد أنفسنا إلى ترسم أخلاقه وأحكامه في حياتنا ومجتمعنا، فنصل به إلى ما وصل إليه الأولون، وإلى ما يريد الله لنا من عزة ومجد. فاذكروا ليلة القدر واذكروا نعمة الله عليكم فيها

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء).

أحاديث الحج

الحج وقفة وطواف

نعم ، الحج وقفة وطواف. وقفة هي وقفة الضراعة الذليلة أمام الصمدية العزيزة ، وطواف هو طواف المحب الهائم ببيت المحبوب الدائم ، وقفة وطواف ، وقفة الجندية القوية المضحية في عرفات، وطواف العهد والميثاق ببيت الله الحرام ، وقفة وطواف هما نهاية المراحل للعبد المؤمن في سلوكه إلى مولاه المهيمن ، هما حقيقة الركن الخامس والأخير من أركان الإسلام ، وهو الحج .

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (الآية ٢٢ من سورة لقمان)

والمسلمون منذ شرح الله صدورهم ، ورجعوا بألسنتهم عقيدة التوحيد والإيمان يحجون إلى الله بما رسم لهم من طرق التقرب والتطهير .

الحج بالصلاة :

فهم يحجون إليه بالوقوف بين يديه واستقبال بيته الكريم بالتكبير والتعظيم بالمناجاة والدعاء ، بالتوبة والاستغفار في كل يوم وليلة خمس مرات في فترات متقاربة ، يخلعون فيها أنفسهم من قيود المادة المظلمة إلى سماحة الروحية المضيئة ، ثم يعودون يعملون في الحياة بما حصلوا عليه من نور وإشراق .

الحج بالصوم :

وهم يحجون إليه شهرًا كاملاً في كل عام بالارتحال عن عاداتهم في مشتهيات البطن والنفس ، تمرينًا على الصبر ، وتحللاً من حكم المادة ، وتجديدًا للمراقبة إلى حضانة الله ، وإلى المستوى الأعلى للإنسانية ، فتصفو نفوسهم ، وتسمو أرواحهم ، ويلطف حسهم ويرهف وجدانهم ، ويكونون منبع خير فياض على أنفسهم وعلى الناس .

الحج بالزكاة :

وهم يحجون إليه بالخروج عن جزء من أموالهم ، إعانة للفقراء والمساكين ، وقيامًا بحقه العام امتثالاً لأمره ، وتطهيرا للنفس من أدران الشح الذي يقطع صلات الرحمة والعطف بين الإنسان وأخيه الإنسان .

هم في كل ذلك يحجون إلى الله ، وهم مقيمون في أوطانهم يعملون ، ومع أهليهم وإخوانهم يتعاملون : يتجهون إليه بقلوبهم ونفوسهم وأموالهم ، إذكاء لروح الاتصال ، وإعدادا لشد الرحال ، حتى إذا ما غاصت شجرة التوحيد في القلوب ثم نمت ، وطابت ثمارها بماء المناجاة الذي ينبع من معين الصلاة الصافي ، ثم غذيت تربتها بسماد الكرم الذي تصنعه الزكاة ، ثم شذبت ونقيت من أشواك الشهوة والجزع بالصوم ، وتم ذلك على الوجه الأكمل ، وكمل الشوق فيهم إلى الحج الأكبر ، ارتحلوا بأبدانهم وأموالهم من أوطانهم وأهليهم إلى الله رب الملك والنعمة ، مهرولين إلى الحج الأكبر ، إلى حيث الوقفة والطواف .

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(الآية ٧٩ من سورة الأنعام)

﴿ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الآية ١٦٢ من سورة الأنعام)

ذكريات مكة :

وسيذكرون لأول ما تقع أبصارهم على مكة أنها البلد الأمين ، الذي خلع الله عليه استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم ، ثم أعلى شأنه ، وأقسم به ضمن مهابط وحيه لعباده .

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾

(الآية ١-٣ من سورة التين)

وسيذكرون أنها أم القرى ، التي انبثق من جبالها وشعابها نور الإيمان والهدى ، فبدد ظلمة الشرك والضلال ، وعرفت به الإنسانية حقها ، وصارت به للإنسانية خير مرشد وأعظم منقذ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

(الآية ٧ من سورة الشورى)

وسيذكرون أنها بلد الرعيل الأول ، الذين آمنوا بالله ، وباعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، وأنها البلد الذي احتفظ بوفائه لأبنائه على رغم ما انتابهم فيه من أحداث ، وظل محتفظًا في باطنه بالوفاء ، حتى إذا ما يسر لهم طريق العودة إليه فتح لهم أبوابه فدخلوه فاتحين منتصرين .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

(الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة النحل)

الإحرام ومظهر الوحدة :

تحضرهم هذه الذكريات وهم على أبواب مكة ، فيحسون صلتهم الروحية الوثيقة بالمكان والآثار ، وأسلافهم الأمجاد ، وتأخذهم روعة الذكريات إلى عز الماضي ، فيتجردون من صنعة الدنيا وألوانها ، ومظاهر طبقاتها وتفاوتها ، ويعودون بأنفسهم إلى وحدة المظهر يحاكون بها وحدة العقيدة والإيمان ، ولا يكون أمام أبصارهم إلا الذي أضاء بفضله رحاب بصائرهم ، فتملكهم عظمته وتشملهم رحمته .

التلبية شعار الحج :

ويكون شعارهم الدائم وكلمتهم الصاعدة هذا النشيد الإلهي ، الذي يعبرون به عن ضعفهم أمام الله ، وعن شعورهم بعظمته ونعمته وملكه وسلطانه ، يعبرون به عن قيامهم الدائم في خدمته ، وتنفيذهم أمره وشرعته :

«لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك» .

ولا يزالون يصدحون بنغم هذا النشيد ، تكتحل عيونهم بإثمد البيت الحرام ، وعندئذ يذكرون قول الله تعالى :

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (الآيتان ٩٦، ٩٧ من سورة آل عمران)

وقوله : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الآية ١٢٧ من سورة البقرة)

وقوله : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الآية ٢٦ من سورة الحج).

وحدة العبودية :

يذكرون ذلك فيدركون أن عبوديتهم لله من عبودية آبائهم الأولين وأنها عبودية واحدة، أمام معبودية واحدة، ترتفع عن الزمان والمكان والأشخاص، ويتصل حاضرها ومستقبلها بماضيها، وتصبغ كتلتها الموحدة بصبغة الوحدة، فتوحد العابدين في عبادتهم وخضوعهم، كما توحد المعبود في معبوديته وسلطانه، ثم يفني العابد الموحد في جلال المعبود الواحد، ويتلاشى العجز والفقر والحاجة في القوة والغنى والرحمة الواسعة، ثم يندفعون إلى الطواف حول البيت والسعي بين الأعلام. وعندئذ يذكرون قول الله تعالى :

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الآية ٢٩ من سورة الحج)

وقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (الآية ١٥٨ من سورة البقرة).

عرفات :

وإذا ما اطمأنوا إلى حسن القدوم، وبدت لهم آية القبول، خلعوا أنفسهم إلى الطبيعة البريئة من صنعة الإنسان وزخرف الحياة، إلى الجبال وأحجارها، والوديان وسهولها، والرمال وحصبائها، إلى السماء وصفائها، وهناك، وفي عرفات ترتفع الحجب، فيكمل الإشراق ويشتد الاتصال، وتتوثق المعرفة، وهناك تقف الأشباح المتضامنة بقلوب مملوءة بالخشية، ووجوه شاخصة بالضراعة، وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة في أرحم الراحمين.

خطبة الوداع :

وهناك تشرق الذكرى عليهم بأنوارها وقوتها الوهاجة ، فيستمعون بآذان القلوب إلى صوت محمد رسول الله ﷺ ، يخطب آباءهم وهم في أصلابهم ، يجمل لهم رسالته ويحثهم على صدق الإيمان وكمال المعرفة بحقوق الله وحقوق العباد ، ثم يستشهدهم فيشهدون أنه بلغ وأدى ونصح ، فيرفع إصبعه السبابة إلى السماء ، ثم يشير بها إليهم وهو يقول : «اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد» .

ثم يتجهون جميعًا إلى ميدان العرض الثاني ذاكرين قول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾

(الآية ١٩٨ من سورة البقرة)

وإذا ما ازدلفوا إلى الله بذكره في هذا الميدان توجهوا إلى ميدان العرض الثالث ، ميدان منى ، يعلنون برمز عملي تصميمهم على نبذ عوامل الشر ونزعات النفس والهوى ، كما يعلنون استعدادهم لوسيلة الجهاد الصادق وهو الرمي الذي لا يخطئ .

كلمة الإسلام النهائية :

وسيذكرون وهم في ميدان الرمي تلكم الصفحة البيضاء ، صفحة التبليغ الإلهي الذي قام به علي ـ رضي الله عنه ـ نائبًا عن الرسول وأبي بكر ، على رأس حجيج المسلمين لأول مرة بعد الفتح الأكبر ، ذلكم التبليغ الذي أعلنت به كلمة الإسلام النهائية في علاقة المشركين بالبلد الحرام ، وسجلته سورة التوبة وثيقة يجب على المسلمين في جميع العصور والأمكنة تعهدها والقيام بأحكامها مهما اختلفت بهم الأجناس والأقطار واللغات ، وإذا ما تمت لهم هذه الذكرى وتذكروا قول الله تعالى : **﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾**

(الآية ٣٦ من سورة الحج)

فذبحوا وأكلوا وأطعموا وعادوا إلى مكة ، مستأذنين في الانصراف إلى بلادهم بعد أن قضوا مناسكهم ، واستضاءوا بأمثل الذكريات التي تثير في نفوسهم من وسائل المجد ما يفتح أمامهم سبيل الحياة العزيزة ، التي كفلها الله لعباده المؤمنين .

أيها المسلمون :

هذا الحج ، وهذه هي وقفة المسلمين بعرفات ، وذلك هو طوافهم ببيت الله الحرام ، فعلى من اعتزم من إخواننا المسلمين أداء فريضة الحج أن يتفهم أسرار المناسك ، وأن يعمل في حله وترحاله على منوالها ، فينعم بآثارها الطيبة ، ويعود بذكراها الحسنة منشرح الصدر ، هادئ البال ، قرير العين ، مطمئن النفس ، صافي القلب ، حائزا لرضا الله وثوابه .

أول حج جماعي للمسلمين

الحج بمعناه العام – وهو زيارة أمكنة مخصوصة ، تقربًا بها إلى الإله المعبود – صورة قديمة من صور العبادات ، اتخذتها الشعوب والقبائل رمزًا لإجلال معبوداتها وتقديسها ، وكانت كل جماعة تتخذ في حجها من الصور والأعمال ما تصور به تخيلها لعظمة معبودها ، واستمرت الحال على ذلك دون أن ينزل وحي من السماء بهذا النوع من العبادة ، لا في تنظيمه ، ولا في أصله حتى هيأ الله الأمر لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وأمره ببناء الكعبة «بيته الحرام» بمكة ، وأمره بدعوة الناس إلى حجه ، ومن ذلك الحين وجد بيت الله ، ووجد الحج في رسالات السماء ، وبذلك كانت الكعبة هي أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله الواحد الأحد ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الحج)

ويقول : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران) .

الحج في الجاهلية :

ومن هنا نشأ العرب على تعظيم البيت وحجه وعبادة الله فيه ، غير أنهم بامتداد الزمن ، وتطاول القرون ، ضعف فيهم روح المحافظة على العهد ، ونسوا فيه تعاليم التوحيد الخالص التي بعث بها إليهم ، وأقرها فيهم أبوهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وغيروا فيها وبدلوا .

أشركوا بالله الأصنام ، ورفعوها على ظهر البيت ، وضربوا حولها نطاقًا منها ، وتوجهوا إليها ، واستعانوا بها ، واتخذوها شفعاء عند الله ، وذبحوا لها وذكروا اسمها على ما يذبحون .

وكذلك أحدثوا في كيفية الحج ومظاهرهم فيه تقاليد معينة تبعًا للأهواء ، فطافوا بالبيت عرايا ، وحرموا على أنفسهم الدسم وما وراء القوت ، وترفع فريق منهم على الوقوف مع الناس بعرفة ، والإفاضة منها ، اعتقادًا منهم أنهم فوق الناس فلا ينبغي أن ينزلوا إلى مستواهم ويأخذوا أنفسهم بقوانينهم ، ويقفوا معهم في صعيد واحد ولو كانوا في موقف العبادة لله الواحد الذي يستوي أمام قهره وسلطانه جميع الناس !!

محمد يجدد دعوة إبراهيم :

جاء محمد بعد ذلك مجددًا لدعوة إبراهيم وموقظًا لدعوته ، دعوة الحق في الألوهية ، دعوة المساواة بين بني الإنسان ، دعوة اليسر والتمتع بزينة الحياة الطيبة :

﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ** ﴾ (الآيات ١٦١-١٦٣ من سورة الأنعام)

﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ (آخر سورة الحج)

﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ (الآية ٣٢ من سورة الأعراف)

﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ (الآية ٣١ من سورة الأعراف)

جاء محمد بهذه التعاليم بعد أن حل الشرك من قلوب القوم محل التوحيد ، وألفوا حج بيت الله بما أحدثوا وغيروا ، وخرجوا به عن الطريق المستقيم . فتركهم الرسول يحجون كما اخترعوا ، وقصر جهوده في دعوتهم إلى إقرار التوحيد في القلوب ، وإفراد الله

بالعبادة ، وردهم إلى الفطرة ، وقد قوبل منهم بما قوبل به من الإعراض والتكذيب ، والإيذاء والتنكيل ، حتى هاجر هو ومن آمن بدعوته إلى المدينة ، وبهذه الهجرة حيل بينهم وبين عبادة الله في بيته الحرام ، وأخذ يكافح هو وأصحابه في سبيل دعوته حتى مكنهم الله من تقليم أظافر الشرك ، وهيأ لهم وسائل العودة إلى مكة ففتحوها ، ودخلوا المسجد الحرام آمنين . وأعلنوا فيه كلمة التوحيد ، وطهروه من الأصنام والأزلام ، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة .

اجتماع الشرك والتوحيد في بيت الله :

فتح المسلمون مكة ، ودخلوا المسجد الحرام ، وطهروه عبدوا الله فيه عبادة التوحيد الخالص ، ولكنهم بمعاهدة الفتح تركوا لفلول المشركين الحق في أن يدخلوا المسجد ، وفي أن يطوفوا ، وفي أن يعبدوا على منهجهم في العبادة . شرك في السجود ، شرك في التلبية، عرى في الطواف .

وبمقتضى هذه المعاهدة حج المشركون مع مسلمي مكة في عام الفتح في وقت واحد واتخذ كل فريق من البيت ناحية خاصة ، وعلى هذا الوضع مضت السنة الثامنة وجاءت السنة التاسعة ، وفيها فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً ، ونزل كثير من الآيات التي ترشد إلى مناسكه وآدابه ، وتهيأ جماعة المسلمين وقد برح بهم الشوق إلى حج بيت الله - للخروج إلى الحج ، وأخذوا بفارغ الصبر يترقبون موسمه .

الرسول لا يخرج مع المسلمين في أول حج جماعي :

ولكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ رأى أن اجتماع العبادة الشركية الضالة مع العبادة التوحيدية المستقيمة في بيت الله الواحد ، وفي الوقت الذي خلصت فيه ولاية هذا البيت لعباده الموحدين - لا يسمح له بالخروج إلى الحج مع جماعة المسلمين ، تمنى أن لو وضع الله لهذا الاجتماع المتناقض حدًا يذهب بالعبادة الضالة وآثارها من بيت الله ، ويجعله خاصًا بعبادة التوحيد الذي جاهد هو وأصحابه لإقرارها . رأى النبي ذلك وامتلأ قلبه برجاء الاستجابة لأمنيته .

أوائل سورة التوبة ومعاهدة الفتح :

وما هو إلا أن يدخل موسم الحج للسنة التاسعة ، ويؤمِّر النبي صاحبه أبا بكر على جماعة المسلمين لأول مرة يخرجون فيها بصفة جماعية لأداء فريضة الحج ، ويخرج بهم أبو بكر قاصداً مكة ، فتنزل على النبي ﷺ أوائل سورة التوبة ، تضع الحد النهائي الذي يتمناه بالنسبة إلى هذه العبادة الضالة وما يتبعها من نظم فاسدة .

انتهاز فرصة الحج للتبليغ :

وقد انتهزت فرصة هذا الاجتماع العام لتبليغ المبادئ التي نزلت بها سورة التوبة حلاً لهذا الإشكال ، ووضعًا للأمور في نصابها ، فأرسل النبي ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب لتبليغها وإعلانها على الناس يوم الحج الأكبر ، ولم يكد علي يقترب من أبي بكر حتى سمع أبو بكر رغاءً خاصًا معروفًا لديه . . . فقال : هذا رغاء ناقة رسول الله ، ولما وصل إليه علي سأله : أمير أم مأمور ؟ فأجابه من فوره : مأمور ، وأخبره بمهمته . ومضيا إلى حالهما حتى كان اليوم الثامن من ذي الحجة ، فخطب الناس أبو بكر بصفته إمام الحج وأرشد المسلمين إلى مناسكهم ، وفي يوم النحر ، قام علي - رضي الله عنه - بإرشاد أبي بكر عند جمرة العقبة وقال : أيها الناس - وفيهم المؤمن والمشرك - إني رسول رسول الله إليكم ، فقالوا بماذا ؟ فقرأ عليهم أوائل سورة التوبة . ثم قال أمرت بتبليغ أربع : «لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته» .

المبادئ التي تضمنتها سورة التوبة :

وقد تضمنت آيات التوبة التي تلاها على الناس . .

أولاً : تقرير البراءة ، ورفع العصمة عن نفس المشركين وأموالهم .

ثانيًا : منحهم هدنة مقدارها أربعة أشهر .

ثالثًا : إعلان الناس جميعًا يوم الحج الأكبر بهذه البراءة .

رابعًا : إتمام مدة المعاهدة لمن له معاهدة وحافظ عليها .

خامسًا : ما يجب أن يعامل به المشركون بعد انتهاء الهدنة أو إتمام المدة إذا لم يدخلوا في الإسلام .

سادسًا : تأمين من طلب الأمان منهم .

سابعًا : بيان الأسباب التي أوجبت البراءة منهم ونقض عهودهم .

﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً ﴾ (الآية ١٠ من سورة التوبة)

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾

(الآية ٢٨ من سورة التوبة)

وتضمنت بالنسبة للمؤمنين بعد هذا أمرين لهما مكانتهما فيما يحب الله لهم من عزة وتمكين .

أولهما : تقوية روحهم المعنوية في تنفيذ هذه المبادئ .

ثانيهما : إزالة ما قد يحدث في بعض النفوس من ظن أن إجلاء المشركين وهم أرباب التجارة والأموال يقطع عنهم أسباب الرزق :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ (الآية ٢٨ من سورة التوبة) .

التبليغ الحازم يؤدي مهمته :

وبهذا التبليغ أعلنت كلمة التوحيد النهائية في أول حج جماعي للمسلمين ، وتمت التصفية بين الشرك والإيمان ، ولم يكد ينتشر أمره بين الناس حتى ازدحمت المدينة بوفود القبائل معلنة إسلامها وسلامها ، وهكذا يفعل الحزم ، وتفعل أوامر من عرفوا بالحزم ، وحسبهم أن يعلنوا أمرهم ، وأن يعرف الناس تصميمهم .

وبعد . فهذه صفحة الحج الأول لجماعة المسلمين تعاون على تبليغ الأحكام فيها درعان قويان « أبو بكر ، وعلي » وتعاون المسلمون جميعًا على تنفيذها ، وبها تمت كلمة الله في الجزيرة العربية ، وعبد الله وحده في بيته الحرام ، وخرج النبي ﷺ في السنة العاشرة على

رأس المسلمين لحج بيت الله وفيها علمهم المناسك ، وتوج رسالته بخطبته الجامعة ، وأنزل الله عليه :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (الآية ٣ من سورة المائدة)

فهل للمسلمين أن يقرءوا هذه الصفحة ، وأن يتعرفوا من سورة التوبة - آياتها وكلماتها - ما يجب عليهم أن يتعاونوا على تبليغه وتنفيذه ، إنقاذًا لفلولهم المبعثرة ، ووحداتهم المشردة ، وشعوبهم المعذبة ؟ هل لهم أن يتعرفوا ذلك وينتهزوا فرصة الحج سبيلاً لتوحيد الكلمة ، وجمع الشمل ، وتركيز الجماعة على أساس من العزة والكرامة ؟

لبيك اللهم لبيك

يتجه المسلمون بحكم إيمانهم في جميع أيامهم ، وعلى اختلاف أقاليمهم وجنسياتهم ولغاتهم ، كلما صلوا فرضًا أو نفلاً - إلى بقعة من الأرض ، هي من أقاليمهم المنتشرة في المعمورة بمثابة مركز الدائرة التي يتقلبون فيها ، والتي تتلاقى عندها الخطوط الخارجة من محيطها ، فتجمعها وتكون منها قوة لا تنفصم عراها .

ويتمثلون عن طريقها عظمة مولاهم وخالقهم ، وكذلك يتمثلون بها قلوبهم ، يتجهون إلى تلك البقعة ، فترتبط بها وحدتهم العابدة أمام وحدة المعبودة ، وبذلك يتحقق لهم بهذا الاتجاه ، وهم في أماكنهم المتفرقة ، حج روحي تلتقي به أرواحهم عند غاية واحدة وعلى العمل لهدف واحد ، وهو رضاء الله لتحقيق حكمته في خلقه ، واستخلاف الإنسان في أرضه من جهة التعمير والبناء ، ومن جهة الأمن والسلام ، ومن جهة العدل والإحسان .

الحج البدني :

وفي أوائل شهر ذي الحجة من كل عام ، وفيما قبله من الأشهر التالية لشهر رمضان . شهر المراقبة والتصفية ، شهر الإعداد النفسي للمثول بين يدي مالك الملك ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، نرى كثيراً من المسلمين يدفع بهم هذا الحج الروحي إلى الحج البدني ، فيهرعون بأبدانهم - مخلفين أموالهم وأولادهم - إلى مركز الدائرة المجمع ، لأداء فريضة الحج ، التي جعلت في الإسلام قمة أركانه ، ونهاية حلقاته ، وبذلك تطوي ما بينهم من مسافات ، ويلتقي المشرقي بالمغربي ، والشمالي بالجنوبي ، إخوانًا في العقيدة والدين والإيمان ، والهدف والغاية ، يتعارفون ويتفاهمون ، ويتبادلون الرأي والمشورة فيما يسعدهم ، في دينهم ودنياهم ، وفيما يقيهم شر الأعداء الكائدين .

الحج عبادة جماعية :

ومن هنا ، يتبين أن الحج لم يشرع لمجرد ذكر الله ، ولا لمجرد طواف المسلم منفرداً ببدنه حول بيت الله ، ولا لمجرد وجوده واكتحال عينه بالمشاهد المقدسة ، وإنما شرع لذلك وأعم منه ، شرع ليكون السبيل لجمع المتفرق ، ولم المشتت ، وتقابل الآراء بالآراء ، ثم ليعود المجتمعون وقد حملوا مسئولياتهم المشتركة ، وأخذ كل منهم نصيبه منها ، يعمل مع أهله ومواطنيه على تحقيقها والقيام بواجبها في حفظ إنسانيتهم ، ورسم طرق سعادتهم ، وليتكون من جميعهم أمة واحدة ، هي الأمة المثالية الفاضلة ، التي أعلى الله شأنها ، ورفع ذكرها .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

وقد اختار الله لهذا الاجتماع ، ولتلك الرحلة الربانية الكريمة أماكن الذكريات المقدسة ومهابط الرحمة الإلهية من عهد إبراهيم الخليل ، إلى عهد حفيده خاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد بن عبد الله ، لتعرف الإنسانية وحدتها ، وتعرف أن دعاة الإيمان سائرون في طريق واحد وعلى منهج واحد .

الروح الكامنة في مناسك الحج :

وإذا كانت مناسك الحج وأفعاله فيما يعرف الناس هي : التجرد من المخيط والمفصل ، والطواف ببيت الله الحرام ، والسعي بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات والمشعر الحرام ، ورمي الجمار ، وذبح الهدايا . أقول : إذا كانت أفعال الحج فيما يعرف الناس هي هذه الشعائر ، فإنها في حقيقتها تصور معاني كامنة في صورتها وشكلها ، هي معنى الحج ، وهي مقصده ، وهي التي يريدها الله من تلك الشعائر .

فالإحرام ، وهو أول المناسك : ليس حقيقته إلا التجرد من شهوات النفس والهوى وحبسها عن كل ما سوى الله ، وعلى التفكير في جلاله وجماله ، والتجرد من مظاهر الطبقات التي سخر الإنسان بها أخاه الإنسان وأذله واستعبده وهما أخوان في الإنسانية . ينتميان إلى أب واحد ، ويخضعان لسلطان واحد ، وتنعقد إنسانيتهما بقدر ما يكون لهما من معاني الأخوة والعبودية .

وكذلك الطواف بالبيت ، لا يعني هذه الحركة الجسمانية ، التي يزاحم بها الحاج إخوانه ويقسو عليهم دون رحمة ولا شفقة ، وإنما يعني التفاف القلوب ودورانها حول قدسية الله ، صنع المحب الهائم من المحبوب ذي الجلال والجمال الذي ترى نعمه ، ولا تدرك ذاته .

وكذلك السعي بعد هذا الطواف ، ليس هو في هذه الهرولة وهز الأكتاف وإنما هو التردد بين علمي الرحمة ، استمطارًا لها ، والتماسًا للمغفرة والرضوان .

والوقوف بعرفة بعد السعي ، لا يعني مجرد الإقامة عشية من نهار وسط هذا الوادي اللافحة شمسه ، وإنما يعني بذل المهج في الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية ، وأيد مرفوعة بالرجاء ، وألسنة مشغولة بالدعاء ، وآمال صادقة في أرحم الراحمين .

وكذلك الرمي بعد هذه الخطوات التي تشرق بها على القلوب أنوار ربها ، ليس إلا رمزًا صادقًا يعبر عن مقت عوامل الشر ، واحتقار نزعات النفس الأمارة بالسوء ، وطرد وساوس الشيطان الرجيم ، وهو من جانب آخر ، رمز عملي مادي يعبر به المؤمن صدق عزيمته في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات .

أما الذبح ، وإراقة الدم ، وهو الخاتمة في درج الترقي إلى مكانة الطهر والصفاء ، فهو في حقيقته إراقة لدم الرذيلة ، بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة ، وبقلب امتلأ إيمانًا بالتضحية على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار .

يقوم المسلمون بهذه المناسك مجتمعين ، ويشهد بعضهم على بعض متابعين على تحقيق معناها ، وتحلية نفوسهم بها ، ويظلون بها حاجين لله عاملين له ، ناشرين على أهليهم ومواطنيهم ، معاني ذلك الحج ، فيسعدون كما سعدوا ، وينالون رضا الله كما نالوا .

العبادات كلها ذات هدف واحد :

والعبادات من صلاة وصوم ، وحج وزكاة وإن اختلفت صورها ومقاديرها وأوقاتها تلتقي عند غاية واحدة ، وهي تحقيق معنى العبودية لله ، بالإخلاص في طاعته والتوجه إليه وحده، والاستعانة به وحده ، والتخلص من سلطان الحظوظ البشرية المظلمة . والحج بزمنه اللافح قيظه وزمهريره ، وأمكنته الناطقة بنور الله وهديه ، وأفعاله التي يرجع بها إلى وحدتهم الطبيعية القارة في وجدانهم ، المرتسمة في ضمائرهم ، إنسانية عابدة أمام أحدية معبودة ، فطرة الله التي فطر الناس عليها . إن الحج بهذا كله ، أقوى العبادات وأعمها في تحقيق معنى العبودية والإخلاص لله .

التلبية شعار المؤمن :

ولعل هذا الامتياز الذي نراه في تصور الحج ومعناه هو السر في أن جعلت «التلبية» عنوان الشروع فيه ، والشعار الذي يصحبه في جميع مراحله ، وإلا فهي استجابة العابد للمعبود ، فالمصلي بصلاته يقول : لبيك اللهم لبيك ، والصائم بصومه يقول : لبيك اللهم لبيك ، والمزكي ببذله يقول : لبيك اللهم لبيك . . وهكذا كل عامل لما يرضي الله يقول بعمله : لبيك اللهم لبيك .

والتلبية في حقيقتها ، هي النزوع بالنفس عن عالم الظلم والطغيان ، إلى عالم العدل والإحسان ، يسجل بها المؤمن على نفسه في جميع أوقاته معاني الخبث والخضوع والاستجابة لنداء مولاه ، يسجل بها على نفسه الاعتراف بوحدانية الله وأحديته في الملك والسلطان ، في الفضل والإنعام ، في التدبير والتصرف .

لبيك اللهم لبيك :

فأنا الواقف ببابك ، المستمع لأوامرك ، المسارع لإجابتك ، المقيم على عهدك ، دون تحول أو تردد ، وأنت أنت الواحد الأحد ، الذي تلبي دعوته ، وتهرع النفوس إليه ، أنت الواحد الأحد ، رب النعمة التي لا تحصى ، رب العزة التي لا تذل ، رب القوة التي لاتعجز ، رب السلطان النافذ في الأرض والسماء ، سبحانك لا إله إلا أنت .

«لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لاشريك لك» .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾

(الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام)

التلبية شعار العبودية منذ القدم :

هذه هي التلبية التي هتفت بها الملايين البشرية من عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، ويهتفون بها اليوم ، وإلى يوم الدين إن شاء الله ، يعلنون بها وحدة العابدين أمام وحدة المعبود ، فتأخذ بهم إلى سماء التجرد عن المادة وظلمتها ، وعن النفس وطغيانها ، تأخذ

بهم عن الفوارق التي افتعلها الإنسان في موجات من الغفلة والشذوذ ، وكانت ولا تزال سبيل الطغيان والاستعلاء ، والاستكبار في الأرض بغير الحق ، سبيل التحاقد والتباغض ، سبيل التسخير والاستعباد ، وأخيراً سبيل التخريب والتدمير .

انحراف الإنسان بالتلبية :

وبموجات الغفلة والشذوذ الصاخبة ، انحرفت الإنسانية الطاغية بهذه التلبية حينًا من الدهر ، فأدخلت على نورها ظلمة ، وعلى استقامتها انحرافًا ، وعلى أمنها خوفًا ، وعلى توحيدها شركًا ، وعلى مساواتها طغيانًا واستعلاء «لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه ، وما ملك» فجعلوا لله شريكًا ، هو مملوكه ، ونداً هو مخلوقه ، فعبدوا الشريك المملوك الذي لا يملك ، والند المخلوق الذي لا يخلق ، وتقربوا به إلى الله زلفى . وقد استمر الأمر على ذلك حينًا من الدهر ، تزعزع فيه بلوازم الشرك ومظاهره الروح الكامن في الضمير الإنساني العام ، وكاد الضلال والفساد يلتهمان نظام الكون ، ويفسدان على الإنسان أمره في خلافته ، فلم تشأ رحمة الحكيم الخبير وقد خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض ، أن يتركه على هذا الشذوذ الذي انحرف إليه ووقع فيه ، ففاجأه بنور الهدى والإيمان على لسان رسوله محمد ﷺ :

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

(الآية ١٩٧ من سورة الأعراف)

الإسلام يرد الناس إلى فطرتهم :

تلقى محمد دعوة ربه ، وبذل جهوداً مضنية في دعوة الناس إليها ، حتى ردهم إلى دين الله لا يعبدون سواه ، ولا يلبون غيره ، وطهر الحج فيما طهر من شرك التلبية ، وشرك السجود ، ورجع بأمر الله إلى عهده الأول ، عهد إبراهيم وإسماعيل ، عهد الفطرة السليمة والوجدان النقي :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(الآية ٧٩ من سورة الأنعام)

رد محمد أمر الله إلى عهده الأول ، وبذلك خلصت التلبية لله ، وطهرت من الشريك المملوك ، وصارت كما أرادها الله «لبيك لا شريك لك لبيك» . واستمرت التلبية هكذا من عهد الرسول محمد ﷺ ، تنطلق بها أصوات الملايين المؤمنة ، فتصل ما بينهم وبين السماء ، وستظل الشعار الدائم للحج والإيمان ، رغم أنف فلول المنافقين المرجفين .

وإذا كانت التلبية شعار الإيمان ، وكان معناها استجابة الله في أوامره وأحكامه وشرائعه ، وما جعلت عنوانًا خاصًا بالحج إلا لتفرده بمزايا لا توجد في غيره مما يعود على الأمة بالسعادة والرفاهية والاطمئنان ، فما أبعد الذين ينسلخون من شعائر الإيمان ، ويتخذون الأعداء بطانة يستعينون بهم على الفتك بإخوانهم المؤمنين . ما أبعد هؤلاء عن روح التلبية لله ، والانتظام في صفوف المؤمنين به .

إن للإيمان حقوقًا هي واجبات على المؤمنين ، فمن لم يؤد واجبه لإيمانه ، فإيمانه بعيد عن حياته ، ومن يبذل نفسه لأعداء إخوانه المؤمنين فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل ، ونقض عهد الله ، وكان شرًا من سلفه الذي نطق بشرك التلبية وكان صريحًا في كفره .

فإلى شعاركم أيها المسلمون ، وخلصوا أنفسكم من تلبية الأعداء ، أعداء الدين وأعداء الله ، كما خلص أسلافكم من قبل تلبيتهم من شرك التوحيد وشرك الإيمان ، وقولوا معي جميعًا بصوت تتلاقى أصداؤه في الأجواء كلها :

«لبيك اللهم لبيك»

الصفا والمروة من شعائر الله

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (الآية ١٥٨ من سورة البقرة)

* * *

موقع هذه الآية من سورة البقرة :

هذه آية كريمة من سورة البقرة ، وسورة البقرة كانت من أوائل ما نزل بالمدينة ، وقد عنيت في نصفها الأول بتوجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه . وكان من حجج القرآن عليهم وعلى غيرهم من المعارضين أن دعوة محمد التي يكفرون بها هي نفسها دعوة إبراهيم الذي يفتخرون بالانتساب إليه ، وأن محمداً ما جاء إلا مجدداً لدعوة إبراهيم :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ٦٧ من سورة آل عمران)

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (الآية ١٣٢ من سورة البقرة)

وكان من أهم ما أثاروا به الفتنة حول محمد ودينه مسألة القبلة وتحويلها عن الكعبة إلى بيت المقدس ، ثم ردها ثانية إلى الكعبة . وكان من قصتها أن النبي ﷺ ، كان يصلي هو وأصحابه قبل الهجرة إلى الكعبة ، قبلة أبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، فلما هاجر هو وأصحابه من مكة إلى المدينة ، أمروا بالتوجه في صلاتهم إلى بيت المقدس ، واستمر ذلك نحو سبعة عشر شهراً ، فلما كان شعبان من السنة الثانية من الهجرة أمر النبي ﷺ بالتوجه

في الصلاة إلى المسجد الحرام بمكة المكرمة ، إحياء لذكرى المسجد في القلوب ، وفتحًا لباب الأمل في الرجوع إليه ، وإثارة لجماعة المؤمنين نحو اتخاذ الوسائل التي تمكنهم من الاستيلاء على البيت الحرام .

التوجه إلى الكعبة ابتلاء وبشرى :

حولت القبلة ، وتوجه المسلمون إلى الكعبة وتذكروا سابق عهدهم بمكة وبيت الله . وكان لهذا التحويل وقع عظيم في نفوس الناس جميعًا ، مؤمنهم ومشركهم ومنافقهم وكتابيهم ، وخاض فيهم كل فريق بما خاضه ، وقد سجله القرآن في سورة البقرة ، وأشعر به المسلمين قبل وقوعه ليربطوا فيه على قلوبهم فلا يؤثر عليها شيء من فتن القوم ، وبين لهم حكمة هذا التحويل ، وأنها من أحد جانبيه ، ابتلاء واختبار لقوة الإيمان وضعفه .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ ﴾ (الآية ١٤٣ من سورة البقرة)

وأنها من الجانب الآخر نعمة وبشرى . نعمة حقق الله بها رجاء نبيه في تكتل العناصر العربية حول الدعوة .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (الآية ١٤٤ من سورة البقرة)

وبشرى ملأ بها صدور المؤمنين بالفتح والرجوع إلى بلدهم الذي فيه بيت الله ، وفيه آثار أبيهم إبراهيم ، وفيه تلقى رسولهم الوحي لأول مرة . وفي تلك البشرى يقول الله في الآيات نفسها :

﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الآية ١٥٠ من سورة البقرة)

وهي نفس البشرى التي جاءت في أول سورة الفتح :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الآية ١ـ٣ من سورة الفتح) .

آية الصفا والمروة تؤكد البشرى :

وتأكيداً لهذه البشرى ، وتقريراً لها في النفوس ، تستأنف الآيات بعد الكلام عن القبلة وتحويلها فتذكر لوناً آخر في تأكيد تلك البشرى ، تذكر جانباً من الجوانب العملية التي كانوا يعرفون من قبل أنها من مناسك الحج التي لا تؤدي إلا في داخل مكة ، وإلا في الحج أو العمرة الخاصين ببيت الله الحرام ، وتسوق ذلك التأكيد بأسلوب صريح في الوقوع والتحقق :

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾

وبذلك يرسخ في قلوب المؤمنين أعمق رسوخ ، أن الله سيتم عليهم نعمته وأنهم سيدخلون مكة وتزول الحجب التي حالت بينهم وبين بيت الله ، فيحجون ويعتمرون ، ويسعون بين الصفا والمروة . وترشدهم الآية إلى أن السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله ، كما أن التوجه إلى الكعبة في الصلاة من شعائر الله . وإذا كانت فتن القوم الخاصة بتحويل القبلة لا ينبغي أن تصرف المؤمنين عن التوجه إليها ، ولا أن تحول دون إتمام النعمة فكذلك وضع القوم أصنامهم على الصفا والمروة ، لا ينبغي أن يصرف قلوبهم عن إحياء تلك الشعائر المقدسة ، ولا أن يحول دون إتمام النعمة .

السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله :

هذا هو السبيل الذي سبقت فيه آية الصفا والمروة ، فهو سبيل التأكيد لبشرى الفتح ، سبيل الاحتفاظ بقوة الإيمان والأمل في الرجوع إلى مكة ، وإقامة الشعائر التي منها السعي بين الصفا والمروة . وشعائر الله هي ما تعبد الله به عباده وطلب منهم الإتيان به إعلاناً لخضوعهم له ، وامتثالهم أمره ، وعبوديتهم إياه ، ومن ذلك كل أفعال الحج من إحرام وتلبية ، إلى رمي للجمار ، وذبح للهدي ، ومنه التوجه في الصلاة إلى الكعبة ، ومنه الصلاة الجامعة في الجمعة والعيدين . وقد جاء في وجوب المحافظة على شعائر الله وعدم الإخلال بها أو التصرف قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ (الآية ٢ من سورة المائدة)

والسعي بين الصفا والمروة بهذا القدر يكون مطلوبًا ولا شك ، لا يحل تركه ولا يجوز إحلاله .

وجه المصلحة في السعي :

أما وجه التعبد به ، أما وجه مصلحة الناس الآن فيه ، فهو سؤال لا يتجه ممن يؤمن بكتاب الله ولا بأن لله شعائر يتعبد بها عباده ، أدركوا سرها ووجه مصلحتهم فيها أم لم يدركوا ، وإلا فما وجه التعبد بصلاة أربع ركعات في وقت ، وثلاث أو اثنتين في وقت آخر ؟

على أنه من الممكن ، ومن المقبول جداً ، وخاصة عند المتفلسفين الذين يرون ربط الرسالات الإلهية في كل شيء بالاجتماع ومصالحه ، من المقبول أن نقول لهم - وهم يؤمنون بالذكريات وقداستها - إن معظم شعائر الحج التي تعبدنا الله بها هي استدامة لذكرى المواقف والأحداث التي وقعت لإبراهيم وزوجه حينما أسكنهما ذلك الوادي ، وكانا السبب الأول في عمارته ، وكان من تلك الأحداث ، أن اشتد بزوجه وولدها إسماعيل العطش ، فأخذت تتردد بين الصفا والمروة وقد أسلمت نفسها وولدها لله حتى أسعفهما بما رطب كبدهما . ثم أغدق عليهما الخير ، فعمر بهم الوادي ، واتصل بهم الناس من كل فج ، ومن هنا يقول النبي ﷺ فيما يرويه عنه ابن عباس : «فلذلك سعى الناس بينهما» .

إن هذه الذكريات ربط بين قديم المؤمنين وجديدهم ، وإعلان بأن دين الله في الآخرين هو دينه في الأولين ، يجدد اللاحق من عباده سنة السابق منهم . وإعلان بأن نعمة الله على الأولين ، هي نعمة على الآخرين ، يشكرها اللاحق كما شكرها السابق .

أما قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فلا يفيد أكثر من نفي الإثم على من يسعى بينهما ، والقصد منه إزالة ما كان يتوقع من تحرج المؤمنين من السعي بينهما مع وجود الأصنام عليهما . ونفي الإثم لذلك لا ينافي أنه مشروع ومطلوب وخاصة بعد بيان أنه من شعائر الله . نعم اختلف الفقهاء في أن السعي فرض أو واجب ، وهو خلاف لا تأثير له في نظري ولا ينبغي أن يكون له تأثير في المتوارث العملي .

حافظوا على شعائر الله :

وإذن ، فعلى المتفلسفين المنتسبين إلى الإسلام ، الذين يشككون الناس في مناسكهم ، أن يرجعوا إلى عقولهم ، وأن يفهموا كتاب الله كما تدل عليه عبارته ، وكما يرشد إليه أسلوبه ، عليهم أن يتحاكموا إلى عمل الرسول ، الذي بيَّن الكتاب وشرح التكاليف، وقد قالت السيدة عائشة : «إن الرسول ﷺ سن الطواف بين الصفا والمروة ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما » وروى مسلم عنها : «طاف رسول الله ﷺ وطاف المسلمون - يعني بين الصفا والمروة - فكانت سنة» .

ولعمري ما أتم الله حج من لم يطف بين الصفا والمروة ، وقد توارثه عنه أصحابه والمؤمنون من بعدهم جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا .

فاسعوا حجاج بيت الله بين الصفا والمروة ، وحافظوا على شعائر الله ، واذكروا به نعمة الله على أبيكم إسماعيل التي هي نعمة عليكم ، وإكرامًا لأبيكم إبراهيم الذي هو إكرام لكم ، وامتثلوا أمر الله وعمل رسوله ، ولا تحفلوا بما تلقي شياطين الإنس في قلوبكم ، واعلموا أن لهم في فتنة المؤمنين ألوانا شتى ، ولله في محاربة فتنهم سنة ، فتعرفوها وتحصنوا بها، واقرءوا فيها قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾
(الآية ٥٢ - ٥٤ من سورة الحج) .

في ظلال الذكريات الإسلامية



القرآن والذكريات

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ٥٥ من سورة الذاريات) .

* * *

الذكريات شأن طبيعي للإنسان :

لكل مجتمع فيما سلخ من حياته أحداث كان لها في قوته أو ضعفه ، وفي علمه أو جهله، وفي نظامه أو فوضاه ، وفي استقراره أو اضطرابه ، وفي أمنه أو خوفه ، كان لها في كل ذلك أو بعضه أثر بارز ؛ ينعم المجتمع بخيره إن كان خيراً ، ويشقى بشره إن كان شراً «سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً» .

وإن هذه الأحداث التي يسجلها التاريخ لكل مجتمع مرآة صادقة تنظر فيها الأجيال المتعاقبة صور الماضي فتعرف أحداث الخير وأسبابها ، وأحداث الشر وعواملها ، فتسلك بالأولى سبيل الخير والرشاد ، وتنأى بالثانية عن مهاوي الردى والضلال ، ومن هنا استقر في ضمير المجتمعات البشرية التطلع إلى ماضيها واستحضار أحداثه ، وتقليب النظر فيها وفي أسبابها ونتائجها ، لتمهد لنفسها سبل السير في حياتها المقبلة على ضوء ما عرفت من أحداث الماضي ونتائجها .

وللمسلمين - باعتبارهم جماعة من الجماعات - أحداث مليئة بالعظات والعبر ، وشأنهم في تذكرها واستحضارها من سجل ماضيهم شأن كل مجتمع بشري يتحسس مواضع الضعف في سيره فينقيها ، وعوامل القوة والتقدم فينميها .

الذكريات في القرآن :

وقد جاء القرآن الكريم فلفت الأنظار إلى هذا الشأن الطبيعي للمجتمعات وأخذ يقص على الناس كثيراً من أنباء السابقين مصلحين ومفسدين، ويقول :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

(الآية ١٣٧ من سورة آل عمران)

ويقول : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ١٢٠ من سورة هود).

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الآية ٤٩ من سورة هود).

ولم يكن شأن القرآن في ذلك شأن المؤرخ ، يعني بتحديد الأزمنة والأمكنة وتعيين الأشخاص ، ولا شأن الفنان الذي يخترع ما لا واقع له ليستخدمه في التأثير بالتبشير والتنفير ، وإنما كان له شأنه أن يرشد بما يقص من واقع الماضي إلى موضع العظة والاعتبار ، وإلى ما يحمل ذلك الواقع من سنن مطردة عليها نظمت المجتمعات وبنيت الحياة ، في خيرها وشرها ، فهو يذكر قصة أصحاب الكهف لا للتسلية والسمر ، وإنما يذكرها ليقدم بها مثلاً حية ذات روح في قوة الإيمان والكفاح ، والبعد بالنفس عن الخضوع للذلة والطغيان .

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾

(الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الكهف)

ويذكر قصة موسى مع العبد الصالح ليرشد بها إلى ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان في طلب العلم من حسن التواضع واحتمال المشاق في سبيله .

﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (الآية ٦٦ من سورة الكهف).

ويذكر قصة ذي القرنين ويقدم شخصية تعرف معنى العدل الذي تستقر به الحياة ، وتضع قانونه الحازم :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

(الآيتان ٨٧ ، ٨٨ من سورة الكهف)

وتعرف معنى النجدة فترد غائلة المعتدين على الضعفاء ، الهادئين في أوطانهم المسالمين لغيرهم

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة الكهف) .

ويذكر قارون وأصحابه الأخدود مثلاً في البغي والطغيان ، والتكالب على الدنيا ، وتسخيرهم نعم الله في إيذاء خلق الله

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى أن يقول في خاتمته وعاقبة أمره :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (الآيات ٧٦ - ٨١ من سورة القصص) .

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

(الآيات ٤ - ٨ من سورة البروج)

وهكذا يسلك القرآن إلى القلوب عن طريق التذكير بالأحداث الماضية .

ولم يقفل القرآن في التذكير عند أحداث الماضي الضاربة في أعماق القدم ، والتي كثيراً ما نسخت عصور الفناء آثارها ، كما طوت أبطالها وعناصرها ، بل عرض في كثير من آياته إلى تذكير المسلمين - وهم في المرحلة الثانية للدعوة - بأحداث المرحلة الأولى ، وهي لاتزال غضة في أذهانهم ، حاضرة في قلوبهم : ذكرهم وهم في المدينة بما كانوا عليه وهم في مكة من الضعف والخوف .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الآية ٢٦ من سورة الأنفال) .

وذكرهم وهم في المرحلة الثانية بأحداثها القريبة ، التي لم تكد تغرب شمسها عن

أفقهم، ذكرهم بعقد التآخي بين مهاجريهم وأنصارهم، ذلك التآخي الذي ربط القلوب، ووحد الكلمة، وصاروا به إخوانًا يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الآية ١٠٣ من سورة آل عمران).

وذكرهم وهم في المرحلة نفسها بنعمة النصر في بدر حينما صبروا واتقوا وكانوا على قلب رجل واحد

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (الآية ١٢٣ من سورة آل عمران).

وذكرهم بما أصابهم في أحد حينما دب الفشل والتنازع فيما بينهم، ففرق صفوفهم وأغرى بهم عدوَّهم:

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ (الآية ١٥٣ من سورة آل عمران).

وهكذا يعرض القرآن أحداث الماضي في قربه وبعده، وفي خيرها وشرها، على أنظار المسلمين.

الأعياد في الإسلام:

وإذا كانت الذكريات على وجه عام من شئون المجتمعات البشرية، فإن الأعياد ـ وهي لا تخرج عن دائرة الذكريات ـ سنة فطرية أيضًا.

وكما سلك الإسلام بأهله في الذكريات المسلك الفطري للمجتمعات البشرية، فذكرهم بكثير من الأحداث الماضية، سلك بهم في الأعياد المسلك نفسه، فجعل لهم أعيادًا يظهرون فيها فرحهم وسرورهم، ولكنه لم يجعلها أيام عبث ولهو، وإنما جعلها أيام فرح وشكر وعبادة.

وقد حدد بنفسه أيامها ومظاهرها، ولم يجعل من حق الناس أن يبتكروا لهم أعيادًا يخلعون عليها صبغة دينية، ويحيون لياليها وأيامها بعبارات يلتزمونها من تلقاء أنفسهم على أنها من وجوه القربى إلى الله، وبذلك كان العيد في الإسلام وضعًا إلهيًا، لا يملك الناس فيه حق التغيير والتبديل.

ذكريات إسلامية :

هذا وقد حفظ التاريخ للمسلمين ذكريات غاليات، لو أحسنا استقبالها وتفهمنا أسرارها، وأخذنا أنفسنا بما توحيه من دروس المجد والعظمة ، لكان لنا بين الأمم الحاضرة ، ما كان للمسلمين الأولين بين الأمم الغابرة ، ولكنا استقبلنا صوراً وقتية . شعارنا فيها دق الطبول ، ورفع الزينات ، وإضاءة الثريات، وعرض تماثيل الحلوى ، وإقامة السرادقات ، وإنفاق الأموال في غير طائل ، وما إلى ذلك مما لا يمت إلى فضيلة ، ولا يبعث على مجد، ولا يقره دين . ولقد أبعدنا ذلك عن الانتفاع بهذه الذكريات، وصارت في حياتنا أشبه بنوبات عصبية تحتمل بها الأمة في طاقتها واقتصادها وصور عبادتها أعباءً تنزل في كل ذلك بمكانتها واحترامها وتدينها .

أيها المسلمون :

اذكروا أحداثكم الماضية ، واملأوا قلوبكم بأسرارها، واربطوا حياتكم بسننها ، وسيروا في مستقبلكم على هداها ، يكن لكم من الأولين مجدهم ، ويعلُ في الحاضرين سلطانكم .

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ٥٥ من سورة الذاريات) .

ذكرى الميـلاد النّـبوي

تاريخ ميلاد الرسول :

في النصف الثاني من القرن السادس لميلاد المسيح ـ عليه السلام ـ ، وفي مكة إحدى قرى بلاد العرب ، ولد « محمد » من أبوين كريمين ، يتصل نسبهما بنبي الله إسماعيل ، وقد مات أبوه عبد الله بن عبد المطلب ، وهو في بطن أمه آمنة بن وهب ، لم تنفخ فيه روح الحياة ، ومكث بعد ولادته إلى السنة الخامسة من عمره في بني سعد ، حيث كانت ترضعه حليمة السعدية . وبعد أن عاد من الصحراء ارتحلت به أمه إلى المدينة ، ومكثت به شهراً في ضيافة بني النجار ، أخوال أبيه عبد الله ، وقد أراد الله ألا يطول أمد اتصاله بأمه كي لايشتغل قلبه بالأمومة ، كما لم يشتغل قلبه بالأبوة ، فانتزعها منه أثناء أوبتهم إلى مكة ، وهكذا نشَّأه ربه . خالي القلب من شواغل الأبوة والأمومة ، متفرغًا لما يفاض عليه من حب مولاه .

إعداده للرسالة :

تولاه الله برعايته ، وصنعه بيده : آواه من يُتْم ، وأغناه من فقر ، وهداه من ضلال ، ومايزال يغمره بالفضل والإحسان ، حتى بلغ أشده واستوى في أفق الإنسانية الأعلى ، وتهيأت نفسه لتلقي الرسالة العامة الخالدة التي ختمت بها رسالات الحق إلى الخلق ، فأرسله الله رحمة الله للعالمين ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا . أرسله بدين أساسه الإيمان بالله واليوم الآخر ، وقوامه مكارم الأخلاق وصالح الأعمال

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (أول سورة المدثر)

ظل بعد ذلك بمكة ، يدعو عشيرته وقومه إلى التوحيد وعقيدتي البعث والجزاء ، ونبذ ما كان عليه الآباء من الشرك والوثنية ، وسوء الخلق ، وقبيح العادات ، ولم يكن له في تلك الدعوة من سلاح سوى الحكمة ، يغزو بها القلوب ، والموعظة الحسنة ، يهذب بها النفوس ويلطف الطباع .

هجرته إلى المدينة :

ولما رأى أن الدعوة لا تتغلغل في النفوس كما يحب ويريد ، وأن موقف المكيين منه وحقدهم عليه ، وتعصبهم لموروثاتهم، قد يكون له من النتائج الخطيرة ألا يتفق ونجاح دعوته ، هاجر هو وصحبه إلى المدينة ، وهناك استقبلته قلوب عاهدته على أن يمنعوه مما يمنعون به أنفسهم وأبناءهم وأعزاءهم ، هاجروا إليهم ضَمًا للبنات الموحدة ، وتوحيداً للصفوف العاملة ، وجمعًا للقلوب المتحابة في الله . وهناك ابتدأت للدعوة حياة جديدة ، أخذت تغزو الناس في عقر دارهم، وأخذ الوحي يتتابع من السماء بالقانون الذي ينظم تلك الحياة وقد سلخ في تركيزها وتشييدها ، وتنظيمها مدة حياته بالمدينة . وقد أقر الله عينه بثمرة جهاده ورأى كلمة التوحيد تعمل عملها في معسكرات الشرك والوثنية ، وتعفى على مظاهر الضلال والبهتان ، وعندئذ أنزل الله في محكم كتابه امتنانًا بالنعمة .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (الآية ٣ من سورة المائدة)

ثم تلاه قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (سورة النصر)

وما أجدر المسلمين أن يتعرفوا عظمة نبيهم محمد ، التي تجلت آثارها في أطوار حياته كلها، فلم تكن عظمته من جنس العظمات البشرية المألوفة ، فهي ليست من عظمة الملوك الجبارين، الذين يستعذبون أنين الإنسانية ، واستعباد الخلق وإذلالهم ، وليست من عظمة القواد الطاغين الذين يفسدون في الأرض ، ويسفكون الدماء ، ولا يرون السعادة إلا في

الفتك بالضعفاء ، والتخريب والتدمير ، وترويع الآمنين ، وليست من عظمة الأغنياء الموسرين، الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق، ويمنعون حق السائل والمحروم، ثم يسخرون عباد الله في شهواتهم وأهوائهم بشيء من حطام الدنيا الزائل .

إنها عظمة رحمة وعطف، عظمة هداية وإرشاد ، عظمة تثقيف وتهذيب ، عظمة إصلاح وتعمير ، عظمة سلم وأمان ، عظمة تهيئ للحياة الفاضلة عدتها ، وتعبّد سبلها ، عظمة تساير الدهر ، وتستقر في صفحة الخلود ، ويستمد العالم منها غذاء حياته الروحية والاجتماعية، عظمة تتمثل في تلك التعاليم التي وحدت بين قلوب متنافرة، وربطت بين قبائل مبعثرة، واستلت منها الأحقاد والأضغان، وكونت منها أمة مهيبة الجانب ، عزيزة المنال، ذات شخصية ثابتة ونظام محكم متين ، استطاعت أن تسوس به شعوب الأرض ، على دعائم قوية من العلم والمعرفة ، والحكمة والعدل .

آثار تعاليمه وهدايته :

تلك التعاليم التي فوجئ بها قوم رسخت فيهم عوامل الفساد في الأرض وحرفوا الشرائع وأفسدوا الفطر ، فعبدوا غير الله ، ونسوا يوم البعث والجزاء ، وانحلت أخلاقهم واستباحوا الدماء والأعراض ، والأموال ، حتى اضطرب العالم ، وتزعزت أركانه، وما هي إلا صرخة الحق عن طريق «محمد» فيملأ الإيمان قلوبهم ، وتسود الرحمة بينهم، فينقلب شرهم خيراً ، وفسادهم صلاحًا ، وجهلهم علمًا ، وانحلالهم تماسكًا ، وفوضاهم نظامًا ، ويصبحون بنعمة الله وفضل تلك التعاليم إخوانًا ، أساس ترابطهم الإيثار ، وسبيل دعوتهم التواصي بالحق، والتواصي بالصبر ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله .

تلك التعاليم التي أطلقت للعقل البشري حريته ، ودفعته إلى النظر في ملكوت السموات والأرض، وفكته من السلاسل والأغلال ، وعابت عليه التقليد والجمود والتعصب، هذه التعاليم التي سوت بين الذكر والأنثى، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والقوي والضعيف ، وقررت أن الناس سواسية ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، ونظرت إلى الشعوب والقبائل ، نظرة واحدة ، وجمعتهم في ثوب واحد ، ونادتهم بنداء واحد «يا أيها الناس» «يابني آدم» .

تلك التعاليم ، التي قررت مبدأ حرية العقيدة ، وأنه لا سلطان لمخلوق فيها على مخلوق : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ٩٩ من سورة يونس) .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الآيات ١٣ - ١٥ من سورة الإسراء)

تلك التعاليم التي قررت للإنسانية ، حق التشريع في دنياها ، وقررت أنه لا سيادة للحاكم عليها ، وأنه يسعى لخدمتها بتفويض منها ، فلها فيه حق العزل وحق التولية .

تلك التعاليم التي ما تركت فضيلة إلا حثت عليها ، ولا رذيلة إلا حذرت منها ، ولا أصلاً من أصول التشريع الحي الناهض إلا قررته ، وطلبته من الناس شرعًا يسعدون به في الدنيا ، ودينًا ينعمون به في الآخرة .

تلك التعاليم التي كانت شفاء ورحمة للعالم : غرست بذور الخير في نواحيه ، ونهضت بالإنسانية من كبوتها ، وسمت بها إلى المكانة اللائقة بها ، مكانة الخلافة عند الله رب العالمين .

النبي الأمي :

تلك التعاليم - التي ظهرت وتجلت ، وتظهر وتتجلى في وحي الله ، لعبده محمد - هي آثار العظمة المحمدية ، تجري آياتها على لسانه ، فتقرع الأسماع ، وتخالط القلوب ، وتعمل عملها في التوجيه والإرشاد ، ومحمد هو محمد الأمي ، الذي لم يقرأ ولم يكتب ، والذي نشأ في مكة التي لا ترى فيها إلا رمالاً وجبالاً ، والتي لا تعرف علمًا ، ولا تأنس بحضارة

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾

(الآيتان ٤٨ ، ٤٩ من سورة العنكبوت)

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾

(الآيات ٤ ـ ١٠ من سورة النجم)

الاحتفال بذكرى المولد :

وقد جرت سنة المسلمين ـ بعد قرونهم الأولى ـ أن يحتفلوا في شهر ربيع الأول من كل عام بذكرى ميلاد الرسول محمد ﷺ ، وكان لهم في الاحتفال بهذه الذكرى أساليب تختلف باختلاف البيئات والبلدان .

فمنهم من يحتفل بتهيئة طعام خاص لا يألفونه في مجرى عاداتهم الغالبة تتناوله الأسر في ليلة الثاني عشر من الشهر فرحة مسرورة حول مائدة واحدة ، وتلك ذكراهم لميلاد الرسول .

ومنهم من يحتفل بأصناف من الحلوى ذات أشكال وصور مخصوصة ، يصنعها الباعة لتلك المناسبة ، ويضعونها منسقة منظمة أمام حوانيتهم التماسًا للرواج والربح ، وتلك ذكراهم لميلاد الرسول .

ومنهم من يحتفل بالدعوة إلى اجتماعات تفتتح بتلاوة من آي الذكر الحكيم وكثيراً ما يتحرى القارئ الآيات التي تعرض لذكرى الرسول باسمه أو صفته ، ولعلك تسمع في الليلة الواحدة أكثر من قارئ يقرأ قوله تعالى :

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الآية ٤٠ من سورة الأحزاب)

ثم تتلى قصة المولد الشريف بما أودع فيها من الأوصاف الخلقية ، والأوضاع التي كان عليها وقت ولادته عليه الصلاة والسلام ، وتلك ذكراهم لميلاد الرسول .

وتعني بعد هؤلاء وهؤلاء أقلام الكتاب وألسنة المتحدثين بالمقالات والأحاديث ، ينشرونها ويذيعونها على الناس ، يذكرونهم فيها بعظمة محمد وشمائله التي فطر عليها ، وعرف بها في أهله وبين قومه .

يوم أن كـان غلامًا يرعى الغنم ، ويعـزف بنفسـه عمـا يألفـه أقرانه من مـجالس اللـهو واللعب .

ويوم أن كان شابًا جلدًا يحضر مع أعمامه حرب الفجار وحلف الفضول .

ويوم أن كان رجلاً مكتملاً وافر العقل ، يرضاه قومه حكمًا في النزاع يشجر بينهم .

ويوم أن كان ملتهب الفطرة في صلته بالله ، فيفر من ظلمة الدنيا وجهالتها إلى التحنث والأنس بنور الإيمان الفطري .

ويوم أن كان مشفقًا على قومه من جهلهم بالله ، وانغماسهم في الشهوة والهوى ، لايدري كيف يهديهم .

ويوم أن كان هاديًا مرشدًا ، يتعهدهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويبشر من أجاب وينذر من أبى .

ويوم أن كان محتملاً مكايد قومه ، صبورًا على إيذائهم ، يستعذب العذاب في سبيل دعوته .

ويوم أن خرج من نطاق الحديد والنار الذي ضربه قومه حول بيته ، ليضربوه ضربة واحدة يتفرق بها دمه في القبائل فيستريحوا منه ومن دعوته .

ويوم أن صار في المدينة قائدًا يتقدم الصفوف ، ويتقي به أصحابه .

ويوم أن كان حاكمًا يقيم الوزن بالقسط ، لا يعرف نفسه ولا أهله في إقامة حد الله وشرعه .

هكذا جرت سنة المسلمين بعد قرونهم الأولى !

ذكرى الرسول عند المسلمين الأولين :

وما كان المسلمون الأولون يفكرون في تعيين زمن خاص يذكرون فيه الناس بعظمة محمد ﷺ عن طريق الاحتفالات التي تقام ، أو المقالات التي تكتب ، أو الأحاديث التي تذاع .

ذلك أنهم كانوا يرون أن عظمته ﷺ ليست من جنس العظمات التي يخشى عليها

النسيان أو التلاشي في صحف الأيام حتى تحتاج في بقائها إلى تذكير الناس بها ، وتنبيه وعيهم إليها ، وليست من جنس العظمات التي تألفها الأمم في نوابغها وأفذاذها تكون في ناحية من نواحي الحياة ، كانتصار في معركة ، أو فتح لحصن ، أو سبق إلى اختراع مادي ، أو كشف نظرية علمية في السماء أو في الأرض ، أو زعامة أمة أو إقليم .

عظمة خالدة :

وإنما كانوا يرون - كما هو الواقع - أنها عظمة خالدة بخلود آثارها في العالم ، تنمو وتمتد ، وتسري بقوتها الذاتية في جوانبه شرقًا وغربًا ، وتنطلق أشعتها على مجاهيل الكرة الأرضية ، فتنبض لها القلوب ، وتتحرك لها العقول ، وتنشرح بها الصدور ، وتمتلئ بروعتها وبساطتها النفوس ، وترسم هي لهم سبل السير وراءها فيكشفون للناس عن جوهرها ومصدرها وعن نظمها في الحياة .

كانوا يرونها خالدة بأثرها هكذا ، وخالدة بكتابها الخالد الذي يهدي الإنسان في الحياة إلى التي هي أقوم : في عقيدته ، وفي خلقه ونظم حياته ، وروابطه العائلية والمدنية والإنسانية ، وفي علاقته بالكون ، أرضه وسمائه ، وفي متعته بلذائذ الحياة الطيبة ، وفي تضامنه مع إخوته بني الإنسان ، وفي عمارة الدنيا وفي أمنها واستقرارها وفي بلوغها أقصى ما قدر لها من كمال .

كانوا يرونها هكذا خالدة ، وهكذا عامة .

وكان ذكراها لديهم في ترسم خطاها ، والجد في نشرها ، وفتح قلوب الناس لها ، والعمل على انتفاع الإنسانية بها . وبذلك ركزوا حياتهم في تقليب وجوهها ، والاقتباس من نصها وروحها ، لما يكفل للإنسانية أن تحتفظ بمكانتها في صفحة الترتيب الكوني لهذا العالم .

وتلك كانت ذكراهم لعظمة محمد ، كانت حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم أقلامًا من نور ، ترسم خطوطها في جميع الآفاق تفتح القلوب ، وتنير العقول ، وتحيي الضمائر .

انحراف إلى عظمات زائفة :

هذه عظمة محمد ، وتلك ذكراها عند المسلمين الأولين ، ولكن لما ضعفت النفوس ، وتفتحت للناس منابع للشهوة والهوى ، وناءت القلوب بحمل الأمانة هان على الناس قدرها واستبدلت بها غيرها من صور العظمات الخاصة ، وصارت تلك العظمات هي المحراب الذي نتجه إليه ، والغرض الذي نسعى جهدنا في الحصول عليه .

وأقفرت قلوبنا وحياتنا من جوهر العظمة المحمدية ، وصرنا لا نذكرها ، ولا يلمع برقها إلى حيث يوافينا من كل عام هلال ربيع ، أو يقال لنا هذا شهر المولد النبوي الكريم فنهرع إلى هذه المظاهر نقيمها ، وتلك الكلمات نؤلفها ، حفاوة بحق الذكرى وبحق الانتساب :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ (الآية ١٠ من سورة الكهف) .

القرية السعيدة

ذكرى ربيع الأول :

يستقبل المسلمون في كل عام بشهر ربيع الأول ذكرى محببة إلى نفوسهم ، ذكرى يجري حبها في قلوبهم وأعصابهم جريان الدم في العروق ، وجريان الروح في الجسد، ويذكرون بها الحد الفاصل بين الظلام الذي خيم على الإنسانية ، والنور الذي كشف لها الطريق ، ورفع عنها الحجب وأنار أمامها الحياة .

يذكرون بها الحد الفاصل بين الذل والاضطراب والفوضى ، وبين العزة والسكينة والنظام .

يذكرون بها الحد الفاصل بين ما سقطت فيه الإنسانية من حمأة الجهل والاستعباد وكبح الحرية ، والخضوع لغير الله ، وبين ما ارتفعت إليه من سماء العلم ومكانة الرشد والاستقلال ، مع حرية الرأي والخضوع لله الواحد القهار .

يذكرون ذلك بشهر ربيع الأول ، كلما دارت حركة الفلك وجاء عام بعد عام .

يذكرون ذلك فتتجه مشاعرهم وتهفو قلوبهم إلى منابت هذه الذكرى ، وإلى شخصية هذه الذكرى ، وإلى عوامل هذه الذكرى ، وإلى آثار هذه الذكرى .

سعادة الأمكنة والأزمنة :

ليس من شك في أن الأزمنة والأمكنة كالإنسان ، تسعد وتشقى ؛ فسعادة الإنسان ترجع إلى ما يمكنه من خلع ثياب الذل والاستعباد ، والقضاء على صور الفساد والدنس التي تحيط به وتسلبه الحياة الفاضلة ، حياة الحرية والعزة والكرامة، وإلى ما يهيىء له القيام بواجباته التي بها يحصل على حقوقه كاملة غير منقوصة ، وتجعله ذا حظ يسمو به في حياته ويذكر به بعد مماته ويكون من الخالدين .

وسعادة الزمن ترجع إلى ما تسديه حركته إلى الإنسانية من قوى الخير والإصلاح والسير بها في طريق الهدى والفلاح .

وسعادة المكان ترجع إلى ما ينبته من غذاء طيب يكون له فضله في تقوية الحياة ، وسريان الخصوبة منه إلى ما يتصل به من موات ، فتزكو التربة ، وينبت الغرس ، وتعظم الثمرة ، وبقدر ما يحتاج للإنسان والزمان والمكان من جهات السعادة ، يكون اصطفاء الله للإنسان والزمان والمكان .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (الآية ٦٨ من سورة القصص)

وعلى هذا الأساس سجل الله في كتابه اصطفاء الأشخاص .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

(الآية ٣٣ من سورة آل عمران)

وسجل اصطفاء الأزمنة : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (الآية ٣ من سورة القدر)

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾

(الآية ١٨٥ من سورة البقرة)

وسجل اصطفاء الأمكنة : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾

(الآيات ١١ - ١٣ من سورة طه)

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (أول سورة الإسراء)

مكة البلدة المصطفاة :

ومن الأمكنة المصطفاة مكة فهي في سجل الاصطفاء من عهد إبراهيم

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾

(الآية ٣٦ من سورة إبراهيم)

وكانت أول مكان استضاء بنور ذلك الإصلاح المحمدي، واهتزت جوانبه ببشراه في مرحلته الختامية، فتسجيل الله لها، وتخليده لذكراها في كتابه العزيز الخالد، وفي واجباته الدينية الأولى، كان في التسجيل المكاني أبرز تسجيل وأعظم تخليد.

بلد البيت الحرام:

فقد ربط بها - لمكان البيت فيها - قلوب المؤمنين واتجاههم كلما قاموا إلى الصلاة، وكلما ضرعوا بالدعاء.

﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾ (الآية ١٤٤ من سورة البقرة)

وربط بها أجسامهم وقلوبهم كلما تيسر لهم واستطاعوا حج البيت الحرام

﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ (الآية ٩٧ من سورة آل عمران)

ثم نوّه بشأنها، وذكرها في كتابه دون سواها من الأماكن بجملة من أسمائها التي توحي بالنعمة التي نبتت من جبالها، وسرى روحها في أنحاء العالم فأحيته بعد موات، وهدته بعد ضلال وأضاءته بعد ظلام، وكانت مصداقًا لدعوة إبراهيم - عليه السلام - .

﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (الآية ١٢٩ من سورة البقرة).

مكة في القرآن:

ذكرها بأشهر أسمائها «مكة»: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ** ﴾ (الآية ٢٤ من سورة الفتح).

وذكرها باسم «مكة» وهو يرشد إلى مكانة البيت الذي رفع إبراهيم وولده إسماعيل قواعده، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ (الآيتان ٩٦ ، ٧٩ من سورة آل عمران)

وذكرها باسم «أم القرى» ، ومن الأم يرضع الأبناء لبن الحياة الصافي .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الآية ٧ من سورة الشورى)

وذكرها باسم «البلد الأمين» رمزًا لما تنفست عنه من مبادئ الأمن والاستقرار ، وبهذا الوصف «البلد الأمين» أقسم بها سبحانه ضمن منابت الهداية الإلهية ، توجيهًا للأنظار نحو خيرها ونعمتها على العالم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ (الآيات ١ - ٣ من سورة التين)

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ (الآيتان ١ - ٢ من سورة البلد)

العالم قبل الرسالة الإسلامية :

لقد كان العالم يموج بأنواع من الفتن والشرور ، وفي هذه الفتن ضل الإنسان سبيل الحكمة ، وهضم بجبروته حقوق الضعفاء ، وتحكم في العقائد والأخلاق والروابط الاجتماعية . وفي هذا الجو فسد عليه تصوره لخالقه ، وانقطع عنه نور الحق ، وفسد تصوره للفضائل ، وفسد تصوره للجماعة البشرية ، فعاش على أساس من الشهوة العمياء ، والفردية الممقوتة ، والانحلال الشائن لا يعرف الرحمة ولا التعاون ، ولا يكترث إلا بما رسمه تصوره الضيق المنحرف .

وكان من الضروري أمام هذا الإنقلاب الذي صار إليه الإنسان وقد خلقه الله ليعرفه ، وليكون مظهرًا لصفات الجمال والجلال ، وليكون خليفة في الأرض يعمرها وينميها ويسعد نفسه وإخوانه بأسرارها ونعم الله فيها . كان من الضروري في الحكمة الإلهية أن ينظر الله إلى العالم نظرة جود ورحمة تنتشله من وهدته ، وتصلحه من فساده ، وترده إلى صوابه ، وتبصره الطريق السوي المستقيم ، وتلك سنة الله كلما ضلت الأقوام وانحرفت الأمم .

مكة مولد محمد ومنشؤه :

ومن هذا البلد الأمين «مكة» أم القرى، ذات الجبال الشاهقة والحصون الحجرية المحكمة التي صانتها عن زخارف المدنيات الطائشة، مدنيات الفرس والرومان، والتي غرست في نفوس أهلها : بسمائها ، ووديانها، وجبالها، معاني الحرية والنجدة والكرم وإباء الضيم.

من هذا البلد تفجرت ينابيع الحكمة والهداية، وارتوى من سلسبيلها الإنسان في كل زمان ومكان، فشعر بعزته، وشعر بمكانته في الحياة.

في هذا البلد الأمين، وتلك القرية السعيدة، ولد حفيد إبراهيم ، محمد بن عبد الله، وكان ميلاده إيذانًا ببزوغ فجرليل اشتد ظلامه، وتخبطت في دياجيره البشرية قرونًا طوالاً.

في هذا البلد الأمين، ولد محمد ، فتولاه ربه برعايته وصنعه على عينه، وأخلصه له منذ صباه، فلم يشغل قلبه بشيء من عطف الأبوة، ولا حنان الأمومة، ولا بشيء من زخارف هذه الدنيا الفانية.

ولما بلغ أشده واستوى آتاه الله العلم والحكمة، وجعله نبيًا، وختم به رسالاته، وأكمل به دينه، وأتم به على العباد نعمته، أحيا به ما اندرس - بالطغيان والهوى - من هداية إبراهين، وآل إبراهيم، وجدد به عهد الولاء للخالق، وكون عظمة شغلت العالم منذ أربعة عشر قرنًا ، وستظل بأبنائها الأوفياء المخلصين في حمل شعلتها، الحامين لذمارها، تشغل العقول وتلفت الأنظار، وتسمو بالإنسانية، وتزلزل عروش العنف والجبروت، وتقوض قصور الظلم والطغيان، وقد كتب الله على نفسه، ووعد - ووعده الحق - أن ينصر عباده المؤمنين المخلصين

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الآية ٢١ من سورة المجادلة).

هذا أيها المسلمون شهر ربيع الذي ولد فيه محمد، وتلك مكة القرية السعيدة التي شب فيها وترعرع، وتلك شريعته التي بها أنقذ الإنسانية، فاذكروا بالزمان والمكان هذا النبي العظيم، وتلك الشريعة المطهرة، ولا تكونوا

﴿ كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(الآية ١٦ من سورة الحديد)

هذه أمانة الله، حملها آباؤكم وأجدادكم، وجئتم بعدهم خلفاء، فارفعوا رايتها، وجاهدوا في سبيلها، ولا يكن منكم معوقون ولا متخلفون.

الذكرى في مَصنع الطيران

إحياء الذكرى :

سرني جداً وشرح صدري أن يفكر مصنع الطيران في الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأني أرى أن لرجال القوة ـ سواء كانوا ممن يعملونها أو يعملون بها ـ صلة خاصة بأهم جوانب العزة التي كان الرسول يعمل لها وبها، قد جرت على الألسن والأقلام، في الإعلان عن هذا الاحتفال كلمة «إحياء ذكرى ميلاد الرسول» ، وأنا لا أحب هذا التعبير ، لأن ذكراه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حية لا تموت، خالدة لا تفنى .

وقد كانت ذكراه في قلوب المسلمين الأولين ماثلة لاتخفى ، حاضرة لاتغيب، يرونها في تاريخه وفي جهاده، وفي أخلاقه وفي إيمانه وشرعه ، وكانوا يترسمونها بأنفسهم، في حياتهم، وأخلاقهم، وفي جهادهم، وفي إيمانهم وأعمالهم فهي معهم أينما كانوا وكيفما كانوا، ولكن طال الأمد وبعد العهد، ولمع زخزف المدنية الكاذبة، وتغلب الهوى أخذت هذه الذكرى العملية تتقلص شيئًا فشيئًا، وتطوى صفحتها من الحياة شيئًا فشيئًا، حتى نسيت أو كادت، وصارت لا تذكر إلا إذا دخل شهر ربيع الأول وأعلن أنه شهر ميلاد الرسول، وهنا فقط نهرع إلى إقامة هذه الذكريات بكلمة «إحياء ذكرى ميلاد الرسول» ، وعلى كل فإني أرجو أن يجعل الله من هذه الذكريات الكلامية الوقتية، سبيلاً إلى الذكرى العملية العامة في جميع الأوقات، وفي جميع الأعمال .

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ٥٥ من سورة الذاريات) .

جوانب شخصية الرسول :

والواقع أيها الإخوان أن ذكرى الرسول لها جانبان : جانب عام يشمل المؤمنين جميعًا، وهى ذكرى أخلاقه، وحسن معاملته التي أجملها بقوله : «أدبني ربي فأحسن تأديبي» .

وأجملها الله سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

وجانب خاص، وهذا الجانب له في شخص الرسول جهات متعددة قد اجتمعت كلها في شخصيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهي لا يمكن أن تجتمع في غيره، وإنما توزع على الناس توزيعًا.

فهو قد كان عاملاً بالأجر، يرعى الغنم لغيره، ويتجر لغيره، فيحسن رعيته، ويحسن أمانته، وهو بذلك كان خير قدوة للعمال.

وهو قد كان داعيًا إلى دين، يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن، وهو بذلك كان خير قدوة للدعاة والمرشدين.

وهو قد كان مجمعًا لإخوانه وأتباعه، مؤلفًا لقلوبهم حريصًا على خيرهم، رءوفا رحيمًا بهم، وهو بذلك كان خير قدوة للزعماء الذين يفنون في خير أمتهم.

وهو قد كان قاضيًا عادلاً وحاكمًا منصفًا، لا ترده عن عدالته أبوة أو بنوة وهو بذلك كان خير قدوة للقضاة والحكام.

وهو قد كان محاسبًا لعمال المصلحة العامة يأخذ منهم ما أخذوه باسم الوظيفة ويترك لهم ما اكتسبوه باسم أشخاصهم، وكان يدير توزيع ماليته على مصارفها دون حيف ولامحاباة، وهو بذلك كان خير قدوة للمحاسبين والمديرين.

وهو بعد ذلك كله كان يرتب الجيش، ويعين المواقع، ويختار أماكن الردء والأمام، وكان يستعرض الجنود، ويستعرض السلاح، ويتقدم الصفوف ومواقفه في غزوتي أحد والخندق لا تخفى على أحد، فقد كان في أحد أقرب المجاهدين إلى العدو، وكان يتقي به أصحابه. وكان في غزوة الخندق وهي المعروفة بغزوة الأحزاب يعمل مع أصحابه في حفر الخندق، الذي أشار به سلمان الفارسي في شمال المدينة، وكان ينقل التراب بنفسه متمثلاً بشعر ابن رواحة:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا

إذا وصلنا إلى هذا الجانب عرفنا الجانب الذي يخصكم كرجال جندية من ذكرى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ويا حبذا لو أن كل طائفة ذات اختصاص معين من جوانب ذكراه، اتخذت من ذكراه الجانب الذي يمسها ويتصل به . فالعمال يعرفونه كعامل محسن أمين، والدعاة يعرفونه كداع مؤثر حكيم، والزعماء يعرفونه كزعيم مؤلف حريص، والقضاة يعرفونه كقاض عادل منصف، والمشرعون يعرفونه كمشرع نافذ البصيرة، والمحاسبون يعرفونه كمحاسب دقيق، والبلغاء يعرفونه كبليغ يمتلك القلوب، والمحاربون يعرفونه كمحارب ظافر منتصر .

مصنع الطيران في جانب من الذكرى :

لوعرفناه هكذا، لوجدت ذكراه ماثلة عند جميع الطوائف في أعمالها واتجاهاتها في الحياة، وإذا وصلنا إلى التوزيع في نواحي الاعتبار بذكراه ـ عليه الصلاة والسلام ـ هكذا، ودخلنا مصنع الطيران عرفنا تعاليمه التي تضمنها وحي الله إليه فيما يختص بإعداد القوة التي أمر الله بها في أبرز آية من كتابه

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(الآية ٦٠ من سورة الأنفال)

والتي أصبح الطيران من عناصرها الأولى، بل أصبح هوالعنصر الوحيد الذي تتنافس فيه الأمم، وبالتالي عرفناكيف ذكر الله في كتابه «القوة»، ومادتها وهي الحديد الذي سميت باسمه في القرآن سورة كاملة، وفيها يقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

ثم يختم ذلك بقوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الآية ٢٥ من سورة الحديد).

وعرفنا كيف يقص الله علينا خبر ذي القرنين «الملك الصالح» إذ قال لمن شكوا إليه إغارة المفسدين عليهم

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

ويذكرهم بمادة الحديد ، مادة القوة وحاجته إليها : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾

(الآيات ٩٦ ـ ٩٨ من سورة الكهف)

ولعل هذا لا يبعد كثيراً عن كيفية إقامة الحصون المعروفة الآن لرد غائلة المعتدين ، وعرفنا كيف يمتن الله على نبيه داود بوسائل القوة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ (الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة سبأ) (الدروع الواقية)

ويمتنّ على سليمان بما هيأ له من وسائل تسخير الريح .

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ (الآية ١٢ من سورة سبأ)

إذن فمعمل الطيران ، ومعمل القنابل ، ومعمل المصفحات إلى آخر ما تعرفون ، إنما تعمل في جانب من جوانب ذكرى الرسول وحياته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وإذا ربطت طوائف المؤمنين أنفسهم في أعمالهم بما يخصهم من جوانب هذه الذكرى ، عظمت ثقتهم بأنفسهم ، وعظمت مكانتهم عند الله ، وكانت لأعمالهم النتائج التي ترضي صاحب الذكرى ، وكانت حياتهم كحياة الأولين كلها ذكرى ، وكانت الذكرى دائماً حية في القلوب ، وماثلة في الحياة .

الذكرى بين القول والعمل

إن ذكرى محمد ﷺ مستقرة في نفس كل مؤمن لا تنسى ولا يختص بها زمان دون زمان: قرن الله بينه وبين اسمه الكريم في كلمة التوحيد التي بها يكون المرء مسلمًا، والتي هي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وجعل المناداة باسمه جزءامن الأذان الذي يكرر في كل يوم خمس مرات بصوت مسموع تتجاوب به المآذن في بيوت الله من الصباح إلى المساء، إيذانًا بالصلوات المفروضة، وجمعًا للمسلمين على عبادة الله، فيتعارفون ويتحابون ويتعاونون، وإنه ليذكر في التشهد كلما صلى مسلم فرضًا أو نفلاً.

تخليد الله ذكرى نبيه:

وقد خلد الله ذكره في كتابه الخالد. ذكره باسمه الصريح، وذكره بوصف الرسالة اصطفاءً من الله على علم، وذكره بوصف العبودية لله الواحد، وذكره بعظمة خلقه، وذكره برحمته للمؤمنين، وبرحمته للناس أجمعين، وذكره بأنه المزكي للنفوس المعلم للكتاب والحكمة، وذكره بالتبشيروالإنذار، وبأنه شهيد على أمته، وبأنه صاحب المقام المحمود، وجعل محبته من محبته، وطاعته من طاعته، وعصيانه من عصيانه.

وهكذا تلمع هذه الذكرى المحببة في كل موطن من مواطن الإسلام، عقيدة وعبادة وقدوة واهتداءً، وتفتر عنها ملايين الألسنة والشفاه في مشارق الأرض ومغاربها كلما أذن مؤذن، أو أجاب مجيب، أو صلى مصل ، أو آمن مؤمن، أو تلا قارئ، أو حدث محدث.

تلك لعمري هي الذكرى وهذا هو الخلود!

كان إيمان الأولين بهذه الذكرى، وبصاحب هذه الذكرى - عليه الصلاة والسلام - إيمانًا عمليًا، بالأفعال قبل الأقوال، بالقلوب والأرواح قبل الصور والأشباح، بالدماء،

بالأموال، بالأولاد، بالأهل والعشيرة، بالمتاع والنعيم، بكل لون من ألوان التضحية والإيثار والجهاد، آمنوا بنبيهم وذكرى نبيهم لا عن طريق الخطب في تلقي شمائله، ولا عن طريق الحفلات تطلق فيها الأنوار الصناعية، وإنما آمنوا عن طريق اتباعه وإحياء سنته والتحلي بأخلاقه، وإقامة شرعه ودينه، آمنوا بهذا وعلموا أن الإيمان الحق يثمر المحبة الصادقة، وللمحبة الصادقة حقوق وعليها تبعات، فمن حقوقها المتابعة للمحبوب، والرضا بما يرضيه، والغضب لما يغضبه، ومن تبعاتها تحمل المشاق والتضحية بأعز شيء في سبيل الوصول إلى رضاه

﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ (الآية ٣١ من سورة آل عمران)

﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ (الآية ٢٤ من سورة التوبة).

هكذا كان شأن المؤمنين الأولين يوم كان الإيمان قويًا في النفوس، تشتعل جذوته فتلتهب الجوارح، وتبذل الأنفس، وهكذا كانت الذكرى ماثلة في كل شيء: في أقوالهم إذا نطقوا، في حركاتهم إذا تحركوا، في سكونهم إذا سكنوا، في جميع شئونهم الفردية والاجتماعية، السرية والعلنية، الدنيوية والأخروية، أساسها هذا النور المبين الذي جاء به محمد عن ربه، فكان دستور الحياة، وينبوع العزة والقوة والسعادة

﴿ **إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء).

هكذا كان شأنهم، كانت جميع أيامهم وجميع أوقاتهم وجميع أعمالهم ذكريات متجردة متتابعة لهذا الرسول الكريم، وكانت حالتهم مثالاً صادقًا، ومرآة صافية ترى منها سيرته ﷺ وشرعته وأخلاقه، فلم تكن بهم حاجة إلى مذكر وهم في الذكرى دائمًا سائحون، وبنورها مهتدون.

ظل المسلمون كذلك حتى ضعفوا واستكانوا، فانطفأ هذا النور من قلوبهم وأقفرت بصائرهم من أسراره، ولم يبق لهم منه إلا صور مرسومة بحروف في الصحف أو الكتب يرجعون إليها كلما عاودتهم الذكرى، أو أهل عليهم شهر ربيع!

اكتفوا بذكرى محمد ﷺ في شهر ربيع من كل عام، كما اكتفى غيرهم ، وأنه كان على خلق عظيم، وأن شريعته صالحة لكل زمان ومكان، وتركوا الاقتداء والتأسي، وانحازوا إلى شرائع وتقاليد وأخلاق لا يعرفها محمد، وما أنزل الله بها من سلطان، فانخفضت رءوسهم، والتوت أعناقهم، وضعف سلطانهم، وتفرق شملهم، وتناثرت عزتهم، شغلوا بالقول ونسوا أن دينهم ومنبع عظمتهم ومجدهم، أساسه الإيمان والعمل

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (سورة العصر).

لا نعلم في القرآن ولا في تعاليم الرسول آية واحدة أو حديثًا واحدًا يجعل سبيل السعادة مجرد القول، بل نراهما ينوطان النجاح دائمًا بالإيمان والعمل، وينعيان على القوّالين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (الآيتان ٢، ٣ من سورة الصف)

نعم قد اتحد القول في شيء من الآيات والأحاديث، ولكن نجده مقرونًا بطلب العمل:

«قل آمنت بالله ثم استقم».

وهكذا كان صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه فعالاً قبل أن يكون قوالاً، كان فعله أكثر من قوله: كان معلمًا للخير بفعل الخير، كان داعيًا للفضيلة بالفضيلة، كان قدوة في أعماله وأسوة بأفعاله، يتوضأ ويقول لأصحابه: هذا وضوئي ووضوء الأنبياء قبلي، وكان يصلي ويقول لأصحابه «صلوا كما رأيتموني أصلي». وكان يحج ويقول: «خذوا عني مناسككم».

ولقد كان ﷺ شجاعًا كأتم ما تكون الشجاعة ولم يكن شجاعًا بالقول وإنما كان شجاعًا بالفعل، وفي ذلك يقول علي - رضي الله عنه -: «لقد كنا إذا حمي الناس، واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا، وكان الشجاع هو الذي يقرب منه».

وليس يعرف التاريخ قائداً حكيماً صبوراً جلداً كمحمد ﷺ ، فرَّ أصحابه من موقفهم يوم أحد متلهين بالغنائم ، ، مخالفين أمره الذي أمرهم به : ألا يبرحوا الشعب ولو رأوه وأصحابه يقتلون، فوقف رسول الله ﷺ يرمي بنفسه عن قوسه حتى تحطمت ، وأحاط نفر من المسلمين به يدفعون عنه ويحمونه ، وترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله فحنى ظهره والنبل يقع فيه ، ووقف سعد بن أبي وقاص إلى جانبه يرمي بالنبل دونه ، ورسول الله يناوله النبل ويقول له : ارم فداك أبي وأمي ، وأصيب النبي ﷺ فوقع لشقه وكسرت رباعيته ، وشج وجهه ، وجرحت شفتاه ، ودخلت حلقتان من المغفر ـ الذي يستر به وجهه ـ في وجنته ، ولكنه مع كل هذا تمالك نفسه وأخذ ينادي المسلمين : «إليّ عباد الله» فإذا به يقع في حفرة حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون ، فيأخذ علي بيده ، ويرفعه طلحة بن عبيد الله حتى يستوى !

موقف من مواقف الشجاعة العملية لا يعهد لقائد غير رسول الله ﷺ ، وفي هذا الموقف العملي يقول الله في كتابه العزيز :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الآيتان ١٢٥ ، ١٥٣ من سورة آل عمران) .

ولقد كان محمد ﷺ يشترك مع أصحابه فيما يفعلون من شئون الحرب كأنه جندي منهم ، وكان يحمل التراب في غزوة الخندق على كاهله ، وهو يعلم أن فيهم من يكفيه ذلك راضيًا مسرورًا ، ولكنه يضرب لهم الأمثال بما يفعل ، ويثير في قلوبهم حماسة الإيمان : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الآية ٢١ من سورة الأحزاب) .

وأعود فأقول : تلك لعمري هي الذكرى ، وهذا هو الخلود .

نورٌ أضاءَ الطريق

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الآيتان ١٥ ، ١٦من سورة المائدة).

جهزه مولاه لسفر طويل شاق يكابد فيه أعمالاً جساماً، فيها حياته وحياة أسرته، فأعد له الظهر الذي يركب، وهيأ له الزاد والمتاع، وقوى الإنتاج والدفاع، وما كاد يقطع المرحلة الأولى حتى أخذته السماء بصيب، فيه ظلمات ورعد وبرق، وتلاحقت أصوات الوحوش في سمعه من كل جانب، فلم يجد بداً من أن ينيخ بعيره، وأن يستلقي على وجهه بجانبه، وسرقته من نفسه سنة انتبه منها على صوت رهيب مفزع، فإذا الراحلة قد ضلت - وعليها كل حياته - فانعقد لسانه وملأه الحزن على ضلال الراحلة، والخوف من الظلام والسباع، فقد حيل بينه وبين مواصلة السير في العمل الذي كلفه إياه مولاه وجهزه بجهازه.

وبينما هو سابح في المناجاة التماساً للخلاص من الأهوال التي أحاطت به، وإذا القمر يرسل عليه أشعته الهادئة فتضيء ما حوله، وتبدد السحب، وتسكت السماء، ويكف رعدها، وينطفئ برقها، وتهرول السباع إلى الكهوف وإذا الراحلة واقفة بجانبه، وعليها حاجته وعدته، فتعود إليه نفسه، ويستقر في صدره قلبه وينطلق لسانه، وتنفعل جوارحه بالشكر والثناء، ثم يأخذ في تنظيم شأنه واستئناف عمله، ويخطو في طريقه إلى مهمته.

الروح الفطري:

هذا مثل «الروح الفطري» الذي صاغ الله الكون على محور منه، وجعله في الأرض خليفة، يحييها وينميها، ويظهر أسرار الله فيها. سخر له كل ما أودعه في أرضه وسمائه ومائه وهوائه، وأغراه بالبحث والنظر، والكد والعمل، وربط سعادته باستخدام ما يصل إليه من أسرار في خير الإنسانية وبنائها:

﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾

ولكن «البشرية» بما ابتليت به من قوى الشهوة والغضب، وحب الاستعلاء والطغيان، تقمصت روحًا آخر تغلب على روحها الفطري وانتزعها منه وخرج بها عن وضعها في صحيفة الترتيب الكوني، قطع صلتها بخالقها فأنكرت ألوهيته أو عبثت بأسرتها، وعبدت ما لا يسمع ولا يبصر، وخشعت لما لا ينفع ولا يضر، وقطع صلتها بأسرتها، فوأدت البنت، ولها مكانتها في الحياة، وأكرهت الفتاة على البغاء ولها عفتها وشرفها، وقتلت الأولاد، لا لشيء سوى أنها لم تنل حظًا من الغنى، وقطع صلتها بمجتمعها، فتحكمت في العقائد والأخلاق وسنن الاجتماع، واتخذت أساس معاملاتها القوة الغاشمة، والتسخير والإذلال حتى خلال جوفها من الرحمة والشفقة، وعزف عنها البر والإحسان.

وهنا اختلس «الروح الفطري» نظرات ضعيفة، ولكنها نفذت إلى ما وراء تلك الحجب المتراكمة واتجهت إلى مصدر الخلق والإيجاد، مصدر الرأفة والرحمة، مصدر الهداية والإنقاذ:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (الآية ١٨٦ من سورة البقرة).

واستمع له وهو السميع العليم، ونظر إليه وهو الرءوف الرحيم.

رسالة محمد أيقظت الروح الفطري:

وفي هذه الآونة انطلقت بشرى الإنقاذ بمولد محمد بن عبد الله، فاهتز لها باطن العالم، واشرأب الروح الفطري إلى السماء يقلب وجهه فيها، وما هي إلا فترة النمو والإعداد حتى وافته رسالة السماء:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الآية ١٢٨ من سورة التوبة)

جاءه ذلك النور يحمل قبسه رسول الله محمد ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء)

يهدي للتي هي أقوم في العلاقة بالخالق وبالناس، في العلاقة بالبناء والتعمير، في العلاقة بالكون ظاهره وباطنه.

بصّره النور بكل هذا، وبصّره بأن له وراء هذه الحياة ـ ذات الكدح والعمل ـ حياة أخرى هي حياة الطهر والمثل الأعلى في الكمال والسعادة الدائمة.

﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (الآية ١٣٦ من سورة آل عمران).

هذا هو النور الذي تبوأ به «الروح الفطري» مكانه من «الضمير العالمي» فبدل قسوته رحمة، وضلاله هدى، وانحرافه استقامة، وجهله علمًا، وخوفه أمنًا، وخرابه نظامًا وتعميرًا.

هذا هو النور الذي تحتفل بميلاد رسوله البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها في شهر ربيع الأول من كل عام هجري.

ولقد كان من حظ مصر أن تلقته باليمين منذ أشرقت شمسه واحتضنته، واحتفظت بمتابعة «كتاب الله وسنة رسوله» ثم انفردت بحمله في «أزهرها» بعد أن صبت فيه جميع أنهاره وجداوله، وكانت حقًا هي الوارث البار بتركة أبيه، وبه لفتت إليها أنظار العالم الإسلامي، بل العالم كله، وبه اتخذها المسلمون في جميع بقاع الأرض «كعبة ثانية» يحجون إليها، ويقتبسون منها ما يضيء بلادهم ويبصر أهليهم.

إن العالم كله الآن قد تفاعلت فيه قوى المادة، والمادة وحدها مصدر الطغيان والعبث بالإنسانية، وقد آمنت مصر بذلك حق الإيمان وقررت العمل على نشر مبادئ السلم والأمان، وإذن، لابد لها من الاحتفاظ بعدة ذلك السلم، وهو النور الذي يستخدم المادة لخير الإنسانية ويحقق لمصر آمالها وبذلك يحيا «الروح الفطري» «الضمير العالمي»، وبه يتم لمصر بإذن الله نهضتها، وتحوز عند الله مكانتها، وبه يكون الاحتفال العملي الدائم المثمر بميلاد محمد بن عبد الله، سدد الله الخطى، وبصرنا بالتي هي أقوم.

ذكرى الإسراء والمعراج

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (أول سورة الإسراء) .

يستقبل المسلمون ليلة السابع والعشرين من شهر رجب، وقد شاع فيما بينهم بعد العهود العملية الأولى، أنها «الليلة» التي أسرى فيها بالنبي ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالشام، ثم عرج به إلى السماوات السبع واحدة فواحدة، إلى الملأ الأعلى، إلى سدرة المنتهى، إلى حيث سمع صريف الأقلام، ورأى سدرة المنتهى والبيت المعمور، وتلقى عن ربه افتراض خمسين صلاة على أمته، ثم سأل ربه التخفيف بمشورة موسى، فخففها إلى خمس، وكانت خمساً في العمل وخمسين في الثواب! ثم رجع من ليلته بعد أن رأى من آيات ربه الكبرى.

ومن هنا اعتقد العامة وأشباههم أن لهذه الليلة فضلاً تمتاز به عن سائر ليالي رجب، بل عن سائر ليالي السنة كلها، حتى ليلة القدر، وبذلك اتخذوها موسما شرعيًا، يقيمون فيها حفلاً دينيًا بالعبادة والذكر والدعاء، وبما ألفوا فيما اخترعوا من أعياد ومواسم وموالد، ويطيب لهم في هذا الحفل أن يسمعوا كل ماورد من الغرائب التي نسبت إلى هذا الحادث التربوي التوجيهي العظيم.

والإسلام لا يعرف لشهر رجب سوى أنه أحد الأشهر الأربعة، التي قرر الله حرمتها في شرعه القديم، واستمرت كذلك في الإسلام، وفيها نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ (الآية ٣٦ من سورة التوبة) .

الإسراء وليلته:

أما الإسراء وليلته فإنه بالرجوع إلى المصادر التي تحدثت عنه ـ وماأكثرها ـ لا نجد شيئًا مما قيل فيه أو نسب إليه اتفقت عليه الكلمة والنقل، سوى أصل «الإسراء والمعراج»، وفيما عدا هذا من نواحي الحادث وأنبائه اختلفت فيه الروايات والآراء اختلافًا اتسع نطاقه، حتى بدا في كثير من غرائبه بثوب الاختراع والتخيل.

اختلفت الروايات في عدد مراته: واحدة أو اثنتين أو ثلاثًا أو أكثر؟

واختلفت في وقته: سنته، وشهره، وأسبوعه، وليلته، واختلفت في وصف البراق: راحلة الإسراء، وفي وصف المرقاة: مصعد العروج إلى السماء، واختلفت في مكان اجتماع الرسول بالأنبياء السابقين: في السماء أم في الأرض، بعد العروج أم قبله؟ اختلفت في كل هذا وفي غيره مما يتصل بالحادث عن قرب أو بعد. وأخيرًا اختلفت فيه الآراء من جهة الجسمية والروحية: أكانا بالجسم والروح معًا، أم كانا بالروح فقط، أم كان الإسراء بالجسم والمعراج بالروح؟ وقد اتسع ميدان الرأي في الإسراء والمعراج، إلى أن أدخلت فيه قهرًا الآيات الأولى من سورة النجم التي نزلت لتؤكد أن القرآن وحي من عند الله، وليس ـ كما يثيره القوم حوله ـ من صنع محمد، افتراه وأعانه عليه آخرون:

﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ⟨٢⟩ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ⟨٣⟩ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ⟨٤⟩ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⟨٥⟩ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⟨٦⟩ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ** ﴾ (الآيات ٢ ـ ٧ من سورة النجم)

ليلتا الإسراء والقدر:

وقد وصل الاختلاف فيما يتصل بهذا الحادث إلى التفاضل بين ليلته وليلة القدر التي أنزل فيها القرآن، وفيه يُسأل ابن تيمية عن رجلين، يفضل أحدهما ليلة الإسراء ويفضل الآخر ليلة القدر، أيهما المصيب؟ وينكر الشيخ العظيم كل الإنكار على من يزعم أن ليلة الإسراء من جهة ذكراها، ومن جهة إحيائها بالعبادة والدعاء، أفضل من ليلة القدر ويقول: «إنه معلوم الفساد باطراد من دين الإسلام، هذا إذا كانت ليلة الإسراء تعرف عينها، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة، ليس فيها ما يقطع به... ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها، وما كان الصحابة والتابعون

يقصدون تخصيصًا بأمر من الأمور ولا يذكرونها، ولهذا لا تعرف أي ليلة كانت . . . بل غار حراء الذي ابتدئ فيه نزول الوحي واليوم الذي أنزل فيه الوحي، لم يخص واحد منهما بعبادة ولا غيرها، ولم يقصدهما النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه بعد النبوة مدة مقامه بمكة».

ويرجع عدم عناية الصحابة بحفظ تواريخ الأحداث - بعد الأمية التي كانت شائعة إذ ذاك - إلى أنهم كانوا يقدرون الأحداث وينظرون إليها باعتبار ذاتها، وباعتبار نتائجها فقط، دون ربط لها بزمان أو مكان، وإن الزمان والمكان لم يكونا في الواقع سوى ظرف ضروري للوقوع والحدوث . . . وإذن فلا ينبغي التعلق به وقصده بالإحياء والتفضيل إلا بقدر ما يرد فيه من الله سبحانه، ومن ذلك خص يوم الجمعة ويوم العيدين ويوم عرفة، ومن هنا لايكون للمسلمين حق في اختراع أعياد، وإقامة حفلات دينية في أي مكان لما نقل من أحداث الرسول، فضلاً عما هيأته ظروف الضعف من أزمنة وأمكنة موالد الأولياء، التي نعمل اليوم بجهود جبارة على إقامتها وتنظيمها، ودعوة الناس إليها وإلى التسابق فيها.

عبرتنا في الإسراء:

وإذا كان لنا أن نذكر حادث الإسراء، فإنما نذكره أولاً في حدود اليقين والاطمئنان لافي متسع الظنون والاضطراب، وأن نذكره ثانيًا بقلوبنا وفي أوقاتنا كلها بما يرشد إليه من إيحاء ننتفع به في حياتنا على توالي السنين والأجيال، وإن حادث الإسراء - بعد أنه تثبيت وتكريم للنبي ﷺ، وإعداد لقواه النفسية والعقلية والجسمية لتحمل أعباء الرسالة العامة ومتاعب الهجرة ومشاق الجهاد في سبيل الله، وتطمين له على حسن العاقبة وعلى خذلان أعدائه، وعلو كلمته - هو بعد هذا كله يوحي للمسلمين - بمبدئه وهو: «المسجد الحرام» ومنتهاه وهو «المسجد الأقصى» - بتذكر مهابط الوحي الأول الذي تلقاه إبراهيم وإسماعيل، ومهابط الوحي الثاني الذي تلقاه موسى وعيسى، وأنها كلها مهابط الرسالات الإلهية التي جاء محمد لتكميلها والهيمنة عليها، وأن تلك الرسالات، وإن اختلفت أزمنتها وتعددت رسلها، واحدة في دعوتها وغايتها، وأن الرسل جميعًا الذين اصطفاهم الله لتبليغها بناة بيت واحد، يضع آخر لبنة فيه خاتمهم محمد بن عبد الله؛ صاحب الإسراء والمعراج.
وإذن فلابد أن يخفق عليها دائمًا علم التوحيد والإيمان على النحو الذي جاء في رسالته،

ولابد أن تطهر رقعتها من بذور الشرك والوثنية والظلم والفساد، وأن يعلو فيها سلطان الحق، وعدالة السماء.

وإذا كان المبدأ، وهو المسجد الحرام، يجب على المسلمين تطهيره وتطهير إقليمه مما تأباه الرسالة الإلهية، فإن منتهاه، وهو المسجد الأقصى وإقليمه، يجب كذلك تطهيره وتطهير إقليمه مما تأباه الرسالة نفسها.

ولعل هذا الإيحاء كان أقوى ما بعث المسلمين إلى العمل على رفع راية الإسلام على بيت المقدس وإقليمه بعد أن رفعوها على المسجد الحرام وإقليمه، ولعل هذا الإيحاء قد امتد من قلوب الآباء والأجداد إلى قلوب الأبناء والأحفاد، حتى ملك على المسلمين في جميع عصورهم قلوبهم، وتردد معناه في صدورهم، ودفعهم لبوثًا أشداء، يذودون عن بيت المقدس وحماه كلما ثارت عليه قوى البغي والعدوان.

سورة الإسراء:

ولعل حديث سورة الإسراء عن كتاب موسى.

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الآية ٢ من سورة الإسراء)

وعن إفساد بني إسرائيل في الأرض وخروجهم عن مقتضى كتابهم.

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ (الآية ٤ من سورة الإسراء)

وعن وعيدهم في الآيات نفسها بالتنكيل والعذاب إذا استمروا على الإفساد أو عادوا إليه.

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾

وأخيرًا عن شأن القرآن ومركزه في هداية الله التي ختم بها رسالاته إلى الأرض.

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء)

لعل حديث السورة عن كل هذا، بعد حديثها عن الإسراء مباشرة، من أوضح ما يدل على هذا الإيحاء ويرشد إليه. وما حلقات التاريخ، وأحداث العدوان التي مرت ببيت

المقدس وإقليمه، ونهضة المسلمين في مكافحتها، إلا شاهد عدل على صدق هذا الإيحاء وتقرره وتوجه النفوس إليه.

وإن عدتم عدنا:

وإذن فجدير بالمسلمين إذا أردوا أن ينتفعوا الآن بذكرى الإسراء، وقد رأوا بأعينهم من أعوام مضت أن الشياطين عادوا إلى ميدان الإسراء ليلعبوا فيه من جديد دور الإفساد الذي ورثوه عن أسلافهم، وأخذوا يتكتلون ويتعاونون من هنا وهناك على سلبه من أهله وتثبيت أقدامهم فيه، جدير بالمسلمين أن تنفعل نفوسهم بهذا الإيحاء الذي تمليه عليهم ذكرى الإسراء، ويرشدهم إليه كتابهم، عليهم أن يتنبهوا إليه، ويسيروا في طريقه كما سار فيه أوائلهم من قبل، فيوحدوا كلمتهم، ويستردوا مكانتهم، ويطهروا أرض الله المقدسة من عبث المفسدين، ويزيلوا عن أنفسهم تلك النكسة التي كادت تقطع نسبهم بآبائهم الأولين، ومكنت منهم أعداءهم الذين توعدهم الله بقوله:

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ (الآية ٨ من سورة الإسراء).

حكمة الإسراء

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الآيات ١٦٣ - ١٦٥ من سورة النساء)

محمد خاتم الرسل:

هؤلاء الرسل هم ألسنة الإصلاح، ودعاة الخير والتزكية التي يرتضيها الله لعباده، بها ينظمون فطرهم، ويكملون إنسانيتهم، ويصلون بها أقصى ما قدر لها من كمال. وتبعًا لتفاوت الأطوار التي درجت فيها الإنسانية فضل الله بعض هؤلاء الرسل على بعض، حتى إذا ما وصلت الإنسانية إلى مرحلة الرشد، وتأهلت لخوض غمار هذا الكون والكشف عن أسراره وتفتحت لها عيون الحكمة فيه - كان رسولها في تلك المرحلة هو الرسول الأعظم رسول الإكمال والإتمام رسول اللبنة الأخيرة التي بها يكمل البناء ويتم الحسن والابتداع:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (الآية ٣ من سورة المائدة).

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، «مثلي ومثل الأنبياء قبلي. كرجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

تكريم الله لمحمد:

وهكذا كان وضع محمد من إخوانه السابقين، وبهذا الوضع رفعه الله درجات، وجعله مظهراً لكمال رحمته بالإنسان، وسجل له في نفسه ورسالته وكتابه وأمته من درجات الفضل والرفعة والعزة ما لم يسجله لأحد قبله في ناحية من هذه النواحي، ففي خاصة نفسه:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (أوائل سورة الشرح)

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (أوائل سورة القلم)

وفي ضمان الغاية ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ (الآية ٥ من سورة الضحى)

وفي رسالته: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا ﴾ (الآية ٢٨ من سورة سبأ)

وفي كتابه ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء)

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الآية ٨٨ من سورة الإسراء)

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (الآية ٥٥ من سورة الزمر)

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (الآية ٤٨ من سورة المائدة)

ويقول في أمته التي آمنت به واستضاءت بهديه في الحياة

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (الآية ١٤٣ من سورة البقرة)

الإسراء تكريم وتثبيت للرسول:

هذه بعض الدرجات التي رفع الله بها نبيه محمداً ﷺ، وما نسبتها إلى ما وراءها من مراتب الكمال التي أنعم الله بها على عبده «محمد» إلا كنسبة الرذاذ إلى الغيث الغزير، أو الوشل إلى الخضم الكبير.

وإذا كانت قلوب أتباعه مؤمنة بما له عند ربه من هذه المراتب، وكانت قلوب غيرهم تحترم الحق فتنظر إليه بعين الإجلال والتقدير، وبعين الواقع المحس المشاهد فيما أتيح للعقل البشري من مخترعات ـ كان من السهل على الناس جميعًا أن يؤمنوا بما قصه الله علينا وقصه هو على أصحابه في حادث الإسراء والمعراج:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (أول سورة الإسراء)

فحادث الإسراء والمعراج لم يكن إلا درجة من درجات التكريم، ووسيلة من وسائل التثبيت، ولونًا من ألوان الاختبار تجلى به سبحانه وتعالى على نبيه، وأسبغ عليه من بحار الفيض والإمداد ما تمكن به في مدة وجيزة أو ساعات معدودة أن يكشف عن طريق المعاينة كثيراً من آيات ربه وعجائبه في أرضه وسمائه ـ أسرى به من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالشام، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء رب العزة والملكوت، رب القدرة والقهر، رب الأسباب والمسببات:

﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الآية ٦٧ من سورة الزمر).

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ ﴾

(الآية ١٩ من سورة الملك)

رب السموات والأرض، رفع السموات بغير عمد ترونها، وسخر لسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر تجري بأمره رخاء حيث أصاب، سبحانه إنه على كل شيء قدير.

تجلى به على نبيه فرفعه وكرمه، وثبت فؤاده وشرح صدره في الملأ الأعلى ذكره، وعرَّفه به صادق الإيمان من كاذبه، وضعيفه من قويه

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (الآية ٦٠ من سورة الإسراء)

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الآية ١٧٩ من سورة آل عمران)

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (الآيتان ٢، ٣ من سورة العنكبوت)

وهكذا محص الله بحادث الإسراء محمداً، فتبين له الكاذب من الصادق قبل أن تهيأ له ظروف الهجرة ووسائل الجهاد في سبيل الله، ودل به على عنايته برسوله وتقريبه لجنابه حتى كان في الملأ الأعلى قاب قوسين أو أدنى:

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (آخر سورة الطور)

حادث لا يغرب جلاله عن القلوب ولا يجف مداده من الأذهان، فهو شاخص على الدوام في قلوب المؤمنين ومائل في أذهانهم، به يعرفون أن الله أكمل تربية نبيهم، وأعد قواه النفسية والعقلية والجسمية، ومحص أتباعه وميز خبيثهم من طيبهم لتحمل أعباء الرسالة العامة، ومتاعب الهجرة وتبعات الأخوة الدينية ومشاق الجهاد في سبيل الله «أدبني ربي فأحسن تأديبي»:

﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ (الآية ٧٤ من سورة الإسراء)

عام الحزن:

كان النبي ﷺ يدعو الناس إلى ربه وله من عباد الله درعان: درع في البيت يزمله ويحتضنه ويبشره ويسري عنه، ودرع في الناس يذود عنه وهما: زوجه خديجة وعمه

أبو طالب، وقد ماتا في عام واحد، فاشتد حزنه وتلاحقت عليه أنواع الإيذاء والكيدالساخر، ونالت منه قريش ما لم تكن تطمع فيه في حياتهما. اعترضه السفهاء، ونثروا التراب على رأسه، وطرحوا سلا الجزور بين كتفيه وهو قائم في الصلاة، وخنقوه حتى كاد يموت، وهكذا تحالف عليه القدر والناس، وما كاد يخرج إلى الطائف يلتمس النصرة والمعونة حتى قوبل بأشد مما قوبل به من قومه فيرجع وقد تقطعت في نفسه وسائل الاستعانة بخلق الله فيتجه إلى من بيده الأمر، وتذوب نفسه بالضراعة، وينطلق لسانه بالدعاء: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله».

تعزية وبشرى:

في هذا الجو الرباني الخالص يمد الله يده إلى عبده ويضمه إليه ويسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فيريه من آياته الكبرى ما يبدد عن نفسه الشريفة سحائب هذا الجو الأرضي الخانق، ويضيء له المستقبل بنصرة الحق وبلوغه ما يريد الله، فيزداد محمد يقينًا على يقين وإيمانًا على إيمان بأن الذي أرسله وكلفه دعوة خلقه إلى توحيده هو صاحب هذه القدرة العظيمة التي أبدعت تلك الآيات، والتي أطلعته عليها في وقت غير مألوف، وعلى وجه غير معروف، فهو بلا شك ناصره ومؤيده، وهو بلا شك مخرجه من تلك الشدائد ، وهو بلا شك مطهره من هؤلاء الذين ضربوا عليه وعلى أصحابه حصار الذل والهوان، ثم ما فتئوا يصبون عليه الإيذاء والكيد حتى يقول أبو بكر: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله !! وهكذا ثبت الله نبيه وحباه ذلك الفضل تكريمًا وإنعامًا، فلنؤمن بحادث الإسراء. ولنؤمن بشأن الله مع نبيه الذي صنعه بيده وحاكه بحكمته، ولا نسأل أكان بالجسم أم بالروح؟ أكان في اليقظة أم في المنام؟ ولا كيف انتقل؟ ولا كيف ارتفع؟ألا وإن العلم الذي يفخرون به اليوم ليسخر كل السخرية من مثل هذه الأسئلة، وإن الفيض لغزير والاستعداد تام والقدرة باهرة وآيات الله في الكون ناطقة شاهدة، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء:

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الآية ٨٥ من سورة الإسراء)

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الآية ٣٦ من سورة الإسراء)

فريضة الصلاة:

هذا هو حادث الإسراءوالمعراج، وإذا كان لنا أن نتتفع بذكرياتنا فلنذكر به فضل الله على نبيه الذي جاهد في تثبيت هذ الدين، وإسعاد الإنسانية به ولننتهج في ذلك خطته حتى نحوز رضا الله وإسعاده، ولنذكر به أيضًا أن الله فرض في تلك الليلة على نبيه وأمته ـ وقد طويت المسافات وزالت الحجب خمس صلوات في اليوم والليلة، أمرهم بالمحافظة عليها، وجعلها عليهم كتابًا موقوتًا، بها يناجون ربهم، وبها يقومون بواجب العبودية التي خلعت حلتها على نبيهم في تلك الليلة، وبها يتغلبون على الشهوات والأهواء، وبها تغرس في قلوبهم مكارم الأخلاق، ويطهرون نفوسهم من صفات الجبن والبخل والهلع والجزع، وبها يستعينون على مشاق الحياة كما استعان محمد بها على مشاق الحياة ومصائب القوم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ (الآية ١٥٣ من سورة البقرة)

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة المعارج)

لم يفرضها كما فرض غيرها من الواجبات والأركان، وإنما فرضها في كوكبة من الملأ الأعلى، وفي جذوة من الإشراق والأنوار، تنويهًا بشأنها ورمزًا لمكانتها، فلنذكر كل ذلك، ولنذكر أن الرسول الذي نال فخر الإسراء كان يحن دائمًا إلى مناجاة ربه، والوقوف بين يديه، حتى كان لا يجد لذة إلا في تلك المناجاة: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» فهي طهرة للقلوب، ومعراج للرب، وإسراء إلى ساحة الفضل. فمن شاء أن يسري به ربه، وأن تعرج به ملائكة الرحمة، فليحافظ عليها، وليدم مناجاة ربه بها، وليحسن وقوفه بين يديه

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(الآية ١٣٣ من سورة آل عمران)

ليلة النِصف من شعبَان

عادة الاحتفال بليلة النصف:

جرت عادة المسلمين في عهودهم الأخيرة أن يحتفلوا بليلة النصف من شعبان احتفالاً دينيًا، نرى مظهره في المساجد وفي البيوت. ففي المساجد يجتمعون عقب صلاة المغرب، ويصلون صلاة خاصة تعرف باسم صلاة النصف من شعبان، ثم يقرءون بصوت مرتفع سورة معينة هي سورة «يس»، ثم يبتهلون كذلك بدعاء يعرف بدعاء «ليلة النصف»، ويكررون ذلك ثلاث مرات، أولاها بنية طول العمر، والثانية بنية رفع البلاء، والثالثة بنية الغنى.

أما في البيوت فهم يهتمون اهتمامًا خاصا بتهيئة طعام يجتمع عليه جميع أفراد الأسرة بعد صلاة العشاء.

ويعتقد العامة وأشباههم أن الاحتفال هكذا يستند إلى أصل ديني من كتاب الله أو سنة الرسول، كما يعتقدون أن التخلف عن احتفال المساجد أو عن حضور العشاء مع الأسرة نذير سوء بقصر العمر، وكثرة البلاء، والحاجة إلى الناس. وقد كان من أثر هذا الاحتفال أن بعض تجار الكتب ينتهزون فرصة النصف من شعبان فيطبعون سورة يس مع الدعاء، وتوزعها الصبية في الشوارع، وملتقى الطرقات، والترام، منادين: «سورة يس ودعاها بخمسة مليمات».

الاحتفال الديني لا بد له من أصل شرعي:

إن إقامة الاحتفال باسم الدين لابد أن يكون مبنيًا على أساس صحيح من الدين، وذلك كما في الاحتفال بصلاة الجمعة والعيدين، والوقوف بعرفة. فإذا لم يكن للدين فيه أمر ولا ترغيب، كانت إقامته باسم الدين، وإفراغ صبغة الدين عليه من الصلاة والقراءة والدعاء، افتراءً على الدين، وتشريعًا بالهوى فيما يعمل باسم العبادة والتقرب إلى الله،

وهذا باب يهيئ فتحه الناس وجوهًا كثيرة من صور الابتداع في الدين. والابتداع في الدين من شر ما يصاب به الدين، فبه يدخل في الدين ما ليس منه، ويخرج منه ما هو منه، وعن هذا الطريق ينتشر الدين بين الناس بصورة تبعد قليلاً أو كثيرًا عن حقيقته التي رسمها الله وتعبّد الناس بها، والتزمها في العمل رسوله وأصحابه من بعده. وقد تغمره صور الابتداع بالسكوت عن إنكارها، تساهلاً أو مجاملة للعامة وأشباههم فيما تهوى نفوسهم، واعتادوا عليه؛ وبذلك تطمس معالم الدين الأولى، ويلحقها التغيير والتحريف، ويتقرب الناس إلى الله بما لم يشرعه الله قربة إليه، ومن هنا تنسى الشرائع، وتضل العقول.

الاحتفالات العائلية والقومية:

نعم، إن للناس أن يقيموا ما شاءوا من الاحتفالات الإنسانية التي يظهرون بها سرورهم بنعم الله الخاصة بهم، كزواج أو ميلاد، أو قدوم غائب، ولهم أن يقيموها ذكريات لحوادث تاريخية كان لها في حياة أمتهم أثر ينبغي أن يذكر ولا ينسى، وقد يكون من ذلك فيما رأى الاحتفال بحادث الهجرة، وبغزوة بدر، وفتح مكة، وقد يكون منه الاحتفال بإعلان الحكم الشورى وإنقاذ البلاد من الحاكم المستبد.

ليلة النصف:

للناس أن يقيموا هذه وتلك باسم العائلة، أو القومية، لا باسم الدين، يتخذ له مظهر ديني: تخصص له صلاة معينة، ودعوات معينة، وقراءات معينة من أيام معينة، في أشهر معينة، في حين أنه لم يرد شيء عنها في الدين كما في الشأن فيما اعتادوه ليلة النصف من شعبان. وإن ذلكم هو الابتداع في الدين الذي حذرنا الرسول إياه، وأنذرنا سوء عاقبته.

صلاتها ودعاؤها المتعارف مبتدعان:

فليلة النصف لم يصح في صلاتها حديث، والاجتماع لإحيائها في المساجد وغيرها لم يفعله النبي ﷺ وأصحابه. وحديث النزول فيها إلى السماء الدنيا راوية ضاع. ودعاؤها الذي يتلقنه الناس بعضهم من بعض، ويحفظه متعلمهم وجاهلهم، على خلل في التلقين، دعاء يحتوي على أمرين كلاهما يؤدي إلى تفسير القرآن بما لا يشهد بصحته نقل ولا عقل:

أحدهما : إن فيه طلب الناس من الله محو ما كتبه في أم الكتاب من الشقاة وتبديلها سعادة، ومن الحرمان وتبديله عطاء، ومن الاقتار وتبديله غنى، ويسندون ذلك إلى أن الله قال في كتابه : ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ (الرعد : الآية ٢٩).

وسياق هذه الآية يرشد بوضوح إلى أن المقصود منها الرد على من أنكر على النبي ﷺ أن شريعته تغير أحكامًا وردت في الشرائع السابقة، فهو يقول لهم : إن محو الشرائع وإثباتها تبع لمشيئة الله وعلمه بما فيه مصلحة عباده، فهو يمحو من الشرائع السابقة ما لايتفق واستعداد الأمم اللاحقة «وعنده أم الكتاب» والمراد بها : إما العلم الإلهي الذي يبنى عليه المحو والتبديل، وإما أصول الأديان التي لا تختلف باختلاف الأمم، ولاينالها محو ولاتبديل.

وعلى كل، فأم الكتاب في الآية لا محو فيها ولا تبديل. والآية لا علاقة لها بالأحداث الكونية، عامة كانت أم خاصة. والدعاء المعروف يصرف الآية إلى تلك الأحداث، وهو صريح في طلب المحو والتبديل فيما كتب في أم الكتاب وهو خطأ ديني واضح.

أما الأمر الثاني : - من الأمرين اللذين اشتمل عليهما هذا الدعاء - فهو أنه يصف ليلة النصف بأنها الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، وقد جاء هذا الوصف لليلة التي أنزل الله فيها القرآن :

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ** (٣) **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** ﴾ (الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الدخان).

وقد لعبت الروايات في هذا المقام دوراً مهما، وبحكم هذا الدور قيل : إن الليلة المباركة هي ليلة النصف التي تقدر فيها الأعمار، والأرزاق، وسائر الأحداث الكونية، وامتد الكلام إلى الفرق بين التقدير الذي يحصل في ليلة النصف، والتقدير الذي يحصل في ليلة القدر بما يعتقد كل مؤمن أنه هجوم على غيب استأثر الله بعلمه.

والصواب كما قال المحققون من العلماء السابقين واللاحقين : أن الليلة المباركة هي ليلة القدر المذكورة بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ (أول سورة القدر).

فالليلة التي أنزل فيها القرآن وصفها الله بأنها ليلة مباركة، فيها يفرق ويفصل كل أمر حكيم، وسماها ليلة القدر، تنزل فيها الملائكة والروح بإذن ربهم من كل أمر. وجاء في سورة البقرة إن شهر تلك الليلة هو رمضان.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وبذلك تلاقت الآيات، وشد بعضها أزر بعض، واتفقت في بيان الزمن الذي بدئ فيه بنزول القرآن، وفي بيان فائدة القرآن للناس، من شرح الأحكام والهدى إلى دين الله.

فأين ذلك الذي يحتويه الدعاء من هذه الحقيقة القرآنية الواضحة؟ إذن، هو دعاء باطل، ويجب على المسلمين أن يتركوه، وأن يتجه من أراد الدعاء منفردًا إلى ربه بالأدعية المأثورة الصحيحة، أو التي لا تتعارض مع القرآن ولا أحكامه، في أي وقت، وفي أي مكان.

نعم، صحت الأحاديث بفضل شهر شعبان كله، لا فرق بين ليلة وليلة، وطلب الإكثار فيه من الصوم، تهيئة لاستقبال رمضان، ومن ذلك قول النبي ﷺ، وقد سئل: «أي الصوم أفضل بعد رمضان؟» فقال: «شعبان لتعظيم رمضان» وتعظيم رمضان يكون بحسن استقباله، وعدم التبرم من صومه.

الاحتفال بليلة النصف احتفالاً قوميًا:

وإذا كا للناس أن يحتفلوا بليلة النصف من شعبان، فلهم أن يحتفلوا بها احتفالاً قوميًا تاريخيًا على ما ذهب إليه أكثر المؤرخين من أنها الليلة التي وجه المسلمون فيها من بيت المقدس إلى الكعبة. وبهذا التوجيه كمل ربط قلوب المسلمين بأماكن الله المقدسة: بيت المقدس وإقليمه، والكعبة وإقليمها. وفي هذا الربط إيحاء روحي بالمحافظة على تلك الأماكن المقدسة، وبالتضحية في سبيل تطهيرها من عبادة غير الله، ومن سلطان غير المسلمين..

وقد عرض القرآن الكريم لحادث تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، وأعد النفوس له ولما يقول فيه الخصوم قبل وقوعه، وبيّن لهم حكمته وهدفه، وأنحى على الذين اتخذوه سبيلاً للطعن في رسالة محمد ﷺ، والذين تزعزعوا في إيمانهم بسببه، وكان في

كل ذلك إيحاء بأن شأن المؤمنين المبادرة إلى امتثال ما يؤمرون به، غير مكترثين بما يثيره الأعداء حول شرائعهم وأحكام دينهم. واقرأ في هذا الحادث قوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ .. إلى قوله ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (الآيات ١٤٢ - ١٥٠ من سورة البقرة).

تحويل القبلة مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام:

إن حادث تحويل القبلة بدءُ مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام، فيها تكتل العرب، وآمنوا بوعد الله لهم، فعقدوا الخناصر على التضحية بالنفس والمال في سبيل إنقاذ البشرية من براثن الشرك وقوى الطغيان، وتطهير الأماكن المقدسة من الأصنام والأوثان، ونشر ألوية العدل والسلام على ربوع العالم. وقد تم ما أراد الله من ذلك على أيديهم، فجاءهم نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وتمتعوا بجمال العدل والحرية والمساواة.

فعلى المسلمين أن يتنبهوا إلى هذا الإيحاء، ويتكتلوا في سبيل المحافظة عليها، كما تكتل أسلافهم من قبل، وطهروا بيت المقدس، كما طهروا الكعبة، فليشدوا إليها الرحال وليحافظوا على المجد والتراث.

والله ولي التوفيق والهداية.

غزوة بدر

مهما طال أمد الباطل وقويت شوكته فلابد له - على كثرة أنصاره وقوة عوده - من يوم يخر فيه صريعًا أمام روعة الحق وقوة الإيمان :

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ (الآية ١٧ من سورة الرعد) .

وليست غزوة «بدر» التي قام بها المسلمون في السنة الثانية من الهجرة، وفي «رمضان المبارك» إلا تطبيقًا عمليًا واقعيًا لهذه السنة التي وضعها الله في صراع الحق للباطل، وهي من السنن التي لاتتبدل ولا تتغير . وليس الحديث عنها حديثًا عن مجرد معركة قامت بين فريقين اختصما على بعير، أو على قطعة من الأرض، أو على قتل نفس بريئة، فانتصر أحدهما على الآخر، وإنما هو حديث عن كيف يصرع الحق بجلاله الباطل بعدته . والصراع بين الحق والباطل ليس صراع وقت دون وقت، ولا مكان دون مكان، وإنما شأن بشري عام، ما دام الإنسان، ومادام في الإنسان إيمان ورحمة، وتقى وصلاح، وفيه كفر وقسوة، وفجور وانحراف . وتلك طبيعة الإنسان، لم يخلقه الله حين خلقه إلا كان من جنده وقوى الخير تدفعه إلى الإيمان وإلى الكفاح في سبيله، وكان من جنده قوى الشر تدفعه إلى الطغيان وإلى الكفاح في سبيله :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الآيات ٧ - ١٠ من سورة الشمس)

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الدهر) .

والحديث عن غزوة بدر بعد هذا ، هو في واقعه ، حديث عن مدى ما يفعله الإيمان في

هدم عروش الكفران . عن مدى ما تفعله الروح المعنوية القوية للمجاهد المؤمن بفكرته في الحصول على النصر والظفر ، هوحديث عن المدد الإلهي الذي يربط به قلوب المؤمنين ، ويشد به عزائمهم إليه وهم في صفوف الكفاح ، حتى يخلصوا بصبرهم وجلدهم حق الله وحق عباده من مخالب الظلم والاستعباد :

﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة الأنفال) .

بدر من أيام الله الخالدة :

وبهذا كان من يوم بدر من أيام الله التي ركز فيها سنة الصراع بين الحق والباطل ، وتجلى فيها ما يجب على أهل الحق في وقفتهم أمام أهل الباطل .

﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ (الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الأنفال) .

وعلى هذا يجب أن يكون أهل الحق، لا وهن ولا ضعف ، ولا استسلام ، ولااستخذاء ، وإنما قوة وشوكة ، وعزة وكرامة وإباء .

وبهذا يحققون إرادة الله ، وهي إرادته من كل المؤمنين في كل عصر وفي كل مكان ، وهكذا صور الله مدده لأوليائه المؤمنين في سورة الأنفال بمناسبة الحديث عن غزوة (بدر) فليس النصر والغلب بكثرة العدد ، وقوة العدد ، وإنما هما بالصبر والتقوى ، والصبر والتقوى معولان إلهيان ، أودعهما في قلوب المؤمنين ، بهما يذيبون الحديد ، ويطفئون النيران .

المدد الإلهي من سنن الله العامة :

هذا هو مدد الله لأوليائه المؤمنين ، وكانت به المائة منهم تغلب ألفًا من الذين كفروا ، والعشرون يغلبون مائتين ، فإن صح أن تنزل النسبة عن ذلك شيئًا ، فلا ينبغي أن تنزل عن نسبة الواحد إلى الاثنين .

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الآية ٦٦ من سورة الأنفال)

وإذن . فليس من المقبول في حكم سنة الله أن يخذل المسلمون أمام الكفار وعدد الفريقين سواء ، فضلاً عن أن يكون عدد المسلمين أكثر . وإذا وقع هذا فإنه لا يكون نقضًا للسنة الإلهية ، وإنما هو دليل على أن النفوس المحاربة باسم الحق والدين لم تمتلئ بالحق والدين ، وإنما خالط الحق فيها باطل ، وشوه الدين فيها هوى ، وبذلك لم يجد المدد الإلهي محلاً مستعدًا في قلوب المؤمنين ، فظل منقبضًا عنهم ، متخليًا عن تزكيتهم ، تركهم لأهوائهم وشهواتهم ، فنكس الله علمهم وخذلهم تأديبًا لهم ، وعظة وإرشادًا ، وهكذا يؤدب الله المؤمنين حتى يثوبوا إلى الإيمان بالحق ، ويطهروا نفوسهم من النفاق والخديعة ، فينزل عليهم المدد رحمة من ربك ، وبه إليهم يعود النصر ويعود الظفر ، وتلك سنة أخرى يؤدب الله بها عباده ، وكان مصداقها قوله تعالى في حديثه عن غزوة أحد :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ١٥٢ من سورة آل عمران)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (الآية ١٥٥ من سورة آل عمران)

ولعل في حوادثنا القريبة ما يمثل هذه السنة الأخيرة ، وذلك كما رأينا من أثر التخاذل بين الدول العربية في حرب فلسطين ، وكيف تمت الهزيمة ووقع الغلب ، وفيها ما يمثل سنة الصدق في الإيمان ، وقوة الاستعداد للقتال ، وذلك كما رأينا في تجمع قوى البغي والعدوان من هنا وهناك ، وفي وقفة المؤمنين الذين يقل عددهم ، وتنزل قوتهم عن عدد عدوهم وقوته ، وكيف تفرق الجمع (*) وتحقق قول الله :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

(الآية ١٣ من سورة آل عمران)

(*) في العدوان الثلاثي على الإقليم المصري .

وقوله: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الآية ٢٤٩ من سورة البقرة)

وليست هذه السنن في المدد الإلهي خاصة بقوم دون قوم، ولا بمؤمني عصر دون عصر، ولا مؤمني مكان دون مكان، وإنما هي عطاء الله وفضله لمن أخلص للحق وآمن به، وأخذ على عاتقه ـ ابتغاء مرضاة الله ـ أن ينشره وأن يطهر به القلوب من طغيان الهوى والشهوة، الذي يفسد على الناس حياتهم، ويغلق أبواب الخير دونهم، ويلقي بهم في موارد التهلكة والشقاء.

واجب المؤمن:

وبهذا يتبين جليًا أن واجب المؤمنين ليحصلوا على العزة والكرامة، وعلى النصر والغلب، وعلى طرد عوامل الشر والفساد، والتطهر من قوى البغي والعدوان، أن يترسموا هذه السنن التي توحي بها آيات (الأنفال) في حديثها عن غزوة بدر، يعتمدون كما اعتمد أهل بدر على هداية الله، فيخلصون له ويجاهدون بصدق وإخلاص في إقامة العدل بين العباد، وعندئذ يأتيهم نصر الله والفتح، ويمدهم بعوامل القوة والنصر والتأييد، لايضرهم من ضل عنهم إذا اهتدوا.

هذه عبرتنا التي يجب أن نفقهها كلما مر علينا رمضان، وكلما مر علينا السابع عشر من شهر رمضان، وكلما تذكرنا غزوة بدر، وقلبنا صفحاتها البيضاء، وكيف أرست للحق قواعده حتى علت شرفاته، وكلما قرأنا سورة (الأنفال) ووقفنا عند قوله تعالى منها:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

أمابعد:

فهذه صفحة من صفحات تاريخنا دوَّنها بإيمانهم وإخلاصهم آباؤنا الأولون، وهذا تعليم الله وإرشاده لنا بالقرآن الذي يهدي إلى التي هي أقوم، وليس لنا من سبيل إلى ما وصلوا إليه من عزة ومجد إلا أن نستن سنتهم وأن نسير في طريقهم، وأن ننسج على منوالهم، وعندئذ يكون لنا بوعد الله ما كان لهم من عزة ومجد وكرامة.

الفتح المبين

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ (أول سورة الفتح)

اصطفاه ربه فحمله الرسالة، وكلفه التبليغ، وحفظه وآواه.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (الآية ٦٧ من سورة المائدة)

مؤامرات فاشلة:

وبدأت الدعوة سراً، وآمن بها نفر قليل، ثم أخذت طور الجهر، فوجهت إلى العشيرة الأقربين، ثم إلى الناس أجمعين، ورآها المشركون وحلفاؤهم تسري وتخطو وتنتشر، فلم يطيقوا عليها صبراً، فساوموا وأغروا وتبخرت مساومتهم، وطاشت في الإغراء سهامهم، فاتجهوا إلى العنف والاضطهاد حتى وصل بهم الأمر إلى أن يأتمروا ويمكروا.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الآية ٣٠ من سورة الأنفال) ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الآية ٢٦ من سورة الأنفال).

الهجرة إلى المدينة:

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ

لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الآية ٤٠ من سورة التوبة)

وهكذا كانت الهجرة توحيداً للقوى، وضمًا للصفوف، وتعاونًا من رجال الإيمان والبيعة.

هاجر النبي وأصحابه من مكة، وهي وطنهم الذي نشأوا فيه وتربوا في شعابه، وحب الوطن لاصق بالنفوس، هاجروا من مكة، وحيل بتلك الهجرة بينهم وبين بيت الله الحرام الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، هاجروا من مكة، وحيل بتلك الهجرة بينهم وبين بيت الله الحرام الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، هاجروا من مكة وتركوا بيت الله الحرام تؤدى فيه مسوح الشرك والوثنية، وتركوا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان يصب عليهم كفار مكة ألوان العذاب وصنوف النكال، هاجروا من مكة عزلاً من كل شيء سوى الإيمان بالله، والإيمان بالدعوة، وخفت في ربوع مكة صوت الحق، وانفرد فيها الشيطان يصيح بكلمة الشرك والضلال. هاجروا من مكة وقد اجتمعت هذه المعاني كلها في صدورهم وتفاعلت في قلوبهم، حتى كمل بها وعيهم وامتزجت بها دماؤهم، وصارت شغلهم الشاغل وأملهم الوحيد، وما كادت تدخل السنة الثانية من الهجرة حتى هيئت لهم ظروف التحرش بالقوم:

وأذن لهم في تعقبهم رداً لبغضهم، نصراً لكلمة الحق

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩)

وبذلك وقعت جملة غزوات، كان النصر الأخير فيها حليف الإيمان، إلى أن وافتهم السنة السادسة من الهجرة، وفيها تحركت القلوب نحو بيت الله، ونحو الوطن، ونحو الرحمة، بإنقاذ البشرية المعذبة في مكة وضواحيها، وطارت القلوب شعاعًا بكل ذلك.

زيارة لا حرب:

في جو تلك الحركةالقلبية نحو بيت الله، ونحو المستضعفين في مكة من الرجال والنساء والولدان، رأى النبي ﷺ في منامه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، وبشر أصحابه بهذه الرؤية ثقة بما يريه ربه، وتوجهت نفسه الكريمة

إلى تحقيق هذه الرؤية التي اتخذت من قلوب المسلمين مستقرًا ومقامًا، فاستنفر أصحابه للخروج إلى مكة، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة، فاستجاب الأصحاب واعتذر الأعراب، وخرجوا معلنين السلم والأمان، والعمرة والزيارة، وعلى الرغم من ذلك جاءتهم الأنباء بأن قريشًا أجمعوا على منعهم من دخول مكة، وعلى صدهم عن المسجد الحرام، وترصدوا لهم في طريق معين، ولكن النبي ﷺ اتقاءً لإراقة الدماء، وبعداً عن مقومات الحرب ـ تحول بأصحابه عن ذلك الطريق إلى جهة أخرى تعرف «بالحديبية».

سفارة وبيعة:

وفي هذا المكان جاء سفير من قريش يستبطن أمر المسلمين، فبعث النبي ﷺ إليهم عثمان بن عفان يوضح لهم مقصده، وأنه لا يريد حربًا ولا قتالاً، وقد أبطأ عثمان في مكة، وشاعت الأخبار بأن قريشًا قتلوه، وهنا قال الرسول ﷺ: لا نبرح حتى نناجزهم الحرب، ودعا أصحابه للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك، عرفت بشجرة الرضوان، وقد جاء ذكرها في سورة الفتح

﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ (الآية ١٨ من سورة الفتح) ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (الآية ١٠ من سورة الفتح).

تمت البيعة، وذاع نبؤها، ووصل قريشًا أمرها، وهم يعرفون قيمة البيعة عند المؤمنين، يعرفون أنها حلف قلوب وأرواح، لا حلف أغراض وأشباح فلجأوا إلى المسالمة، وأرسلوا يعرضون الصلح على الرسول، ومن مبادئه عليه الصلاة والسلام

﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ (الآية ٦٠ من سوة الأنفال)

وبذلك قبل الصلح، وتمت مفاوضاته، وقبل شروطهم التي كان لبعضها وقع شديد على نفوس المتحمسين من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن لم يجدوا بدًا من متابعته والسير وراءه حينما رأوه يتحلل من إحرام عمرته، فتحللوا كما تحلل وفي قلوبهم ما فيها من آلام الموقف، ولكن الله العليم بخير هذا الصلح على الإنسانية عامة،

وعلى المسلمين خاصة، وما يثمره من الثمرات الطيبة في نشر الدعوة وتفهمها وتفتح القلوب لها ـ بادرهم بإنزال سورة الفتح وهم في طريقهم إلى المدينة

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾

فتح ونصر:

أنزل عليهم سورة الفتح، فكشفت لهم الغطاء عما لم يدركوا من أسرار ذلك الصلح، وأكدت لهم أن ما حصل لم يكن كما يظنون «غبنًا ودنية» وإنما كان فتحًا، وفتحًا مبينًا:

كان فتحًا للعقول، فأدركت فضل الإسلام، وسمو إرشاده، وكان فتحًا لمكة وغيرها من القرى والمدن، فعلت فيها كلمة الحق والعدل واندك صرح الباطل والظلم، ووافى الله المؤمنين بالسكينة والطمأنينة، واعترفت قريش لهم بكيان دولي فيه السفراء، وفيه المفاوضات وفيه الصلح، وفيه التحالف، وتمهد بذلك لكثير من العرب أن يختلطوا بالمسلمين، وأن يتعرفوا عن كثب حقيقة الإسلام وما يدعو إليه من فضائل وأخلاق، كما تمكن به النبي ﷺ من العمل على نشر الدعوة عن طريق الرسل، والمكاتبة إلى الأمراء والملوك والرؤساء، مع أمن السبل، والاطمئنان على الرسل في الذهاب والإياب.

الفتح الأكبر:

وكان كل هذا إرهاصًا للفتح الأكبر، فلم يكد ينتهي رمضان من السنة الثامنة حتى دخل فيه أولياء الله إلى بيت الله وارتفعت كلمة الحق، وأذن المؤذن: الله أكبر، الله أكبر، وفي هذا المعنى يقول ذو النفس الزكية أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

سورة الفتح تكشف سر الصلح:

وبنزول سورة الفتح في هذا الجو كان لها أهداف: البشرى بإتمام النعمة والهداية والنصر، وامتنان الله على المؤمنين بموقفهم في الانقياد للنبي ﷺ، وأنه لم يكن إلا

بطمأنينة ملأ بها قلوبهم، وفي سبيل ذلك تذكر السورة إنزال السكينة عليهم ثلاث مرات

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ﴾ (الآية ٣ ومابعدها من سورة الفتح).

﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾

ثم طمأنتهم على أن رؤيا الرسول التي استنفرهم لأجلها ستتحقق وسيدخلون المسجد الحرام

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ﴾

كما طمأنتهم ببيان الحكمة في الصلح وعدم القتال، وأن ذلك لم يكن لضعف أو عجز يعلمه في المؤمنين، وإنما كان ذلك إبقاءً على ضعفاء المسلمين في مكة أن تأخذهم - في القتال - إذا وقع - سنابك الخيل وأطراف الأسنة

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾

﴿ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

وبهذا كله انكشف الغطاء عن السر في قبول ذلك الصلح مع شروطه التي انتفض لها قلب عمر بن الخطاب. وقد كان من بركة هذه السورة أيضًا أن كشفت عن موقف المنافقين الذين لم يخرجوا مع الرسول وانتحلوا الأعذار والعلل، وأرشدت إلى أن موقفهم مع الرسول في مستقبل أمره هو موقفهم معه في ماضيه وذلك شأنهم وتلك أخلاقهم **﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾**

وهكذا أخذت السورة تنقب عن المؤمنين المخلصين فتذكرهم بالتراحم فيما بينهم والإخلاص لله، وتذكرهم بالشدة على الكفار والغيرة على الحق.

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

ثم تسجل لهم، ولكل من سار على نهجهم في قوة الإيمان والعمل الصالح، هذا الوعد الطيب الكريم.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

وبعد:

فإنا إذا ذكرنا برمضان نعمة البدء بإنزال القرآن، وذكرنا به نعمة التركيز لدولة الحق بغزوة بدر، فإنا نذكر به إكمال الدين وإتمام النعمة بالفتح الأكبر، الذي طهرت به أرض الله من مظاهر الشرك بالله، ونرجو أن يعيده الله علينا وقد طهرت الأرض المقدسة من عناصر الشر والفساد، وعاد المسلمون الذين شردهم البغي إلى أوطانهم، ويسلم المغرب الإسلامي من هؤلاء السفاكين أرباب المجازر البشرية، الذين يزعمون أنهم واضعو حق الإنسان وهم الجديرون بأن يكونوا مبتكري ظلم الإنسان، ومقوضي أركان الحياة الآمنة المطمئنة!!

وعسى أن يكون ذلك قريبًا.

عيد الفطر

عن أنس ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد للأنصار يومين يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان؟ قالوا يومان كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال: قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر».

حكمة الأعياد عند الناس:

الأعياد سنة فطرية جُبل عليها الناس وعرفوها، وفكروا فيها منذ عرفوا الاجتماع والتقاليد والذكريات، وبحكم هذه السنة الفطرية كان لكل أمة أيام تظهر فيها زينتها، وتعلن سرورها، وتسري عن نفسها ما يصيبها من مشاق الحياة.

والباعث على هذه الأعياد قد يكون مجرد الترفيه عن النفوس، وتمكينها من حرية شخصية أو اجتماعية لا تنال والناس في معترك الحياة جادون، وقد يدفع إلى اتخاذها محبة إظهار الفرح بنعمة يصيب البلاد والعباد خيرها، وذلك كما نراه في عيدي الربيع، والنيل.

وكثيراً ما يدفع إلى اتخاذها إرادة التذكير بحادث محبب إلى النفوس للجماعة، أو لفرد له قيمته في الجماعة، ولعل عيد الحرية بعد الاستعباد، وعيد الدستور بعد الاستبداد، وعيد الاستقلال بعد الاحتلال، وعيد الجهاد بعد القعود، لعل هذه الأعياد كلها لم تكن إلا تنبيهاً لوعي قومي نحو آمال البلاد، وحفزاً للنفوس في الاتجاه إلى الكمال الذي تدفع إليه هذه الذكريات.

والأعياد بعد ذلك ذات صحف ماضية مجيدة، ينشرها في جو من الفرح والسرور أبناء العصر الحاضر عن آبائهم الأولين فتقرأ بتلهف وشوق، وتفقه بعزة وانشراح، فتقوى العزائم على مواصلة السير في خطة الكمال، فيشيد الأبناء مابنى الآباء وينشئون ما لم ينشئوا.

عيد الإسلام:

تلك سنة الحياة، وبمقتضى تلك السنة وجد النبي ﷺ الأنصار حينما دخل المدينة يلعبون في يومين ورثوا اتخاذهما عيداً عن الجاهلية، وقد كان من شأن الإسلام فيما يجد من عادات وتقاليد أنه لا ينكرها جملة ولا يقرها جملة، وإنما يقر منها الصالح الذي يلبي طبيعة في الإنسان، ويورثه خيراً في مقتضيات هذه الطبيعة. أما الذي تأباه الطبيعة ولا يتفق وتعاليمه الكريمة، التي تدور حول العقيدة الصحيحة والخلق الكريم والسنن الحسان، فإنه يبطله ويحاربه. ومن ذلك أقر النبي ﷺ الأنصار على أصل الفكرة، فأباح لهم اتخاذ العيد، تحصيلاً لمزاياه القومية والاجتماعية والدينية، وألغى يومي الجاهلية مخافة أن يظن تقديسهما، أو الإبقاء على شعائرهما، وعين لهم يومين قد ارتبط بهما في تاريخ الإسلام بل في تاريخ البشرية عامة ما جعلهما غرة في جبين الدهر كله هما: يوم الأضحى ويوم الفطر.

يوم الفطر يذكر بنعمة التشريع الإلهي:

جعلهما عيدين، وعرف يوم الأضحى بالعيد الأكبر، ويوم الفطر بالعيد الأصغر، رمزاً لما بين آثار اليومين من تفاوت، فيوم الفطر يذكر بهذه النعمة العظمى التي كانت أساساً لبناء دولة الإنسانية الموحَّدة والموحِّدة، دولة التحاكم إلى الرحم الواحدة، دولة الصفاء الروحي والاستقامة القلبية، دولة الحق والعدل، دولة العلم والحكمة، دولة التعمير والبناء، دولة الهدى والرشاد، دولة السعادة في الدنيا والآخرة، فيوم الفطر يوم البناء، ويوم الأضحى يوم الإكمال والإتمام لهذا البناء:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾

والأمم الناهضة لا تعرف في تاريخها أعز ولا أعظم من يومها الأول الذي وضع فيه أساس بنائها، ويومها الثاني الذي تم فيه صرح البناء، وما أجدر اليومين بأن يكونا عيدين ترسم فيهما ذكرياتهما وآثارهما وإيحاؤهما على صفحات القلوب.

نعمة الحرية:

وليوم الفطر اعتبارات أخرى تلازمه باعتبار وضعه الزمني في كل عام، فهو أول يوم

بعد رمضان تعود فيه إلى المؤمن حريته الشخصية في مأكله ومشربه بعد أن سلمها لمولاه طائعًا مختاراً، ولولا أنه يؤمن بأن سلب الحرية بأمر الله وعودتها بأمر الله من الكمال الإنساني لما رضيت طبيعته بسلب حريته في مأكله ومشربه شهراً كاملاً، وهذا مما يشهد بأن الحرية مطلب عزيز لا يضحى إلا في سبيل مجد هو أعز منه، وذلك المجد هو رضوان الله ومغفرته.

فرحة القيام بالواجب والثقة بحسن الجزاء:

ويوم الفطر هو أول يوم يشعر فيه المؤمن بفرحتين عظيمتين لهما الأثر القوي في حياته وقوتها: فرحة القيام بالواجب، واجب الطاعة والامتثال لله، وفرحة الثقة بحسن الجزاء، وفي هاتين الفرحتين يقول عليه الصلاة والسلام: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه».

والقيام بالواجب والإيمان بحسن الجزاء عاملان قويان في سعادة الفرد والمجتمع، ففي القيام بالواجب طمأنينة النفس وراحة الضمير، وانشراح الصدر وقوة العزيمة، وإدراك للسمو الروحي الذي يجعل الخير كله في بذل ما وجب، لا لشيء سوى أنه وجب، ولو تنبه الناس إلى ما في القيام بالواجب من هذه المعاني الفاضلة، وعرفوا واجباتهم وبادروا بأدائها وهي منشورة في كل وقت من كل يوم لكان لهم في كل وقت من كل يوم عيد يفرحون فيه للقيام بالواجب.

أما الإيمان بحسن الجزاء فهو العامل النفسي الوحيد الذي يدفع الإنسان إلى المغامرة والتضحية والجهاد في سبيل المجد، وإلى البذل بكل ما يستطيع، غير متردد ولا متشكك في أنه سينال الجزاء الأوفى على ما قدم من عمل أو بذل من نفس أو نفيس، وإذا ما فات الإنسان هذا الجانب من الإيمان ضعفت لديه بواعث الخير وخضع لبواعث الشر أكثر مما يخضع لبواعث الخير، لأنه يرى في الشر يفعله قهراً لغيره وعزة وسلطانًا لنفسه، دون أن يخشى عقابًا عاجلاً لعزته، ولا آجلاً لعدم إيمانه، ومن هنا كانت الدعوة إلى الإيمان بيوم البعث والجزاء في أول ما دعا إليه الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وتلك سنة الطبيعة البشرية:

فعلى المهيمنين، وعلى المشرعين وعلى المهذبين أن يقرروا عمليًا قاعدة الإيمان بحسن الجزاء، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الجزاء الحسن لمن يحسن والجزاء السيئ لمن يسيء،

وإن خلو القوانين عن مكافأة المحسن واقتصارها على معاقبة المسيء لما يخفف وزن الحسنة في النفوس.

رحلة بعد رحلة:

وإذا كنا نجد في يوم الفطر التذكير ببناء الإسلام تشريعًا، ونجد فيه لذة القيام بواجب الصوم، ونجد فيه الشعور بلذة العودة إلى الحرية الشخصية، ونجد فيه الإيمان واليقين بحسن الجزاء للمحسنين، فنتخذه لكل ذلك عيداً فيه نفرح، وفيه نتزاور، وفيه نتهادى، وفيه نستريح من عناءالأعمال - فإننا نجد له اعتباراً وراء ذاك كله يضاعف المعنى في عيديته، ذلك أن يوم الفطر هو اليوم الذي يعود فيه الصائم المؤمن من رحلة روحية ميقاتها شهر رمضان، ترك فيها باسم الله مألوفاته ومشتهياته واكتسب فيها خلق المراقبة، الذي يجعل له من قلبه وإيمانه الحارس اليقظ والرقيب الذي لا ينام، كما اكتسب فيها خلق الرحمة لعباد الله، وخلق الصبر على الشدائد، وصار بكل ما اكتسب فيها منبع خير لنفسه ولعباد الله، وفي الوقت الذي تختم فيه هذه الرحلة الروحية بيوم الفطر، تبدأ به رحلة أخرى ينضم فيها البدن إلى الروح، ويستعين المؤمن على مشاقها بما اكتسبه في المرحلة الأولى من أخلاق الصبر والعزم والإيمان، وتلك هي رحلة الحج التي تبدأ من يوم الفطر:

﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى** ﴾ (الآية ١٩٧ من سورة البقرة)

إن يومًا تنتهي به رحلة روحية هي رحلة الصوم، وتبدأ به رحلة بدنية روحية هي رحلة الحج وزيارة الله في بيته الحرام، لجدير أن يكون عيداً وأن يكون عيداً فوق الأعياد.

مظاهر الفرح بالعيد:

لهذه الاعتبارات كلهاجعل الله يوم الفطر عيداً للمسلمين، فيه يتبادلون التهاني والتزاور، وفيه يتعاطفون ويتراحمون، وفيه يتجملون ويتزينون، وفيه يتمتعون بطيبات مارزق الله، وفيه يوثقون فيما بينهم عرى المحبة والإخاء، ثم لم يقف بهم في معنى العيد ومظاهره عند هذا الجانب المادي، بل جعل لهم فيه مظهراً روحيًا يتجلى في اجتماعهم

العام الذي يفتتحون به يومهم لأداء صلاةتعرف بصلاة العيد، يسبحون فيها ويكبرون، ويتجلى أيضًا في مظاهر العطف على الفقراءوالمساكين وأرباب الحاجات، ومن هنا يتصل الإنسان بربه عن طريق العبادة، وبالناس عن طريق المحبة والإخاء.

وبذلك لم يكن فرح المسلمين في أعيادهم فرح لهو ولعب، تقتحم فيه الحرمات وتنتهك فيه الأعراض، وتشرد فيه العقول بل تسلب، وإنما هو فرح زينة وعبادة يجمع بين حظَّي الجسم والروح، ويبقي على المعاني الفاضلة التي اكتسبها الإنسان في شهر رمضان، وترفعه إلى أسمى ما ينبغي أن تتجه إليه الإنسانية الفاضلة. وإن من الشذوذ الفاضح أن يظن المسلم أن غيرة الله على حدوده في رمضان أشد منها في غير رمضان، فيستبيح لنفسه المحرمات ويتخذها في يوم عيده ومظهر عزته وقوميته عنصراً من عناصر زينته وفرحه.

فقفوا أيها المسلمون عند الحدود، وصوموا عن المحارم يكن لكم أعياد في الأرض وأعياد في السماء.

عيـد الأضـحَى

في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة يستقبل المسلمون عيدهم الأكبر، يوافيهم فجره، وتشرق لهم شمسه، وهو العيد المعروف باسم «عيد الأضحى» أو عيد التضحية. وهو اليوم الذي سماه الله في كتابه «يوم الحج الأكبر»، والمسلمون يستقبلون قبله بشهرين وأيام - في كل عام - عيد الفطر، المعروف في اللسان العام «بالعيد الأصغر».

يستقبلون هذين العيدين، ويتبادلون التهاني يومًا أو يومين، ثم يعودون إلى حياتهم الصاخبة بجميع مافيها من ألوان، وما مرنوا عليه من أساليب المعاملة والكد والعمل، وقليل منهم من يتنبه إلى شيء من معاني «العيد» التي قصدها الإسلام وأراد منهم أن يفقهوها ويذكروها، ويعملوا على هدفها وغايتها فيحصلوا على خيرها وينعموا بفضلها وثمارها في أنفسهم، وفيما بينهم بعضهم وبعض، لا يتنبه كثير منهم إلى شيء من تلك المعاني سوى الإنطلاق والحرية في المأكل والمشرب بالنسبة لعيد الفطر، وسوى كثرة اللحوم التي يملئون منها البطون بالنسبة إلى عيد الضحية، وقد شاع ذلك فيما بينهم حتى عرف الأول «بعيد الكعك والحلوى»، وعرف الثاني «بعيد اللحم والمرق».

وفي ظل هذه المعرفة المادية، التي جعلت معنى «العيد» في تصورهم وحياتهم شأنًا جسمانيًا بحتًا، نسي الناس، أو تناسوا المعاني الحقيقية التي ربطها الإسلام بهذين اليومين حينما اتخذهما عيدين للمسلمين، والتي ترجع في حقيقتها إلى عوامل التقويم الخلقي، والتركيز الجماعي في بناء الأمة ونهضتها، والسير بها في طريق التقدم الذي يوحي به استحضار تلك المعاني، وانفعال النفوس بها، ومعرفة آثارها الماضية.

انحراف في التصور والعمل:

وهذا نوع من الانحراف المعنوي الذي امتد فيما بين المسلمين إلى كثير من التشريعات الإسلامية، فجردها في النية والعمل عن روحها ومعناها، ووقف فيها المسلمون عند

الصورة والمظهر، تصدر عنهم بحكم الإلف والعادة، وبحكم التوارث والتقليد، وبذلك لم يكن لها في الخلق تقويم، ولا في النفس تهذيب، ولا في الإعداد للكفاح، ولا في بث روح التعاون فيما بينهم من أثر، ومن هنا نرى كثيراً من المصلين لم تمنعهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر، وكثيراً من الصائمين لم يغرس الصوم فيهم خلقي المراقبة والتقوى، وكثيراً من المنفقين لم يطبعهم إنفاقهم على خلقي الجود والكرم، وكثيراً من الحجاج لم يحفظهم حجهم من اللغو والرفث، وليس من شك في أن الانحراف عن لب المشروعات الإسلامية، والغفلة عن روحها ومعناها، هو الذي حال بين المسلمين ـ مع صومهم وصلاتهم وصور عبادتهم ـ وبين العزة التي لا تعرف الذل، والفلاح الذي لا يعرف الخسران، والقوة التي لا تعرف الضعف، والسلطان الذي لا يعرف الاستخذاء، هو الذي حال بينهم وبين هذه المعاني السامية التي ربطها الله بهذه الشرائع، وتلك التكاليف، ولعلك تدرك كل هذا أو بعضه من قوله تعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (سورة العصر)

ومن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ (الآيات ١٩ - ٢٢ من سورة المعارج)

ومن قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (أول سورة المؤمنون)

وأخيراً من مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (الآية ١٤١ من سورة النساء)

الأعياد سنة فطرية:

وليس اتخاذ العيد شأنًا خاصًا بالإسلام، وإنما هو شأن فطري عرفه الناس منذ عرفوا الاجتماع، وللذكريات أثرها الكريم في تنبيه الوعي وإحياء الشعور، والاحتفاظ بمجد الأولين المصلحين الذين أدركوا سر الحياة وآمنوا بسنن التقدم فيها، وما من أمة متدينة أو غير متدينة أو متحضرة أو غير متحضرة، إلا كان لها بمقتضى تلك السنة عيد أو أعياد، فيها

تتزين وتلهو، وفيها تفرح وتلعب، وفيها تتخفف من عبء الحياة بما يروق لها ويناسب تصورها وهواها.

الإسلام ينظم الفطرة:

والإسلام لا يصادم الفطرة في شيء من أحكامه، ولا يريد الناس أن يخلعوا طبيعتهم ويكرهوا أنفسهم على غيرها، وإنما يريد بأحكامه وشرائعه ـ في كل نواحي الحياة ـ تنظيم الفطرة والسير بها في طريق الاعتدال، الذي يحفظ للعقل البشري كرامته ويحفظ للروح متعتها وللجسم متعته، وبذلك تكمل للإنسان السعادة من جهاته الثلاث: عقله وروحه وجسمه، وهذه هي أسمى أنواع السعادة.

العيد في الإسلام:

وهذا شأن الإسلام في كل شرائعه، وهو شأنه كذلك في مشروعية العيد، فلم يكد النبي ﷺ يستقر بالمدينة حتى وجد الأنصار يلعبون في يومين ورثوا اتخاذهما عيدين، فقال لهم: قد أبدلكما الله بهما خيراً منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر. أقرهم على أصل الفكرة تلبية لسنة الفطرة، ولكنه أبطل يومي الجاهلية كراهية التنويه بشعائرهم التي كانت مظهراً من مظاهر الشذوذ العقلي فيهم، وعين لهم يومين ارتبط بهما من الذكريات الإسلامية ما جعلهما في تاريخ الإنسانية غرة في جبين الدهر كله، واقترن كل منهما في كل عام بأداء ركن من أركان الدين له أثر في تهذيب النفوس، وارتباط القلوب، وقوة التعاون الجماعي العام.

يومان في تاريخ الأمم:

وإذا كانت الأمم الحية الناهضة لا تعرف في تاريخها يومًا أعز ولا أعظم من يومها الأول، الذي وضع فيه حجر الأساس لبنائها، ويومها الثاني، الذي تم فيه صرح البناء، وكمل التشييد، وكانت الأمم لذلك تتخذ هذين اليومين عيدان يتكرران كل عام، وترسم فيهما ذكرياتهما وآثارهما وإيحاءهما على صفحات القلوب ـ فإن المسلمين أمة كسائر الأمم، لها اليومان: يوم الإنشاء، ويوم الإكمال، وجدير أن يكون يوماها كيومي غيرها من

الأمم، عيدين لها، تذكر فيهما مثار مجدها، وخطوات تقدمها، وسبيل عزتها. وإذا كان يوم الفطر، وهو أول يوم بعد رمضان، عيدًا للمسلمين يفرحون فيه لقيامهم بواجب الصوم الذي فرضه الله، شكرًا على نعمة البدء بإنزال القرآن، ويذكرهم بمبدأ تلك النعمة الكبرى، نعمة الإسلام، فإن لعيد الأضحى - وهو يوم الإكمال والإنعام - من الذكريات الماضية، والتشريعات الحاضرة الدائمة، ماجعله جديرًا أن يكون عيدًا، وأن يكون عيدًا فوق الأعياد.

ذكريات عيد الأضحى:

وأول ما يطالعنا من الذكريات الإسلامية المجيدة التي ارتبطت بعيد الأضحى، وتلقي المسلمين الأولين دروس مجدها كلما وافاهم ذلكم العيد، وكان لها أثرها القوي في حياتهم وتركز سلطانهم، ما نتلقاه عن السنة التاسعة للهجرة من ذكرى ذلكم التبليغ الإلهي، الذي قام به علي - رضي الله عنه - نائبًا عن رسول الله في موسم الحج، ليبلغه العرب على اختلاف مللهم ونحلهم، وبه أعلنت كلمة الإسلام النهائية في علاقة المشركين بمكة وزيارة بيت الله الحرام

﴿ **وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** ﴾ (الآية ٣ من سورة التوبة)

وبه استقرت كلمة التوحيد في مكة وضواحيها، وذل سلطان الشرك والطغيان، وأقبلت الوفود على رسول الله تسعى إلى الإيمان بالله.

وإذا كنا نتلقى عن السنة التاسعة ذكرى ذلكم التبليغ، الذي شرحت أحكامه ومواده أوائل سورة التوبة، وكان له من قوة الإسلام وانتشار نوره وهديه - فإنا نتلقى عن السنة العاشرة، وهي السنة التي حج فيها الرسول، أمرين لهما في كمال البناء الإسلامي من جهة التشريع والبناء، ومن جهة النفوذ والسلطان، نتلقى ذكرى يأس المشركين من مواصلة السير في طريق العناد والبغي، وذكرى إكمال الدين وإتمام النعمة.

﴿ **الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ (الآية ٣ من سورة المائدة)

هذا بعض ما يذكرنا به عيدنا الأكبر، ذكريات تملأ النفس فرحًا وإيمانًا، وتثير في القلب بواعث المجد والعظمة، وجدير بالمسلمين أن يذكروها ويملئوا بها شعورهم، فتدفعهم إلى الكمال الدائم، والتمام الذي لا ينقص، تدفعهم إلى الجهاد للمحافظة على شخصيتهم وكيانهم الدولي والجماعي، تدفعهم إلى العمل الجاد الحازم على التصفية النهائية في علاقتهم بالمستعمرين المستعبدين، الذين لا تفتأ عواصفهم، عواصف البغي والعدوان تهب عليهم بلفحاتها الحارة، وهم لها خاضعون، وفي تيارها مندفعون!!

التشريعات الخاصة:

وقد اقترن بيوم الأضحى ـ بعد هذه الذكريات ـ جملة من الشعائر التعبدية الدائمة المتكررة، جعلها الله مظهرًا من مظاهر الفرح القلبي، منها خاص ببيت الله وما يتبعه من الأماكن المقدسة، وهو الحج، فيه يطوف المسلمون بالبيت الحرام، ويقفون بعرفات، ويقدمون الذبائح شكرًا لله، في ظل من التعارف والتشاور والتعاون والتكتل على خير المسلمين وصلاحهم. ومنها عام يقوم به المسلمون في أقاليمهم المختلفة وبأجناسهم المتباينة: ذلكم التكبير الذي يصدحون به من فجر يوم عرفة إلى رابع يوم العيد، وفيه يعلنون عقيدتهم في الله بصفة جماعية جهرية يقررون به أعظم من كل عظيم وأكبر من كل كبير، فيعظم سلطانهم، ولا يجدون أمامهم من كبير أو قوي يحول بينهم وبين العزة والسلطان.

وهذه الصلاة الجامعة، التي تعرف بصلاة العيد، يجتمع لها أهل البلد الواحد، ويفتحون بها يومهم على ذكر الله، والوقوف بين يديه ومناجاته، واستشعار عظمته، ويتخذونها أساسًا لعيدهم كيلا ينحرف بهم الفرح إلى ما يسخط ولا يرضي.

ثم هذه الأضحية، تذبح بعد الصلاة باسم الله، ويعطى الفقير حقه فيها باسم الله، ويذكر بها المسلمون «الفداء» الذي قبله الله من إبراهيم عن ولده، الذي صمم على ذبحه امتثالاً لأمر ربه، وبها يذكرون أن ما حصل عليه المسلمون من فتح مكة وكسر شوكة المشركين، وذيوع الإسلام وانتشاره، لم يكن سبيله إلا قوة التضحية بالنفس والمال والولد. وذلك هو شأن المؤمنين إن أرادوا أن يكونوا مؤمنين.

التزين والتمتع بالأغاني:

لـم يفت الإسلام - وقـد بنى عـيـدي المسلمين على مـعـاني المجـد والقـوة، والسـمـو والسلطان - أن ينظر إلى الجانب المادي في الإنسان فيعطيه في يوم عيده الحق في التمتع بالملابس الجديدة والمآكل الطيبة، واللهو البريء، الذي لا يخدش عرضًا، ولا يقتحم كرامة، ولا يمس حرمة، قضاء لحق الطبيعة البشرية في ترويض البدن والترويح عن النفس، تقول السيدة عائشة: دخل أبو بكر، وكان يوم عيد، وعندي جاريتان تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث، فقال: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ:

يا أبا بكر: إن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا، لتعلم اليهود أن في ديننا فسحة، وأني بعثت بحنيفية سمحة».

أما بعد:

فهذا عيدنا الأكبر، وهذا هو العيد في الإسلام، عيد فرح وزينة، وشكر وعبادة، يجمع بين حظي الجسم والروح، ويذكرنا بالماضي المشرق، ويدفعنا إلى المستقبل المؤمل.

فعيدوا أيها المسلمون، وتنبهوا إلى ما في عيدكم من إيحاء تظفروا بالمجد والكرامة.

عيدان في يوم واحد

نستقبل هذا العام بيومنا هذا ـ يوم الجمعة ـ وهو أول يوم في شوال عيدين عظيمين من الأعياد التى شرعها الإسلام، وجعلها شعاراً عمليًا لوحدة المسلمين وائتلافهم، ومظهراً اجتماعيًا كريمًا من مظاهر الفرح والسرور، في جو من عبادة الله وتكبيره وتحميده في مكان واحد وإلى قبلة واحدة وبمناجاة واحدة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وبهذا الاجتماع تتكون منا الوحدة العابدة، فلا تختلف بنا السبل، ولا تتشعب علينا المسالك، ولا تميل بنا الأهواء، تتكون هكذا الوحدة العابدة أمام الوحدة المعبودة فيعظم فيضها ويعم فضلها ويكمل إنعامها ورضاها.

عيد سنوي وعيد أسبوعي:

هذان العيدان: عيد سنوي وهو عيد الفطر، وعيد أسبوعي وهو عيد الجمعة، نجتمع بهما في يوم واحد مرتين في صلاة علنية جامعة، تعرف أولاهما بصلاة العيد، وتعرف ثانيتهمابصلاة الجمعة، ونستحضر بصلاة العيد تقلبنا في صورتين من الصور الروحية الفاضلة، والخضوع لأوامر الألوهية الحكيمة، فندرك أننا كنا بالأمس في حظر من الطعام والشراب وما أحل الله، وكنا بذلك الحظر فرحين مطمئنين نبتغي به فضلاً من الله ونعمة، وأننا قد أصبحنا اليوم وقد رفع عنا منشور الحظر، ووجه إلينا منشور الإفطار الواجب، وبذلك يستقر في نفوسنا أننا لم نتجه بالإفطار حين أفطرنا إلى ذات الإفطار، إنما كان قبلتنا في الصوم والإفطار تلبية الله في ندائه بما اختار لنا من صوم أو إفطار، وهذا الاتجاه هو السر المقصود من العبادة في جميع صورها، وهو روح التقوى التي طلب الله من المؤمن أن يضع نفسه في دائرتها فتشرق علينا من محيطها أنوار الهدى والفرقان

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (الآية ٣٧ من سورة الحج)

وفي جو هذه الموازنة وتلك المعرفة ندرك أننا قمنا بواجب الطاعة والامتثال، فصمنا حينما أمرنا بالصوم، وأفطرنا حينما أمرنا بالإفطار، وأننا بأداء هذا الواجب قد حصلنا بمقتضى وعد الله الحق على ما أعد للطائعين من حسن الجزاء والمثوبة، وبذلك يتضاعف فرحنا وتقوى على فعل الخير عزائمنا.

وليس من ريب في أن القيام بالواجب والإيمان بحسن الجزاء عاملان قويان في سعادة الفرد والمجتمع، ففي القيام بالواجب طمأنينة النفس وراحة الضمير وانشراح الصدر وإدراك للسمو الروحي الذي يجعل الخير كله في بذل ما وجب لا لشيء سوى أنه وجب، والإيمان بحسن الجزاء هو العامل النفسي الوحيد الذي يدفع المؤمن إلى المغامرة والتضحية في سبيل المجد، وإلى البذل بكل ما يستطيع غير متردد ولا متشكك في أنه سينال الجزاء الأوفى على ما قدم من عمل أو بذل من نفس أو نفيس.

وفي ضوء من هذا الشعور الروحي القوي يجتمع المسلمون في صلاة العيد عابدين خاشعين، مبتهلين شاكرين، معلنين شعائر الفرح والابتهاج، متبادلين آيات التهاني مؤكدين مواثيق الوحدة والأخوة في سبيل الله وفي سبيل رضاه.

وهكذا شرع الله العيد الأسبوعي سبيلاً من سبل هذه الوحدة، نجتمع به في ظل من العبادة الجماعية المفروضة في كل أسبوع، وقد سماه في كتابه «يوم الجمعة» وعرفت عبادته «بصلاة الجمعة»، وكانت تلك التسمية إرشاداً واضحًا جليًا إلى أن الاجتماع هو الأساس الأول لتلك العبادة، وإلى أن الانفرادية فيها نقص لما أراد الله وهدم لما شرع

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الآيتان ٩، ١٠ من سورة الجمعة)

فنداء للصلاة يترتب عليه ترك العمل والسعي إليها، ثم انتشار في الأرض بعد أدائها، لا يدع كل ذلك شكًا في أن أساس هذه العبادة هو الاجتماع، وأن الاجتماع فيها هو المقصود، وقد أعلن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذلك فقال: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين» وقال: «لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم».

أيها المسلمون: هذا شأن عيد الفطر وهذا شأن عيد الجمعة، فما بال فلول منا يكفرون بأساس عيد الفطر وأساس عيد الجمعة، ويعلنون بأصوات منكرة أن الإسلام لا يحتم صوم رمضان ولا يحتم الاجتماع في صلاة الجمعة، بل ولا يقصد في الجمعة سوى كلمات تلقى، وحسب الناس أن يسمعوها ولو بطريق الإذاعة!! اللهم إن هي إلا الفتنة سخرها أعداء دينك الذين هالهم في عبادتك هذا الرسم الجماعي الذي يؤلف بين قلوب المؤمنين بك، ويطبعهم على ما أحببت من طابع المحبة والإخاء!!

تحذير من عوامل الهدم:

أيها المسلمون: تنبهوا لعوامل الهدم - التي تجري على ألسنة المأجورين بدوافع التسخير - من قوم ضعفت وسائلهم الذاتية المباشرة في القضاء على دينكم وطمس شعائركم، فراحوا يتخذون منكم أرباب قلوب مريضة يسارعون فيهم، وينتشرون باسم حرية الرأي وباسم الاجتهاد الفقهي ما يزعزع إيمانكم بصومكم، ويصرفكم عن عيدكم السنوي، واجتماعكم الأسبوعي، ويجعلكم أفرادًا متفرقين لا ينتظمكم عقد ولا يجمعكم رباط.

أيها المسلمون: تنبهوا واعلموا أن هؤلاء المسخرين ليسوا إلا منحرفين ينفثون سمومهم في عقولكم لتبعد قوتكم عن شعائركم، ولا تجدوا بعد صومًا لإكماله عيد به تفرحون، ولا تجدوا عبادة لربكم عليها تجتمعون وفي ظلها تضرعون.

تنبهوا: خذوا حذركم وأعدوا لأنفسكم ما به تفرحون، تنبهوا وحافظوا على شعائركم من صوم فرضه الله عليكم يعقبه الفرح والابتهاج بالتوفيق إليه، ومن صلاة تسمعون النداء لها وأنتم في بيوتكم ومتاجركم ومصانعكم فتتركون أعمالكم وتسعون إليها، حتى إذا ما انتهيتم من مناجاة الله مجتمعين عدتم إلى أعمالكم بروح المراقبة لمولاكم

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الآية ١٠ من سورة الجمعة)

هذا هو شرع الله وهذا هو دينه. فلنعاهده عليه في أيام الرضا والتجلي، ولنحافظ به على شخصيتنا حتى تكون حياتنا كلها أعيادًا نبتغي فيها فضل الله ورضاه. حقق الله لنا الآمال ومتعنا بفضله وتوفيقه.

في عيـد الهـجرة

استقبل المسلمون العام التاسع والسبعين بعد ثلاثمائة وألف لهجرة النبي محمد ﷺ وصحبه المخلصين من مكة - منزل الوحي لأول مرة - إلى المدينة موطن أصحاب البيعة والنصرة. وذكرى الهجرة في الصفحة التاريخية للذكريات الإسلامية كواسطة العقد في ذكريات المجد والعظمة. وهي تقع بين ذكرى الإكمال والإتمام وذكرى ميلاد الرسول محمد ﷺ.

وإذا كان عيد الميلاد المحمدي يذكرنا ببزوغ شمس الوجود المحمدي على العالم، وكان عيد الإكمال يذكرنا بنجاح الدعوة المحمدية، فإن عيد الهجرة يذكرنا بتلكم الجهود المضنية التي سبقت الهجرة ومهدت لها ودعت إليها، وبتلكم الجهود الأخرى التي استتبعتها الهجرة ودفعت إليها.

وعيد الهجرة يذكرنا في الوقت نفسه بمبدأ الوجود الدولي للمسلمين، الذين لم يكونوا قبل الهجرة إلا أفراداً مضطهدين معذبين مبعثرين، وصار لهم بالهجرة وضع آخر: صاروا وحدة لها شعارها الخاص ونظامها الخاص، وقيادتها الخاصة، وهدفها الخاص.

صار لهم بالهجرة جوار غير الجوار، عقدوا معه معاهدة الأمن وعدم الاعتداء. وبهذا وذاك كملت لهم عناصر الوجود الدولي فيما بينهم بعضهم مع بعض، بتشريعات داخلية، بنت أسرهم على عمد قوية ثابتة، ونظمت معاملاتهم على أساس من العدل والمساواة. وفيما بينهم وبين غيرهم بتشريعات خارجية حددت علاقاتهم الدولية في السلم والحرب، ومن هنا كانت الهجرة - من بين الأحداث الإسلامية كلها - جديرة أن تتجه إليها الأنظار، ليكون من ذكراها في كل عام درس متصل الحلقات يساير حياتهم، ويذكرهم بتلك الجهود التي اكتنفتها، فتوحي إليهم دائماً بأسباب العزة، وتوقظ شعورهم بها، وتنبه وعيهم إلى أن الوجود الدولي للمسلمين الأولين لم يمنحوه منحًا، ولم يحصلوا عليه عفواً، وإنما منحوه بجهود سابقة ولاحقة، وأنه لابد في الاحتفاظ بهذا الوجود الدولي، الذي ولدته

تلك الجهود، من الاحتفاظ بتلك الجهود وبتنشئة الأمة عليها، وبغرس بذورها في أبنائها، حتى تظل قوية الأركان، شامخة البنيان، ترد عنها كيد الكائدين وطمع الطامعين.

طريق الرشاد:

ضل الناس سبيل الحكمة، وتمكنت فيما بينهم عوامل الفساد، وهضم الأقوياء منهم حقوق الضعفاء، واعتسف أرباب الحكم والسلطان، وكان السادة، وكان العبيد.

في هذا الضلال فسد على الإنسان تصوره لخالقه، فعبد ما لا ينفع ولا يضر، عبد ما لايسمع ولا يبصر، وتحكم رؤساء الأديان في العقائد والأخلاق. وفسد تصوره للحياة، فظن أنها ليست إلا المادة عليها يتهالك وبها يتكاثر.

في هذا الضلال الذي أظلم الجو على الإنسان، بعث الله رسوله محمداً ﷺ إلى الناس، يدعوهم إلى التوحيد، وإلى الإيمان بالبعث والجزاء، وإلى العدل والإحسان وسائر العمل الصالح، بعثه لتطهير العالم، وتحرير القلوب من هذه العبادة الشركية الضالة، التي كانت تحمل في حقيقتها ومعناها أقبح نظام اجتماعي عرفه البشر إلى يومنا هذا، وحسب الشرك وما يحمل من نظام، قول الله تعالى:

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الآية ٣١ من سورة الحج)

الرسالة المحمدية وطريق الدعوة إليها:

هذا هو جوهر ما بعث الله به محمداً، وقد رسم له من أول الأمر ما يجب أن يأخذ به نفسه في القيام بمهمته، ونجاح دعوته، فطلب إليه أن يوثق علاقته بربه عن طريق المناجاة الروحية الصافية، وعن طريق تمثل مبادئ الدعوة في نفسه بتفهم الخطاب الإلهي تفهم اكتناه وإحاطة تفهمًا تنفعل به النفس، ويمتزج بالإحساس، ثم أشعره بثقل المهمة التي ألقيت على كاهله، ليضاعف جهوده في الإعداد والتهيئة.

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (أول سورة المزمل).

ثم لا يقف الله بنبيه عند هذا الحد، بل يعود إليه يستنهضه للاضطلاع بالمهمة، ويرشده إلى الأسلحة التي يجب أن يعتمد عليها في دعوته

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (أول سورة المدثر)

تحرير القلب والخلق والجوارح:

حرر قلبك من تعظيم غير الله ليضعف أمامك الجبارون، حرر خلقك فتملك على الناس قلوبهم، حرر جوارحك لتكون مثالاً واقعيًا لدعوتك، تدعو بحالك كما تدعو بلسانك، وكن محتسبًا عطاءك وجهودك في إحياء الناس وإرشادهم عند الله لا عند الناس، وحرر نفسك من الملل والجزع واليأس فكم من دعوة حق اضمحلت وزالت، ولم ينتفع بها الوجود لفقد هذه الأسلحة. وكم من دعوة ظالمة راجت سوقها بمجرد الصبر المادي، والتمويه بأنها للصالح العام، وما راج سوق الاستعمار إلا بالاعتماد على الصبر وإن كان ماديًا، ولكن البقاء الدائم لا يكون إلا لدعوة توافرت فيها هذه الأسلحة كلها، كما توافرت في شخص صاحب الهجرة عليه صلوات الله وسلامه.

غلظة القوم أمام الدعوة:

بهذه العدة القوية أرسل محمد كلمته في قوم عرفوا بشدة البأس والإيذاء في التعصب لما هم عليه، وما ورثوه عن الآباء والأجداد، عرفوا بالغلظة التي خلقتها في نفوسهم الصخور والجبال، فكبر عليهم الأمر وكبرت عليهم الدعوة، ورأوا أنها تسلبهم الجاه والسلطان، وتجعل العبيد والسادة سواءً، وأنها تحرر الإنسان من العبودية لغير الله، كبر عليهم أن يدعوهم هذه الدعوة رجل منهم ليس بالعظيم فيهم، فقابلوه بالاستهزاء والسخرية

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الآية ٣١ من سورة الزخرف)

﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ (الآيتان ٧، ٨ من سورة الفرقان)

١ - ساوموه على ترك الدعوة بكل ما يطيب له من ملك وجاه وسلطان، فكانت كلمته المأثورة: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

٢- اشتدوا في إيذائه ﷺ وأسرفوا حتى أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب، وإخراجهم من مكة، والتضييق عليهم ليسلموا إليهم محمدًا، وكتبوا صحيفة تعاقدوا عليها، هي صحيفة الحصار التمويني، فاحتمل فيها النبي ومن معه الجهد البالغ والبلاء الذي لا حدّ له، ولما أعيتهم الحيل، وأدرك عقلاؤهم أن تلك الصحيفة كانت سوداء في جبين إنسانيتهم، مزقوها وعادوا إلى أفانين الكيد، فنشروا الأكاذيب والأراجيف عن النبي وصحبه بقصد تشويهه عند غير المكيين، فقالوا: ساحر، كذاب، معلم مجنون.

فاحتمل محمد وصحبه كل هذا ولم تلن لهم قناة، ولم تهتز لهم عزيمة، بل زادهم ذلك قوة على قوة، وإيمانًا على إيمان، وانعكست أسلحتهم الفاسدة إلى نحورهم أسلحة قوية فتاكة، فقد نما بها خبر محمد وذاع شأنه فتوجه الناس إليه لاستطلاع حاله، أرادوا لفت الناس عنه فلفتوا الناس إليه، ومن هذه النافذة سرت جاذبية الإيمان الحق إلى شباب المدينة فاتصلوا به وبايعوه على الإيمان والموت في سبيل نصرته ونشر دعوته.

الثلة الفدائية في إنقاذ الرسول:

وهنا تقررت الهجرة إلى رجال البيعة، وأخذ القوم من جانبهم يتحسسون أمره، وقر رأيهم على أن يقتلوه قتلة تفرق دمه في القبائل، وكانت الليلة التي أتم الله فيها لرسوله وسائل الهجرة، فضرب القوم حول بيته نطاقًا من الحديد والنار، وهنا ندع أرباب الإيمان يفكرون في مبلغ التضحية التي بذلتها تلك الثلة الفدائية التي لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة.

أبو بكر معد الراحلة، وصاحبه في الغار، وباذل ماله ونفسه. وعلى الفدائي الأول الذي تسجى ببردة الرسول، مفترشًا سريره. وعبد الله بن أبي بكر، صاحب المخابرات المكية، وتدبير القوم ضد الرسول. وأخته ذات النطاقين أسماء صاحبة التموين. وعامر بن فهيرة مطعم اللحم واللبن في الغار، ومخفي بالغنم التي كان يرعاها لأبي بكر.

هذه التضحية التي لم يضعف من حدتها قرب الوقوع في يد الأعداء، الذين راحوا يبذلون كل ما يستطيعون في سبيل الحصول على محمد ومن معه، هذه التضحية التي قامت بها ثلة فيها الرجل والصبي، وفيها الرجل والمرأة، وفيها الرجل وموارده، وفيها قريب النسب وبعيده، لنعلم أن الجهاد والتضحية شأن المسلمين عامة، يسقط في حسابها القرب والبعد.

تمت الهجرة ولم تكن هجرة القارين الهاربين، وإنما كانت تنفيذًا لخطة مرسومة، ونزولاً على حلف أخذت فيه العهود والمواثيق بالدماء والأرواح وبذل المهج دون الرسول، ودون الإيمان بالله وتطهير العالم من الشر والطغيان. ألا وإن الإيمان الحق متى امتزج بالقلب ملأه محبة صادقة، والمحبة الصادقة تورث الغيرة الصادقة، والغيرة الصادقة تدفع صاحبها إلى التضحية الغالية، وقد امتلأ هؤلاء إيمانًا ومحبة وغيرة، فجادوا في سبيلها بالأهل والولد والمال والنفس، وكان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما.

تمت الهجرة وكانت نعمة امتن الله بها على رسوله ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ (الآية ٣٠ من سورة الأنفال)

تمت الهجرة وكانت نصرًا من الله لرسوله، استنفر به المؤمنين للقتال، ورفع به مكانة صاحبه أبي بكر - رضي الله عنه -.

﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الآية ٤٠ من سورة التوبة)

تمت الهجرة واستقر محمد في المدينة، وآخى بين المهاجرين والأنصار، حتى جرت بينهم أنهار السخاء والإيثار، ثم رتب شأنه ورسم خطته، خطة تطهير بيت الله من عبادة غير الله، خطة إنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين تركهم في مكة تصب عليهم ألوان العذاب ولا يملكون سوى أن يقولوا :

﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾(الآية ٧٥ من سورة النساء).

وما وافت السنة السادسة من الهجرة حتى اعترف المكيون بالكيان الدولي للمسلمين، وجرت بينهم مفاوضات، وتمت معاهدة صلح اعتبرها الله سبحانه فتحًا مبينًا، ولم تكد تنتهي السنة الثامنة حتى جاء نصر الله والفتح، وعاد جند الله إلى بيت الله، ودخل محمد وصحبه مكة فاتحين. وهنا تتجلى الإنسانية في أروع مراتب الكمال، يخرج محمد وصحبه من مكة وليس لديهم سوى الإيمان تزدحم آماله في قلوبهم، ويدخل مكة وقد صارت إليه كل أسباب القوة، ومع هذا لم تأخذه نشوة الفاتحين، ولا صلف المنتصرين، بل يبدأ القوم وقد جلسوا حوله ، ماتظنون أني فاعل بكم؟ فيقولون : أخ كريم وابن أخ كريم، فيقول لهم : لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وتمر السنة الثامنة، وتجيء التاسعة، ويخرج أبوبكر على رأس الحجيج، وتنزل سورة التوبة بتصفية الحساب النهائي بين الشرك والتوحيد، بين الصلاح والفساد، بين العدل والطغيان، فيتلوها علي ـ رضي الله عنه ـ على الحجيج وفيها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾(الآية ٢٨ من سورة التوبة)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ﴾(الآية ٢٣ من سورة التوبة) .

وتمضي السنة التاسعة وتجيء العاشرة وقد تقلمت أظفار الشرك ونكست أعلامه، فيخرج الرسول إلى حجة الوادع وفيها ينزل الله عليه

﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (الآية ٣ من سورة المائدة).

أمل ورجاء :

على مبدأ التضحية ، التي تجلت عمليًا في أروع صورها من الرسول وصحبه، سار أصحابه من بعده، مركزين حياتهم وفتوحاتهم على عمد قوية تصلهم دائمًا بالقوة التي لاتقهر، على العدل الذي لا يعرف الظلم، على الإيمان الذي لا يعرف التردد، على

الشجاعة التي لا تعرف الجبن، على الوحدة التي لا تعرف التفرق، على الشورى التي لاتعرف الاستبداد، على الرحمة التي لا تعرف الغلظة، على التضامن الذي لايعرف الأثرة. فاللهم - ونحن في ذكرى نعمتك الكبرى على رسولك وعلى عبادك المؤمنين المخلصين - نسألك أن تمنحنا من عونك نعمة تكفل آخر هذا الأمر بما كفل به أوله، وأن تجعل لنا من ذكرى الهجرة، بفضل الصفاء والإيمان والاتحاد والصبر، قوة ترفع شأننا وتركز سلطاننا، وتطهربلادنا من كيد الكائدين والمنافقين.

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

الآية ٨ من سورة آل عمران)

الهجرة إيواء ونصر وتأييد

يستقبل المسلمون عامة والعرب خاصة العام الثامن والسبعين بعد الثلاثمائة والألف من هجرة النبي العربي محمد ـ ﷺ ـ وصحبه المخلصين .

والهجرة ـ في ذاتها وفي عواملها وفي آثارها ـ من الحوادث الزمنية التي لا ينسيها توالي الأجيال ولا مرور الحقب ، فهي ماثلة في القلوب ، شاخصة في الأذهان ، متربعة على قمة أحداث التوجيه البشري ، تملي على دعاة الخير والفضيلة ، دعاة الإيمان والحرية ، دعاة الحق والعدالة ، واجبهم في مكافحة الشر والرذيلة ، والوثنية والاستعباد ، والباطل والطغيان ، مادام في البشرية قلوب تنبض بالإيمان ولسان يلهج بمحمد بن عبد الله .

وبذلك كان من الحق علينا لهذا الحادث ، ونحن في مقام التوجيه وإحياء الوعي الإسلامي والعربي ، وخاصة في هذا الوقت الذي نستقبل فيه هذا الوليد الضخم في بناء الجامعة العربية الإسلامية ، والذي تتبادل فيه قوى الشر والطغيان التآمر على قتل هذا الوعي في ضمائر طلاب الحرية والاستقرار والأمن ـ كان من الحق علينا أن نقف عند هذا الحادث التاريخي العظيم الذي غير وجه البسيطة ، وحول اتجاه الناس من مجاري الشر والشقاء إلى سبيل الخير والسعادة .

ثوب مهلهل:

وقد عني المؤرخون كثيراً ، وهم يتكلمون عن هذا الحادث ، بذكر حوادث الإيذاء التي كانت تتصل بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه الذين لبوا دعوته ، ومن هنا ألبسه أرباب الهوى الخاص ـ وهم يكتبون سيرة «النبي العربي» ـ ثوب الفرار وعدم الصبر في القيام برسالته ، ولم يتورعوا إمعانًا فيما يبتغون من تشهير ، أن يطلقوا عليه «النبي الفار» ، وقد ظنوا في ظل من الحيرة والاضطراب أن هذا الثوب المهلهل الذي خلعوه على هذا الحادث العظيم ، يستطيع أن يستر الحقيقة التي يحملها بين جنبيه ، والتي لم تلبث بعد الوصول إلى المدينة أن سطع نورها ، وانتشر أريجها ، وبددت الغشاوة الكثيفة التي وضعها الجهل والطغيان على العقل البشري حينًا من الدهر .

الهجرة القلبية تسبق الهجرة البدنية:

والواقع أن هذه الهجرة، التي خلعوا عليها ذلك الثوب المهلهل، لم تكن إلا أثرًا من آثار هجرة سبقتها، هي هجرة القلوب عما كان عليه القوم من عقائد فاسدة، وشرائع باطلة، وعادات وتقاليد، كان لها في هدم الإنسانية ما ليس للمعاول القوية في تقويض البناء الشامخ العتيد، نعم، هاجر النبي وأصحابه بقلوبهم قبل أن يهاجروا بأبدانهم، هاجروا من يوم أن بعثه الله بالحق بشيراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً. هاجروا إلى التوحيد البريء، والإخلاص النقي، والإنابة الحقة، والتوكل الصحيح، ومحبة الخير للخير، هاجروا إلى هذه التعاليم السامية التي نهضت بالإنسانية من كبوتها، ورفعتها من حضيض هوت إليه في جاهليتها، وذكرتها بأنها ما خلقت عبثًا ولا باطلاً، ولا لتفسد في الأرض أو تسفك الدماء، ولا ليستعبد قويها وضعيفها، ذكرتها بأنها ما خلقت إلا لتكون خليفة عن الله رب العالمين، تسبح بحمده، وتقدس له، وتعمل صالحًا، حتى تسمو بالعالم إلى ما يمكن أن يصل إليه من درجات الرشد وأطوار الكمال.

أسباب الهجرة وعواملها:

هذا ما هاجر إليه النبي محمد - ﷺ - وصحبه القليل، لا لشيء سوى أنه الحق الذي شرح الصدور، واستولى على الحواس والأفئدة، وامتزج بالدماء والأرواح، فامتلأت النفوس غيرة عليه، وأخذت تتلمس وسائل حفظه ونشره والعمل بمقتضاه، وإسعاد الإنسانية به، رأى هذا النفر القليل أن سعادة العالم معقودة بإدراك تلك اللذة الروحية التي سرت إليهم من دعوة هذا النبي الكريم، ورأوا أن مكة - وقد تألب أهلها عليهم، وقلبوا لهم ظهر المجن وقعدوا لهم في كل مرصد، وتجسسوا عليهم من كل نافذة - لم تعد دار أمن وطمأنينة يتسع لهم فيها مجال العمل، ويتمكنون فيها من تلبية الإيمان والقيام بحقه.

رأوا أن غايتهم التي لها يعملون تنحصر في توحيد الله والدعوة إليه، وإقرار السلم والعدل في خلقه، وأنه سبحانه يعبد في كل مكان، وتنشر دعوته في كل مكان، وينبعث نور هديه من كل مكان، وليست مكة وحدها هي منبع ذلك الخير.

رأوا أن الأرض منها خبيث جدب، لا يقبل البذر الطيب ولا ينبت النبات الحسن، ومنها طيب خصب يتشرب ماءه ويمد بذره بقوى الإنبات، ثم لا يزال به ينميه ويقويه حتى يؤتي أكله، وينضج ثمره

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ (الآية ٥٨ من سورة الأعراف)

رأوا أن جبال مكة وهضابها لن تمنع أريج الدعوة التي آمنوا بها، واستعذبوا العذاب والموت في سبيلها، من أن يسري وينتشر ويحمله الجلال والجمال حتى ينزل من المدينة - وهم بمكة مقيمون:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (الآيتان ٣٦، ٣٧ من سورة النور).

رأوا أن هؤلاء الرجال يقتحمون العقبة بإيمان قوي وحب عميق، ويمدون إليهم يد البيعة:

نريد الوفاء والصدق، وبذل المهج دون الرسول، فخذ لنفسك ولربك بما أحببت.

رأوا أن سبب النصر بهذا قد تهيأ، وسبيل العمل على العزة قد تمهد، فلم يجدوا بدًا من التمسك بهذا السبب، فاتجهوا إلى مدينة الأنصار، وتم لهم بفضل الله ما أرادوا.

الملأ يتآمرون ويمكرون:

اتجه النبي وأصحابه إلى المدينة، وكان هذا من أشد ما يخافه أهل البغي والعدوان، ولقد اجتمع رؤساؤهم وقادة أمرهم في دار ندوتهم للتشاور فيما يتخذون من وسائل القضاء على محمد وصحبه، حينما سمعوا نبأ «البيعة المدنية» التي زعزعت ثقتهم بأنفسهم، فقال أحدهم: أخرجوه من أرضكم تستريحوا منه، فرفضوا هذا الرأي، وقالوا: إنه إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرون من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه، وتغلغل روحه. وقال آخر: نحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت، فرفضوا هذا أيضًا، وقالوا: إنا إذا حبسناه لا يلبث الخبر أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى الناس بمن دخلوا في دينه، فهم يفضلونه على الآباء والأبناء، وربما جر هذا علينا من الحرب ما نحن في غنى عنه. فقال ثالث: الرأي أن نقتله قتلة لا يستطيع بنو أبيه أن يأخذوا بثأره: خذوا من كل قبيلة شابًا، ويرقبونه أمام داره، حتى إذا خرج منها ضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على قريش كلها، ويذهب محمد بالدية، فوقع هذا الرأي عندهم موقع القبول، وقد كان آخر ما في كنانتهم من سهام، فأعدوا له وسائل التنفيذ الممكنة.

ولكن الله الذي تكفل بحفظ رسوله ورعايته، وأنزل عليه في محكم كتابه: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (الآية ٦٧ من سورة المائدة) أفسد عليهم تدبيرهم وأحبط أعمالهم، وخرج رسوله من بين الحديد والنار محفوفًا بالعزة والكرامة.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الآية ٣٠ من سورة الأنفال)

الهجرة نصر وتأييد:

وعلى هذا الوجه تمت الهجرة، وترك النبي وصحبه قلوب قريش تغلي كالمراجل فوق النار المتقدة، تتبخر منها أفانين الحنق على سهام طاشت، ومكر ردت نصاله في نحورهم، ومكائد ذهبت أدراج الرياح. وتلك سنة في تآمر أهل البغي والعدوان على أهل الحق والإيمان، والحوادث الزمنية تقدم في كل جيل وأمة شواهد تلك السنة الإلهية التي لا تتخلف.

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾

وبهذه السنة يكرم الله أولياءه، يحتضنهم ويقوي شوكتهم، وينفخ فيهم من روحه، ويقذف في قلوب أعدائهم الرعب بما يفسدون، وبما يستلبون، وبما يريقون.

وبهذه السنة، يؤيد الله أولياءه ويحقق لهم النصر الذي وعد، يهدد به على أيديهم من يخذل دينه، وينبذ شرعه، ويفرق كلمة الموحدين.

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الآية ٤٠ من سورة التوبة).

وإذن، لم تكن الهجرة فرارًا من الأذى، ولا هربًا من التنكيل، ولا التماسا للرزق، ولا خورًا في العزيمة، ولا خوفًا من الموت في سبيل الله، إنما هو الإيمان بالله، يملأ نفس صاحبه عزة وكرامة، ويأبى عليه أن يخلد إلى السكون، أو يرضى بالخنوع، أو يذل بسلطان القهر الذي يمنعه الحرية في تصرفه وإقامة دينه والاتصال بإخوانه الذين يحب أن يتساند معهم، ويكونوا جميعًا وحدة قوية تحمي بيضتهم، وتحفظ عزتهم، وترفع رأسهم، وفي ظلها يبثون دعوتهم، وينشرون العدل، ويحققون السلم والمساواة. ويدعون إلى الخير والسعادة.

نتائج الهجرة:

وهكذا تمت الهجرة، وكانت بخيرها وآثارها بردًا على الإنسانية، أخرجتها من ظلمتها، وأنقذتها من وهدتها، وهدتها من حيرتها، ودفعت بها إلى طريق الخير والصلاح.

أسست بها دولة قوية على مبادئ الأخوة في الله، والتضامن الإنساني العام، ثم تتابعت عليها التشريعات الإلهية بما يسعد الفرد والجماعة في علاقتهم بربهم وعلاقة بعضهم ببعض. وأخذت على كاهلها بحكم الله تطهير الأرض من عبادة غير الله، ومحاربة الظلم والظالمين أينما حلوا وكيفما كانوا. ثم امتدت إلى أرض الفرس والروم، وأصبح سلطان الأرض في قبضة الموحدين لسلطان السماء، وبذلك تحقق وعد الله لعباده الموفين بعهودهم، البارين بإيمانهم.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

(الآية ٥٥ من سورة النور)

عبرة وعظة:

هذا هو حادث الهجرة في ذاته، في عوامله ونتائجه، فإذا استقبل المسلمون اليوم العام الهجري، وقد قطعت الأهواء والشهوات بينهم ما أمر الله به أن يوصل، فتفرقت بهم الكلمة، واختلفت عليهم السبل، وسلموا أنفسهم لأرباب البغي والعدوان. ثم أخذت سنة الله في إحياء الوعي، وتنبيه الضمائر إلى القذف بمعسكر المفرقين في باطن الأرض ومهب الرياح، فإنه جدير بهم وقد رأوا آيات الله المبصرة تعمل عملها في المنافقين المفسدين، أن يعملوا علي جمع القوى، وربط القلوب وتوحيد الكلمة، وتقوية الصفوف، وأن تتجاوب قلوبهم بآلامهم المشتركة، وقضاياهم المعقدة، وأن يتنبهوا إلى مايرد بهم - على يد بضعة تنتسب إليهم - من خسف وإذلال فيضعوا للأمر خطته، ويهيئوا له عدته، حتى يعود إليهم عز الإسلام ومجد العروبة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(الآية ٢٤ من سورة الأنفال)

ذكرى الهجرة

الهجرة في القرآن:

يستقبل المسلمون العام الخامس والستين بعد الثلاثمائة والألف من هجرة النبي ﷺ (*) وصحبه المخلصين من مكة - مهبط الوحي لأول مرة - إلى المدينة موطن أهل الحلف والمناصرة.

والهجرة في ذاتها، وفي آثارها، من الحوادث الزمنية المهمة التي لا ينسيها توالي الأجيال، ولا مرور الحقب، فهي ماثلة في القلوب، شاخصة في الأذهان ما دام قلب ينبض بالإيمان، ولسان يلهج بمحمد بن عبد الله.

قد أحيط حادث الهجرة بصنوف كثيرة من الأذى والقهر، والتعذيب والتنكيل، وبذلك أفرغ عليه من لا يفهمون حقيقته، أو يفهمون ويلبسون الحق بالباطل، صورة من صور الفرار والهرب، ولكن الله سبحانه، الذي يعلم لكل حادث نتائجه، سجله في ذكريات القرآن، وجعله نصراً منه لرسوله والمؤمنين، وامتدح به المؤمنين، وجعله نصراً منهم لله ولرسوله، ثم جعل التخلف عنه مع القدرة عليه جريمة تستوجب الغضب وسوء المصير.

فهو يقول في تسجيله والتذكير بآثاره في النصر والتأييد، والحفظ والرعاية:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الآية ٣٠ من سورة الأنفال)

ويقول: **﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ﴾** (الآية ٢٦ من سورة الأنفال).

(*) كانت هذه الكلمة تحية الذكرى في ذلك العام.

ويقول: ﴿ إلاَّ تنصرُوهُ فقدْ نصرَهُ اللَّهُ إذْ أخْرجَهُ الَّذين كفرُوا ثاني اثْنيْنِ إذْ هُما في الْغارِ إذْ يقُولُ لصاحبه لا تحْزنْ إنَّ اللَّه معنا فأنزل اللَّهُ سكينتهُ عليْه وأيَّدهُ بجنُودٍ لَّمْ تروْها وجعل كلمة الَّذين كفرُوا السُّفْلَىٰ وكلمةُ اللَّه هي الْعُلْيا واللَّهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ (الآية ٤٠ من سورة التوبة)

ويقول في امتداح المؤمنين به، والتنويه بمكانتهم عند الله:

﴿ الَّذين أُخْرجُوا من ديارهمْ وأمْوالهمْ يبْتغُون فضْلاً مّن اللَّه ورضْوانًا وينصُرُون اللَّه ورسُولهُ أُولَٰئك هُمُ الصَّادقُون ﴾ (الآية ٨ من سورة الحشر).

﴿ الَّذين آمنُوا وهاجرُوا وجاهدُوا في سبيل اللَّه بأمْوالهمْ وأنفُسهمْ أعْظمُ درجةً عند اللَّه وأُولَٰئك هُمُ الْفائزُون (٢٠) يُبشّرُهُمْ ربُّهُم برحْمةٍ مّنْهُ ورضْوانٍ وجنَّاتٍ لَّهُمْ فيها نعيمٌ مُّقيمٌ (٢١) خالدين فيها أبدًا إنَّ اللَّه عندهُ أجْرٌ عظيمٌ ﴾ (الآيات ٢٠ -٢٢ من سورةالتوبة).

ويقول في شأن المتخلفين عنها مع القدرة عليها:

﴿ إنَّ الَّذين توفَّاهُمُ الْملائكةُ ظالمي أنفُسهمْ قالُوا فيم كُنتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتضْعفين في الأرْض قالُوا ألمْ تكُنْ أرْضُ اللَّه واسعةً فتُهاجرُوا فيها فأُولَٰئك مأْواهُمْ جهنَّمُ وساءتْ مصيرًا ﴾

(الآية ٩٧ من سورة النساء)

هكذا سجل الله حادث الهجرة: سجله عزة وكرامة، سجله نصرًا وتأييدًا، فلم تكن الهجرة هربًا ولا فرارًا وإنما كانت تنفيذًا لخطة مرسومة، ونزولاً على حلف أخذت فيه المواثيق بالدماء والأرواح على الوفاء والصدق، وبذل المهج دون الرسول ودون الإيمان بالله.

وقد كان القوم مؤمنين صادقين في إيمانهم، والمؤمن شجاع بإيمانه قوى بعقيدته، لايهاب الموت ولا يخشى الردى، ولكنه حزم المجاهد المؤمن بفكرته يوجب عليه الثبات إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة، وأن الإيمان الحق متى امتزج بالقلب ملأه محبة صادقة، والمحبة الصادقة تورث الغيرة الصادقة، والغيرة الصادقة تدفع إلى التضحية الغالية، وقد ضحى هؤلاء بالأهل والولد، وبالمال والنفس، وكان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما.

الهجرة إيذان بإقامة دولة الإسلام:

كان حادث الهجرة فيما يدركه البصير بطبيعة الإيمان «قنبلة ذرية» ولكنها لم تروع آمنًا، ولم تهدم عامراً، ولم تذر الناس في حياتهم سكارى وما هم بسكارى، وإنما كانت على الإنسانية بردًا وسلامًا، أخرجتها من ظلمتها، وأنقذتها من وهدتها، وهدتها من حيرتها، ودفعت بها إلى طريق الخير والصلاح.

أنشأ بها المسلمون دولة قوية مؤسسة على الأخوة في الله، والتضامن الإنساني العام، تتابعت عليها التشريعات الإلهية بما يسعد الفرد والجماعة في علاقتهم بربهم، وعلاقة بعضهم ببعض، وأخذت على كاهلها بحكم الله تطهير الأرض من عبادة غير الله، ومحاربة الظلم والظالمين أينما حلوا وكيفما كانوا، أخذت على عاتقها تعليم الجاهلين وإرشاد الضالين، ورد الحائرين، وجبر المنكوبين، وإعانة المعوزين، وإغاثة الملهوفين، فسادت الفضيلة، وذلت الرذيلة، ثم عادوا إلى مكة فاتحين منتصرين، فرموا بقنابل إيمانهم معسكر الشرك والمشركين، وأتوا بنيان أعدائهم من القواعد حتى خر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون.

خرجوا من مكة وليس معهم زاد إلا الإيمان تزدحم آماله في صدورهم، ودخلوها وبيدهم كل أسباب القوة والقهر، ومع هذا وذاك لم تأخذهم نشوة الفاتحين، ولا صلف المنتصرين، ولا جبروت المستعمرين، لا ولم تعرف ثمرة انتقام الموتور سبيلاً إلى قلوبهم التي امتلأت لخلق الله - ولو كانوا أعداء ألداء - رحمة وعطفًا، وحنانًا وكرمًا

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (الآية ٢ من سورة المائدة).

هذا مبدؤهم. وذلك دينهم. فلم ينسوا ما يقتضيه من البر العام بالإنسانية عامة، بل عرفوا فضل الله عليهم ودفعوا بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينهم وبينه عداوة كأنه ولي حميم.

وأشرقت أرض الجزيرة بنور العدل والهداية، ثم امتد إلى أرض الفرس والروم،

وأصبح سلطان الأرض في قبضة الموحدين لسلطان السماء، وبذلك تحقق وعد الله لعباده الموفين بعهدهم، البارين بوعدهم

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

الهجرة تذكر المؤمنين بالآلام والآمال:

هذا هو حادث الهجرة في ذاته وفي نتائجه، فإذا استقبل المسلمون اليوم العام الهجري فجدير بهم أن يذكروا هؤلاء المؤمنين، الذين أوذوا في سبيل الله وتوالت عليهم المحن والبلايا، ولم تكن البلايا علي شدتها لتزيدهم إلا إيماناً وتثبيتًا. جدير بهم أن يذكروا هذه الأخوة الدينية الإنسانية التي سجلها الله في كتابه، والتي جعلت من هذه اللبنات المتفرقة في جوف الصحراء صرحًا شامخًا، وقوة واحدة هزت التيجان، وزلزلت العروش. جدير بهم أن يذكروا فجر الإسلام الوضاء، ورجاله الأمجاد، ونهضته القوية. جدير بهم أن يذكروا كل هذا، ثم يعودوا إلى أنفسهم ليروا أين هم من هؤلاء الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، والذين أبوا لأنفسهم إلا العزة والكرامة؟ جدير بهم إذا أرادوا الحياة الطيبة، وأرادوا أن يكونوا أحفاداً لجند الله، أن يبادروا فيعملوا على جمع القوى، وربط القلوب، وتوحيد الكلمة وتعزيز السلطان. جدير بهم أن تتجاوب قلوبهم بآلامهم المشتركة وقضاياهم المتعددة، وأن يتنبهوا إلى ما يراد بهم من خسف وإذلال، فيضعوا للأمر خطته، ويهيئوا له عدته، حتى يعود إليهم عز الإسلام ومجد العروبة.

وإني أسأل الله العلي القدير أن يكفل آخر هذا الأمر بما كفل به أوله، وأن يجعل من ذكرى الهجرة في هذا العام للمسلمين قوة، وللعرب صولة، يرفع بها شأنهم، ويركز سلطانهم، ويقوي إيمانهم، وينزع الحقد والغل من قلوبهم

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف : الآية ٢٣)

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الحشر : الآية ١٠)

ربنا نسألك بعزتك التي أبطلت بها كيد الكائدين لنبيك ، وطمست بها على أعينهم ، وحلت بها بينهم وبين قلوبهم ، فأخرجته من بيته وقد طوقوه بالحديد والنار ، وحفظته هو وصاحبه في الغار ، نسألك بهذه العزة - ونحن في ذكرى نعمتك على نبيك - أن ترد عنا - معشر الموحدين لك المصدقين برسولك - كيد الطامعين المفرقين ، وأن تنشر علينا من لدنك رحمة ترتبط بها قلوبنا ، وتجتمع كلمتنا على الخير والصلاح ، وأن تهيىء لنا من أمرنا رشداً .

في مطلع العام الهجري

انتفاع الأمم بذكرياتها:

لا تسعد الأمم بذكرياتها تمر صوراً على الأذهان، أو تجري مداداً على القراطيس، أو تنحدر خطبًا على الألسنة، أو تقام لها الحفلات وترفع الأعلام. لا تسعد الأمم في ذكرياتها بشيء من هذا، كما لا تسعد بكثرة مرور الأعوام عليها، وأنها سلخت من قرون التاريخ أربعة عشر قرنًا أو عشرين أو مائة.

وإنما تسعد الأمم من تاريخها بتقليب صفحاته الماضية لتتخذ منها مناراً يهديها إذا كانت ضالة، ويضاعف جهودها في الخير إذا كانت عاملة ناصبة.

وتسعد كذلك بذكرياتها حين تعتمد عليها في حياتها الحاضرة والمستقبلة، التي دفعت بأبطالها السابقين إلى اعتلاء قمة المجد، وبلوغ الأمل في تركيز الدولة، وتعزيز السلطان.

ولهذا كان حتمًا ـ إذا أردنا الانتفاع بذكرى الهجرة ـ أن ننظر إليها كتاريخ قسمنا به مراحل حياتنا إلى أعوام وقرون، والأعوام في حياة الأمم دواوين تسجل فيها سعادتها وشقاءها، وعزها وذلها، وتقدمها وتأخرها، وقوتها وضعفها، هي كتاب ناطق بالحق، هاد إلى الصواب، تعرف منه الأمة ما قامت به من خير فأسعدها، وما وقعت فيه من شر فأشقاها.

وهذا ناموس اجتماعي قرره الله في كتابه، وأرشد خلقه إليه:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (الآيتان ١٣٧، ١٣٨ من سورة آل عمران).

بين الأمس واليوم:

ونحن ـ معشر المسلمين ـ إذا نظرنا إلى تاريخنا كأمة، قرأنا كتابًا أوله مشرق، وحاضره مظلم: أوله أمة قوية فتية، تكونت من لبنات صحراوية متفرقة جمع التوحيد بين قلوبها،

وربطت الأخوة الدينية بين عواطفها، وجعلت قيمة الإنسان في عمله وجهاده، لا في حسبه ونسبه

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الآية ١٣ من سورة الحجرات)

«لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»،

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

(الآية ٢٨ من سورة الكهف)

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(الآية ٥٢ من سورة الأنعام)

ثم تركها الرسول الكريم، والمصلح العظيم، صلوات الله وسلامه عليه، بعد أن حول جهالتها علمًا وحكمة، وشتاتها قوة واجتماعًا، وشكها إيمانًا واطمئنانًا. تركها بين الأمم قوية عزيزة، لها في شئون الحياة رأي، وفي مجال الحياة أعمال وآثار، تعرف للضعيف واجبه، وللفقير حقه، وتجعل ذلك نصب أعينها، وتدعو إليه في كثير من مواطنها

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (الآية ٣٣ من سورة النور)

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الآية ٧ من سورة الحديد)

فسموا في الحياة، وسمت بهم الحياة، وظلت على هذه المبادئ ترقى سلم المجد، وتمضي قدمًا في سبيل العز ما دامت حريصة على مبادئها، قوية الإيمان بفكرتها، فلما بدلت وغيرت، وفرطت وضيعت، وهانت على نفسها، وهانت عليها مبادئها، وأعارت حوادث الدهر آذانًا صماء، وعيونا عشواء، واشتغل أفرادها ورؤساؤها ورجال الفكر والرأي فيها بما لا يجدي من اللهو واللعب وألوان العبث بدل الله عليها، وغير أحوالها، فأخذت تتفكك، وجعلت تنحدر حتى وصلت إلى موضع الأطماع، وتطلعت إليها الذئاب والسباع، وشغلت بنظرات الخوف والحذر.

﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ (الآية ٢٠من سورة القتال)

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (الآية ١١٢ من سورة النحل)

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(الآية ٥٣من سورة الأنفال)

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

(الآيتان ١٧٥ ، ١٧٦ من سورة الأعراف)

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها! قالوا: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن: قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

وقفة في أول العام:

يجدر بنا أن ننظر في مطلع كل عام هجري إلى هذه الصفحات لنعلم أن السبب في نجاح آبائنا، وقوة أسلافنا، يرجع إلى أن قلوبهم قد هاجرت من الرذيلة إلى الفضيلة، ومن الباطل إلى الحق، وأنهم آمنوا بفكرتهم، وصدقوا في دعوتهم، وجاهدوا في سبيلها لله وفي الله، وأن هجرة أبدانهم من مكة إلى المدينة لم تكن فراراً من الاضطهاد، أو ضعفًا في مقاومة الأهوال، ولا التماسًا لمال، ولا طلبًا لسلطان، وإنما كانت تلبية لهذه الهجرة القلبية، وعملاً على إقرار الحق وإزهاق الباطل، متمثلين أمامهم.

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (الآية ٢٤ من سورة التوبة)

ما أحوجنا معاشر المسلمين إلى أن تهجر قلوبنا ما هجرته قلوبهم، وأن نطالع هذه الصفحات، وأن نذكر هذه العبر، ما أحوجنا إلى الإخلاص في الدعوة، والصدق في الكلمة والصبر على المكاره، لنشق طريق السابقين بعزائم قوية، وهمم عالية، وأخلاق كريمة، وإصغاء لصوت الحق.

ما أحوجنا - وأخص أهل القيادة والفكر وأرباب القلم واللسان - إلى أن نكون كما كانوا مثلاً حية أمام الناس في السيرة والدعوة والأخلاق واتحاد الكلمة. ألا إن هذا الأمر لايصلح إلا بما صلح به أوله.

عبرة الذكريات:

أما بعد، فتلك هي الذكريات الإسلامية الأولى، نطالع فيها أسباب العزة والمجد، ونتلقى عنها دروس الحياة القوية الناهضة، ونعرف بها أن سنة الله، في نهضة الأمم واستقرار سلطانها، ترجع أولاً وقبل كل شيء إلى الإيمان المالك للقلوب، وإلى الصبر الذي يذلل الصعاب، وإلى الإخلاص الذي يربط الإنسان بربه، وتهون به لديه وسائل التضحية، بها نعرف أن أسلافنا ما عرفتهم العزة عفواً، ولا هبطت عليهم منحًا، وإنما وصلوا إليها بالجد والعمل والمثابرة، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر!

فعلينا أن نفقه هذه الذكريات واحدة فواحدة، وأن نعرف فيها مواطن العظة والاعتبار، ونتخذ منها مصابيح الهداية والإرشاد، فتسمو حياتنا، وتنظر إلينا أرواح الأولين، وهي في عليين، نظرة الفرح والابتهاج بمحافظتنا على مقدساتهم وسيرنا في سبيلهم بما آتاهم الله من فضله.

﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآيتان ١٧٠، ١٧١ من سورة آل عمران)

وفق الله المسلمين وهداهم إلى الصراط المستقيم.

في الجماعة والحكم



شخصية الجماعة وشعارها في الإسلام

الوحدة في الإسلام :

شخصية الجماعة في الإسلام شخصية متميزة ، شعارها الوحدة الكاملة ، وأول مايطالعنا من الإرشادات الإسلامية التي كانت أساسًا للوحدة ، والتي اتخذ منها الشعار العام للشخصية الإسلامية المتحدة ، ما حكاه الله عن جدي العروبة والإسلام ، إبراهيم وولده إسماعيل ، وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾

دعوا لأنفسهما بالإسلام لله ، والإخلاص له، والنزول على حكمه وتشريعه ، والاعتصام بدعوته ، دون أن يكون لسلطان الدنيا ومشتهيات النفس ، ومقتضيات العصبية سلطان على قلبيهما ، ثم لم يقفا في تلك الدعوة عند شخصيهما ، بل امتدت محبتهما للخير إلى غيرهما من الأبناء والذرية ومن يتناسل منهم إلى يوم الدين ، فدعوا بما دعوا به لأنفسهما .

ومن ذلك كان الشعار الأول ، الذي طلبه جدّا العروبة للأبناء والذرية ، والذي يجب أن يسيروا على طلبه أيضًا لأبنائهم وذريتهم ، هو أن يكونوا «أمة مسلمة لله» يدفعهم إلى العمل الإيمان بالله ، وتزكيهم الرحمة بخلق الله ، ويتوج حياتهم العملية التعاون والوحدة في سبيل الله . وبذلك كانت الوحدة في الإيمان والعمل أساسًا وشعارًا للجماعة في نظر الإسلام منذ أن وضعت اللبنة الأولى في بنائه ، على عهد مؤسسيه جدّيْ العروبة ، إبراهيم وولده إسماعيل .

وكانت العروبة والإسلامية قوتين متعاونتين في حكم الله ، تشد إحداهما أزر الأخرى، وتهيئان النفوس المستعدة للخير وغرس بذور الإصلاح في أرض البشرية إلى اقتحام ما يكيد به أرباب الشر والفساد ، ويضعونه عقبات في طريق النمو الإنساني الفاضل .

الجانب الإيجابي للوحدة :

وحينما تكامل للبشرية نموها ، وعظم استعدادها ، وافاها الإسلام دينًا عامًا خالدًا بكتاب عربي مبين ، ورسول عربي كريم ، وأفرغ بآياته الحكيمة وشرائعه البينة الواضحة على أتباعه المؤمنين به ، المستظلين بظله ، صبغة الوحدة والجماعة ، منحيًا عنها عصبيات الجنسية والإقليمية التي درج العرف البشري على اتخاذها أساسًا للجماعات ، وسما بالإنسانية عن هذه الاعتبارات التي كثيرًا ما تدفع بأصحابها إلى التفرق والخصام ، وتغري بينهم العداوة والبغضاء فتفصم عرى الإنسانية الفاضلة ، وتقضي على روح التعاون والتراحم ، وتطمس معالم السعادة والهناء . سما بها عن هذه الاعتبارات إلى المبدأ الأسمى الذي تفنى به الشخصيات والعصبيات ، ويوجه الناس إلى الأخذ بيد الإنسانية الفاضلة ، وكان شعاره الموحد لأبنائه الوحدة في التوجيه إلى الله والإخلاص له ، وتلقي دعوته ، فأفرغ عليهم وحدة العقيدة ووحدة العبادة ووحدة السلوك ووحدة الأهداف ووحدة الرحم . وأخذ يناديهم في ذلك كله بنداءات إلهية كريمة تحرك في نفوسهم كل معاني الوحدة وبواعثها ، مترابطة متعانقة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (أول سور النساء)

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الآية ٣٥ من سورة الأعراف)

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ (الآية ٢٧ من سورة الأعراف)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (الآية ١٠٢ من سورة آل عمران)

بذلك يكشف لهم الغطاء عن المعتصم الذي يتمسكون به ولا يحيدون عنه ، وهو تقوى الله والاتجاه إليه ، والاستعانة به في تنفيذ أوامره ، والعمل بما وضعه من سنن في سبيل إسعاد البشرية ورقيها .

الجانب السلبي للوحدة :

وفي الوقت الذي يناديهم بهذا الجانب الإيجابي الذي يبني الوحدة ويقويها يناديهم مرة ومرة ، محذرًا إياهم من الجانب المقابل الذي تفصم فيه عرى الوحدة ، ويذهبون فيه شيعًا وأحزابًا ، يضرب بعضها رقاب بعض :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ (الآية ١٠٠ من سورة آل عمران)

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (الآية ١١٨ من سورة آل عمران)

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ** ﴾ (أول سورة الممتحنة)

﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ** ﴾

(الآية ٥٢ من سورة المائدة)

وما مني الإسلام وأصيب جماعته بالنكبات المتكررة في عصوره المختلفة إلا بإهمال هذا الجانب السلبي ، والانحياز إلى الأعداء والاغترار بزخرفهم ، والطمع فيما عندهم من مال ضائع ، وجاه مكذوب ، وسلطان مزيف ، وعن هذا الطريق تفرق المسلمون وضعفت شوكتهم ، وطمع فيهم أعداؤهم ، واستغلوهم ، واستنزفوا مواردهم ، وصاروا بهذا الوضع السيىء أشلاء مبعثرة في أنحاء القرى ، لا يجمعهم رباط ، ولا يضمهم هدف ولا غاية .

الاعتصام بحبل الله :

وفيما بين الإرشاد إلى الوقاية الإيجابية ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ والإرشاد إلى الوقاية السلبية ﴿ **لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ** ﴾ ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ .

يرشدهم الإسلام إلى التمسك بأنفسهم ، والمحافظة على شخصيتهم التي تكونها الوحدة والجماعة ويضع أصولها كتابها ، ويبين أحكامها رسولهم .

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾

وهذا هو الأساس الذي بني عليه صرح رسالة السماء والذي تمثل من القدم في دعوة جدي العروبة والإسلام .

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾

والتي وصى بها إبراهيم بنيه ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

وحبل الله هو كتابه المنزل من السماء ، يحفظ عباده أنفسهم بالتمسك به من التدهور والسقوط في هوة الشر والفساد ، التي تمنعهم من إقامة الحق والقيام بتنظيم الخلافة الأرضية التي أسندت إليهم منذ القدم . وبذلك كان الاعتصام بحبل الله له مقتضيات لايتحقق دونها ، ولا يقع عند الله موضع القبول إلا إذا تحققت، وقام المعتصمون بتبعاتها على الوجه الذي رسمه الله في كتابه طريقًا لكمال الإنسانية ورقيها .

تنحية العصبيات :

فهو يقضي بتنحية الشهوات والأهواء التي تثيرها بينهم العصبيات القبلية والجنسية والمذهبية . تلكم العصبيات التي دفعت وتدفع بهم إلى جمر التفرق عن سبيل الله الواضحة ، وتجعلهم فلولاً يستعين ببعضها العدو المشترك -عدو الله ونظامه- على باقيهم، ويقضي عليهم جميعًا بيدهم جميعًا .

وهو يقضي ثانيًا بالنظر السريع في تنقية العقائد والعبادات وسائر المشروعات الإلهية مما يشوبها ويكدر صفوها من صور الشرك والابتداع ، الذي هيأ لخصوم الإسلام أن يقولوا : إن الإسلام ليس دينًا واحدًا وإنما هو أديان متعددة تختلف باختلاف الأقاليم والمذاهب (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا)، فالإسلام وحدة في العقيدة والعمل والحكم تعرف عناصرها من كتابه البين الواضح ، وما هذه المظاهر المختلفة التي نراها في الجماعات الإسلامية ، والتي فرقت شملنا إلا أثر من آثار الانحراف البشري في فهم

المصادر بما توحيه العصبيات الكريهة ، وما يغذيها من وافدات الأعداء ، وما ينبغي أن تكون حالة المرضى ، الذين انحرف المرض بطبيعتهم ، مصدراً سليمًا لمعرفة الطبائع في وضعها القوي السليم ، وإذن فعلينا - ونخص جماعة المهيمنين على أحكام الدين والشريعة ، الذين خصهم الوجود بالمحافظة عليه ، والذين تشرئب إليهم الأعناق في تخليص ما كدر ذلك الصفو من العكورات التي غطت صفاءه عن الناس - علينا أن نعالج أنفسنا من هذه العلة حتى يعود إلى ديننا النقاء وإلينا الشفاء ، وعندئذ تكون أحوالنا وشئوننا ، وما يجري على ألسنتنا ، وما تكتبه أقلامنا ، مصدراً حقًا لقدسية الإسلام ، كما هو واضح في كتابه :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾

منظمتان : اقتصادية وحربية :

والاعتصام بحبل الله يقضي بعد هذا وذاك بالنظر السريع الجاد في تنسيق شئون الاقتصاد في الجماعات الإسلامية ، ويكون ذلك عن طريق منظمة إسلامية اقتصادية ، مهمتها تنظيم التبادل المالي ، وسد حاجات الجماعة بعضها من بعض ، وبذلك لا يكون للمستعمر أمل في اتخاذ هذا الجانب سبيلاً لاستنزاف ثروة البلاد الإسلامية وتثبيت أقدامه فيها ، ثم الحيلولة بيننا وبين الحصول على ما يحفظ كياننا ، ويرفع مستوانا .

والاعتصام يقضي كذلك - صونًا لهذه المبادئ - بالنظر القوي في تكوين قوة حربية عليا ، ذات تعليم واحد ، وقيادة واحدة ، على أحدث ما يعرفه أهل الحرب ، لا لتخرب وتدمر ، ولا لتستعبد وتستعمر ، ولا لتسلب الناس أوطانهم وأموالهم وأمنهم ، وإنما لتدفع شر الاعتداء ، وتخلص الرقاب المسالمة من أيدي المعتدين الظالمين ، وتخلي الطريق أمام دعوة الخير الذي يريده الله لعباده . ولا ريب أن قيام تلك القوة المحوطة بقلوب المؤمنين من أقوى وسائل السلم الذي أمر الله به :

﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ .

أمل تحقق والحمد لله :

وبعد : فهذه مثل من تشريعات الله وإرشاداته ، بها ترسم الخطوط الأولى لوحدة الجماعة في نظر الإسلام ، وقد حال بيننا وبينها المستعمرون الغاشمون حينًا من الدهر ، تقلب فيه المسلمون على أوضاع مختلفة ، تأباها عزة الإسلام وكرامته ، ولكن الضمائر الحية - ولا يخلو عباد الله منها - ظلت تلتهب بحرارة الشوق إليها ، وتعمل على إعلانها والعمل على إظهارها حقيقة واقعة جيلاً بعد جيل ، وعصرًا بعد عصر ، وظل ذلك أملاً تتطلع إليه النفوس المؤمنة حتى ظهرت اليوم تباشيره بتوفيق الله وهديه على يد اصطفاها الله لإظهار أمره ، واختارها لإحياء دينه ، بإعلان «جمهورية مصر العربية» وسيتسع بإذن الله - وبفض إيمان فتى العروبة والإسلام - نطاقها حتى تستظل جميع الشعوب الإسلامية بظلها ، وهنا تتم النعمة ، ويعود الشعار إلى أصله : أمة واحدة ، ورب واحد ، وقيادة واحدة :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

في عيد الدستور

قيمة الدستور:

يستقبل المصريون بعيد الدستور يومًا من أعز أيامهم ، يستقبلون يومًا تتجمع فيه لديهم وفي قلوبهم معان عيدية قومية ، يذكرون بها اليوم الذي وضعوا فيه دستورهم ، ورسموا به طريق حياتهم ، ورأوا أن فيه القوة التي توجههم إلى خير النظم التي يحفظون بها شخصيتهم ، ويعصمونها من التدهور والانحلال ، والتفرق والذوبان . وإن أمثل الدساتير التي تحفظ للأمم كيانها ، وتشق لها طريق الحياة الجادة النافعة ، هو ما كان وليد التجارب الماضية ، التي تقلبت فيها الأمة بين اضطرابات متلاحقة تنبع من داخلها ، وعواصف حادة تلحقها من خارجها ، وتفد إليها من أعدائها الطامعين فيها ، المستغلين لها، الواقفين لها بالمرصاد ، يتحينون فرصة البغي عليها ، فيرمونها من كل جانب دحورًا .

عهد مضى:

وقد أتت على مصر عهود أصيبت فيها بنكسة في حياتها ، وشغل القائمون بأمرها عن متابعة السير في طريق الصون والكمال ، وناموا عن العمل في تنمية شخصيتها حتى وقفت وجمدت، ثم أخذت في الانتفاض الذي يتبعه الضعف والخور ، وبذلك صار أمرها إلى غير أهلها ، يتصرفون فيها كما يريدون ويسلبون من خيراتها ما يشتهون ، ويستخدمون أبناءها في الكيد لها وهم لا يشعرون ، فانحلت عرى الوحدة ، وتعددت المشارب ، وتباينت الأهداف ، وامتدت الفوضى إلى العناصر الأولى في مقدمات الأمم ، فانكمشت القوة ، وساءت الإدارة ، وتعطلت قوى العمل والإنتاج ، واستولى الأعداء على منابع الثروة ، وقبضوا على زمام التوجيه ، وكادت السفينة بين هذه الأمواج المتضاربة المتعاكسة تغوص بأهليها إلى قاع البحر .

حبل الإنقاذ :

ولما استحكمت الحلقات ، واستفحل الخطب ، مد الله إليها حبل الإنقاذ ، وملأ بعض القلوب المستعدة لمعرفة الخير والإيمان به ، والعمل عليه قوة وعزيمة ، فملكوا ناصية الأمر ، وقعدوا من البلد مقعد الربان الماهر ، الحريص على سفينته وأخذوا يسيرون بها خطوة بعد خطوة ، وحركة بعد حركة ، متمثلين الماضي المظلم ، والمستقبل المضيء ، يبعدون عن خطوطهم كل ما يشبه مظاهر الماضي ، ويقربون منها كل ما تبدو عليه مسحة تناسب الأمل الذي يقصدون ، حتى إذا ما استقام لهم الأمر ، وخلصوا من رواسب ذلك الماضي ، وانقطع عنهم غباره ، وانكشف لهم الطريق ، وسطعت عليهم شمس الحياة الاستقلالية أخذوا في ضوئها يركزون النظم التي عليها يسيرون ، والتي بها شخصية بلادهم يحفظون، وعندئذ كان «الدستور» الذي نحتفل اليوم بعيده .

الاحترام الحقيقي للدساتير :

ليست الدساتير المكتوبة في الصحف هي حفاظ الأمم ، فهي بذاتها حروف في مداد ، لاتنطق ولا تعمل ، ولم تودع فيها الأسرار الإلهية التي تدفع الناس إلى العمل بها دفعًا ، وإنما حفاظ الأمم ، وقوة حياتها ونمائها ، وهو ما أودع في نفوس أبنائها من احترام لهذه الدساتير . واحترام الدساتير لا يرجع إلى مجرد إعلان الفرح بعيد ميلادها ، ولا بذكر ماتضمنته من توجيه وإرشاد ، وإنما يرجع احترامها إلى الإيمان بها ، والعمل على تنفيذها ، والسير على مقتضاها : يحاسب الفرد نفسه فيما يخصه منها ، وتحاسب الأسرة نفسها فيما يخصها منها ، وتحاسب الهيئة الحاكمة نفسها فيما يتصل بها منها ، وتحاسب الهيئات العامة نفسها بما يحقق استظلالها بظل هذا الدستور ، وبهذا تتحقق شخصية الأمة التي رسم حدودها الدستور ، وتبرز بين الأمم أمة ذات دستور عملي يرفع على رأسها علمًا من المجد والفخار .

بهذا وحده يكون احترام الدستور ، وبهذا وحده يحق للأمة أن تقيم في كل عام ، بل في كل لحظة من لحظات حياتها ، عيدًا لدستورها ، كلما أنشأت قوة دفاعية ذكرت دستورها وكان عيدًا ، وكلما أنشأت مصنعًا ذكرت دستورها وكان عيدًا ، وكلما تضاعف إنتاجها وعظمت ثروتها ، واستغنت بها عن مد يدها إلى غيرها ، ذكرت دستورها وكان عيدًا ، وكلما نشأت أبناءها على الخلق الفاضل ، والوعي الوطني ، ذكرت دستورها وكان

عيداً، وكلما اتسعت معارفها وكثرت معاهدها ، واتصل علماؤها بباطن الأرض ، فاستخرجوا كنوزها ، وانتفعوا بخباياها ، ذكرت دستورها وكان عيداً ، وكلما عرفت دينها ، وترسمت أوامره وإرشاداته ، فطهرت قلوبها ، وصفت أرواحها وخلصت للخير والصلاح ، ذكرت دستورها وكان عيداً ، وكلما صاحت على البغي والعدوان ، والتفت الناس لصيحتها ، ولبوا نداءها وتجمعوا على أرضها يضعون قواعد السلم والأمان ، والاستقرار والاطمئنان ذكرت دستورها وكان عيداً ، وهكذا كلما وضعت لبنة من لبنات الإصلاح ، وأزالت عقبة من عقبات الشر ، ذكرت دستورها وكان عيداً .

وعلى هذا الأساس الطبيعي في احترام الدستور ، لم تقف الحكمة الإلهية عند مجرد إنزال القرآن وحفظه بين دفتي المصحف الذي تضمن أصول الحياة العامة ، وعناصر الخلود والتطهير لحياة المادة والروح ، بل رسم تلك الأصول في النفس والمال والعرض وسائر مقومات الحياة ، فردية كانت أم اجتماعية ، أسرية كانت أم وطنية أم إنسانية ، ثم دعا إلى العمل بها والتزام سبيلها :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الآية ١٥٣ من سورة الأنعام)

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾

(الآيتان ١١٢ ، ١١٣ من سورة هود)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
(الآية ٢٠٣ من سورة الأعراف)

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (الآية ١٥ من سورة الشورى)

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

(الآية ١٧٠ من سورة الأعراف)

وبهذا ساد المسلمون الأولون ، وصارت لهم الكلمة ، وعلى غيرهم السمع والطاعة ، وحينما ترك المسلمون جانب العمل ، ولم يعرفوا قرآنهم إلا تبركًا أو تلاوة ، تداعيت بهم أركان الحياة ، وخر عليهم السقف من فوقهم ، فتفرقوا وتناحروا ، وذهب كل منهم إلى جانب ، وكتاب الله بينهم جميعًا قائم ، يدعوهم إلى الوحدة وإلى العمل ، وظلوا في جوانبهم المتفرقة ، وظل دستورهم بين يدي ربه يجأر بالشكوى من إهمالهم إياه وعدم حفاوتهم به ، فالعمل العمل أيها المصريون ، والعمل العمل أيها المسلمون ، ثوبوا إلى رشدكم ، ونفذوا دستوركم ، واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، يصلح لكم أعمالكم ، ويسعد بكم حياتكم .

النظرية السياسية في الإسلام

مفهوم النظرية :

يقصد بالنظريات المبادئ العامة التي يستند إليها نظام معين .

والنظرية : اصطلاح علمي يطلقه العلماء على فكرة من الفكر نتيجة بحث فكري أو ملاحظة تجريبية .

وقد عرفت النظرية في جميع فروع العلم التجريبي والنظري ، وكثيراً ما تربط باسم صاحبها ، فمثلاً تجد نظرية «أرشميدس» في الطبيعة لتقرير الضغط على الأجسام الطافية على الماء ، كما تجد نظرية «فرويد» في علم النفس لتقرير أثر الغرائز والوراثة في الإنسان ، كما تجد نظرية «روسو» في التعاقد الاجتماعي ، ونظرية «منتسيكو» في فصل السلطات في العلوم السياسية والدستورية ، وهكذا . في كل علم من العلوم نجد نظرية إنسانية لعالم من العلماء له مقررات خاصة في الموضوع الذي يبحثه .

مبادئ الإسلام ليست نظريات بشرية :

أما الإسلام وهو دين سماوي عام جاء لتقرير صوالح البشرية في كل نواحي الحياة بمقررات ربانية عامة ، وقواعد كلية تقوم عليها جميع التنظيمات الحيوية ، فإنه لذلك لايمكن أن توجد في مبادئه العامة (نظرية بشرية) ، لأن القواعد الكلية في الإسلام ، في العبادات والمعاملات ، في شئون السلم والحرب ، في الأمور السياسية والدستورية ، من وضع الخالق سبحانه وتعالى ، وإنما يأتي دور العلماء في فهم النصوص والقواعد الكلية ، واستنباط أحكام الفروع والأحكام الجزئية للأمور الطارئة ، أي أن العلماء شراح للقواعد الكلية ، ومقننون في الفروع على هدى هذه القواعد .

مصادر المبادئ السياسية للإسلام:

والمبادئ السياسية في الإسلام هي المبادئ التي تتحدث عنها أصوله، ويمكن التعرف عليها في القرآن وصحيح السنة، والاسترشاد في ذلك بالتطبيق العملي للرسول - عليه الصلاة والسلام - والخلفاء الراشدين من بعده.

على أنه يجب ألا نخلط بين هذه المبادئ المستندة إلى الأصول الأولية الإسلامية وبين المبادئ السياسية التي عبرت عن الحكم الواقعي ونظمه بعد تفرق المسلمين، والتي تضمنتها كتب المسلمين السياسية التي كتبت بعد التفرق مثل كتب «الأحكام السلطانية» للماوردي، وأبي يعلى وابن جماعة «وكتب السياسة» للكندي وابن الطيب والفارابي، وابن أبي الربيع والطرطوشي وأبي المكارم بن الخطير وغيرهم، في أكثر من ثلاثين مرجعًا أو كتابًا كتبها العلماء المسلمون في عصور شتى عن نظم الحكم الواقعي عند المسلمين، على الرغم من أنها في كثير من مقرراتها تستند إلى الأصول الإسلامية العامة، ومع هذا نجد الفرق واضحًا بينها وبين النظام المثالي الذي تقرره مبادئ الإسلام العامة التي هي موضوع حديثنا هذا.

الدين والدولة:

منذ تعددت مطالب الإنسان في الحياة وهو في كفاح مع أخيه الإنسان، ومن هنا قامت وتعددت المعارك، وتعددت التشريعات البشرية للحد من أخطارها، وتنظيم حياة بني الإنسان، ومع ذلك لم تكف البشرية عن خوض غمار الحروب عصراً بعد عصر، ومن هنا أيضًا كانت حاجة البشرية إلى هداية ربانية، تحدد لها ما هو خير وما هو شر، وتعين الحقوق والواجبات للفرد والجماعة، فكان الرسل، وكانت الأديان السماوية. فالدين إذن مجموعة من المبادئ العامة لتنظيم السلوك البشري العام في الحياة الدنيا، أملاً في السعادة فيها وفي الحياة الآخرة، وهداية الإنسان إلى الخير والجمال، وتحقيق السلام والرخاء للجنس البشري كله.

والإسلام بصفة خاصة تظهر فيه هذه الخصائص بوضوح تام، فهو يهدف إلى تحقيق الصالح العام للإنسانية كلها، من أسلم ومن لم يسلم، ومقرراته في العبادات والمعاملات، في الاجتماع والاقتصاد، في الحكم والسياسة، في السلم والحرب،

يقررها على أنها دين واجب الاتباع لا اختيار للفرد في تركه أو فعله ، ومن ثم كان عنصر الإلزام في المقررات الإسلامية السياسية والاجتماعية والاقتصادية أقوى منه في المقررات الوضعية ، لأن الأولى مقررات ربانية مقطوع بصدق توخيها للصالح العام أكثر من غيرها ، والفرد يلتزم أداءها راضيًا مطمئن القلب ، لأنه يراها دينًا واجب الاتباع يجب أن يؤدى كما أراده الله سبحانه وتعالى ، ويصعب أن تفرق في الإسلام بين ما يمكن أن يسمى دينًا فقط أو سياسة فقط ، فكل ما يتعلق بالعقيدة والعبادة دين ، ويمكن أن يسمى سياسة الإسلام في إصلاح العقيدة والعبادة ، وكل ما يتعلق بالخلق والتربية دين ، ويمكن أن يسمى سياسة الإسلام في التربية والخلق ، وكل ما يتعلق بالمعاملات العامة دين ، ويمكن أن يسمى سياسة الإسلام الاقتصادية والاجتماعية ، وكل ما يتعلق بالحكم وتدبير مصالح المسلمين في دنياهم دين أيضًا ، ويمكن أن يسمى نظام الإسلام في الحكم وإدارة الدولة . وهكذا يرتبط الدين بالدولة ارتباطًا كبيرًا في الإسلام ، ارتباط القاعدة بالبناء ، فالدين أساس الدولة وموجهها ، ولا يمكن تصور دولة إسلامية بلا دين ، كما لا يمكن تصور الدين الإسلامي فارغًا من توجيه المجتمع وسياسة الدولة ، لأنه حينئذ لا يكون إسلامًا .

الدولة في الإسلام :

الإسلام لا يعنى بالبحوث الفرضية والخيالية التي قامت حول الدولة ، وإنما يقرر أحكامها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفق ما يعلمه الخالق سبحانه من مصالح الناس وما ينفعهم وما يضرهم .

ومعنى هذا أن الإسلام يقيم تنظيمه لجميع أمور البشر على أساس إشعار الناس بشدة ارتباطهم بخالقهم ، وتعريفهم بالخير في العبادة والمعاملة ، وتوجيههم إليه ، وصرفهم عن الشر في كل معانيه ، وبعبارة أخرى أن الإسلام يقيم جميع النظم البشرية العامة على أساس أخلاقي ، يلحظه العلماء دائمًا في جميع مقررات الإسلام في كل نواحي الحياة الإنسانية ، ومن ثم كانت الدولة في نظر الإسلام دولة أخلاقية لها دستورها المكتوب (القرآن) الدائم الخالد ، ولها حدودها (بلاد المسلمين أو دار الإسلام) ، ولها جيشها من كل مؤمن قادر على حمل السلاح ، ولها سياستها الخارجية المرسومة القائمة على السلام :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(الآية ١٢٥ من سورة النحل)

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (الآية ٧٨ من سورة الحج)

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (الآية ٦١ من سورة الأنفال)

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾

(الآية ١٩٤ من سورة البقرة)

ولها قانونها الخاص الذي يرتب الأجزية على الجرائم المحلية ، وقانونها الدولي الذي يرسم لها كيف تعامل الدول في السلم والحرب . . . . إلخ .

فأنت ترى الدين يحدد ويرسم كل شيء في الدولة ، ويوجه للعمل كل شيء في الدولة ، ويضع الموازين للأعمال وتقدير العاملين المخلصين :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الآية ١٣ من سورة الحجرات) .

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» . وهكذا لا تستطيع فصل الدين عن الدولة في الإسلام إلا إذا استطعت أن تفصل الروح عن جسم الإنسان الحي مع بقائه حيًا .

ولما كان الإسلام سهل المبادئ ميسرًا لكل عقل وفهم ، حيث لا غموض في تعاليمه ، ولا أسرار يختص بها بعض الناس دون بعض ، ولما كانت التكاليف عامة ، الفردية والجماعية ، معروفة لدى جميع المسلمين مفهومة عندهم يعرفون حقوقهم على الدولة ، وحقوق الدولة عليهم ، كان من السهل قيام هذه الدولة الخيرة المثالية في أمان من تحكم فئة خاصة في الدولة باسم الدين وما يعرفونه من أسراره الخافية عن العامة ، إذ لا غموض في الدين ولا أسرار ، ولهذا لا يمكن التحكم عن طريقه بغير حق .

الفرد والمجتمع :

أما كيف يقيم الإسلام دولته ؟ فاعلم أن الإسلام جاء والأوضاع البشرية يغشاها الفساد من كل ناحية : فساد في عقيدة الناس في رب الناس ، وفساد في علاقات الناس بالناس ،

هذه العلاقات تتحكم فيها العصبية الجنسية أو الإقليمية تحكمًا لا يتصل بصالح الإنسانية العام ، بل يحطم الروح الإنساني والسلام العام ، ويجعل المجتمع أشبه بمجتمع من الحيوانات المفترسة ، فأصلح العقيدة بتقرير وحدة الخالق وتصرفه وحده في كل ما خلق ، وأصلح هذا الفساد الاجتماعي بإلغاء العصبيات والفروق بين الناس ، ودعا إلى المحبة والرحمة والتعاون في الخير وتحقيق السلام ابتغاء الخير والعدل المطلق لبني الإنسانية جميعًا .

إصلاح الأفراد أساس لإصلاح المجتمع :

ولضمان سلامة الإصلاح اتجه إلى بناء مجتمع سليم من كل الآفات ، حتى يمكن أن تقوم فيه هذه الدولة المثالية . وهل يمكن بقاء مجتمع صالح دون إعداد اللبنات التي يبنى منها هذا المجتمع ؟ هذه اللبنات هي الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع ، فليتجه الإصلاح أولاً إلى الفرد . فالفرد الصالح هو أساس المجتمع الصالح . وللفرد في حياته شخصيتان : شخصية مستقلة يسأل بها عن نفسه في جسمه وعقله وروحه وماله وعمله ، وإليها تتجه التكاليف الفردية ، وشخصية عامة يكون بها لبنة في بناء المجتمع ، بها يسأل عن صلاح مجتمعه ، ومدى ما يقدم له من خدمات ، وعما يحققه له المجتمع من سعادة ، وإليها تتجه التكاليف الجماعية . وبقدر نصيب الفرد من إدراك الحقائق والشعور بالمسئولية ، وقوة الخلق والإرادة ، وسمو الروح وشرف الغاية ، يكون نصيب المجتمع من الصلاح والقوة والسعادة ، وبالعكس ؛ فسعادة الفرد سعادة للمجتمع وصلاح المجتمع من صلاح الفرد ، وشقاؤه من شقائه ، وفساده من فساده ، فهما متفاعلان ، ومن هنا كانت العناية بتربية الفرد تربية قويمة يقوم عليها المجتمع الفاضل على أساس من تعاليم الإسلام التي نوضحها فيما يلي :

القرآن دستور المسلمين :

١ - القرآن دستور عام خالد لا يتغير ، وهو هداية من الله إلى أكمل منهج يحقق مصالح البشر في الدنيا والآخرة :

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (الآية ٩ من سورة الإسراء) .

إلى المنهج الكامل لعبادة الله ، والمنهج الكامل لضمان الصالح العام للإنسانية .

إلغاء الشرك والفوارق :

٢ - يدعو القرآن إلى تحرير العقل من قيود الجمود الموروثة ، حتى إذا تحرر العقل اقتنع بوحدة الإله الخالق ، المالك لكل ما خلق من أرض وناس ، وبهذا ألغى الشرك ، إصلاحًا للعقيدة ، وألغى الفروق بين الناس إصلاحًا للمجتمع فليس من العقل عبادة غير الله مما خلق ، وليس من العقل كذلك التفرقة بين الناس الأحرار ، المتساوين في الخلق والعبودية للخالق ، فالله خالقهم وهو سيدهم لا سواه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الآية ١٣ من سورة الحجرات)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (أول سورة النساء)

«الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»

ومقياس الفضل والكرامة هو العمل ، فأفضل الناس ألزمهم للدين وأنفعهم للناس ، وأشقى الناس من شقي به الناس .

وعن هذا الطريق - توحيد الله - تتقرر الحرية المطلقة للناس ، وتقوم بينهم الأخوة ، وتتحقق المساواة التامة .

روابط قوية تجمع الأمة :

٣ - يقوم المجتمع على مبادئ الإسلام ، ويرتبط أفراده ارتباطًا قويًا باعترافهم بالسيادة المطلقة لله رب العالمين ، وبالأخوة الإنسانية العامة لأنهم بنو أب واحد وأم واحدة ، وبالأخوة في الإيمان وبوحدة الهدف في نشر الإسلام ، وبوحدة التكاليف ، إذ لا اختيار ولا امتياز لأحد في التكاليف ، ويستوي في ذلك الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو الخليفة وأصغر المسلمين شأنًا ، ثم يرتبطون بمسئولية عامة عن سلامة الدين وسلامة الفرد والجماعة .

تضامن الأمة الإسلامية :

٤ - هذا المجتمع يقوم في أرض الله ، وأفراده (الأمة) مخاطبون رأسًا بتكاليف الله

سلبًا وإيجابًا «يا أيها الناس» ، «يا أيها الذين آمنوا» ، «أقيموا الصلاة» ، «افعلوا الخير» ، «واعبدوا الله ولا تشركوا».

وخطاب الله للأمة شمل التكاليف الفردية والجماعية ، فدل هذا على مسئولية الأمة عن كل شئونها ، وإذا كانت كذلك وجب أن تكون في يدها جميع سلطاتها ، فقد استخلفها الله في أرضه لعمارتها ، وإقامة أحكامه بها

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾

هذه الأمة المتكافلة في المسئولية هي الأمة الإسلامية ، سواء عاشت كلها تحت لواء واحد وحكم واحد في الأرض التي يعيش فيها شعوبها ، ولا يسيطر عليها غير أبنائها ، ولا تخضع سيادتها لسيادة غيرها ، كما كان الحال في عصور الخلافة الإسلامية ، أو عاشت شعوبها مستقلة كل شعب في أرضه يحكمه حاكم خاص غير حكام بقية الشعوب ، وتتميز بكل مميزات الدولة الإسلامية كما هو الحال اليوم ، لأن هذا الاستقلال يجب ألا يخرجها عن كونها حلقة قوية في سلسلة الدولة الإسلامية الكبرى

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

الأمة تختار من ينوب عنها :

٥ - الدولة الإسلامية أيًا كانت لها شخصية معنوية هي مناط التكليف والمسئولية ، ولها سيادة عامة على بنيها وأرضها وكل إمكانياتها ، لا تخضع في شيء من ذلك لسيادة دولة أخرى ، إذ هي نائبة عن الله في مباشرة مقتضى عزته وسيادته في أرضه التي استخلفها فيها ، فقد رد إليها العزة والسيادة بعد الله والرسول .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ٨ من سورة المنافقون)

﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (الآية ١٤١ من سورة النساء)

ومـن حـق هـذه الأمة المكلفـة أن تختار من يباشر سلطتها نيابة عنها - فردًا أو جماعة - ما دامت لا تستطيع مجتمعة مباشرة تكاليفها ، اختياراً يقوم على الرضا وتوخي المصلحة العامة دون قهر ولا خديعة ، ومن تختاره الأمة لقيادتها يخضع لرقابتها ، وليس له عليها سيادة ؛ لأنه وكيل يخضع لما يخضع له الوكيل في سائر العقود ، من رقابة الأصل الذي يحدد له كل تصرفاته ، فهناك تعاقد بين الأمة وحاكمها (الخليفة) يتمثل في البيعة على كتاب الله وسنة رسوله وصالح المؤمنين ، وتعهده هو بالتزام ذلك ، فإذا أخل بالعقد انخلع من الحكم أو خلعته الأمة ولو بالقوة.

حقوق متبادلة بين الفرد والدولة :

٦ - لكل مسلم حق الإشراف على شئون المجتمع ومراقبة حكام الدولة ، لأنه مسئول بوصفه الفردي عن صالحه وصالح إخوانه وصالح الجماعة ، ومطالب بوصفه الجماعي بالعمل على سلامة بناء المجتمع الذي يتألف منه ومن أمثاله ، والمحافظة على قوته وكرامته

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (الآية ١١٣ من سورة هود)

وفي الوقت نفسه يلزم الإسلام الدولة بالعمل على إسعاد الفرد الذي يعتبر مقومًا من مقوماتها ، فعلى الدولة أن تساعده بكل ما تستطيع من قوة على القيام بتكاليفه ، فتضمن له حياة حرة كريمة ، وتحفظ حياته وماله وحريته ، وتمكنه من كل الوسائل التي تساعده على أداء واجباته العامة ، فإن منعته الدولة حقوقه وحرمته حريته بلا مبرر شرعي فلا طاعة لها عليه .

الحكم في الإسلام

السيادة والحكم لله والأمة مستخلفة :

يقرر القرآن الكريم صراحة أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق للكون وما فيه من كائنات ، فهو رب الناس ، رب العالمين ، وأنه مالك الملك يؤتيه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء ، فهو السيد المطلق وحده ، والناس كلهم عبيده ، وهم سواء في درجة العبودية لله ، كما أنهم سواء في نسبتهم إلى الخالق المالك ، لا يتفاضلون إلا بمبلغ إيمانهم بالله ، واستمساكهم بشرعه ، ومدى ما يقدمونه من خدمات لصالح المؤمنين .

ويقرر القرآن الكريم أن الله استخلف آحادًا من الناس خصهم برحمته ، وحملهم هدايته إلى الناس ، ابتغاء سعادتهم في الدنيا والآخرة .

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا ﴾ إلخ

كما أنه تعالى استخلف الشعوب والجماعات ، ووكل إليها مثل ما وكل إلى الرسل والهداة من رسالات .

﴿ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾

وتلك سنة الله في الناس منذ خلقهم . يستخلف شعبًا أو جماعة يحملها الرسالة العامة ثم يصطفي منها فردًا يجعله مناط وحيه ورسوله إلى الناس بالهداية . ولن تلغى مسئولية الرسول مسئول الشعوب أو الجماعات .

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

ولقد اتجه القرآن الكريم في خطابه العام بجميع أنواع التشريع إلى الجماعة ، لأن لها الاعتبار الأول في الرعاية والمسئولية ، فناداها بوصف الإنسانية تارة وبوصف الإيمان تارة ،

وخاطبها بإطلاق تارة أخرى «يا أيها الناس . . يا أيها الذين آمنوا . . أقيموا الصلاة . . افعلوا الخير . فاجلدوا . إلخ» .

وبهذا سلط الجماعة على الفرد ، وكلفها بتنفيذ الشرع واختيار طريقة التنفيذ والإشراف على المنفذين من الأفراد . وجعل الحكم أمانة يجب أن تؤدى على الوجه الأكمل . وخدمة عامة . ولم يجعل لغيره بالحكم أي لون من ألوان السيادة العامة ، لأنه وحده السيد المطلق والناس جميعا عبيده . وقطعًا لما عساه يتوهم من سيادة للحاكم على المحكومين ، كما كان شائعًا قبل الإسلام، جعل الحكم حقًا له في الأصل وللأمة المستخلفة بطريق التبعية ، وللخليفة بطريق الوكالة عن الأمة التي نصبته .

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (الآية ٥٨ من سورة النساء) .

وهكذا يجعل الإسلام الحكم حقًا للأمة التي استخلفها في الأرض واستعمرها فيها ، ومنحها وصف السيادة عن هذا الطريق على كل فرد منها ولو كان حاكمًا .

الشورى أساس الحكم :

وزيادة في تأكيد هذا المعنى السامي ، الذي لم يسبق الإسلام إليه ، قرر أن يكون الحكم شورى بين المسلمين ، وأمر الرسول المعصوم أن يشاور المسلمين في أمرهم ، وهو بالطبع لا يشاورهم فيما هو من شأن الوحي والتشريع ، بل في غيره ، وأهم أمر المسلمين مما لادخل للوحي فيه هو أمر الحكم ، وهو موضع الشورى بينهم ، لا يستبد به الحاكم ولو كان رسولاً معصومًا .

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾
﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾

أما ما هو شكل الشورى ؟ وما هو مداها ؟ فقد ترك ذلك للأمة تشكله حسب ما يرى من مصلحتها في كل مكان وزمان ، فالمبدأ ثابت دائم لا رأي لأحد فيه . ولا تملك الأمة

تغييره لأنه تشريع دائم والشكل متغير متطور . للأمة الرأي في تغييره وتطويره برأي ذوي العلم والخبرة من بينها . وهم أولياء أمرها وأهل الحل والعقد فيها .

ولقد كان هذا مفهومًا عند المسلمين الأولين . فهذا الحباب بن المنذر يغير الوضع الحربي للمسلمين في بدر بعد أن علم أن الرسول لم ينزلهم المنازل الأولى التي عدل عنها بوحي . وهذا سعد بن معاذ يمزق ورقة المعاهدة التي عقدها الرسول مع أهل الطائف في غزوة الأحزاب ، بعد مفاوضات طويلة بين الرسول وبينهم ؛ وذلك أن الحصار اشتد على المسلمين وزلزلوا زلزالاً شديدًا ، فرأى عليه الصلاة والسلام أن يصنع شيئًا يخفف به متاعبهم ويفرق جمع الأعداء ، فدخل في مفاوضات مع أهل الطائف ، واتفقوا على أن يرجع الطائفيون ولهم ثلث ثمار المدينة ، فسأل سعد رسول الله عن ذلك وهل للوحي دخل فيه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : إنما هو أمر صنعته لكم رجوت من ورائه الخير ، فأخذ سعد المعاهدة ومزقها – وقد كانت معدة للتوقيع – قائلاً : إنهم لم ينالوا منا ثمرة إلا قرى ، أفبعد أن أعزنا الله بك يأخذون ثلث ثمار المدينة عنوة ؟ لا والله . فلم يغضب الرسول ، وسر بذلك المسلمون جميعًا .

وهذه الحادثة تضع تقليدًا دستوريًا مهما للمسلمين ، هو أن الحاكم – ولو كان رسولاً معصومًا – يجب عليه ألا يستبد بأمر المسلمين ، ولا أن يقطع برأي في شأن مهم ، ولا أن يعقد معاهدة تلزم المسلمين بأي التزام دون مشورتهم وأخذ آرائهم ، فإذا فعل كان للأمة حق إلغاء كل ما استبد به من دونهم ، وتمزيق كل معاهدة لم يكن لهم رأي فيها .

أهل الحل والعقد :

وليضمن الإسلام تنفيذ أوامره أمر أن تكون في الأمة جماعة دائمًا تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وهذه الجماعة تكون غالبًا من أهل العلم والبصر بأمور الدين والدنيا ، ومن كل ذوي رأي وخبرة في ناحية من نواحي الحياة . وكل فرد من المسلمين يرى نفسه أهلاً للقيام بذلك فحق عليه كالصلاة والزكاة والصيام والحج أن يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، والغرض من ذلك ضمان صلاح المسلمين في دينهم ودنياهم ، وتقويم المعوج من أمرهم ، وبهذا يتضامن أفراد الأمة جميعًا في كفالة صوالحها ودفع الشر عنها . وكل فرد هذا شأنه مسئول عن صالح الأمة مسئولية تامة لايخلصه منها إلا أداؤها واحتمال تبعاتها بتبصر وأمانة ، ولا يعفيه من الحساب عليها عذر مهما كان .

ومن هذه المسئولية ينشأ التضامن الجماعي بين الأمة ، وتنشأ مسئولية الجماعة عن أمورها كافة ، وتحمل من تبعة فساد أمرها مثل ما يحتمله الحاكم الذي جرى الفساد على يديه ، إن لم تكن مسئوليتها أكبر وأخطر .

الحاكم وكيل الأمة :

ولهذا كان من حق الأمة أن تختار حكامها ، تعينهم وتعزلهم ، وتراقبهم في كل تصرفاتهم الشخصية والعامة ، فالحاكم يجب أن يكون حميد السيرة ، فإذا ساءت سيرته فللأمة عزله ، ويجب أن يكون عادلاً ، فإذا ظلم فللأمة عزله ، ويتفق الفقهاء على أن (خليفة المسلمين) هو مجرد وكيل عن الأمة يخضع لسلطان موكله في جميع أموره ، وهو مثل أي وكيل لفرد من الأمة في البيع والشراء يخضع لما يخضع له الوكيل الشخصي .

كما يجمعون أن موظفي الدولة الذين يعينهم الخليفة أو يعزلهم لا يعملون بولايته ولاينعزلون بعزله باعتباره الشخصي ، وإنما بولاية الأمة التي وكلته في التولية والعزل ، ولهذا إذا عزل الخليفة لا ينعزل ولاته وقضاته لأنهم يعملون باسم الأمة وفي حق الأمة ، لاباسم الخليفة ولا في خالص حق الخليفة .

خليفة المسلمين فرد عادي :

كما أجمع الفقهاء على أن خليفة المسلمين ورئيس دولتهم ليس إلا فرداً عادياً من الأفراد، لا يمتاز على واحد منهم إلا بثقل مسئوليته كوكيل عنهم ؛ فيؤخذ بالقصاص إذا قتل عمداً ، ويحتمل المغارم التي يلحقها بالناس ، ويلزم برد ما يغتصبه من الأفراد ويجلد بحد الزنى إذا زنى ، وتقطع يده إذا سرق ، والأمة صاحبة الولاية عليه في كل ذلك ، تقيم عليه الحدود وتنفذ عليه الأحكام .

من هنا نفهم لماذا كان القضاة في صدر الإسلام يحكمون على الخلفاء ، ويسوون بينهم وبين خصومهم في مجالس القضاء ، وينفذون عليهم أحكام الله ، لأن هؤلاء القضاة كانوا يفهمون : أن الخليفة الذي يحاكمونه إنما ولاهم بسلطان الأمة . فهم قضاتها لاقضاته .

وإذا عرفنا أن الرسول ﷺ كان يقيد من نفسه ويقول : «من جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه» إلخ ، وأن الراشدين جميعًا كانوا يشترطون لطاعة الناس لهم أن يطيعوا الله في سيرتهم الشخصية وسيرتهم العامة . لأنه (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) .

وإذا كان الفسوق الشخصي في السيرة الخاصة معصية لله ، فالظلم في الرعية ، والجور في الحكم ، وأكل حقوق الناس بالباطل ، وتعطيل حرياتهم من أكبر المعاصي عند الله ، ومن هذا يرون أن كلمة «السلطان ظل الله في الأرض» لا أصل لها في الإسلام .

الحريات العامة وحدود التمتع بها :

وإذا كان الإسلام يقرر الحريات العامة للناس كافة ، حرية العقيدة ، حرية الرأي ، حرية الاستيطان ، حرية التملك ، حرية التنقل ، وكل ما تشتمله كلمة حريات ، ويرى أن إطلاق الحريات في مصلحة الدولة نفسها بقدر ما هو في مصلحة الأفراد ، فإنه يشترط لتمتع كل فرد بحرياته ، ألا يكون ذلك عن طريق الطغيان على حريات الآخرين ، أو عن طريق الإضرار بصالح الدين والدولة ، فإذا اعتدى فرد على حرية فرد آخر ، أو كان تمتعه بحريته مضراً بالدين أو الدولة ، مثل أن يستغل حريته في الطعن على الإسلام ، أو إفشاء أسرار الدولة ، أو التجسس عليها ونقل أخبارها إلى أعدائها أو ما شابه ذلك ، وجب على الدولة أن تقيد حرية ذلك الفرد ، لأن ذلك هو مصلحته ومصلحة الدين والدولة . ويقابل هذا أن الدولة لا تملك حق تقييد الحريات إلا عن هذا الطريق ، فإذا قيدت حرية شخص ما بلا موجب ، فلا طاعة لها عليه .

التنظيم الاقتصادي :

والإسلام أول تشريع عام يربط السياسة بالاقتصاد ، ويترتب على هذا الربط أمن المجتمع واستقراره ، فهو يقرر الزكاة وهي نسبة معلومة على قدر معلوم من الأموال والحيوان والزروع والثمار ، ويقرر الإنفاق المطلق على كل غني حسبما يملي عليه إيمانه وشعوره بالمسئولية لصالح الدين والدولة وأفرادها ، ولم يحدد فيه نسبة خاصة امتحانًا للمؤمنين ، واختباراً لمدى شعورهم بالصالح العام الذي يتطلب غالبًا نفقات تقصر عنها موارد الزكاة المحددة ، فإذا لم ينفق كل ذي سعة من سعته ، فللدولة أن تشرع ما يلزم

الأغنياء بالإنفاق على حاجات الدولة عند اللزوم ، حتى رأينا «أبا ذر» يبالغ في ذلك ، ويحاول أن يحمل معاوية والخليفة عثمان على أن يقراه على أن يمسك الغني قوته ويتصدق بكل ما يزيد عليه ، فأجابه عثمان : دع الناس لما تركه الله إليهم . فإنا لا نكره الناس على الطاعة .

وإلى جانب هذا يأمر بالتصدق تطوعًا عند الاقتضاء ، إذكاءً لروح التكافل والتضامن بين المسلمين .

وبنظرة بسيطة إلى مصارف الزكاة والإنفاق والصدقات ، ترى أن الإسلام يعمل على تمليك كل فقير محروم ، ليشعره بعزة وكرامة ، وليجعل منه لبنة قوية في بناء الدولة ، لا يلبث كثيرًا حتى يكون من المساهمين مع غيره في إنشاء هذه الملكيات الصغيرة الجديدة التي يهدف الإسلام إلى نشرها والإكثار منها في دولته ، حملاً للناس على العمل ، وقضاءً على التعطل ، وإشعارًا لهم بالكرامة ، وإرضاء لما في غرائزهم من حب التملك ، في الوقت الذي يهذب فيه هذه الغرائز ويحد من جموحها في الموسرين .

وإذا ضممت إلى ذلك نظرة إلى تشريع الإسلام في المواريث ، وجدت بوضوح أنه يعمل على الحد من تضخم الثروات بتجزئة التركات ، كما يحد منه بالزكاة ، والإنفاق والصدقة . . . وفي نفس الوقت الذي يهد فيه التضخم في الملكيات والثروات يبني ملكيات صغيرة وثروات صغيرة .

وهو بذلك يعالج أخطر مشاكل البشرية علاجًا ناجعًا حاسمًا باسم الدين الذي لا مناص من التزامه : مشكلة الفقر الذي يدفع إلى الحسد والجريمة ، والتربص بالأغنياء ، ومشكلة الغنى الفاحش الذي يدفع إلى البخل ، والخوف من الفقراء وكراهيتهم ، والعمل على إذلالهم وظلمهم وإضعافهم ، حتى لا يسلبوا ما في يد الأغنياء ، ولو أدى ذلك إلى الجريمة، ومشكلة الغرور القاتل في نفوس الأغنياء ، والتعالي والتجبر بكثرة المال ، ومنعهم من الجنوح إلى الشر في الحفاظ على أموالهم ، والحد من جموح غرائز التملك فيهم ، ومشكلة الشعور بالحرمان عند الفقراء الذي يدفعهم إلى إرضاء غرائز التملك فيهم ولو عن طريق الجريمة والقضاء على الميل إلى الشر فيهم .

وعن طريق هذا العلاج المزدوج المادي والروحي ، يضمن الإسلام في مجتمعه سيادة

المحبة والمودة والرحمة ، كما يضمن أمن المجتمع واستقراره ، وإشاعة السلام فيه وهو أمر لم تزل البشرية جاهدة في بلوغه ، وإدراك أسبابه ، وهيهات هيهات أن تصل إليه إلا عن طريق الإسلام .

خلاصة المبادئ الإسلامية في الحكم :

ومن هذا نخلص إلى المبادئ الآتية :

١ - **السيادة** : لله وحده لأنه الخالق المالك . وهي في كل شعب للشعب نفسه بعد الله الذي استخلفه في وطنه .

٢ - **الحكم** : لله وهو حقه وحق الشعب يباشره نيابة عن الله .

٣ - **الحاكم** : وكيل للأمة وليس له عليها سيادة بل هي سيدته وهو خادمها الأمين .

٤ - **الشورى** : أساس الحكم وكل حكم لا يقوم على الشورى يكون شرعيا .

٥ - **التضامن الاجتماعي** : الأفراد جميعًا يتضامنون في المسئولية عن صوالحهم وصوالح الدين والدولة .

٦ - **الرقابة الشعبية** : حق للأمة أن تراقب حكامها ، وتحاسبهم ، وترسم لهم خطوط تدبير مصالحها ، وتشرف على التنفيذ ، وتعدله حسب مصلحتها .

٧ - **عزل الخليفة** : للأمة عزله إذا جار وظلم وظهر غشمه ولم يرع لناصح أو زاجر فإن رفض العزل عزلته بالقوة ، ولو أدى ذلك إلى نصب الحرب وشهر السلاح في وجهه إذا رأت الأمة ذلك في مصلحتها .

٨ - **أهل الحل والعقد** : هم أهل العلم والرأي والخبرة في كل نواحي النشاط الحيوي بالأمة ، وهم لسانها المعبر عن رضاها وسخطها ، ومن حقهم ترشيح أصلحهم للخلافة ، وتقديمه للأمة لترى رأيها فيه عن رضا واختيار ، دون ضغط أو قهر ، ومن حق كل مسلم أن يكون له رأي في اختيار الخليفة ، وأن يمكن من إعلان رأيه بحرية تامة ، دون أن يضار بسبب رأيه ولو خالف الأغلبية ، وعليه مع هذا أن يلزم الجماعة .

٩ - **هدف الحكم** : سعادة المحكومين ، وتحقيق السلام في الداخل ، والعزة في الخارج ، ونشر السلام .

وبعد فهذه كلمة سريعة عن نظرة الإسلام إلى الحكم وأهدافه أحببت أن أقدمها إلى الأمة في عيد جمهوريتها ، حتى تهتدي بهدى الإسلام في دعم جمهوريتها ، وتركيزها على أسس قوية تضمن لها البقاء والخلود ، وتشيع فيها الأمن والرضا والاستقرار ، وتضمن لجميع بنيها حرياتهم وجميع حقوقهم ، وتدفعهم إلى المجد دفعًا ، وتقربهم إلى الله ورضوانه :

﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

وأسأل الله العلي الكريم السميع القريب أن يكلأنا بعنايته ويرعانا بتوفيقه ، ويهدي أمتنا إلى فقه دينها والتمسك بشريعتها والاستظلال برايتها ، وأن تتبوأ مكانها الذي أراده الله لها ، فتسعد نفسها والبشرية معها ، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات **﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾**.

دليل الكتاب

مقدمة : «باسم الله نستعيذ وباسم الله نبدأ» بقلم فضيلة الإمام الأكبر

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

في شئون المرأة

صفحة

في التعبئة والجهاد

صفحة

صفحة

صفحة

في الأخلاق

صفحة

في رحاب رمضان

أحاديث الحج

صفحة

صفحة

صفحة

في الجماعة والحكم

صفحة

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٨٧٧٨
الترقيم الدولى 2 - 0876 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)